Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 49 - February 2003

مجلة شهرية . العدد التاسع والأربعون . السنة الخامسة . فبراير ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة

العدد التاسع والأربعون

فبراير ٢٠٠٣

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

●● تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ●●

كتّاب العدد:

- أمل فرح .. كاتبة قصص أطفال.
- أنطونى كوردسمان... أستاذ كرسى أرلاى بيرك فى الاستراتيجية بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- حسن أبو طالب .. مساعد مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- خيرى منصور .. كاتب وصحفى من الأردن.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سهير السكرى .. خبيرة سابقة بالأمم المتحدة.
- عبد الرشيد محمودى.. أستاذ الأدب العربى.
- عمرو كمال حمودة .. مدير مركز الفسطاط للدراسات.
- محمد أبو الغار .. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- ميريام رزق الله .. مترجمة.
- هديل غنيم .. صحفية.
- هنرى فورد .. رجل صناعة أمريكى، مؤسس شركة فورد للسيارات.
- يوسف الشريف .. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

كتابان..

قد لا يبدو طبيعياً الاحتفاءُ بكتاب صدر قبل ما يقرب من قرنٍ من الزمان. وقد لا يكون جديدًا الكلامُ - أو إعادة الكلام - عما هو معروفٌ من تفرد اليهودِ بين أقوام العالم أجمع (وقد اختاروا الديانة عَسْفًا؛ جنسيةً وقوميةً وعنصرًا) بالتأثير الحقيقي أو المتوهَّم، على مدى تاريخ يوغلُ في القِدَم بحكم أسبقية الديانة، وعلى مدى جغرافيا تمتد في الآفاق بحكم التيه والشتات.

وقد يكون حقيقياً أن بعضَ هذا التأثير مبالغٌ فيه، بحكم تراكم الحكايا وضبابيةٍ في الثقافة. إلا أن «التخطيطَ للتأثير»، وإن استبعدنا غموض المحافل وأجوائها الدرامية المعتمة، وحكاياتها غير الموثقة، يظل متوقعًا ومقروءًا - بالضرورة - بين سطور عقيدةٍ، أو ثقافة تنصُّ بلا مواربةٍ على تميزِ «شعبٍ مختار». ويحفل قاموسُها بمصطلحاتٍ، ربما كان أكثرها دلالة: «الأغيار».



لا نعرف.. وقد لا يكون بوسعنا أن نعرف إن كان المفكر الفرنسي روجيه جارودي قد قرأ ما كتبه رجل المال - الأمريكي - هنري فورد قبل قرن من الزمان، ولكننا نحسب أن قصة جارودي التي تسببت في نهاية المطاف في اضطهاده وشن حرب صهيونية «عالمية» عليه، تُذكِّر حتما بهذا الكتاب «القديم». كما أن هذا الكتاب الذي اختفى - ربما عن قصد - من على أرفف المكتبات في الولايات المتحدة الأمريكية، ربما هو الذي كان - بحكم السبق والتوقيت - تقديمًا مناسبًا. ليس لبعضٍ من أفكار جارودي ربما، بل لفهم ما تعرض له - وهو من هو - من اضطهاد فكري، في بلده فرنسا - وهي من هي - إذا تحدثنا عن «حرية الفكر والرأي».



في قلب لندن، طرحوا المؤرخ البريطاني المدقق «دافيد ايرفنج» على أرضية مقهى «ريكشو» الذي كان يحتسي فيه قهوته.. وضربوه. كما حكى محمد حسنين هيكل، والذي كان شاهد عيان للحادثة، ولم يكن السبب أن «ايرفنج» كتب عن المحرقة النازية، وإنما كان السبب أنه بحث وتقصَّى.. وشاع أنه أوشك على ملامسة حقائق ربما تكون قد توارت لنصف قرن وسط أضابير مترية، وخلف الخزائن الحديدية للأرشيف السوفيتي. والذي هو بحكم ما جرى على أرض الحرب الثانية يمثل السجل الحقيقي - ربما - للقصة كلها؛ قوائم وتفاصيل.

وفي فرنسا، نجح اليهود في استصدار قانون «Fabius-Gayssot» سنة ١٩٩٠ ليلاحقوا به مفكرًا بحجم جارودي، وفي سنِّه (٩٠ عامًا) وليبنجحوا «بالقانون» في استصدار حكم بمعاقبته وسجنه لجرأته على ما أبداه من آراء في كتابه الشهير «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» (صدرت الطبعة الخامسة لترجمته عن دار الشروق قبل أيام).

وفي الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى بُعد أمتار من تمثال الحرية «الفرنسي النشأة» استخدمت حكومة واشنطن «الفيتو» أكثر من ثلاثين مرة، ضد إرادة جميع الدول الأعضاء في مجلس الأمن في معظم الأحيان، لا لشيء إلا لحماية إسرائيل. حتى من مجرد التنديد بإقدامها على قتل موظفين تابعين للمنظمة الدولية «ذاتها».

كيف حدث ذلك؟

وكيف نجح اليهود في أن يكونوا القوة الأولى «ذات النفوذ» في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية؟ وهل يستمر لهم ذلك في عالم ما بعد تلك الباردة؟

هنري فورد كتب سفره الضخم هذا (أربعة أجزاء وثمانين مقالة في ٩٤٠ صفحة) قبل الحربين. وبالتحديد في سنة ١٩٢٠. وفي أجواء كانت بعيدة - يومها - عن صخب إرهاب مكارثية الاتهام عالي الصوت بـ«اللاسامية». والواقع أنه في ضجيج الصخب - وهو البادي في دنيا الفكر اليوم - يختفي عادة صوت العقل والحكمة. ويكون طبيعيًا، وسط قرع الطبول، أن يهيمن الصوتُ العالي، وأن تُشَوِّشَ أفكارُ البعض.. وأن يؤثر الآخرون الصمتَ أو الابتعاد.

ولأن «فورد» ليست مجرد سيارة أمريكية، يعتبر الكثيرون أن «هنري فورد» ليس مجرد صانع سيارات. بل هو كقليل غيره يمثل «رمزًا» لأمريكا ذاتها. والتي صاغت كينونتها طوال قرن من الزمان من تضافر لمفاهيم كان منها ما هو اقتصادي مثل «الإنتاج الكبير Mass Production من أجل الاستهلاك الواسع Mass Consumption».

ولد هنري فورد عام ١٨٦٣ في بلدة صغيرة «ديربورن فيل». جعل من اسمها لاحقًا اسمًا لجريدته. قبل أن يخصص إحدى صفحاتها لعرض آرائه المحافظة. والتي كان محورًا فيها لفت انتباه الأمريكيين إلى معتقداته الخاصة باليهود والتحذير من أنهم «يخططون للسيطرة» على المال والاقتصاد والنفوذ في المجتمع الجديد.

وعرف عن هنري فورد تدينه الشديد وتمسكه بقيمه المحافظة، حتى أنه ورغم نجاحه في إقامة إمبراطورية صناعية كانت هي الأكبر في يوم من الأيام، إلا أن مخالطيه لم ينظروا إليه أبدًا على أنه «مجرد رأسمالي يسعى إلى تحقيق الربح». وكان لافتًا من ذلك «الرأسمالي الذي لا يدخن ولا يقرب الخمر» اهتمامه بالجانب الأخلاقي في سلوكيات عمال مصانعه. ويذكر له قيامه بخطوة غير مألوفة بين الرأسماليين عندما بادر بتخفيض ساعات العمل في المصنع ورفع أجور العمال دون أن يطلب منه أحد ذلك. كما كان داعية للسلام ومناهضًا للحرب. وكان لديه اعتقاد راسخ بأن اليهود كانوا دائمًا وراء النزاعات والحروب الأوروبية، وهو الأمر الذي لم يكن - كما أوضح دائمًا - يريد له أن ينتقل للعالم الجديد مع المهاجرين «ذوي القبعات السود» عبر الأطلنطي.

وكان أن نشر هنري فورد في جريدته سلسلة مطولة من المقالات يعبر فيها عن أفكاره تلك. وهي الأفكار التي اعتبرت لاحقًا «معادية للسامية». ودلل بها الكثيرون على «الجذور الأمريكية لمعاداة السامية».

ويحكى عن فورد، والذي كانت جريدته قد بدأت في نشر «بروتوكولات حكماء صهيون» سيئة السمعة، أنه قال: «الأهم بالنسبة لنا نحن الأمريكيين ليس من الذي صاغ هذه البروتوكولات.. وما إذا كان مدعيًا أو مجنونًا، فالمهم - والقول لفورد - «أن البرنامج المنشور عام ١٩٠٥ قد تحققت الأجزاء الرئيسية منه خلال عشرين سنة فقط».

وأيًا ما كان الموقف من أفكار الرجل، والتي - للحق - شاركه فيها غيره أيامها. فإن الذي كان أن الرأسمالي الأمريكي والذي يوصف بأنه «أبو صناعة السيارات» تعرض بسبب مواقفه هذه لضغوط شديدة، اضطرته في نهاية المطاف إلى إغلاق جريدته تمامًا. بعد أن كان قد فكر في ترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.. ولهذا متطلباته. وبالفعل قام هاري بنيت مدير عام شركته بالتفاوض مع زعماء اليهود لوقف الحرب التي بدأوها ضد الشركة. على أن يقدم هنري فورد اعتذارًا شخصيًا لليهود يُنشر بتوقيعه في كل الصحف والمجلات الأمريكية.. وقد كان.



يرى البعض إذن في هنري فورد، وهو أحد أهم رموز الحياة الأمريكية الحديثة «معاديًا للسامية». ويرى البعض أنه كان معبرًا عن مزاج عام ساد في أوائل القرن العشرين. وكان من سماته «التحذير» من تغلغل. ومن ثم سيطرة «مفترَضة» لليهود على مقدرات السياسة والاقتصاد والفكر.

وسواء صدق فورد في «بعض» ما ذهب إليه. أو كان مبالغًا أو «متجنيًا»، كما اتهموه، فإن قراءته لا تصح - أو لا تكتمل - اليوم، إلا بقراءة الخريطة «الفعلية» لدوائر النفوذ والقوة في الولايات المتحدة الأمريكية «سيدة العالم الجديد»، وهي الخريطة التي تحاول «سهير السكري» أن ترسم ملامحها (في مقال ننشره لاحقًا لفصل من كتاب فورد) من خلال استعراض تقارير وردت في الموقع الالكتروني لـExecutive Intelligence Report (EIR)».



مات فورد.. واختفى كتابه.. وحوكم جارودي.. ومازال الصراخ عاليًا، موجبًا - في بعض الأحيان - للصمت.

وجهات نظر





محمد حسنين هيكل



أولا:

تعامل مع شبه مستحيلات

■■ مشكلة المشاكل بالنسبة للعالم العربى ـ فى المدى المنظور من المستقبل (عشرة إلى عشرين سنة) ـ وفى مجال السلامة القومية (تحصيل وتحصين أسباب الأمن، والقوة على تنوع مجالاتها) ـ هى العلاقة مع الإمبراطورية الأمريكية وإدارتها باستنارة وكفاءة ـ وسط شبه مستحيلات أربعة، تبدو كأنها أضلاع صندوق مغلق!

■ ضلعه الأول: صعوبة إقامة صداقة حقيقية مع الإمبراطورية الأمريكية، لأن تلك فرصة أفلتت من زمن طويل، ونظريا فإن هذه الفرصة تبدت لها احتمالات ممكنة سنة ١٩٤٥ ـ لكن هذه الاحتمالات تبددت عمليا سنة ١٩٤٨، (بالتحديد بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى).

■ والضلع الثانى: خطورة الدخول فى عداء مطلق مع الإمبراطورية الأمريكية، لأن هذه الدرجة من العداء تصل بحركة الأشياء إلى الصدام العنيف، وذلك تحدٍ لا تستطيع الأمة احتماله، فهو فى هذه اللحظة ـ وللزمن المرئى ـ يفوق طاقتها أو يتعدى مواردها.

■ والضلع الثالث: منزلق الاندفاع إلى النهاية فى مثل هذا العداء بدون حد، لأن ذلك يصل بأصحابه إلى حالة من الكراهية العاجزة، تضرهم بأكثر مما تصيب غيرهم، وتلك وصفة فشل أكثر منها بشرى نجاح.

■ والضلع الرابع: استحالة الصبر إذا تَوَهَّم العرب أن بإمكانهم تجاهل الإمبراطورية الأمريكية وتركها لعوامل الزمن تعريها وتكسر شوكتها، كما حدث لإمبراطوريات سبقتها، لأن وزن الحقائق لا يسمح بمثل هذا التجاهل، فالواقع الراهن له أحكامه وانتظار الظنون فرض يصعب اعتماده للتصرف الآنى مع وجود الإمبراطورية الأمريكية بسطوتها وبأسها فى قلب العالم العربى ـ بطلبه مرة أو بطلبها مرات!

والشاهد أن الأوضاع العربية الآن تحمل أصداء ذلك الأسى المضغوط فى عبارة مأثورة عن الرئيس المكسيكى الأسبق «فارجاس» (أوائل الثلاثينيات) حين سُئِلَ وبلاده غارقة فى المشاكل عن: «حقيقة أزمة المكسيك!» ـ وأطرق الرجل لحظة يفكر ثم قال مكررا السؤال:

«أزمة المكسيك»؟!:

ثم أضاف جوابه:

«أزمتها أنها قريبة جدا بحدودها من الولايات المتحدة ـ بعيدة جدا بروحها عن الله».

وذلك جار على أحوال كل الدول العربية اليوم: «قريبة جدا إلى درجة الالتصاق من الإمبراطورية الأمريكية ـ بعيدة جدا إلى درجة الانفصام عن أى عقل وفعل!

وهكذا فإن علاقة العرب بالولايات المتحدة الأمريكية شبه مأساة إغريقية، ولو تُركت للمصادفات لانتهت بالدم ـ قتلا أو انتحارا للبطل ـ وكلاهما فى الشأن السياسى محظور، لأن مهمة السياسة ـ فى العصور الحديثة ـ وفى كل العصور ـ أن تمنع المأساة، وتربط الصلة بين الإرادة والتاريخ!

ومؤدى ذلك أن العلاقات العربية الأمريكية صراع لا يصح أن يُترك وشأنه ـ وإنما يلزم إدارته.. يُدار بالرشد، مع الوعى بأنه سوف يطول ويشتد ويزداد خشونة وقساوة.



ومع أن السياسة الأمريكية ـ فى هذه اللحظة ـ تبدو أمام العرب عاصفة من العنف الأحمق والجامح ـ إلا أن ذلك لا ينبغى أن يخيف ويغرى بالفرار، لأن واحدا من أهم دروس التاريخ: أن الإمبراطوريات العاتية تكابر حتى تصل إلى الذُرى العالية، ثم تكتشف عند الوصول هناك أن البقاء فادح التكاليف، وعندها تظهر حتمية النزول، لكن الإمبراطوريات تعاند وساعتها يبلغ العنف مداه، وذلك ما حدث لكل الإمبراطوريات سابقا: من الإمبراطورية الرومانية فى العالم القديم ـ إلى الإمبراطوريتين الأكبر فى التاريخ الإسلامى (الأموية والعباسية) فى العصر الوسيط ـ إلى الإمبراطوريات الأوروبية فى العصرين القريب والحديث.

فتلك الإمبراطوريات جميعا بلغت الذُرى زمن الصعود، وكلها بعد ذلك ـ وبسبب أعباء وتكاليف الإمبراطورية ـ اضطرت للنزول على السفوح، وكلها فى حالة الصعود استعانت بالقوة، وكلها فى اتقاء النزول قاومت بالعنف.

وذلك ما يحدث للإمبراطورية الأمريكية، وإن كان فى حالتها يستدعى قدرا أكبر من الحرص والتدقيق، لأن هذه الإمبراطورية فصيلة تختلف عما سبقها.

١ ـ فهذه الإمبراطورية الأمريكية تملك من عوامل القوة الاقتصادية والمالية ما يتفوق على سابقاتها طول التاريخ.

٢ ـ وهذه الإمبراطورية توظف لخدمة أهدافها أقوى وأكبر منجزات التقدم الإنسانى فى كافة المجالات.

٣ ـ وهذه الإمبراطورية عاشت حياتها بعيدة عن أى تهديد مباشر لأرضها وسكانها، وراكمت من أسباب القدرة والثروة مددا وفيرا، وبالتالى قدرا ضخما من المناعة والثقة بالنفس يزيد أحيانا عن الحد.

٤ ـ وهذه الإمبراطورية تملك سطوة فى السلاح لم تتوافر لغيرها من الإمبراطوريات مع وجود توافق حرج بين التكنولوجيا العسكرية والتكنولوجيا المدنية.

فى الضمير الأمريكى

٥ ـ وهذه الإمبراطورية استطاعت إلى جانب سطوة السلاح أن تعرض نوعا من جاذبية النموذج يمهد لتوسعها وانتشارها، بغواية فى أساليب الحياة ـ تعزز وسائط القوة.

٦ ـ وهذه الإمبراطورية تمكنت من أسلوب جديد فى السيطرة، يقوم على نظام شديد الجرأة والجسارة إلى درجة الاقتحام والاختراق لخصوصيات الدول والشعوب، والقدرة على خطف وعى الآخرين وارتهانه ـ أسير إعلام مصور وملون ـ مكتوب وناطق ـ يعطى لنفسه احتكار وضع جدول اهتمامات الرأى العام العالمى وسحب الآخرين وراءه أو جرهم مهرولين.



وحصيلة ذلك أن طاقات هذه الإمبراطورية الأمريكية وأدواتها منحتها خصائص وميزات لم تتح لغيرها من الإمبراطوريات على مسار التاريخ.

لكن الحكمة الصوفية المأثورة القائلة بأنه «عند التمام يبدأ النقصان» ـ تظل صادقة بالعرفان وبالبرهان معا، لأن كل كائن حى له اجل ولهذا الأجل مراحل: طفولة وصبا وشباب وكهولة وشيخوخة وموت. وذلك قانون نافذ حتى على الإمبراطوريات باعتبارها كيانات حية، وعندما يصل عمر أى كائن حى إلى ذروته فإن النزول على الناحية الأخرى من التل حتمى، لأن أى كائن حى عند الذروة يكون قد استعمل إلى أقصى حد كافة مصادره وموارده، وهو حين يستعملها إلى أقصى حد ـ يستهلكها بنفس المقدار.

وبقواعد الحساب فإن إسراف أى كائن حى فى استعمال المصادر والموارد المتوافرة لديه، تلزمه أن يصرف وينزح منها أكثر وأسرع، وذلك مأزق الإفراط فى أى سلوك. وإذا كانت التسمية الشائعة للإمبراطورية الأمريكية أنها تحولت من قوة أعظم (Super Power) ـ إلى قوة كاسحة (Hyper Power) ـ فإن القواميس المعتمدة تورد تعبير (Hyper Power) ـ مترجما إلى اللغة العربية بـ: «القوة المفرطة»!



وأغلب الظن أن الاختبار الحقيقى أمام العرب فى المرحلة الحالية وما بعدها يتعلق بمدى استعدادهم للوقوف جنبا إلى جنب مع قوى عديدة فى العالم يهمها ـ كما يهمهم ـ تجاوزات الإمبراطورية الأمريكية، ويعنيها ـ كما يعنيهم ـ وضع حد لهذه التجاوزات ويشغلها ـ كما يشغلهم ـ إجراء حسابات دقيقة لعناصر الصراع معها لا تجعل الهدف هزيمة القوة الأمريكية، وإنما ترويضها بحيث تخضع لحكم القانون، وذلك يكفى الجميع، تاركين الباقى لحقائق الطبيعة وأحكام التطور.

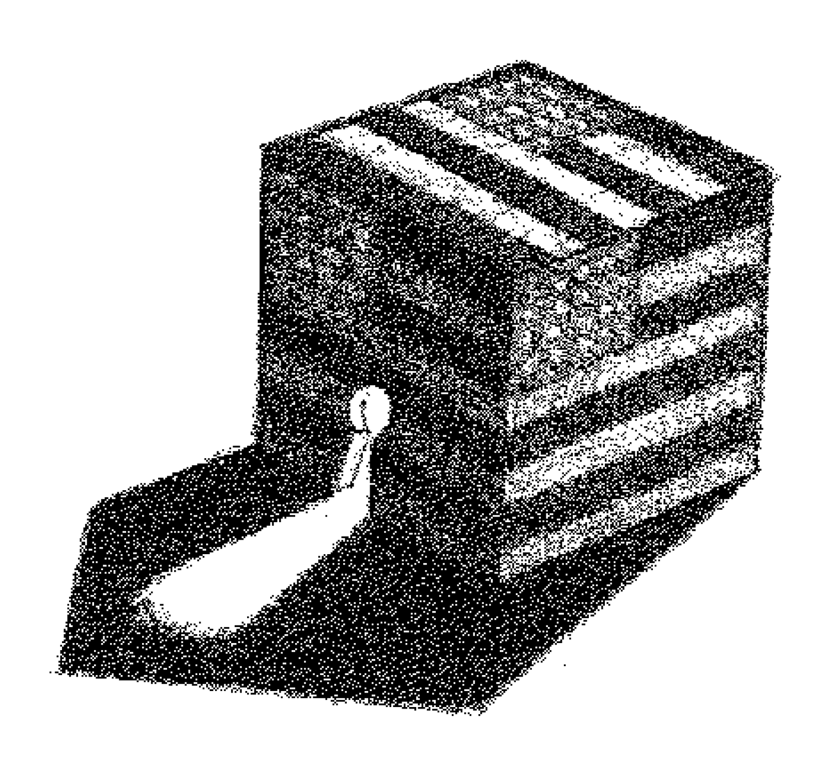
والواقع أن الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ لا يهزمها خصومها فى صراعات مباشرة إلى النهاية ـ وإنما تتولى هى هزيمة نفسها بالإفراط فى استعمال القوة وفى الغرور، إذ يعجز عن مسايرة التطور ويتصور قدرته غالبة إلى الأبد!

ومع أنه مما يطمئن العرب ـ إلى حد ما ـ أنهم ليسوا وحدهم فى مواجهة الإمبراطورية الأمريكية المفرطة ـ إلا أنهم أكثر من غيرهم ـ يحتاجون إلى مهمة تفتيش فى أعماق شخصية وضمير هذه الإمبراطورية، وبحيث لا يكونون ـ كما وقع لهم مرات ـ مهزومين بلا مبرر، وأسرى بلا مقاومة، وضحايا بلا ثمن.

والواقع أن مهمة التفتيش الدقيق فى أعماق الضمير الأمريكى تكتسب أهمية مضافة من حقيقة اختلاف الإمبراطورية الأمريكية عما سبقها من التاريخ، وبحيث لا يصح معها الاكتفاء بما هو ظاهر على المواقع، أو خبئ فى الملفات، وإنما تقتضى مهمة التفتيش فحصا للأصول والجذور ينزل إلى باطن التربة، عندما انبثق أول نبت وتردد أول نفس ـ مع التحفظ بأن عمليات التفتيش تنطوى بالضرورة على تجوال لا تسنده خريطة دقيقة، وإنما تلفته علامات وشواهد يحاول أن يتقصاها، ويعثر فى بعض المحاولات على دليل ولا يعثر فى بعضها الآخر على شىء!



وفى التحضير لأى مهمة تفتيش بهذا الاتساع، فقد يلزم الاتفاق ـ بشكل عام ـ على أن أى إمبراطورية لابد أن تنشأ وتقوم وتستند على دولة ـ وعليه فإن البحث فى الخصوصيات الأولية للدولة الأمريكية كشاف لفهم طبائع الإمبراطورية الأمريكية وتمييز شخصيتها ومقاصدها وسلوكها وممارساتها فى السياسة (وهى التعبير اليومى عن حركة القوة)، ثم إن القصد من هذه العودة إلى البدايات لا يكون هدفه المحاكمة والإدانة، وإنما يكون مطلبه الفهم، لأن مهام التفتيش فى العادة صعبة وحتى إذا كانت لدى المفتشين خيوط يظنونها كافية لتقود خُطاهم إلى ما يبحثون عنه، فإن التفتيش فى أعماق الضمائر أكثر تعقيدا من التفتيش فى الأمكنة وفى المواقع، خصوصا إذا كانت المحاولة فى ضمير إمبراطورية كاسحة (مفرطة فى قوتها)! ■



[١]

■■ وعلى سبيل المثال فإن الولايات المتحدة الأمريكية كما عرفتها الدنيا نشأت مهجرا ومنفى وملاذا لعينات مختلفة ومتناقضة من البشر:

● كانت موجة الهجرة الأولى إلى أمريكا جماعات من المكتشفين والمغامرين ذهبوا يبحثون - بتشجيع ملوك أوربا وأمرائها - عن طريق إلى الشرق يتجنب سيطرة الممالك الإسلامية الحاكمة على طريق البحر الأبيض (ممالك مصر والشام) - أو على طريق الحرير (ممالك الفرس والمغول) إلى قلب آسيا - والذى حدث أن المكتشفين الأول والمغامرين وصلوا إلى الغرب بدلا من الشرق، ثم راح ملوك وأمراء أوربا يسمعون الأعاجيب عن ثروات العالم الجديد: من أرض خصبة، ومياه وفيرة، وسهول خضراء، وجبال من معادن تخطف العيون - أولها الذهب.

● وحين تولى البابوات والكرادلة مراسم إقطاع العالم الجديد - باسم معجزة الرب - إلى ملوك أوربا وأمرائها - كان جنود هؤلاء الملوك يسابقون الريح إلى العالم الأسطورى الجديد حتى لا يسبقهم غيرهم أو ينفرد بالثروة هؤلاء الذين اكتشفوا وغامروا - وكانت تلك هى الهجرة الثانية.

● وجاءت موجة الهجرة الثالثة حين احتاجت الموارد إلى قوة عمل، ووجد الملوك والأمراء الذين لا يريدون شراكة زائدة، أن حلهم الأمثل شحن نزلاء سجونهم إلى العالم الجديد، فهناك فى انتظارهم «أشغال شاقة مؤبدة» ومفيدة فى نفس الوقت، لأنها تنتج غنى متواصلا يتراكم فى خزائن السادة، بدلا من أن تستهلك طعاما فى كسر الأحجار وحمل الأثقال.

وهكذا افرغت سجون إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال (وغيرها) - زحامها فى سفن فردت قلوعها جارية عبر المحيط.

● وكانت الموجة الرابعة طوائف من المضطهدين دينيا وسياسيا فى أوروبا، وقد سمعوا عن أرض مفتوحة بلا نهاية وبلا حدود لا يحكم فيها سلطان المدعين بالعصمة الإلهية أو بالذات الملكية، وقرر هؤلاء المضطهدون أن يتبعوا النجوم الهادية إلى الشواطئ البعيدة، وظنهم أنهم عليها فى أمان مع معتقداتهم وأفكارهم، يجربون إقامة فردوس حلموا به وفشلوا فى تحقيقه حيث ولدوا - والأمل أن العالم البعيد قد يكون بالنسبة لهم ولادة وحياة من جديد!

● ثم توالت موجات الهجرة وتنوعت الأشكال والألوان من كل الأنواع، ولم يمض غير قرن أو قرنين حتى ظهر على مساحة القارة الأمريكية مجتمع فريد، فهو خليط قلق ومتنافر - متحفز ونشيط، تجمعه المجازفة، وأمله فى درجة من الاستقرار أن تتولى

ثانيا: من الدولة - إلى الإمبراطورية

ضرورات الحياة تعليم أهله أسلوبا ما من أساليب العيش المشترك فى عالم مازال مجهولا مترامياً وراء الأفق.



ولم يكن عبور المحيط تلك الأيام (ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر) نزهة سهلة أو رحلة هينة، بل كانت ركوبا للصعب وموعدا مع المشقة لا يقدر عليه غير الأشداء من الناس أبدانا ونفوسا.

ولم يكن فى خيال هؤلاء الأشداء أن ينشئوا وطنا تتساوى فيه حقوق الناس ومسئولياتهم، وإنما كان مطلب كل واحد منهم أن يسبق أو يلحق، ويعوق غيره أو يعطله، وكذلك لأن الجميع متسابقون إلى وضع أيديهم على ما تطوله أطراف أصابعهم. وحين وجدوا أن أمريكا لم تكن أرضا خالية من الناس، فقد أدركوا من أول لحظة أنه إذا كان لهم أن يتملكوا الدنيا الجديدة، فإن «الآخر» (وهو الهندى الأحمر) لابد أن يختفى - كما أن اختفاءه لا يتم إلا بالقضاء عليه تخليصا ماديا ومعنويا للأرض وما عليها!

وهم بالطبع يريدون أن يجمعوا عنه معلومات كافية، لكنهم لا يريدون القُرْب منه نفسيا أو إنسانيا، لأن مثل ذلك القُرْب يضع عليهم قيدا أخلاقيا أو عاطفيا لا يحتاجون إليه.

أى أن السلاح ضرورى كل وقت، والمعلومات كل لحظة لازمة، لأن العدو غريب عنهم بالكامل - منتشر فى الأرض حيث لا يعلمون - خبير بالتضاريس متآلف معها!

....

[ويلاحظ أن هذا السلوك تكرر فى تاريخ الحركة الصهيونية - حين فكر «تيودور هرتزل» فى مشروع دولة يهودية فى فلسطين تكون وطنا قوميا لليهود، ووقتها بعث باثنين من الحاخامات فى رحلة استطلاع تؤكد له ولغيره أنها «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وكانت مفاجأة «هرتزل» حين تلقى من رسوليه إلى فلسطين تلغرافا شهيرا فى تاريخ الحركة الصهيونية يقول:

«العروس جميلة، ولكنها متزوجة فعلاً».

وكان الحل الإسرائيلى مثل الحل الأمريكى: قتل الزوج والاستيلاء على ممتلكاته واغتصاب العروس باحتلال الأرض!].

....

....

وكانت التجربة الأمريكية سبَّاقة فى هذا السلوك، وقد مارسته إلى النهاية - ومازالت تمارسه إلى هذه اللحظة ضد أى عدو حقيقى أو متصور، بل ومارسته على المستوى الفردى موجها إلى أشخاص بذواتهم وصفاتهم. وكان القانون الأمريكى حتى سنة ١٩٧٤ يعطى لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية سلطة إصدار أوامر قتل تنفذها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على من يرى الرئيس أنهم أعداء للولايات المتحدة من زعماء العالم.

وحدث فى أعقاب الضجة الكبرى التى صاحبت سقوط الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» وعزله، أن خلفه الرئيس «جيرالد فورد»، أصدر أمرا رئاسيا يُحَرِّم ممارسة قتل الزعماء السياسيين لدول أجنبية باعتبار ذلك أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية، وظل هذا الأمر ساريا - إلى حد ما! - حتى أصدر الرئيس الأمريكى الحالى «جورج بوش» (الابن) أمرا رئاسيا بالعودة إليه فى حرب أمريكا المقدسة الجارية الآن (ضد الإرهاب)!

....

....

[٢]

وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية وبواكير النشأة والظهور لم تقم على قاعدة شعب بعينه، أو أمة بذاتها، أو عقيدة حلت فى قارة من الأرض وربطت ناسها، بل كانت النشأة والظهور فى إطار مغامرة تاريخية نادرة، وكذلك فإن الإمبراطورية التى قامت عليها هذه الدولة اختلفت عن الإمبراطورية البريطانية أو الإمبراطورية الرومانية، (كلتاهما قامت على شعب بعينه) - كذلك فإنها اختلفت عن الإمبراطورية النمساوية أو الإمبراطورية الروسية، (كلتاهما قامت على أمة بذاتها) - وأيضا فإنها ليست مثل الإمبراطورية الإسلامية أو الإمبراطورية البيزنطية، (كلتاهما قامت على عقيدة حلت وتسيدت).

....

....

[وترتب على ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية لم تستطع فى أى وقت أن تستوعب فكرة الوطنية الموحدة، أو فكرة القومية الجامعة، أو فكرة الرابط الدينى الواسع، وبالتالى فإنها عند تعاملها مع أطراف تستند على مثل هذه الأسس - وقفت أمام حاجز ثقافى منيع أدى بها إلى مشاكل بلغت حد العناد والعداء مع بلدان تمسكت بدواعى الوطنية المستقلة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وحتى فى أوروبا (الصين ومصر وكوبا - وكذلك فرنسا على عهد «ديجول»).

ولأنه كان لابد من وعاء جامع يضم السكان على أرض جديدة، فقد راج ادعاء بأن الوعاء الواحد هو الجسارة - تشهد عليها معجزة الكشف، وسرعة السبق، وروح المغامرة وشدة القوة والبأس، وتغطية ذلك بأن العالم الجديد أرض الميعاد المتحققة فعلا - منحة سماوية للأقوياء والقادرين، وليس لغيرهم من الذين قعدوا فى العوالم القديمة وترددوا فى ركوب الموج العاتى لبحر الظلمات - وبطبائع البشر فقد نشأت فوق ذلك نزعة ادعاء بتميز أمريكى، مسحة التميز عن بقية البشر، فهُم الأكبر والأقوى، وهم الأوفر غنى، ولهذا السبب يحسدهم الآخرون ويحقدون عليهم وذلك لا يهمهم لأن «نعمة الرب» وحدها كافأت جسارتهم وحرمت منها غيرهم!].

....

....

[وفى تعويض مفعول الوطنية أو القومية - فإن مشروع المغامرة الذى تمثل فى هجرة الأقوياء الأشداء، أعطى الأفراد نوعا من مواطنة المصلحة والأمن بديلا عن مواطنة الأرض والبلد، وكانت مواطنة المصلحة والأمن ظاهرة إنسانية مستجدة - بسيطة وشديدة البساطة لأنها لا تريد من عموم مواطنيها أن يشغلوا أنفسهم بما هو أكثر من الضرورى - لحياة تستغرق وقتهم وتستهلك جهدهم، وتبقى لهم فى الشأن العام أحد خيارين من اثنين:

- إما طمأنينة تترك كلا منهم لشاغله العادى (وحده).

- وإما أنها قلق يدعوهم إلى التنبه لخطر لابد أن يخشوه (مجتمعين).

وبناءً عليه فإن مزاج المواطن الأمريكى يعرف نفسه مع حالة الرخاء ويعرف المجموع فى حالة التهديد.

وتلك هى رسالة الخطاب السياسى من كافة الاتجاهات. فهو إما عملية لتشجيع الطمأنينة الفردية وصرفها إلى شواغلها - وإما عملية لإثارة المخاوف لتعبئة الجماعة وإثارتها، أى أنه باستمرار: بيع الحلم أو بيع الخوف، وفى الغالب فإن بيع الطمأنينة تجارة داخلية، وأما بيع الخوف فهو التجارة الخارجية].

....

وقد بلغ من عجز الإمبراطورية الأمريكية عن قبول فكرة القومية، أن رئيسا أمريكيا على مستوى «دوايت أيزنهاور» أتيح له أن يقود أكبر جيش متحالف فى التاريخ لمعركة تحرير أوروبا، لم يستطع أن يتقبل حتى من أقرب الأصدقاء العرب إلى السياسة الأمريكية - فكرة

لم يجلس مفاوض عربي - أو محاور عربي - إزاء نظير له أمريكي وحاول أن يقدم ويشرح له قضية فلسطين إلا وسمع منه طلب أن يعفيه من الخلفيات التاريخية، فهي تفاصيل لم تعد تهم - لأن «الحاضر الراهن» هو النقطة التي نعيشها ونتصرف منها، بصرف النظر عما سبقها وجرى في الزمن قبلها



وجود أمة عربية يحوطها الاتصال الجغرافي والتواصل التاريخي والعمق الثقافي المخزون في اللغة الواحدة، والتجربة المحكومة بمصدر شرعي وقانوني غالب.

[٣]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية - قاعدة الإمبراطورية الأمريكية - قامت على مبدأ طارئ بالكامل لم تعرفه من قبل تجارب نشأة الدول، ففي حين كان مبدأ السابقين هو استمرار الجغرافيا وتدفق التاريخ، فإن التجربة الأمريكية كان مبدؤها الأول بالتصميم هروبا إلى جغرافيا جديدة - وانقطاعا عن تاريخ سبق. والداعي أن المهاجرين الذين قصدوا إلى أمريكا كانوا مطالبين (لدواع إنسانية وعملية) بقطع صلتهم بالأوطان التي وُلدوا فيها وتركوها وراء ظهورهم، والقبول بمخاطرة عبور المحيط وركوب أهواله (وقتها) - ملهوفين على وعد يبشرهم بالثروة الموفورة والفرصة المفتوحة، لأن ذلك هو الأمل الذي ضحى الكل في سبيله بفراق الأهل والوطن، وكذلك كان المبدأ الذي فرض نفسه على الجميع - نسيان الماضي والتخفف من حمولاته، مسلمين أنهم في حاجة إلى ثقافة وأخلاق وقانون من مصادر تناسب ظروفا مختلفة عن أي ظرف نشأت فيه دولة من قبل.

وهنا بدأت في الظهور مجموعة قيم مثيرة ومرنة في مواجهة أحوال عالمها الجديد من رغبة في استكشافه والنفاذ إلى عمقه، والقسوة في التعامل معه، من إدراك أنها لا تستطيع أن تعود إلى حيث كانت قبل أن تعبر المحيط.

وباختصار فإن التاريخ الجديد كان مطلوبا منه أن يكون صفحة بيضاء. وحينما بدأ التدوين فإن «قتل الآخر» كان فاتحة أول سطر، لأن القتل له وظيفة مزدوجة: ضمان الأمن (وذلك إنساني) - وضمان المصلحة (وذلك حق من وجهة نظر أصحابه)!

وكان السطر الثاني في تجربة مجتمعات المهاجرين - اختراع صيغة أخلاق تَدَّعي البراءة - حتى تتخفف من عبء ما اضطرت إليه وتغطي عليه بذرائع وضرورات الاستقرار والتقدم - وبإضافة من الصلوات تمزج المصلحة بأسطورة من نوع ما!

وهنا تكفلت طقوس من نوع «عيد الشكر» وفلسفته بغزل ونسج الغطاء الأخلاقي المطلوب، وتمكنت من صنع وتجهيز أعراف أخلاقية تحتاجها المغامرة الأمريكية، والعبرة فيها «أن الهندي الأحمر ليس مؤمنا بالله بحيث يستحق نعمة هذه القارة وخيرها العميم - كما أن الحكمة الإلهية لم تخلق موارد الطبيعة بهذا السخاء الرباني لكي يهدرها المتخلفون، وتأسيسا عليه فإن الأحق بالموارد هم الأقدر على استغلالها. ومع الوصول بالمقدمات إلى نتائجها فإن اغتصاب الأرض يصبح واجبا على المؤمنين - كما أن استغلالها خير الصلاة - لخالقهم وخالقها!».

ثم جاء دور التشريع، وكان المدخل المفتوح أمامه - قانون المصلحة، يقضي بأن «ما هو نافع لأصحابه - قانوني بالضرورة».

وكذلك أصبحت القوة كاتب النصوص، وبالتالي فإن الأمر الواقع الذي تفرضه هذه القوة: هو الحقيقة والحق في آن واحد، حتى وإن كان عُمر هذا الأمر الواقع سنة أو شهرا - أو أقل!

....

....

[وبهُدى هذه التجربة الثقافية عند البذور والجذور في نشأة وتطور الدولة الأمريكية وكذلك الإمبراطورية التي قامت عليها، فإنه - يمكن فهم المنطق الذي تعتمده السياسة الأمريكية حتى هذه اللحظة، بالذات في الشرق الأوسط.

وعلى هذا المنطق فإنه لم يجلس مُفاوض عربي - أو محاور عربي - إزاء نظير له أمريكي وحاول أن يقدم ويشرح له قضية فلسطين إلا وسمع منه طلب أن يعفيه من الخلفيات التاريخية، فهي تفاصيل لم تعد تهم - لأن «الحاضر الراهن» هو النقطة التي نعيشها ونتصرف منها، بصرف النظر عما سبقها وجرى في الزمن قبلها].

....

....

[وسمعت بنفسي - وأشرت إليه مرة من قبل - طلب نسيان التاريخ من الدكتور «هنري كيسنجر» - وهو أستاذ علوم سياسية ذائع الصيت وسياسي ممارس في نفس الوقت، وكان وقتها يشغل منصبين: وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي لرئيسها - وبرغم هذه المؤهلات فإنه في أول لقاء بيننا في ٧ نوفمبر ١٩٧٣ (داخل جناحه في الدور الثاني عشر بفندق هيلتون النيل) - أراد «كيسنجر» أن يضع «بروتوكول» حوارنا الذي استغرق ساعات، مركزا على طلبين:

■ أرجوك أن تحدثني عن مصر وحدها - ولا تدخل بي إلى أمور تخص بلدانا عربية أخرى غيرها، فذلك الذي تسمونه بالقومية قضية لا أعرف وقائعها!

■ أرجوك أن تحدثني عما نستطيع عمله هذه اللحظة دون عودة إلى ما كان قبل ذلك، ودعني أذكرك بأني عندما وصلت إلى مطار القاهرة أمس قلت للصحفيين الذين كانوا ينتظرونني، بكلمات عربية أجهدت نفسي أياما لأحفظها أن: «ما فات مات».

ومن المدهش أن ذات المنطق وإن بأسلوب أكثر رُقيا ورد في حوار جرى في أثينا مع عدد من أكبر المفكرين في الولايات المتحدة وبينهم «كينيث جالبرايت» الذي قال لي بعد نقاش طال بعد منتصف الليل «تذكر أننا نعود إلى التاريخ لكي نعرف عنه - وليس لكي نتمسك به»، وببساطة فإن المؤدى العملي لهذا المنطق هو التنازل مقدما - ليس عن التاريخ فحسب، وإنما عن القانون أيضا!].

....

....

وعليه فإن أي مفاوض أو محاور عربي مع طرف أمريكي لا يستطيع التأثير عليه أو إقناعه بحجج من نوع «عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة» - أو «بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم». وللإنصاف فإن عددا من المحاورين والمفاوضين الأمريكيين يحسنون قراءة ما هو مكتوب في القرارات الدولية المعنية بهذه المطالب العربية، لكن عائقا من الثقافة المؤسسة لتجربة الدولة الأمريكية - يظهر أمامهم فاصلا: بين النص القانوني المكتوب وبين المقتضى السياسي والعملي لذلك النص.

....

....

[٤]

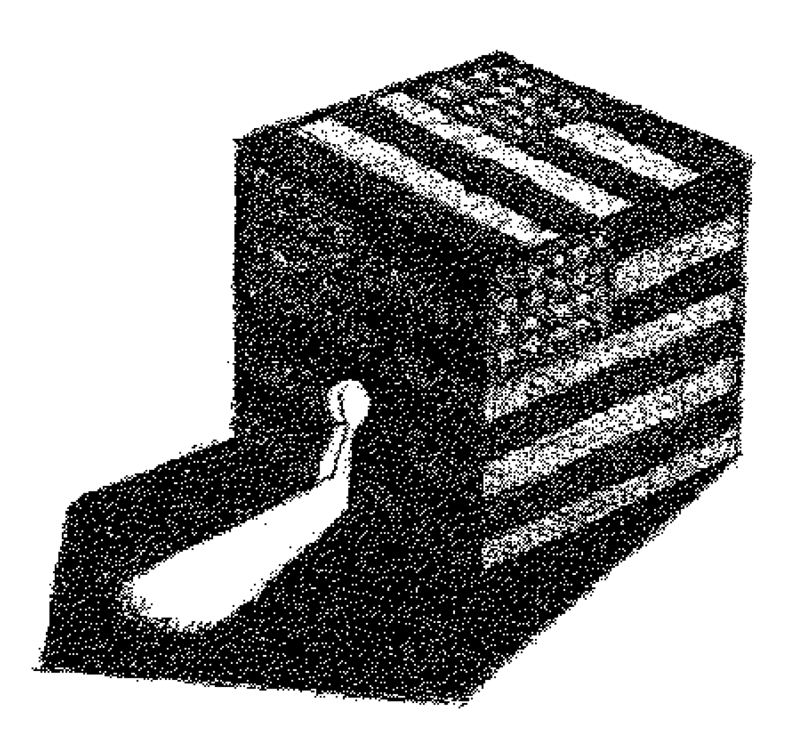
وعلى سبيل المثال فإن المشروع الأمريكي وبسبب اتساع المسافات، وتسابق الناس فُرادى وجماعات نحو عمق القارة في كل الاتجاهات - لم يحدد للدولة مركزا - وإن عرف لها فيما بعد عاصمة سياسية يذهب إليها ممثلو الأقاليم القريبة والبعيدة كي يباشروا مسئوليات «الضروري» و«المشترك» بينهم - دون أن تتحول واشنطن إلى سكن دائم، أو حاضنة مؤثرة، وترتب عليه أن مراكز النفوذ والتأثير بقيت في العمق وفي البعد، ولم تنتقل إلى المركز السياسي للدولة. وذلك أضاف إلى الفردية ورسخها على أي شعور اجتماعي (مع التسليم ببقاء تكتلات بشرية متجانسة اختارت أن تظل قريبة من بعضها لدفع الوحشة واستبقاء الألفة، ومن ذلك ما وقع حين تجاور مهاجرون من أصول فرنسية في ولاية لويزيانا، ومهاجرون من أصول أيرلندية في ولاية «ماساشوزيتس»، ومهاجرون من أصول اسكندنافية في ولايات الشمال حول «مينوسوتا»، ومهاجرون من حوض البحر الأبيض (يونانيون وطليان وأسبان) في الغرب يستعيدون شيئا من مظهر ومذاق حزام الزيتون المتوسطي يؤنسهم في ولاية كاليفورنيا على شاطئ المحيط الهادي).

وفيما عدا هذا التجاور البشري هنا وهناك على مساحة القارة، فإن الفردية ظلت الطابع الرئيسي للمجتمع (ولم تكن هذه الفردية ضررا طول الوقت لأنها أكسبت أصحابها قدرا من التنوع واستقلالية الرأي وضوابط للتوازن والمراجعة)، وفي المجتمع الفردي فإن النجاح أو الفشل هما معيارا الحكم على أي إنسان وعلى مكانته، وفي مجتمعات ناشئة ليست لها على الأرض الجديدة أسلاف أو أنساب - فإن معيار النجاح تعلق بالثروة، وهنا فإن بديل الأمير الأوروبي أصبح المليونير الأمريكي، مع وجود فارق بين إقطاع الأمير وثروة المليونير، فالإقطاع ثابت له مصدر معلوم، والثروة جارية ليس من حق أحد أن يسأل فيها عن مصدر أو مشروعية - لأن النجاح في حد ذاته له قوة القانون، ومواد هذا القانون في الحالة الأمريكية (وبالتحديد في مرحلة التراكم) - تتمثل في حسابات وأرقام وليس في قيود وحدود!

وهنا لم يكن مستغربا أن تكون مقدمة الظهور الأمريكي مع مطلع القرن العشرين، وبداية الخروج الأمريكي إلى العالم، رجالا من طراز «مورجان» (وهو رأس أسرة اعتمدت ثروتها في الأصل على جد من كبار القراصنة خبأ كنزه في إحدى جزر البحر الكاريبي ثم ترك لأسرته خريطة تدل على موقعه، وعندما تمكن الورثة من فك الرموز - أصبح الكنز في العصر الحديث أهم أصول واحد من أكبر البنوك الأمريكية) - ونفس الطراز من الرجال تكرر في «جون روكفللر» (فقد تحصل على غنى أسطوري من إبادة قبائل بأكملها في «فنزويلا» كي يفسح المجال لحقول بترول تأكد له وجودها وصمم على امتلاكها، واستحق أن يوصف بأنه أسال دما على سطح فنزويلا بأكثر مما استخرج من عمق آبارها نفطا) - ونفس الطراز كذلك تكرر في «فاندربيلت» (الذي تسابق مع «مورجان» في مشاريع مد السكك الحديدية تربط أمريكا الشمالية بقضبان من الصلب تشق طريقها صاعقة نافذة في الجبال - مارقة في السهول - مكتسحة لمواطن ما بقي من قبائل الهنود الحُمر، والجيوب المنسية من جماعات المهاجرين - وكان الاعتماد في هذه المشاريع على جحافل وحشود من العبيد شبه عرايا ونصف جياع!) - أو من طراز «دي بونت» (وهو رجل صنع ثروته من تجارة البارود يبيعه أولا لأطراف حرب الاستقلال الأمريكي مع وضد بريطانيا وفرنسا - ثم يبيعه فيما بعد لولايات الشمال والجنوب، أي تلك المطالبة بالوحدة، وتلك الراغبة في الانفصال، وتكدست ثروة الرجل من تجارة البارود لكل الناس - مع كل الناس - وضد كل الناس).

ولعل القصة الشهيرة عن «جون روكفللر» الكبير تلخص فلسفة الرجال الثلاثة وغيرهم، فقد وضع «روكفللر» على مكتبه لوحة كُتبت عليها عبارة مأثورة عن مستعمر أسباني في القرن السابع عشر هو الكونت «هيرناندُو دي سوتو» تحمل نص نداء موجها منه إلى السكان المحليين في كافة مستعمرات أسبانيا في أمريكا اللاتينية يقول لهم:

«عليكم أن تعرفوا من الآن فصاعدا أنكم رعايا لملك أسبانيا ولابد أن تعتنقوا الدين الكاثوليكي (!) - ومن هذه اللحظة أنتم عمال لنا، وزوجاتكم وأولادكم عبيد عندنا، وإذا لم تمتثلوا وقع عليكم العذاب». وكان بين صنوف العذاب التي ابتكرها الكونت «دي سوتو» منشار لأشجار الخشب، أمر



الكونت باستخدامه لنشر أجساد العمال المشاغبين أو الكسالى.

وكان «روكفللر» وأمثاله هم البناة الأول للقوة الإمبراطورية الأمريكية، (مع انه لابد من الاعتراف أن نموذج هؤلاء البناة الكبار للقوة الأمريكية أطلق لدى كل مهاجر أملا بلا حدود في الوعد الأمريكي، وإحساسا بقدرة أى رجل على الانطلاق عاليا وبعيدا).

وكان رئيس الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين «تيودور روزفلت» هو الذى أطلق على هؤلاء البناءين الكبار وصف «البارونات اللصوص» (The Robber Barons)، وكان صادقا في وصفه، فهُم اثنان في واحد - لص وقاطع طرق في الشباب - وبنّاء كبير عند ذروة الحياة - وبارون مع نهاية العمر، تقي متدين وكأنه ينشد الغفران!

....

....

[وفي شهادة لصالح هؤلاء البناة للقوة الأمريكية (أو البارونات اللصوص في وصف «روزفلت») أنهم فيما بعد اشتروا بالدولارات أجمل منجزات الثقافة الأوروبية رسما ونحتا وأثاثا، وكذلك فإنهم لم يصبحوا بارونات فحسب، وإنما تحولوا إلى أرستقراطية - بدون أصول - أقامت لنفسها قلاعا - بدون أسوار - على هيئة مؤسسات تحمل أسماءهم (روكفللر وراند وكارنيجى وغيرهم)، وهى مؤسسات تقوم أحيانا بأعمال طيبة تُماثل ما قام به أمراء الاستنارة في أوروبا، والرجاء أن يصبح الظاهر مستغنيا عن الباطن، كما أن الحاضر يتكفل بإسدال ستائره الذهبية على الماضي، باعتبار أن النجاح وهو هبة الله يحمل معه صك البراءة!].

....

....

[والنجاح لا يضع قانونه فقط وإنما هو كذلك يختصر الإجراءات إلى طلبه. وفي كل القضايا التى تخص الولايات المتحدة فإن واشنطن لا تقيد النجاح بشرط القانون - بما في ذلك القانون الدولي، والمنطق في هذه الحالة أيضا - حاضر ملخصه «أن قواعد القانون الدولي كما شاعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وُضِعَت دون مشاركة الولايات المتحدة وفي غيبتها (أى قبل أن تخرج الدولة الأمريكية إلى الدنيا الواسعة من وراء عُزلة المحيطات) - وعليه فإن تلك المبادئ والقواعد غير مُلزِمة إلا في حالة أن تعترف بها الولايات المتحدة تأسيسا على وجود مصلحة أمريكية، على أنه وحتى مع الاعتراف العام يصبح تطبيق القانون انتقائيا].

....

....

[وقد يصح الانتباه في هذه الملابسات إلى أنه مما يزكي إسرائيل لهذه الدرجة الهائلة من القبول في الولايات المتحدة الأمريكية - أنها تظهر أمام معظم الناس هناك باعتبارها مشروعا ناجحا حقق هدفه بصرف النظر عن الوسائل أعرافا وأخلاقا - أو قانونا].

....

....

[وبهذا المنطق يمكن فهم موقف الإمبراطورية الأمريكية من قضايا الشرعية الدولية، فالأمم المتحدة ناجحة إذا كانت في حوزتها - وفاشلة إذا كانت شرعيتها مسئولية مشتركة بين دول العالم، كما أن الإجراءات لا يصح لها أن تقع أسيرة تضارب تعدد في المستويات أو تعقيد الصياغات.

وبهذه العقلية العملية والواقعية اختزلت الولايات المتحدة سلطة المنظمة الدولية في مجلس الأمن وحده - ثم اختزلت سلطة مجلس الأمن في أعضائه الخمسة الدائمين - ثم اختزلت سلطة الخمسة الدائمين في نيابتها وحدها عن الجميع بواقع القوة «المفرطة»، وعليه - مثلا وفعلا - فإن «ثقافتها القانونية» حرضتها ولم تردها عن «خطف» التقرير الذى قدمه العراق إلى مجلس الأمن عما يملكه - أو كان - من أسلحة الدمار الشامل، وكانت عملية خطف التقرير العراقي - في ظروف طبيعية - جريمة ابتزاز وسرقة بالإكراه تحت أى قانون. وفي وقائعها أن السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة أخذ معه ثلاثة من ضباط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتوجه إلى مكتب رئيس مجلس الأمن (لشهر نوفمبر ٢٠٠٢) وهو سفير «كولومبيا» ثم طلب منه (بناء على اتصال أجراه وزير الخارجية الأمريكي «كولين باول» مع عاصمة بلاده) أن يسلمه هنا والآن - أصل التقرير العراقي الموجه إلى مجلس الأمن. ولم يكن لدى رئيس المجلس خيار غير أن يسلم التقرير إلى المندوب الأمريكي ومرافقيه لكي ينقلوه بأقصى سرعة إلى واشنطن، ولم يسمح صنّاع القرار الأمريكي لبقية الأعضاء الخمسة الدائمين إلا بنسخة منه (مُنَقَّحَة)، وأما بقية أعضاء مجلس الأمن، فلم يحصل أحد منهم إلا على ملخص معلومات (مصنوع يدويا)!

والأمثلة غير ذلك كثيرة أشهرها رفض الولايات المتحدة لأية أحكام صادرة عن محكمة العدل الدولية في «لاهاى»، بما في ذلك الحكم بإدانتها في جريمة الحصار غير المشروع لموانى «نيكاراجوا» أيام نظام الساندينستا، وفوق ذلك حقيقة أن معظم القضايا أمام محكمة العدل الدولية «لاهاى» - مرفوعة ضد الولايات المتحدة الأمريكية!].

....

....

[يتصل بهذه الظاهرة في نشأة الدولة الأمريكية وطبيعة الإمبراطورية المستندة إليها، أن المجتمع الأمريكي في حسابه للنجاح على أساس الأرباح والخسائر - كان مستعدا للتكلفة المادية - مترددا ذات اللحظة إذا كانت التكلفة دما - وذلك موقف يسهل فهمه، لأنه إذا كانت فكرة «المصلحة» هى الجامع المشترك - فإن الدم لا تصبح له ضرورة، بل إنه يتعارض مع العقد الأساسي لشراكة المصلحة، بمعنى أن الشراكة تنظيم يدخل فيه كل طرف بحصة من رأس المال، لكن الدم يظل خارج الحسبة لأنه لا يحتمل الربح والخسارة].

....

....

وذلك يفسر لماذا جاءت الولايات المتحدة متأخرة - وفي بعض الأحيان متأخرة جدا - في كل الحروب الكبرى التى خاضتها، فقد شاركت في الحرب العالمية الأولى مع شتاء سنة ١٩١٧ (مع أن الحرب بدأت صيف سنة ١٩١٤)، أى أن الولايات المتحدة تأخرت عن بدء الحرب ثلاث سنوات ووصلت إلى ميادين القتال مع الهجوم الأخير - وبعد أن سال الدم أنهارا - لكي تكون في مقاعد المنتصرين وقت حساب الأرباح وتحديد نسب توزيعها!

ونفس الشيء تكرر في الحرب العالمية الثانية، فقد بدأت تلك الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩، وشاركت فيها الولايات المتحدة بعد أكثر من سنتين أى في ديسمبر ١٩٤١، وهي لم تدخل وتشارك إلا بعد أن تأكدت أن معركة بريطانيا التى وقفت وحدها أمام العاصفة النازية منذ اليوم الأول - كسرت شوكة الطيران الألماني (في سماء لندن سنة ١٩٤٠) - وأن مدرعات «هتلر» غرزت في وحول الشتاء الروسي (سنة ١٩٤١)، وضلت طريقها في بحور الثلج اللانهائى من «وارسو» إلى «موسكو» وعندها اقتربت الولايات المتحدة وشاركت، مع ملاحظة أنها كانت «طرفا» في الحرب من أول يوم، لكنها من أول يوم فضلت أن يكون إسهامها بالقروض والمساعدات والإعارة والتأجير، حتى تستوفي حمامات الدم مطالبها.

وحتى الآن - هذه اللحظة - وعلى طول مسار الصعود الإمبراطورى الأمريكي، فإن الدم كان الرقم الأصعب في حسابات المشروع، لأن أصحابه قبلوا مخاطره طلبا لمكاسبه، ولم يطلبوها لكي يسقطوا قتلى على الطريق ويكون المكسب من نصيب آخرين!

وحدث في ميادين القتال على مسار الحرب العالمية الثانية ما هو بالفعل مستغرب، ولولا أن الوثائق الأمريكية قاطعة في شأنه، لما كان في مقدور أحد أن يعتمد على حجيته. والحاصل أن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت خطوتها الأولى في ميادين الدم والنار بحملة «تورش» (الشعلة) وهدفها احتلال شمال أفريقيا (المغرب العربي)، لكن النزول الأمريكي على شواطئ المغرب تحت قيادة الجنرال «أيزنهاور» جاء عند تنفيذه شبيها بالسفر السياحي، لأن الجيوش «المعادية» التى تحمي المغرب كانت تابعة لحكومة الماريشال «بيتان في فيشي»، وكان كبار الضباط الفرنسيين في المغرب (مثل الأميرال «دارلان» والجنرال «جيرو» وغيرهما) - يتحينون الفرص للتحلل من الولاء لتلك الحكومة التى وقعت صك الاستسلام لألمانيا النازية، وكان هؤلاء الضباط الفرنسيون الكبار قد احتفظوا لأنفسهم بمسافة عن حكومة «فيشي» قابعين في الانتظار على الشاطئ الجنوبي الغربي من البحر الأبيض، آملين أن يوفر لهم البُعد استقلالية تحرر خياراتهم إذا تغيرت موازين الحرب.

وعندما قامت الأساطيل الأمريكية بعبور المحيط آخر سنة ١٩٤٢ متجهة إلى شطآن المغرب، كانت الجيوش الفرنسية هناك مستعدة للاستقبال، وهكذا فُتحت الموانئ لاستقبال السفن دون مقاومة، وقام عُمالها بإنزال الأسلحة والذخائر بحماسة، وكانت جماهير المرحبين محتشدة، وباقات الزهور جاهزة، بل إن سلطان المغرب «محمد بن يوسف» (محمد الخامس) جاء بنفسه إلى ميناء الدار البيضاء ليكون في انتظار وصول الجنرال «أيزنهاور» وتحيته.

على أن ما هو أغرب جاء مع المعركة الثانية للقوات الأمريكية على مسار الحرب، وهي معركة النزول في صقلية. وكان محتملا في هذه المعركة أن تكون إنزالا حقيقيا (بكل مخاطر عمليات الإنزال من البحر إلى الشاطئ أمام تحصينات قوية ونيران معادية) - لكن البيت الأبيض تحرك لكل الوسائل، وشاغل الرئيس فيه (وهو «فرانكلين روزفلت» وقتها): كيف يمكن تقليل خسائر الإنزال في عملية صقلية بأقل كلفة في الدم، لأن هذه الجزيرة مطلوب منها أن تتسع لنصف مليون جندى أمريكي ثم تتحول إلى منصة قفز لهم على شبه الجزيرة الإيطالية المتدلية في البحر الأدرياتيكي.

وكان البيت الأبيض بنفسه هو الذى تولى رسم ورتب تنفيذ خطة تقليل خسائر الإنزال في صقلية - وكان الرسم والترتيب على شكل مقايضة مباشرة وعملية (دون روادع من أى نوع: ديني - أخلاقي - قانوني أو غيرها!)، شملت ترتيبات لا تتخفى ولا تتستر - وسياقها على النحو التالي:

■ أن «عصابات المافيا» في نيويورك (ذلك الوقت) على اختلاف أسرها هم في الأصل مهاجرون من صقلية.

■ ولعصابات المافيا في هذه الجزيرة أقارب وأنصار واستثمارات كبيرة توفر أرزاقا وتعقد ولاءات، بل وتشترى السلطة المحلية في الجزيرة.

■ ومعنى ذلك أن «عصابات المافيا» قادرة على تسهيل عمليات إنزال القوات الأمريكية القادمة من المغرب إلى صقلية لكي تبدأ غزو إيطاليا (مقدمة لكسر قبضة ألمانيا وكسر رأسها أيضا!).

■ وبناء عليه فقد كلف الرئيس «روزفلت» أحد مساعديه («هارى هوبكنز») أن يعرض على زعماء مافيا نيويورك صفقة مقايضة - قبلت بها عصابات المافيا، واتفقت عليها بأعصاب باردة - وشروطها:

١ - تحصل عصابات المافيا مقدما على ٢٥ مليون دولار «لوضع قطع من الحلوى في أشداق بعض المسئولين في صقلية» - (كذلك سجلت مذكرة للرئيس عن الاتصالات)!

فى كل القضايا التى تخص الولايات المتحدة فإن واشنطن لا تقيد النجاح بشرط القانون - بما فى ذلك القانون الدولى، والمنطق فى هذه الحالة أيضا - حاضر ملخصه ، أن قواعد القانون الدولى كما شاعت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وُضِعَت دون مشاركة الولايات المتحدة وفى غيبتها (أى قبل أن تخرج الدولة الأمريكية إلى الدنيا الواسعة من وراء عُزلة المحيطات). وعليه فإن تلك المبادئ والقواعد غير مُلزمة لها

٢ - تكون للمافيا «حقوق حماية» بعد تحرير إيطاليا، وهذه الحماية يلزم أن تكون إيجابية، بمعنى أنها لا تقتصر على مجرد التغاضي عن نشاط هذه العصابات في أمريكا وحدها، وإنما تضمن لها فوق ذلك وزيادة عليه مشاركة فاعلة ومؤثرة في الشأن الإيطالي.

٣ - تتشاور الجهات الأمريكية المعنية مع زعماء عائلات المافيا في ترتيب «علاقة عمل» مع أجهزة الأمن الأمريكية تكفل كذلك تغطية نشاط عصاباتها في الولايات المتحدة ذاتها، بما في ذلك أن يكف مكتب التحقيقات الفيدرالى عن الوقيعة بين عائلاتها وتحريض بعضها على بعضها الآخر.

وبعد هذه الصفقة - وليس قبلها - وصلت ناقلات الجنود الأمريكية إلى شواطئ صقلية، ونزل الجنرال «باتون» ومدرعاته من البحر إلى البر، وكان زعماء عائلات المافيا وأبناؤهم وزوجاتهم وأطفالهم ورجالهم وأعوانهم في الإدارة المحلية (بل وحتى تلاميذ المدارس) يلوحون بالأعلام الأمريكية، ويهللون لوصول كل قارب من قوارب الإنزال الناقلة للجنود والأسلحة والذخائر.

ومن المدهش أن ذلك الوضع الخاص للمافيا - بناء على اتفاق النزول الأصلي في صقلية - ظل ساريا حتى وقت قريب. والشاهد أن محاكمة السياسي الإيطالى «جوليو أندريوتي» والحكم عليه قبل أسابيع قليلة بالسجن لمدة ٢٢ سنة بتهمة التغطية السياسية على عصابات الجريمة المنظمة - جاء مظهرا من مظاهر نفاذ واستمرار ذلك الاتفاق بين حكومة الولايات المتحدة وبين عصابات المافيا سنة ١٩٤٢، وتاكيدا لسريان مفعوله حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بأكثر من ستين سنة (سنة ٢٠٠٢) - مع ملاحظة أن «أندريوتي» تولى رئاسة الوزارة في إيطاليا ثماني مرات! (ومن الغريب أن «أندريوتي» حينما سمع الحكم عليه بالسجن لمدة اثنتين وعشرين سنة لم يغضب ولم يثر، وإنما ذكَّر الصحفيين بعمره (٨٥ سنة)، وكان تعليقه بعدها بسخرية: «يظهر أن هؤلاء القضاة يتصورون أن عمرى ممتد إلى الأبد!»).

ومن الأغرب في القضايا المنظورة الآن والمتصلة بنزاهة الحكم في عهد رئيس وزراء إيطاليا الحالى «برليسكوني» - أن ظل عصابات المافيا مازال - حتى هذه اللحظة يحوم حول قاعة المحاكمة - يظهر ويختفي ثم يعود إلى الظهور!

....

....

[وفى تجربة الإمبراطورية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وفى مصر بالتحديد، تكررت عروض البيع والشراء أكثر من مرة:

- فى العصر الملكى فى مصر (سنة ١٩٥٠) رغبت الولايات المتحدة في حل قضية اللاجئين الفلسطينيين، وكان أن عرضت على مصر مشروعا لشراء سيناء وتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها، (وكان ذلك العرض على هامش مشروع «كلاب» وهو اسم السياسى الأمريكى الذى كُلف به) - ورفض الملك «فاروق».

- وفي تجربة العصر الجمهورى سنة ١٩٥٥ حاولت الإمبراطورية الأمريكية شراء صلح منفرد بين مصر وإسرائيل بواسطة بعثة قادها «روبرت أندرسون» وزير مالية «أيزنهاور».

وكانت الصفقة خطة سرية عُرفت وقتها باسم الخطة «ألفا»، وبمقتضاها عرض «أندرسون» تَعَهُّدْ أمريكا بالمساعدة في بناء السد العالى مقابل قبول مصر بصُلح منفرد مع إسرائيل، يكون تمهيدا لصلح عربى شامل بين العرب والدولة اليهودية، وكان ذلك بمقتضى خطة سرية أوسع هى الخطة «أوميجا».

ورفض «جمال عبد الناصر».

- وحدث بعدها في العصر الجمهورى أيضا (سنة ١٩٥٦) - وبعد تاميم قناة السويس أن الولايات المتحدة فكرت في حل لقضية التاميم، وبعثت وفدا من رؤساء بعض شركات الملاحة الكبرى يحملون عقدا بمبلغ ٢ بليون دولار نظير الحق في إدارة قناة السويس، ووصل الوفد إلى مصر فعلا وطلب أعضاؤه مقابلة رئيس الجمهورية الذى حولهم إلى نائبه وقتها السيد «عبد اللطيف البغدادى» - وفوجئ «البغدادى» بالعرض مكتوبا ينتظر التوقيع، وابدى دهشته، ورفض العرض حتى دون أن يعود في شانه إلى «جمال عبد الناصر» (الذى أقره على ما تصرف به).

....

....

[وفي وثائق مجلس الأمن القومي الأمريكي سنة ١٩٥٨ سلسلة محاضر عن اجتماعات هذا المجلس طوال شهر أغسطس من تلك السنة التي تمت فيها وحدة مصر وسوريا (فبراير ١٩٥٨) - وقامت فيها الثورة ضد النظام الملكى في العراق (يوليه ١٩٥٨)، ويتضح من هذه المحاضر أن الرئيس «أيزنهاور» راح يطرح سؤالا واحدا على مجلس الأمن القومي، ثم يعود إليه كل جلسة، مستفسرا: «هل ناصر (يقصد «جمال عبد الناصر») رجل المستقبل في الشرق الأوسط؟».

ثم يضيف: «إذا كان كذلك فلابد أن نعقد صفقة معه».

لكن الصفقة كانت مستحيلة لأن «جمال عبد الناصر» كان لديه مشروع مختلف - وكذلك - وهو ظاهر في الوثائق - فإن الرئيس «أيزنهاور» أعطى توجيها لرئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (آلان دالاس وقتها) باغتيال زعيمين: أحدهما هو «جمال عبد الناصر»، والثانى هو «فيدل كاسترو»، أولهما يهدد المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، والثانى يعطى مثلا سيئا لبلدان أمريكا اللاتينية.

وفي جانب منها فإن الصفقة الأمريكية كانت خيارا بين واحد من اثنين: «يقبل الآخرون بما نعرضه أو نقتلهم عندما نقرر»].

....

....

[- وفي تجربة أخيرة يذكرها الصحفي الأمريكي الأشهر «بوب وودوارد» في كتابه الذى ظهر قبل أسابيع عن الصراع الخفي في الإدارة الأمريكية بين معسكر نائب الرئيس «ديك تشيني» ومعسكر وزير الخارجية «كولين باول» - واقعة تستحق الالتفات، لأنها تؤكد مرة أخرى منطق البيع والشراء في ممارسات الإمبراطورية الأمريكية، وكذلك يكشف «وودوارد» أن وكالة المخابرات الأمريكية قامت بتوزيع مبلغ سبعين مليون دولار على زعماء القبائل الأفغانية قبل بدء عمليات التدخل الأمريكي في أفغانستان - وقد حمل مندوبون عن هذه الوكالة أموالها في حقائب تمتلئ كل واحدة منها بثلاثة ملايين دولار نقدا، وتسلقوا الجبال إلى مقار الزعماء القبليين وتعاهدوا وتعاقدوا ودفعوا، وبرغم الصفقة فقد دارت ساقية الدم الأفغاني لتوفير الدم الأمريكي!]

....

....

[يتصل بسياسة توفير الدم الأمريكي أن حروب الإمبراطورية «المفرطة» تبدأ دائما بتمهيد مروع، بطيران عالي الكفاءة، مخيف في قوة نيرانه وفي العادة ضد عدو ضعيف ومكشوف، وهذا النوع من قوة النيران لا يكلف غير ثمن الوقود والذخيرة، فهو أرخص أنواع الحروب على المهاجم وأغلاها على المستهدف به. والمعنى أنه إذا كان الدم الأمريكي هو السلعة النادرة التى تساوى الحرص عليها، فإن حياة الآخرين - رجالا ونساءً وأطفالا - لا تهم، وكذلك لا تهم مرافقهم ومنشآتهم الحيوية، ومدنهم الكبرى ومواقع الحياة عليها].

....

....

ومنطق صفقات البيع والشراء يعبر عن نفسه متناسبا مع السوق - وفيه إبداء الغضب مبررا في بعض الأحيان، وفيه ادعاء الغضب دون تبرير ليكون جواب الآخرين عليه باتقاء شره، وانتظار أن يهرع الآخرون خفافا إلى استرضاء الآلهة المستاءة من نُكران الجميل!.

وفي مثل هذه الأحوال لا يكون أمام بقية الأطراف في العالم غير أحد مخرجين:

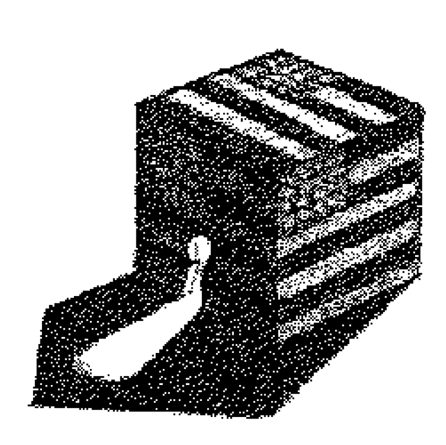
- إما الإذعان لما هو مطلوب منهم لنيل الرضا، حتى وإن اضطروا إلى تسخير قوتهم وثروتهم - مياههم وبحارهم - فكرهم وجهدهم - بحيث تكون كلها في خدمة أى قرار أمريكي بلا مراجعة أو مساءلة.

- وإما التردد أو التلكؤ في الإذعان - وعندها فإن الولايات المتحدة تعطي نفسها حق التصرف منفردة، ومن ثم ترتب لنفسها سلطات تحدد هى حجمها ومداها بقرار منفرد بغير شريك:

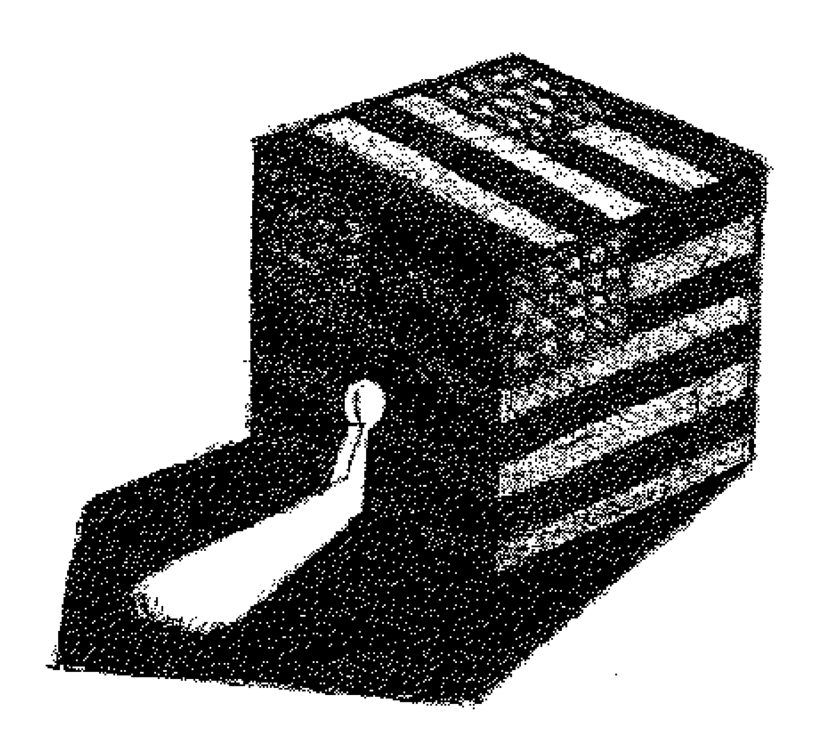
- فمن حقها أن ترد العدوان بمثله (وهو معقول).

- ومن حقها أن تضرب مصادر التهديد (حسب تقديرها وحدها).

☜



إذا كان الدم الأمريكى هو السلعة النادرة التى تساوى الحرص عليها، فإن حياة الآخرين - رجالا ونساءً وأطفالا - لا تهم، وكذلك لا تهم مرافقهم ومنشآتهم الحيوية، ومدنهم الكبرى ومواقع الحياة عليها



ـ ومن حقها أن تردع نوايا الأعداء إذا لمحت نوايا العدوان، ولو تعبيرات على الوجوه (وتلك مسالة معقدة).

ـ وأخيرا فمن حقها أن تختار آخرين تضربهم لكي تؤدب غيرهم، ومعنى ذلك أنها حروب «على المزاج» والضحية هي الجبهات الأسهل غالبا حتى تتم استعراضات العقاب، وترى الجبهات الأصعب وتتعظ بغير تكاليف أو مصاريف!.

....

....

[٥]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية التي قامت عليها الإمبراطورية الأمريكية لم تكن على وِفاق مع فكرة الحدود والسيادة على إقليم معين، لان هذه الدولة لم تنشأ في إطار دستورى وقانوني له مساحته المعترف بها وعلى القواعد التي أقرتها التجارب في نشأة الدول وتاسيسها، والسبب أن حدود الدولة الأمريكية ظلت مفتوحة تتوسع كل يوم بمختلف الطرق والأساليب حتى أن بعض ولايات الاتحاد جرى شراؤها مثل «نيومكسيكو» ومثل «لويزيانا»، وكلاهما عمق الجنوب الأمريكي وأغنى بقاعه.

ونتج عن ذلك أن مفهوم السيادة على إقليم له حدود مرسومة ـ اكتسب سيولة لم تعرفها التجارب من قبل. ففي الظرف الأمريكي وقع استبدال مبدأ السيادة الثابتة ـ بمطلب الاتساع المستمر، وكان الاتساع الأمريكي معتمدا بالدرجة الأولى على الأمن يوفره محيطان: الأطلنطي يحميه إلى درجة العزل الوقائي عن أوربا في الغرب، والباسيفيك يعزله بنفس الطريقة عن آسيا في الشرق.

وبالطبع فإنه اعتمادا على عزلة المحيطين الواسعين ـ ظلت الولايات المتحدة طوال تمددها القارى بعيدة عن أى خطر مباشر على أرضها وسكانها. وفي حين أن عواصم أوروبا من «لندن» إلى «باريس» ـ إلى «برلين» ـ إلى «موسكو» تعرضت للدمار وللغزو، فإن «واشنطن» و«نيويورك» و«لوس أنجلوس» و«سان فرانسسكو» بقيت في الحفظ والصون، وكانت القاعدة أن الولايات المتحدة تذهب إلى الحرب خارج أمريكا ـ لكن الحرب نفسها لا تذهب إلى أمريكا.

....

....

[ولعله من هنا يمكن تقدير حجم العصبية الأمريكية التي قاربت درجة الهستيريا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد كانت تلك أول مرة يتعرض فيها قلب الإمبراطورية (مقر الشركة) للحريق، وتصيبه داخل بيته مفاجاة الدمار في وضح النهار!].

....

....

[٦]

■ وعلى سبيل المثال فإنه في تفكير الشركة ـ حتى وإن اتسعت إلى حجم إمبراطورية ـ ثم كان حساب الأرباح والخسائر هو ما يعول عليه ويقاس به ـ فإن التوسع يجيء مع الأرباح، والانكماش يحل مع الخسائر، بمعنى أن النجاح هو الذى يستحق التعزيز، في حين أن التعثر يستوجب الانسحاب بل يفرضه دون اعتبار لكبرياء أو كرامة.

....

....

[وتجارب الإمبراطورية الأمريكية تشهد أن الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» ـ بعد سلفيه «جون كنيدى» و«ليندون جونسون» ـ قرر الانسحاب من فيتنام الجنوبية رغم فداحة الاستثمارات والتضحيات التى دفعتها الإمبراطورية (الشركة) فى مشروعها الفيتنامى ـ وجاء قراره بعد هجوم «تيت» المشهور فى قلب «سايجون» عاصمة فيتنام الجنوبية، وسقوط مئات من الجنود الأمريكيين فى مبنى القيادة الامريكية (مقر فرع الشركة الإمبراطورية) ـ وعندها قرر الرئيس سحب قواته دون كبرياء أو كرامة، ووصل داعى الانسحاب إلى استعمال طائرات الهليوكوبتر تحط وتقلع بالناجين من سطح مبنى السفارة الأمريكية في عاصمة فيتنام الجنوبية.

ومرة أخرى تكرر نفس المشهد تقريبا عندما هوجم جنود قوات المارينز فى لبنان وقُتل منهم قُرابة أربعمائة فى تفجير واحد، ولم يتردد الرئيس الأمريكى «رونالد ريجان» لحظة فى سحب القوات الأمريكية إلى آخر رجل من لبنان قرارا قبل أن تطلع شمس اليوم التالي.

ونفس الشيء تقريبا وقع زمن الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون»، عندما نزلت القوات الأمريكية فى الصومال وسط حملة دعائية صاخبة ترفع أعلاما إنسانية جليلة، ثم إذا هي فجأة تنسحب في ظرف أسابيع عندما تمكنت قوات زعيم قبلي هو الجنرال «محمد عيديد» ـ من حصار سرية من جنود البحرية الأمريكية في قلب «مقديشيو» وقتلت معظمهم واستعملت رؤوسهم في لعب الكرة وسط الشوارع والأزقة!

في تلك الوقائع وغيرها ـ كان حساب الأرباح والخسائر هو المعيار والحكم، بمعنى أن السياسة الأمريكية لا تستوعب دعاوى الكبرياء أو الكرامة، وإنما يقنعها ـ أو يفرض عليها ـ ما تقول به الحقائق والأرقام، وما إذا كانت تمنحها فرصة التوسع وتعزيز النجاح ـ أو أنها تدعوها لطي الإعلام تجنبا لتعزيز الفشل!].

....

....

يتصل بذلك أن الولايات المتحدة لا تعذب نفسها بلغة العواطف أو حديث الذكريات.

ومع أن قصة الإمبراطوريات على طول التاريخ لم تعرف سخونة الغرام ودفء الحنين ـ إلا أن الإمبراطورية الأمريكية وصلت في إنكار العواطف والذكريات إلى مدى غير مسبوق، فالإمبراطوريات القديمة مثلا تحملت مرات بالتزامات أدبية وأخلاقية، كان ضمنها رعاية حليف أو حماية صديق، حتى أن جيوش «نابليون» وهي تنسحب من مصر بعد غزوتها الفاشلة في مطالع القرن التاسع عشر، اصطحبت معها الجنرال «يعقوب» الذى ساعدها ضد قوى المقاومة الوطنية، واعتبرت فرنسا أنه من العار عليها أن تتخلى عنه.

لكن الإمبراطورية الأمريكية وبدون عناء ثقيل على الضمير ـ تخلت عن أهم رجالها في الشرق الأوسط وهو شاه إيران «محمد رضا بهلوى» ورفضت أن تمنحه حق لاجئ سياسى في أمريكا، بل وكانت على وشك تسليمه إلى الثورة الإيرانية في مقابل الإفراج عن الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم شباب الثورة الإسلامية في السفارة الأمريكية بطهران!].

....

....

[٧]

■ وعلى سبيل المثال فقد قامت تجربة بناء الدولة الأمريكية (أساس الإمبراطورية الجديدة وسندها) ـ فكرا وفعلا وفي جزء كبير منها على جهد آخرين جرى توظيفهم بأسهل الوسائل وأرخص الأثمان، (وذلك بند آخر في منطق حساب الأرباح والخسائر).

ـ ففي مجال الفكر كان أمام الدولة الجديدة مخزون التراث الأدبي والعلمي وحصيلة الفكر السياسي والاقتصادى العالمي بأكمله ـ وهو تراث دفعت فيه ثقافات أخرى دم الرواد من أبنائها، لكن الدولة الأمريكية حصلت عليه من أوله لآخره دون مقابل ـ أو حقوق ملكية علمية أو أدبية أو فكرية. (ومع أن التجربة الأمريكية أبدعت في مجال التطبيق وتفوقت في مجال الإدارة ـ إلا أن المنابع والمناهل والمراجع الأساسية جاءت إلى أمريكا عابرة للمحيط ـ دون عناء ومجانا).

ـ ثم وقع في مجال العمل ما وقع قبله في مجال الفكر، ذلك أن الموارد الهائلة التي كشفت غناها أمام أفواج المهاجرين أكدت لهم من أول نظرة أن استثمارها يفوق طاقة عملهم. وكانت «العبودية هي الحل»، وهنا راحت قوافل السفن تحمل قطعان العبيد من أفريقيا أكداسا (كالبضائع)، يموت نصفهم على مدة الرحلة بسبب مشاق المحيط وقسوته، ثم يصل نصفهم الآخر (بمعجزة) إلى شطآن العالم الجديد مقيدين بالسلاسل معروضين في المزاد (ووثائق الدولة الأمريكية تكشف أنه من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر وصل إلى الأرض الأمريكية ما بين ٢٥ ـ ٣٠ مليون أفريقي أطبقت عليهم قيود العبودية). وكان هؤلاء العبيد بشهادة كل مؤرخ لنمو الاقتصاد الأمريكي ـ هم الذين أنشأوا القاعدة الزراعية الأولى التي نهضت عليها الدولة الأمريكية ـ وهم الذين وقفوا أمام أفران الحديد والصلب ونارها اللافحة عندما توهجت الثورة الصناعية.

وأكثر من ذلك فإن المجندين السود كانوا هم الذين تحملوا باصعب المهام في الحروب الأمريكية كلها وآخرها وأشهرها حرب فيتنام. ورغم أن نسبة السكان من الزنوج في الولايات المتحدة تقارب ١٢٪ من مجموع السكان ـ فإن نسبة قتلاهم في الحرب العالمية الأولى بلغت ٣٨٪، وفي حرب فيتنام بلغت النسبة ٥٠٪، حتى أن «مارتن لوثر كنج» الزعيم الزنجي الأمريكي المشهور (الحاصل على جائزة نوبل للسلام) لم يكن يكف في مواعظه عن الاستشهاد بالتعبير الذى يقول «إن حرب فيتنام كانت مذبحة كُلف فيها الرجل الأسود بقتل الرجل الأصفر («يقصد أهل الشرق الأقصى»).

وانتهت العبودية دون تصفية آثارها، وإنما بقي بعدها تمييز عنصرى مازال حتى اليوم جُرحا غائرا في الوجدان الأمريكي ـ مسكوتا عنه ـ لكنه حتى هذه اللحظة دون علاج، لأن الصمت عن الوجع لا يشفيه.

....

....

[وقد فقد السيناتور «ترنت لوت» عضو مجلس الشيوخ عن ولاية مسيسيبي وزعيم الأغلبية الجمهورية مركزه الرسمى لأنه تحسر على ظرف ضاعت فرصته لتشديد القيود على الزنوج، وكانت خسارة السيناتور «لوت» لمركزه لا ترجع لإساءته إلى مشاعر الأمريكيين السود، وإنما لأنه ذكر ـ أو أعاد التذكير ـ بقضية التمييز العنصرى، وهي قضية لا تزال متفجرة ـ لكن أحدا لا يريد عود ثقاب بالقرب من مستودع البارود].

وكان انعكاس هذه الملابسات على سياسة الإمبراطورية الأمريكية شديد الوطأة، فالإمبراطوريات القديمة حاولت أن تغطي استغلالها للمستعمرات بدعاوى أخلاقية من نوع «مسئولية الرجل الأبيض عن نشر الحضارة»، ومن نوع «إدخال النور إلى قارات الظلام»، ومن نوع «حرية البحار وحرية التجارة»، ومع أن هذه الدعاوى كانت ـ في معظم الأحيان ـ شحنات من نفاق، فإن الدلالة الأهم لها أن «الأقوياء» استشعروا حاجتهم إلى سواتر أخلاقية ـ ولعل هذه السواتر الأخلاقية أحيانا اعتذار تقدمه القوة بين يديها كي تبرر لنفسها وتلتمس الصفح ـ لكنه في النموذج الأمريكي فإن هذه السواتر الأخلاقية بدت زوائد لا تحتاجها المصالح، وبالتالي فإنه لا حاجة إليها، اتكالا على الصمت أن يؤدى واجبه حتى يجيء دور النسيان ليسدل أستاره إلى الأبد!

....

....

عندما نزلت القوات الأمريكية فى الصومال وسط حملة دعائية صاخبة ترفع أعلاما إنسانية جليلة، ثم إذا هى فجأة تنسحب فى ظرف أسابيع عندما تمكنت قوات زعيم قبلى هو الجنرال «محمد عيديد» من حصار سرية من جنود البحرية الأمريكية فى قلب «مقديشيو» وقتلت معظمهم واستعملت رؤوسهم فى لعب الكرة وسط الشوارع والأزقة!



[وعِبْرَة ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية تعرف كيف تأخذ ولا تعرف كيف تعطى - وهى إذا أعطت تحسب الفوائد مركبة - والحساب له قواعد اقتصادية ومالية - وليس قانونية أو أخلاقية، وذلك درس وعاه رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «مناحم بيجن» الذى لم يتوقف لحظة فى الإلحاح على الرئيس «أنور السادات»، مذكرا بأن «أحدا لا يستطيع أن يطلب شيئا مقابل لا شيء»، ولم يكتف «بيجن» بأن تكون مبادرة الرئيس السادات بزيارة القدس دفعة معنوية هائلة سبقت مقدما - وإنما كان حساب «بيجن» أن الأشياء التى يصح فيها الأخذ والعطاء هى المحسوسات الماديات - أرضا تُقاس بالكيلومترات وأحيانا بالأمتار - أو بضائع عينية وأى شيء غير ذلك كلام فى الهواء!].

....

....

[٨]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية - قاعدة الإمبراطورية الأمريكية وسندها - وبمنطق «البضائع» - اعتمدت منطق الشركة حين يزيد إنتاجها ويتسع نشاطها ويتخطى حدود الإقليم وخطوط الماء وحواف القارات ويتطلع إلى السوق البعيدة الواسعة.

فالشركة تعتمد هناك عبر الشواطئ النائية على عملاء لها يقومون بشراء بضائعها دون مسئولية من جانبها - ثم يكون اعتمادها بعد ذلك على وكلاء محليين يمثلون مصالحها حيث تتواجد مقابل نصيب معلوم - ثم هى بعد العملاء والوكلاء المحليين تفتح لنفسها فروعا تتولى التعامل مباشرة فى السوق المحلية - وأخيرا فإنها على استعداد فى بعض المواقع المهمة أن تعطى تراخيص تصنيع محلى لمنتجاتها بمساحة اتساع السوق وإمكانياتها، وقصدها من التراخيص أن تتخذ البضائع لنفسها أعلاما مختلفة عن العلم الأمريكى («علم ملاءمة» Flag of Conveniece) - بقصد زيادة الرواج دون عقد أو تعقيدات!

....

....

[وهنا وفى التجربة الإمبراطورية الأمريكية فى الشرق الأوسط بالذات، فإن علاقة الشركة بالسوق مرت بكل المراحل:

- مرت بمرحلة «المتعامل» الإمبراطورى الكبير (بريطانيا - وفرنسا) - أو الذى كان كبيرا - ثم انتهت الحاجة إليه.

- ومرت بمرحلة الوكيل المحلى أو ما أسمته الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب نظام رجل «البوليس المحلى» وقد ظهر منه فى المنطقة عدد من المرشحين - لكن أوضاع معظمهم كانت قلقة].

....

....

وعند بداية الدخول الأمريكى إلى أسواق الشرق الأوسط، فقد كان المرشحون للوكالة عن الولايات المتحدة - ممثلين أو متعهدين أو شركاء فى التصنيع المحلى - ثلاثة:

- السعودية (باعتبار أن المصلحة الأمريكية الأكبر وهى البترول كامنة تحت رمال صحاريها - وبالتالى فهى الأولى نظريا).

- ومصر (باعتبارها أكبر دولة عربية من ناحية السكان، كما أنها الأسبق علميا وثقافيا (أيامها)، وذلك يعطيها ميزة قد تهيئها للوكالة).

- ثم تركيا (لكونها أكبر وأقوى دولة إسلامية، وإلى جانب ذلك فهى تحمل ذكرى آخر خلافة إسلامية، مما يمهد لها الفرصة تلقائيا).

وبالفعل فإن رئيس مجلس إدارة الشركة (الإمبراطورية الأمريكية) - وعند بداية الاتساع والانتشار بعد الحرب العالمية الثانية - جاء بنفسه إلى المنطقة يقابل المرشحين للوكالة (على كافة الدرجات)، ويجرى لكل منهم بنفسه امتحان قدرات وكشف هيئة. وهكذا فإنه فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥ وفى أعقاب مؤتمر «يالطا» الشهير على شاطئ البحر الأسود - جاء إلى مصر على ظهر الطراد الأمريكى «كوينسى» - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتها «فرانكلين روزفلت».

وألقى الطراد مراسيه وسط البحيرات المرة على مجرى قناة السويس واستقبل «روزفلت» على ظهره رؤساء ثلاث دول إقليمية:

- استقبل الملك «عبد العزيز آل سعود» واستمع إليه طويلا، وبدا له بعض ما سمعه غريبا على «ثقافته»، فالملك «عبد العزيز» يحدثه بلغة زعماء القبائل ويقول له «أنت أخى وكنت أشتاق دائما إلى رؤيتك - وأريد أن يكون تعاملى معك أنت وليس مع غيرك لأنك رجل مبادئ ونصير حقوق، ونحن العرب نتطلع إليك فى طلب العدل والإنصاف من تحكم واستبداد الآخرين (يقصد الإنجليز!)».

(وصحيح أن الملك «عبد العزيز» تحدث فى موضوع المظلومين من الفلسطينيين، وأبدى تخوفه من فتح أبواب ذلك البلد العربى لهجرة يهودية غير محددة، إلا أن لهجة الملك كانت رجاءً ونداءً إلى الرئيس الأمريكى باعتباره «السيد القوى العادل»، وكان الملك السعودى حريصا على التركيز بأنه هو والرئيس الأمريكى «توأمان فى الروح»، وحتى فى الظروف الصحية، لأن كليهما غير قادر على المشى، فالرئيس الأمريكى يجلس على مقعد متحرك بسبب إصابته بشلل الأطفال، وبانى الدولة السعودية وهنت عظام ساقيه فلم تعودا قادرتين على حمل قامته الطويلة، وكذلك أهداه «روزفلت» كرسيا متحركا).

وقد أعجب «روزفلت» بالملك «عبد العزيز»، لكنه نوع من الإعجاب لا يؤهل لاختيار وكيل محلى، فقد كتب «روزفلت» عن لقائه بالملك «عبد العزيز» يقول: «بدا لى الرجل طرازا بدويا من النوع المتوحش النبيل، يذكر بأزمان غابرة وتقاليد تعود إلى عصور لم يعد لها الآن مكان»، (والغريب أن تعبير المتوحش النبيل هو نفس التعبير الذى شاع عن بعض زعماء قبائل الهنود الحُمر الذين أحسنوا الظن فى المهاجر الأمريكى).

- واستقبل «روزفلت» بعد ذلك - ملك مصر «فاروق» - واستمع إليه أكثر من ساعة، ولفت نظره أن الملك جاء إلى مقابلته على ظهر الطراد «كوينسى» يرتدى زى «أميرال أسطول» - ثم وجده يصرف معظم الوقت معه فى الشكوى من الطريقة التى يعامله بها السفير البريطانى فى مصر (اللورد «كيلرن»)، وكيف أنه يقوم بإذلاله داخل مملكته ويستقوى عليه داخل قصره إلى درجة حصاره بالدبابات ليفرض عليه رئيسا للوزراء لا يريده («مصطفى النحاس»).

ولم يعجب «روزفلت» بالملك «فاروق» وتساءل كما كتب فى يومياته - قائلا: «لا أعرف لماذا كان ملك مصر يرتدى زى أميرال أسطول بحرى، وهو لا يملك فى البحر غير يخت للنزهة، إن «فاروق» يذكرنى بجيل من أمراء أوروبا الذين أغرقهم الترف حتى ذابت عندهم إرادة الفعل وأخذتهم المظاهر حتى ضيعت منهم «جوهر الشخصية»!

ولم يحصل فاروق على رخصة التوكيل الأمريكى، (وربما لم يكن قد خطر بباله حتى تلك اللحظة طلب الوكالة، لأنه ظن واهما أن مستقبل مصر سوف يظل مربوطا ببريطانيا، ولم يدرك الملك «فاروق» حجم الدخول الإمبراطورى الأمريكى إلا فى مرحلة لاحقة!).

- ثم استقبل «روزفلت» رئيس جمهورية تركيا «عصمت أينونو»، واستمع إليه، واكتشف أن تركيا الحديثة لها رأى بالغ السوء فى العرب عموما، لأنهم خانوا الخلافة العثمانية وقت الحرب العالمية الأولى وتعلقوا بأذيال الإنجليز، وقد خص الرئيس التركى كلا من السعوديين والهاشميين بالجزء الأكبر من كلامه عن الخيانة العربية التى لا يصح الاعتماد عليها - شريكا، وإنما يصح التعامل معها تابعا، فالعربى - فى رأيه - مهيأ لأن يُقاد ولا يقود، ويُساق بأمر الغالبين ولا يُدعى للتعاون على قدم المساواة معهم.

وأدرك «روزفلت» أن «تركيا» قد تصلح لدور فى البلقان موصول على نحو ما بأوروبا، لكنها لا تنفع وكيلا فى الشرق الأوسط، لأن تاريخها (برغم الإسلام) ليس متوافقا مع مزاج بقية المنطقة وأغلب دولها عربية - بينها وبين تركيا (العثمانية) رواسب وتعقيدات مازالت حية فى ذاكرة الطرفين.

وكذلك لم ينجح «عصمت أينونو» فى اختبار الوكالة.

ومن المدهش أنه منذ ذلك الوقت وحتى هذه اللحظة لم يتغير رأى الولايات المتحدة كثيرا فى تقييم المرشحين من المتعهدين بين أهل المنطقة!

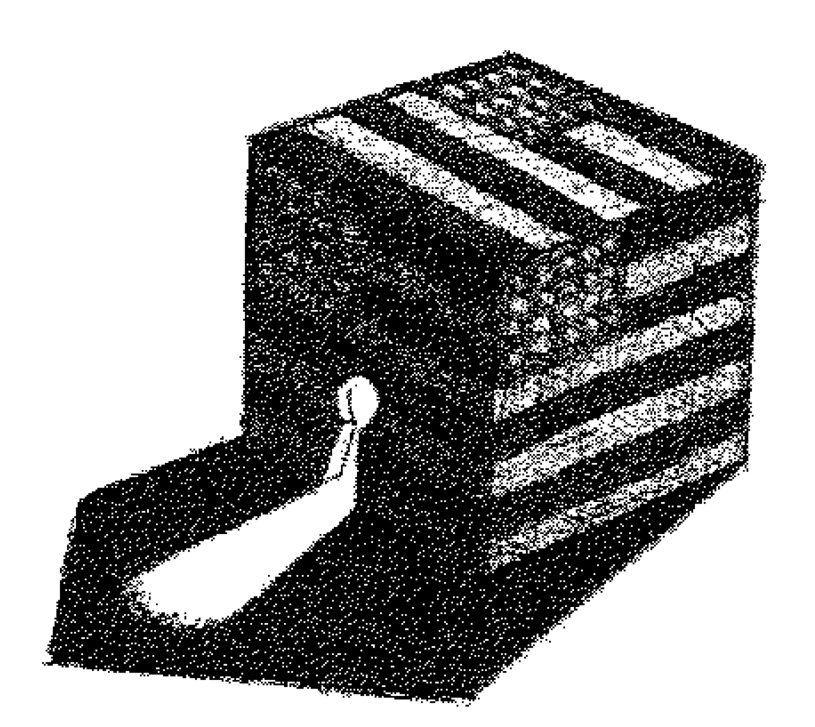
....

....

[وعندما قامت إسرائيل فإن بحث (الشركة) الإمبراطورية

لم يكتف «بيجن» بأن تكون مبادرة الرئيس السادات بزيارة القدس دفعة معنوية هائلة سبقت مقدما - وإنما كان حساب «بيجن» أن الأشياء التى يصح فيها الأخذ والعطاء هى المحسوسات الماديات - أرضا تقاس بالكيلومترات وأحيانا بالأمتار - أو بضائع عينية وأى شيء غير ذلك كلام فى الهواء!

مهمة تفتيش في الضمير الأمريكي



الأمريكية عن وكيل لها في الشرق الأوسط وجد جواب سؤاله.

● فإسرائيل وكيل مؤتمن لأنه من خارج «الأسرة» - غريب عن المنطقة - دينا وعرقا - ثقافة ومشروعا.

● وإسرائيل لهذه الأسباب شريك موثوق فيه لأنه يحتاج إلى الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) بمقدار حاجتها إليه، وذلك يزكي ولاءه ويضمنه.

● وهذا الوكيل الإسرائيلي المؤتمن نجح في إثبات وجوده وإشهار دوره في المنطقة سنة ١٩٤٨، وقدم مؤهلات لها الحظ الأوفر من القبول، فقد بين بالتجربة أنه طرف قوى وناجح - قادر أن يتصرف بالمنع والردع، تاركا للإمبراطورية الأمريكية تحصيل الأصول والأرباح، مقابل أن ترد له نسبته المقررة فيها].

....

....

[ومع الأيام والتجارب - خصوصا في عهد الرئيس «ليندون جونسون» في ستينيات القرن العشرين - جرى تجديد وتأكيد التعاقد الإسرائيلي مع الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) في المنطقة، وكان مما يزكي الوكيل الجديد عوامل تمتد إلى عمق التجربة في الحالة الإسرائيلية كما في التجربة الأمريكية، لأن الثقافة تلعب دورها في إقامة التحالفات بين المجتمعات (والمجتمع الإسرائيلي - كما هو حال المجتمع الأمريكي - هجرة وعنف واستيطان وتعامل بالقوة يملك عناصرها وأولها السلاح)، وكذلك وجهت الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) عهدة التصنيع الإقليمي - والتوزيع - في الشرق الأوسط إلى إسرائيل، ولم تغير رأيها حتى هذه اللحظة.

....

....

[وعلى عشاء في بيت «كاترين جراهام» صاحبة جريدة الواشنطن بوست الأسطورية، وخلال حوار طويل على مائدتها مع «زبجنيو برجنيسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» - قال لي الرجل بصراحة: إذا أردتم اعتبار علاقة إسرائيل الخاصة بالولايات المتحدة نوعا من الانحياز، فهذا حقكم، ولكن دعنا لا نخدع أنفسنا وننسى لحظة، أن قوة إسرائيل العسكرية (تقليدية ونووية) كانت هي التي ساقت الرئيس «السادات» إلى رحلته «التاريخية» للقدس، كما أن هذه القوة هي التي أوصلت العرب جميعا - رضًى أو غصبًا - إلى أبواب البيت الأبيض، طالبين وراجين (وفي قول سياسي عربي من الجيل الجديد - متوسلين (أو متسولين)!

ومن هذه الحقيقة سابقا (وقبل تأثير اللوبي اليهودي في واشنطن لاحقا) تظل إسرائيل هي الوكيل المعتمد والوحيد للإمبراطورية الأمريكية، يضاف إلى كفاءتها أنها الوكيل المأمون الذي يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه، خصوصا أن الدولة اليهودية تبدو أمام الولايات المتحدة (على الأقل) دولة «ديمقراطية» يمكن التنبؤ بقرارها «غدا» لأنه قرار «مؤسسات» وليس قرار أفراد يكونون اليوم في السلطة - وخارجها غدا!].

....

....

وفي المحصلة فإنه لا يحق للعرب أن يظهروا في العتاب والشكوى، أو الاستغراب والألم، لأن واشنطن تسمع لإسرائيل قبل غيرها، وتقبل منها أكثر مما تقبل من أي طرف آخر.

ومن المفارقات أن الدكتور «هنري كيسنجر» وزير خارجية الولايات المتحدة على عهد الرئيس «نيكسون» وبفكر الوكالة والوكيل، أبدى سعادته الغامرة بقرار الرئيس «السادات» - سنة ١٩٧٢ - طرد الخبراء السوفييت من مصر، لكنه في نفس الوقت استغربه - بلا ثمن - ولم يكتم شعوره بل عبر عنه مدهوشا وسائلا «لماذا لم يتصل بنا مسبقا ويطلب مقابلا له؟».

وعندما قام الرئيس السادات بزيارته إلى القدس - سنة ١٩٧٧ - فإن محاضر مجلس الأمن القومي الأمريكي تكشف عن سؤال ظل الرئيس «كارتر» يردده «ما الذي دفعه إلى هذه الخطوة - وعلى أي شيء أجرى حساباته لنتائجها؟».

....

....

[والغريب أن تلك كانت أسئلة «مناحم بيجن» رئيس وزراء إسرائيل في نفس اللحظة حتى وهو يصافح الرئيس «السادات» على أرض مطار بن جوريون قرب القدس!].

....

....

وكان «كارتر» مُعجبا بالرئيس «السادات» مشجعا لذهابه إلى إسرائيل ما دامت المسئولية عليه وليست على غيره، وظل «كارتر» مأخوذا بالزيارة ليومين، ثم أفاق يحاول مع غيره إنجاحها، لكنه وغيره من أقطاب إدارته اعتبروها مخاطرة فردية تحولت إلى أمر واقع يكسر عقدة مستعصية وعليهم الآن أن يهرولوا لتدعيمها، لكنهم ببساطة لم يجدوا فيها ما يبرر إعطاء وكالات لأنها تَصَرُّف يصعب أن تُبنى عليه سياسات قابلة للاستمرار، وتقوم عليه علاقات تمكن من الاستمرار في السوق!

....

....

[٩]

■ وعلى سبيل المثال فإنه إذا جرى اتخاذ مثال الشركة في نشأة الدولة الأمريكية - فإن ممارسات أي شركة لا تعرف مرجعية لأي تعاقد غير فائدته المباشرة هذه اللحظة بالنسبة لها، فإذا قلت الفائدة فالتملص من روح الالتزام تمهيدا لإسقاط بنوده!

....

....

[وبهذه المرجعية - قبل غيرها - يمكن حساب الطريقة التي خرجت بها الإمبراطورية الأمريكية من معاهدات الحفاظ على البيئة (معاهدة كيوتو)، و(اتفاقية) حظر استخدام الأسلحة البيولوجية، و(ميثاق) الحساب عن الجرائم الدولية (اتفاقية روما). وكانت الولايات المتحدة (ومعها الصومال فقط) هي التي رفضت التوقيع على ميثاق الأمم المتحدة بشأن حقوق الأطفال - وهي التي تحفظت وعرقلت اتفاقية العقاب عن جرائم الحرب، ومع أنها الدولة التي صاغت اتفاقيات «التجارة العادلة» مع أوروبا التي تمنع الدعم الحكومي للسلع تأكيدا لحرية المنافسة الاقتصادية - فقد كانت هي التي خالفتها بدعم هائل لمنتجات الزراعة والصناعة، وفيها عقود بيع الطائرات الأمريكية!

ومن غرائب ما يرويه الرئيس الحالي لمجلس العموم البريطاني «روبن كوك» عندما كان وزيرا للخارجية (في الفترة الانتخابية الأولى من رئاسة «توني بلير» للوزارة) أنه جلس يتفاوض مع وزيرة الخارجية الأمريكية «مادلين أولبرايت» وقتها، والموضوع هو «كوسوفو» ثم وقع خلاف بين الاثنين في إحدى النقط، وقال وزير الخارجية البريطاني لزميلته الأمريكية:

«مادلين... إن خبراءنا القانونيين لا يوافقون على ما تطلبون منا»!

وردت «مادلين أولبرايت» وفق رواية وزير الخارجية البريطاني:

«روبن... إذن فقد جاء الوقت لكي تغيروا مجموعة خبرائكم القانونيين»!!].

....

....

[وكذلك يضيع كل جهد عربي في التذكير بشيء يسمونه «الشرعية الدولية» - ذلك أن النصوص التي تجرى في أحاديثهم تنزل على آذان صماء، أو تصل إليها أصداء الحروف والألفاظ - إذا وصلت - بنبرات تطن في فضاء أزمنة تجاوزتها الحقائق وتركتها وراءها!

والمعنى أن التأثير الحقيقي على فكر الولايات المتحدة لا تكفله مرجعية يقول بها نص، وإنما لابد لها من حقائق قوة - تسندها إرادة تستطيع!].

....

....

[١٠]

■ وعلى سبيل المثال في تجربة الدولة الأمريكية (وبعدها إمبراطوريتها)، أنها الدولة الأولى في العالم التي بدأت فور إنشائها تدعو أبناء الشعوب والأمم للهجرة إليها، وكان هدفها بالطبع جذب حجم من السكان يكفل تلبية المطلوب الإنساني لاستغلال الموارد الطبيعية.

ويستحق الالتفات أن الولايات المتحدة دعت أنفع العناصر في أكثر مجتمعات الدنيا تقدما كي يهرعوا عبر المحيط قاصدين إليها، وهنا فقد كان لابد للدعوة أن تستعير لنفسها كل محسنات الغواية، ومن الطبيعي أن تكون أسطورة الفرص اللامحدودة مغناطيسا يجذب. ولأن أمريكا كانت بالفعل غنية، فإن «أسطورة الفرص» المتاحة كان لها أساس ينتظر من يعبئه ويعلبه ويبيعه للباحثين عن فرص ليس لها حد وليس عليها قيد!

وكان النداء الأمريكي إلى الباحثين عن الفرص في الدنيا - أكبر ممارسة لفنون الإعلان عرفتها العصور. وبهذه الممارسة ظهرت قوة الشعار يختزل رسالته في كلمتين أو ثلاث تتحول معها الرسالة - بالتكرار - إلى رمز يستدعي كل المخزون فيه، ويذكر به سريعا وشاملا: فأمريكا هي «أرض الفرص» - وهي «أرض الوفرة» - وهي «قصة النجاح المتاح لكل الناس».

....

....

[وفي هذا الإطار فإن السياسة الأمريكية اعتمدت قوة الشعار ونقلته من مجال الدعوة للهجرة إلى مجالات السياسة والتجارة من نوع: «معنا أو مع الإرهاب»! (وذلك ليس خيارا حقيقيا مقنعا) - ومن نوع «نزع سلاح الدمار الشامل من يد «صدام حسين» » (وهي أول من يعرف أنه لم يبق في العراق من هذه الأسلحة شيء) - ومن نوع «التصدي لـ «إمبراطورية الشر» (وكانت تعني الاتحاد السوفيتي في وقت كان الاتحاد السوفيتي يتآكل ويتداعى أمام نظر الجميع) - ومن نوع «محور الشر» في تعبير الرئيس «بوش»، ويقصد حصار العراق وإيران وكوريا الشمالية (دون أن يكون هناك رابط أو وجه شبه بين البلدان الثلاثة)].

....

....

وهنا فإنه يتعين على كل الأطراف المتعاملة مع الولايات المتحدة أن تهتم بالشعار الذي تطلقه واشنطن في اتجاهها، لأن الشعار في حد ذاته يملك بالتكرار قوة إقناع لها قابلية أن تتحول إلى سياسة، ومن عملية إعلان تبدو سطحية ومؤقتة إلى عنصر ضغط يمارس سلطانه بقدرة ذاتية فيه على الحركة أو التحريك.

والحقيقة أن الشعارات تكتسب بما ينصب فيها بالتكرار كل يوم - خطورة كرة ثلج تبدأ صغيرة ثم تزيد عليها وهي تتدحرج على السفوح طاقة تدمير لم تكن متصورة عندما سُمع صوتها في البداية. ■

....

....

إن السياسة الأمريكية اعتمدت قوة الشعار ونقلته من مجال الدعوة للهجرة إلى مجالات السياسة والتجارة من نوع: «معنا أو مع الإرهاب»! ـ ومن نوع «نزع سلاح الدمار الشامل من يد «صدام حسين»» ومن نوع «التصدى لـ «إمبراطورية الشر» ومن نوع «محور الشر» فى تعبير الرئيس «بوش»، يقصد حصار العراق وإيران وكوريا الشمالية (دون أن يكون هناك رابط أو وجه شبه بين البلدان الثلاثة)



ثالثا: الحرب فى تاريخ أمريكا

■■ يبقى أن الدولة الأمريكية التى قامت على العنف علمت الإمبراطورية الأمريكية درس عمرها الذى حفظته عن ظهر قلب ولم تسمح لنفسها أن تنساه لحظة.

● قامت الدولة بالعنف، ولم يكن ممكنا أن تقوم بغيره، لأن الأخلاق والقوانين لا تقنع أحدا بأن يتخلى عن أرضه وموطنه وحياته للغرباء، إلا إذا كان مرغما ومقهورا.

● وبالحرب حقق «جورج واشنطن» استقلال أمريكا، وبالحرب حقق «إبراهام لينكولن» وحدة الولايات الأمريكية شمالا وجنوبا وصنع الدولة الأمريكية الحديثة، وبالحرب أيضا قامت هذه الدولة بتأمين جوارها القريب للقفز عبر المحيطات إلى الأبعد والأوسع.

● ولم تحدث حرب عالمية فى القرن العشرين إلا وكانت الولايات المتحدة طرفا فيها، وذلك ما جرى فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية التى جاءت نهايتها وقد سجلت الولايات المتحدة أنها القوة الوحيدة التى استعملت السلاح النووى، ثم إنها استعملته دون ضرورة ماسة إليه، لأن هزيمة اليابان كانت تحققت أمامها بالسلاح التقليدى وإلى حد دفع اليابان لطلب شروط وقف القتال عن طريق المفوضية اليابانية فى برن (عاصمة سويسرا) ـ وبرغم ذلك فإن «ترومان» أمر باستخدام السلاح النووى لتجربته عمليا من ناحية، ومن ناحية أخرى لإنذار الاتحاد السوفيتى مبكرا قبل أن تحدثه نفسه بإمكانية أن يكون ندا للولايات المتحدة متوهما بانتصاراته الكبرى ضد جيوش هتلر! ـ ومن ناحية ثالثة فقد وقع استعمال السلاح النووى كإعلان للعالم بأن عهدا إمبراطوريا جديدا قد أطل على الدنيا، وهذا العهد الإمبراطورى أمريكى ولا ينبغى لأحد أن يجهل هذه الحقيقة أو يتجاهلها!



وفى فترة ما بين الحربين العالميتين كانت الولايات المتحدة تقاتل للسيطرة على مقدرات وثروات أمريكا اللاتينية. وفى فترة ما سُمى بالحرب الباردة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لم تتوقف عجلة الحرب الأمريكية، بل إن كل رئيس أمريكى كان يعرف أن مكانته بين ساسة بلاده وفى تاريخها لا تكتمل إلا بأن تكون له «حربه الخاصة»، يثبت فيها «رجولته» ويظهر للشعب الأمريكى أنه وفى لعقيدته، وممثل لفحولة هذه العقيدة، وقادر على الاختبار: نار أمريكية ودم الآخرين!

وطوال نصف قرن وأكثر من الحرب الباردة خاض رؤساء الولايات المتحدة حروبهم الساخنة مباشرة أو بالوساطة، إما عن طريق تحريض أطراف أخرى على الاقتتال فيما بينها، وإما بحروب الانقلاب من الداخل على نظم تقاوم المسعى الإمبراطورى الأمريكى.

■ كان الرئيس «هارى ترومان» هو ساكن البيت الأبيض عندما عصفت رياح الحرب الباردة (١٩٤٥ ـ ١٩٥٢)، لكن الرئيس «ترومان» خاض حروبا ساخنة فى كوريا وفى اليونان وفى إيران، ومن المفارقات أن قائده العسكرى لإدارة هذه الحروب الثلاثة كان رجلا واحدا هو الجنرال «فان فليت».

■ وكان خلف «ترومان» على رئاسة الولايات المتحدة عسكريا من الأصل والأساس هو الجنرال «دوايت أيزنهاور»، ولم تتوقف حروب «أيزنهاور» بخلعه لزى العسكرى وارتدائه لزى مدنى ليدخل به البيت الأبيض.

وكان «أيزنهاور» يقول إنه كرجل عسكرى عرف مأساة الحرب وأدرك أفضلية تجنبها، لكن «أيزنهاور» لم يجنح إلى السلم، وإنما اختار أسلوب الانقلاب من الداخل بالمخابرات وبالسلاح.

وذلك حدث ضد حكومة «أربينز» فى جواتيمالا، وضد حكومة الدكتور «مصدق» فى إيران، وكان ذلك هو العهد الذهبى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مزج المؤامرة مع السلاح لضرب حركات التحرر والثورة فى العالم الثالث خصوصا.

....

....

[وأتذكر حوارا فى تلك الفترة مع زعيم الهند ورئيس وزرائها الكبير «جواهر لال نهرو»، وقد جرى هذا الحوار فى بيت الزعيم الهندى وسط دلهى سنة ١٩٥٨ ـ وكان «نهرو» فى فترة نقاهة بعد أزمة كلى داهمته بينما كان يتحدث أمام مجلس النواب الهندى، لكنه ـ كعادته ـ حتى وهو على فراش المرض يريد أن يسمع ويريد أن يحاور، ويومها فى حجرة نومه ومعنا مساعده الأقرب إليه وقتها «كريشنا مينون» قال «نهرو»:

«نحن محاصرون فى منافسة بين قوتين أمريكيتين، واحدة شريرة غامضة تُستعمل للتطويع والإخضاع (هى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية)، والثانية براقة وخدّاعة (تستعمل للغواية والإغراء) وهى هوليوود (عاصمة السينما)».

ومشكلتنا أنه إذا فازت وكالة المخابرات المركزية أصبحت حريتنا مهددة، وإذا فازت هوليوود تصبح ثقافتنا مهددة.

وتدخل «كريشنا مينون» يُذكّر «نهرو»: بأنه نسى قوة ثالثة لابد أن تدخل فى المعادلة وهى قوة «البنتاجون» (وزارة الدفاع)، ورد «نهرو» قائلا لمينون: «لك حق ـ ولكنى أظن أن فقدان الناس لحريتهم وفقدانهم لثقافتهم يمكن أن يتم بغير صخب، وحتى دون أن يشعروا ـ لكن السلاح عندما يتحرك يثير ضجة تُنَبّه الآخرين إلى أنهم معرضين لتهديد النار!].

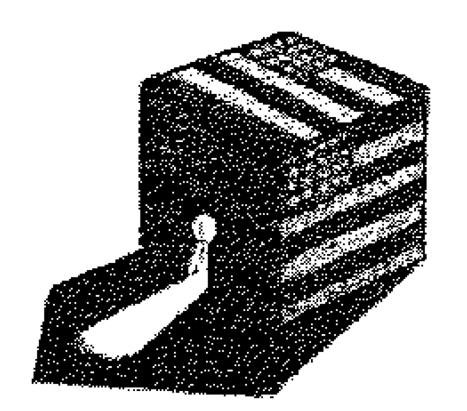
....

....

بعد «أيزنهاور» جاء «جون كنيدى» رئيسا للولايات المتحدة ينشر على العالم وعدا بحدود جديدة ـ لكن «جون كنيدى» كان عليه أن «يثبت رجولته» بالحرب وقد فعلها فى خليج الخنازير ضد كوبا ـ وعندما لم تنجح حربه فى تحقيق هدفها، كان عليه أن ينتظر فرصة أخرى واتته حين أصدر الأمر بقتل رئيس فيتنام الجنوبية «نجوديم»، ثم مارس هذه الرجولة مرة أخرى سنة ١٩٦٣ بفرض حصار حول الكاريبى كاد أن يتسبب فى حرب نووية مع الاتحاد السوفيتى، ثم مارسه مرة ثالثة بفتح باب التدخل الأمريكى الواسع فى حرب فيتنام.

وكانت رئاسة «ليندون جونسون» تكملة لرئاسة «جون كنيدى»، وكذلك واصل حرب فيتنام إلى النهاية، وقد استغرقته بغير حد، وتمادى فيها إلى درجة الهجوم على فيتنام الشمالية مباشرة، وبرر هجومه بحجج ثبت للكونجرس الأمريكى أنها ملفقة، وكان ضمنها الزعم بوقوع اعتداء على الأسطول الأمريكى فى خليج تونكين الذى ثبت أنه كان عملية «مصنوعة» لتبرير الهجوم، ثم كانت ذروة حروب «جونسون» الخفية دوره فى «هندسة» حرب الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧ لصالح إسرائيل وضد العرب وأولهم مصر.

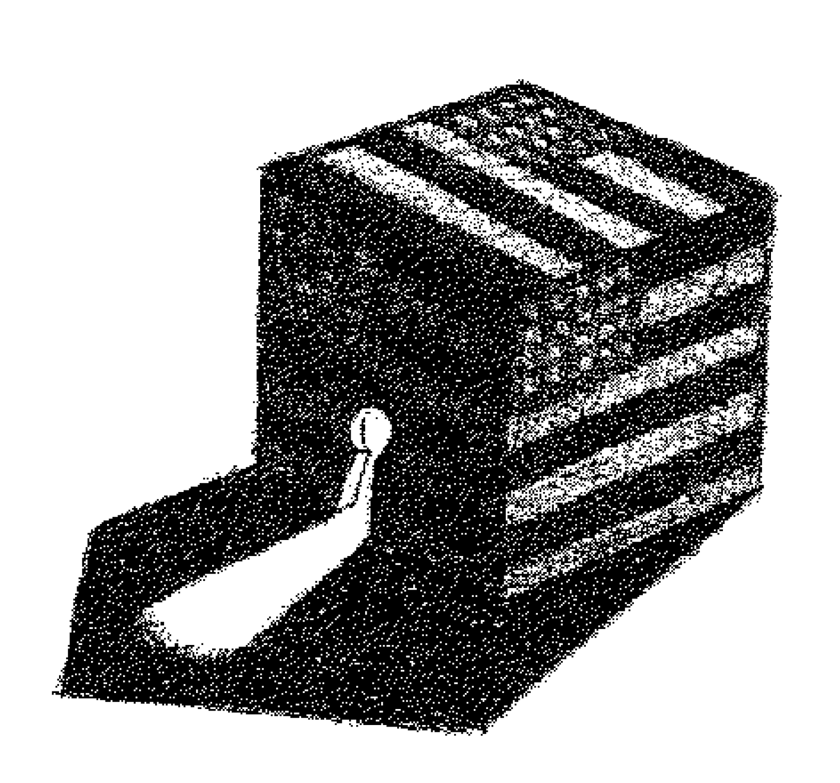
وبعد «جونسون» جاء «ريتشارد نيكسون» ليمد دائرة الحرب من فيتنام إلى ما حولها فى لاوس وكمبوديا، وفى عهد «نيكسون» دخلت الولايات المتحدة بمشورة وزير خارجيته



كان «أيزنهاور» يقول إنه كرجل عسكرى عرف مأساة الحرب وأدرك أفضلية تجنبها، لكن «أيزنهاور» لم يجنح إلى السلم، وإنما اختار أسلوب الانقلاب من الداخل بالمخابرات وبالسلاح ذلك حدث ضد حكومة «أربينز» فى جواتيمالا، وضد حكومة الدكتور «مصدق» فى إيران



مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى



إن الحرب هى الوسيلة التى تكتشف بها الأمم موارد قوتها الداخلية قبل قوتها الخارجية، والبوتقة التى تتبلور فيها شخصيتها وتتجسد إرادتها - ثم هى بعد ذلك أوثق رباط لوحدتها وأقوى حافظ لتماسكها، وهنا فليس مصادفة أن الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب الباردة شاركت فى سبعين نزاعا مسلحا وتدخلت بالعنف فى الشأن الداخلى لأكثر من مائة دولة!

«هنرى كيسنجر» حروبا وانقلابات من الداخل فى أفريقيا، وفى أمريكا اللاتينية بالذات ضد حكومة شيلى الشرعية وضمنها قتل رئيسها «الليندى» على سلم قصره - وكانت الذروة فيما يتعلق بالعرب دور «نيكسون» و«كيسنجر» فى معركة العرب سنة ١٩٧٣ إلى الدرجة التى دعت الرئيس «السادات» فى ذلك الوقت إلى قبول وقف إطلاق النار قائلا فى رسالة مكتوبة بخط يده إلى شريكه الرئيس «حافظ الأسد»: «إننى أستطيع أن أحارب إسرائيل - لكنى لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة!».



وكان «جيمى كارتر» وهو الرئيس الأمريكى الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل للسلام - بادئ حرب مسلحة ضد الاتحاد السوفيتى بالوساطة فى أفغانستان، وكان هو ومعه مستشاره للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» ورئيس مخابراته «ستانسفيلد تيرنر» أصحاب نظرية «تسليح الإسلام» لكى يطارد ويطرد الإلحاد الشيوعى فى أفغانستان، وكان ذلك الإسلام المسلح والمدرب بواسطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هو نفسه انتقام العناية الإلهية من المسلمين الذين رضوا أن ينخرطوا فى صفوفه تحت رايات الجهاد المزعوم، فالمقاتلون المسلمون الذين حملوا السلاح أصبحوا هم الإرهابيون الذين تطاردهم الولايات المتحدة مستعينة بحكوماتهم - حتى جاء وقت وجدت فيه هذه الحكومات نفسها أنها مطاردة مثل شبابها الذين غرر بهم - لا فارق بين شباب وقع في الخديعة و«جاهد» - وحكومات وقعت في الفخ وأطاعت!

والداعى أن الحروب تهتم بالغايات وتحافظ عليها، أما الوسائل فهى تؤدى دورها وتستنفد صلاحيتها ولا يعود لها نفع سواء كانت الأدوات من حديد وصلب أو ناس من لحم ودم!

بعد «كارتر» جاء الرئيس «رونالد ريجان» وقد أثبت هو الآخر رجولته فى الحرب، وكانت حروب الرجل على مثال ثقافته - سينمائية: فقد بدأ برواية هزلية فى بنما ضد الجنرال «نورييجا» - ثم أعقبها بواحدة تليفزيونية على ساحة جزر «أجرانادا» وكانت تلك معركة قصد بها أن تغطى على مهانة الانسحاب المفاجئ من لبنان بعد نسف مقر قيادة قوات جنود البحرية «المارينز» على حافة بيروت.

وبعد «ريجان» جاء «بوش» الأب ليثبت رجولته بحرب الخليج الأولى، وبالنزول فى آخر أيام رئاسته على شواطئ الصومال دون قتال فى غزوة شنها باسم الإنسانية، ثم هجرها خلفه «بيل كلينتون» الذى أثبت «رجولته» بالسلاح هو الآخر، على شكل موجات من قذائف الصواريخ موجهة إلى «بغداد» وإلى «الخرطوم» وإلى بيت يسكنه «أسامة بن لادن» فى ضواحى قندهار!

ثم جاء الدور أخيرا على «بوش» الابن ليثبت «رجولته»، وكما هو لازم - بصخب السلاح وحشد القوات والتهديد بالحرب.

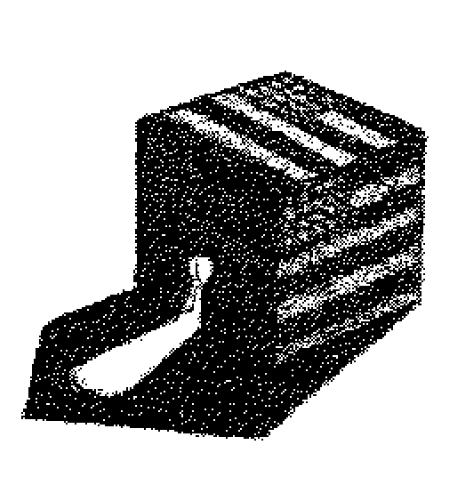
والحقيقة أنها بعد الدولة المحاربة - إمبراطورية تحمل السلاح وتعتبره وسيلتها المجربة لتحقيق مطالبها، وأكثر من ذلك فهى تعتبر - وعلى لسان الرئيس «جورج بوش» نفسه - «أن الحرب هى الوسيلة التى تكتشف بها الأمم موارد قوتها الداخلية قبل قوتها الخارجية، والبوتقة التى تتبلور فيها شخصيتها وتتجسد إرادتها - ثم هى بعد ذلك أوثق رباط لوحدتها وأقوى حافظ لتماسكها»، وهنا فليس مصادفة أن الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب الباردة شاركت فى سبعين نزاعا مسلحا وتدخلت بالعنف فى الشأن الداخلى لأكثر من مائة دولة!

ومع ذلك فإن بعض العرب المحبين للسلام لا يملون تكرار القول بأن «الحروب لم تقدم حلا لأى مشكلة فى التاريخ»، وهو قول فيه بعض الصحة، لكن فيه الكثير مما يحتاج إلى المراجعة.

فليس فى وظيفة الحروب حل المشاكل، ولكن فى وظيفة الحروب أن تكسر الحواجز وتفتح الأبواب وتضبط موازين القوة بما يتيح للسياسة أن تؤدى دورها وتحقق هدفها بتصميم وعزم!



وكانت هذه مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى صعبة بالطبيعة - ناقصة بالضرورة - لكنها فى كل الأحوال محاولة مُلِحَّة ومتكررة فى طلب الفهم أو بعض منه، لعل وعسى يتمكن من يقدر من العرب على الوقوف مع آخرين فى العالم - أن يجعلوا الفهم مقدمة لهدف لا يتزيد فى مطلبه عن مجرد نزع غرور إمبراطورى يتبدى تصميمه على أن يكون خاتمة إمبراطوريات التاريخ إلى الأبد - أو طوال القرن الحادى والعشرين على الأقل! ■



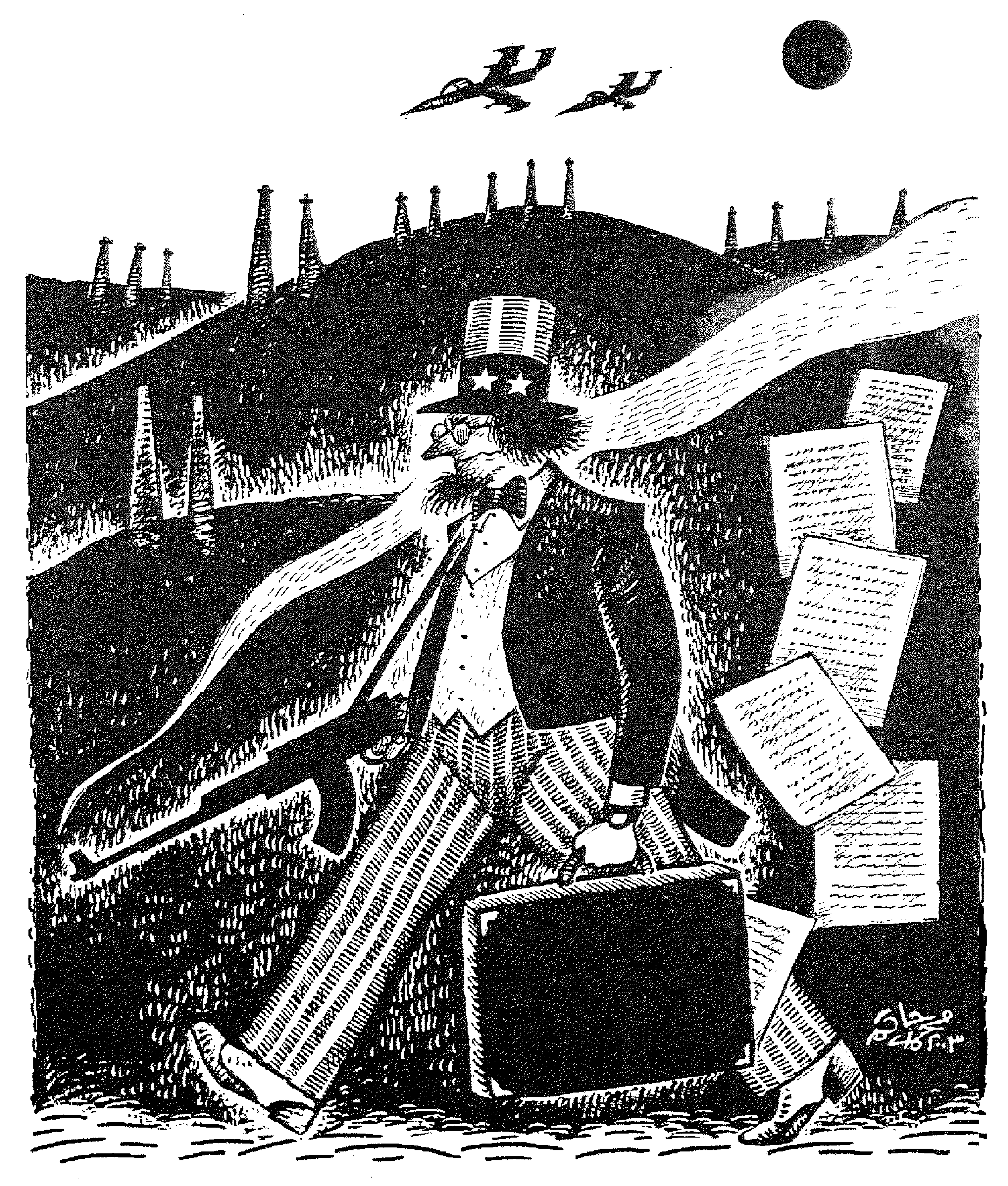

العولمة
حوارات لقرن جديد
حوارات تؤسس بها دار الفكر
لمشروع ثقافي نهضوي
المجتمع المدني
العلمانية
الديمقراطية
مفكرو العالم العربي
من المغرب و المشرق
المرأة
رغم تباعد اتجاهاتهم الفكرية
أزمة الأقليات
يلتقون في محاولة جادة
لكسر طوق العزلة
حقوق الإنسان
ولمعالجة أهم
القضايا الفكرية المعاصرة
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
ص.ب ٩٦٢ هاتف ٢٢٣٩٧١٧_٢٢١١١٦٦ دمشق- سورية
Http://www.fikr.com - E-mail:info@fikr.com

السياسة الأمريكية لتشكيل

أعراض الحرب والسلام!

■■ غالبًا ما يكون أصعب جزء في الحرب هو السلام، وهذا هو الأرجح ما سيكون عليه الحال إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب مع العراق. وليست المسألة هي أن الولايات المتحدة لا تخطط لمثل هذه الأمور الطارئة، بل هي نوعية ذلك التخطيط الذي نحن بصدده. فما لم يتحسن تحسنًا حادًا فقد يصبح إلى حد بعيد جرحًا أحدثته أمريكا في نفسها بناء على سلسلة من «المتلازمات» الناجمة عن الجهل، وعن تجاهل حاجات العراق، وعن المركزية العرقية.

وليست الولايات المتحدة مضطرة لأن تعاني من «أعراض حرب وسلام العراق». وتتوالى في الظهور الدراسات وجهود التخطيط الجيدة، غير أنها الاستثناء وليست القاعدة، وهي تجرى في إطار مسعى يفتقر إلى التنسيق ويتسم بالتردد. وكثيرًا جدًا ما نتعجل جهود التخطيط التي نقوم بها دون بذل الجهود الواجبة للتعويض عن نقص المعلومات. والنتيجة هي أن الحال قد ينتهي بالمخططين داخل الحكومة الأمريكية وخارجها إلى إحداث ضرر يفوق ما يتحقق من نفع، وإلى وضع أساس لاحتكاكات ومشاكل خطيرة بعد الحرب. والواقع أن نمطًا لأعراض حرب وسلام العراق قد بدأ في الظهور وهو على قدر شديد من الإزعاج.



١ - عرض: «نحن نعرف ما نقوم به»

من أهم الأشياء التي يجب علينا القيام بها هو الاعتراف بمستوانا من الجهل وعدم اليقين. فالكثير جدًا من «الخبراء» الذين يضعون تخطيط ما بعد الحرب (أ) لم تسبق لهم الإقامة في العراق بالقدر الذي يجعل لديهم معرفة عملية بذلك البلد، كما أنهم (ب) ركزوا جهودهم على التهديد مادامت لديهم معلومات استخبارية قليلة بشأن الطريقة التي تعمل بها حكومته والمجتمع المدني والاقتصاد فيه.

وبشكل أكثر عمومية، ليس لدى الحكومة الأمريكية الكثير من المعلومات التي تحتاجها لوضع خطة سلام مفصلة. وإذا نظرنا للوراء على مدى العشر سنوات الأخيرة، لوجدنا بصورة عامة أننا لم نبحث بجدية ما كان يجري داخل العراق من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، ولم نجمع معلومات عن التغير الاجتماعي والاقتصادي والطريقة التي تعمل بها الحكومة، ولم نحلل تلك المعلومات التحليل الأمين.

لابد أن ننشط في تجميع كل المنفيين، ورجال الأعمال الأصدقاء وغيرهم ممن يعملون في العراق، والأمم المتحدة، والمنظمات غير الحكومية، وغيرهم ممن لديهم علم بشأن طريقة العمل اليومي الخاص بأنشطة حكومية قومية وإقليمية ومحلية بعينها في العراق. وينبغي أن نبحث البُنى والمؤسسات العراقية الموجودة بالفعل بحثًا مفصلاً لمعرفة ما يحتاج

أنطـــــونى كوردســـمان

إلى تغيير وما يمكن أن نبنى عليه. ولا بد أن ندرس بعناية الدستور والنظام القانونى العراقى كى نرى ما يمكن أن يكون أساسًا مشروعًا للتغيير.

والأهم من ذلك هو أنه ينبغى أن تكون لدينا فرق مستعدة لمسح الوضع فى كل منطقة وبلدة ومحافظة ونحن نتقدم. وينبغى أن تكون لدينا فرق مستعدة للعمل مع القيادات المحلية ثم مع قيادات المحافظات. وينبغى أن تكون لدينا فرق على استعداد للعمل مع الوزارات فى حكومة العراق بمجرد وصولنا إلى بغداد. وينبغى أن نعترف باننا فى واقع الأمر لا نعرف ما نقوم به، ولن يمكننا معرفته إلى أن يتكشف أمر الحرب. وينبغى أن نكون مرنين ونؤكد على إجراء مسح لما تحتاجه العراق بعد الحرب بمشاركة العراقيين داخل العراق على المستوى المحلى والإقليمى والقومى، بحيث نجرى أدنى قدر ممكن من التغييرات على طريقة عمل البُنى المدنية.

٢. عــــــرض: «الولايات المتحدة باعتبارها محررًا»

قد ينظرون إلينا على أننا محرِّرون، وربما لا نحظى بهذه النظرة. فنحن نتعامل مع طغيان شديد التعقيد طال امده، و لا نعرف فى واقع الأمر كيف سيكون رد فعل ذلك الشعب شديد الوطنية ذى الانقسامات الداخلية العميقة، وكيف سينعكس أثر القتال على الشعب. ونحن لا نعرف مقدار الوقت الذى سيستمر عليه تأييد مجموعة بعينها أو فصيل بذاته حين نصبح مشاركين فيما بينهم من مبادلات.

وقد نواجه كذلك شعبًا أكثر عداءً بكثير مما فى أفغانستان. ونحن فى أمس الحاجة إلى أن نضع نموذج لبنان فى اعتبارنا؛ وأعنى التحول من وضع البطل إلى وضع العدو قبل أن يمر العام. ولا بد كذلك أن ناخذ فى اعتبارنا نموذج البوسنة / كوسوفو حيث لم تترك الانقسامات الداخلية أية خيارات سوى البقاء وحفظ النظام أو الرحيل ومراقبة الصراع المدنى وهو ينشا.

سوف يفيد القليل من الصدق مع الذات بشأن أخطاء الماضى فيما يتعلق ببناء الدولة والاحتلال؛ وخاصة حين نؤيد خرافة أننا فعلنا ذلك فى ألمانيا واليابان بشكل رائع. فقد نجحت الأمور فى نهاية المطاف فى ألمانيا واليابان لأننا فرضنا أقل قدر ممكن من التغيير واستفدنا من المؤسسات القائمة بالفعل. إلا أننا لم نتبنَّ هذا الأسلوب إلا مضطرين، لأن الحرب الباردة أجبرتنا على إلغاء الكثير من خططنا وسياساتنا الأصلية. واحتاج الانتعاش الاقتصادى خمس سنوات كى يحدث. وفى العام الأول كان الناس يموتون بسبب نقص العناية الطبية، وكانوا يتضورون جوعًا، وكانوا يعانون. وقد حققنا ذلك دون التعرض لأية عواقب وخيمة، لأن معظم دول العالم كانت تعانى، وكذلك بسبب ميراث الغضب تجاه ألمانيا واليابان الناتج عن الحرب. وليس من المحتمل توقع مثل هذا التسامح فى الوقت الراهن.



وإذا ما اقترن هذا بمستوى لا يمكن التكهن به - ولكنه حتمى - من الدمار والخسائر البشرية المصاحبة، وبما تعنيه كلمة «احتلال» فى العالم العربى بسبب إسرائيل، وبالذكرى التاريخية للانتداب البريطانى والعلاقات الأمريكية بالشاه، وبالتوترات الشيعية بشان العلاقات الأمريكية مع إيران ومحور الشر، وبالتوترات التى بين الفصائل المختلفة فى العراق. ونكاد نكون متاكدين من مواجهة مشاكل خطيرة على الأقل مع كتل العراقيين الرئيسية.

وليست هناك دراسة نفعها أكثر من ضررها ما لم تعالج هذه المخاطر باستفاضة أو تعد لها العدة على أساس أنها أمر محتمل. فلا بد أن نركز على منح العراقيين ما يريدون، وليس على منحهم ما نشعر نحن أنهم يريدونه. ولا بد أن تكون إجراءاتنا قائمة على الشراكة ودرجة عالية من التواضع، وليس على الاحتلال والغطرسة.

٣. عــرض: «نحن نقــود وهم يتــبـعـــوننا»

قد يكون لائتلاف الراغبين الخاص بنا أصغر إلى حد كبير من تحالف غير الراغبين. ولابد أن نفهم وحسب مقدار عمق عداء العالم العربى بسبب الانتفاضة الثانية وعلاقاتنا بإسرائيل. وتبين الاستطلاعات أن حوالى ٨٠٪ من العرب ونسبة كبيرة من الدول الإسلامية تنظر إلى الفلسطينيين على أنهم القضية الأساسية، ويعبر هؤلاء عن غضبهم من الولايات المتحدة بسبب علاقاتها مع إسرائيل. كما أن علينا فهم أن الكثيرين من العرب فى الخليج ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها مسئولة عن معاناة الشعب العراقى فى ظل العقوبات.

وتبين مناقشات الأمم المتحدة أننا نواجه عالمًا على قدر كبير من الشك ومعاداة الحرب. ومن الناحية العملية سوف نكون عرضة لاختبار ونقد لا يرحم على المستوى العربى والإقليمى والعالمى منذ بداية العمليات. ولا يمكن أن نامل فى الحصول على تفويض عراقى أو إقليمى أو عالمى كى نعمل بصفتنا محتلين. فالواقع أننا إذا عملنا بهذه الصفة فمن المؤكد أننا سنواجه مشاكل جمة.

وسوف يعود أى فشل إنسانى فى أية مرحلة من المراحل ليلازمنا. وكذلك الحال بالنسبة لأية أخطاء فى العمل مع الفصائل العراقية، وأى تأخير فى نقل السلطة، وأية صفقات مع الخارج يرى العراقيون والعرب أنها على حساب العراقيين.

لا بد أن نقيم خطط السلام الخاصة على حقيقة أنه سوف يُحكم على نجاحنا بنجاحها على امتداد سنوات مقبلة، وأن أى فشل ستكون له آثاره الإقليمية المدوية. والواقع أننا لا بد أن ننجح هذه المرة وأن نكون مستعدين لتقديم التعهد اللازم بالرغم من التكلفة المحتملة. وعلينا فى الوقت ذاته أن نفهم وحسب مقدار صلابة واستمرار الارتباط بنجاحنا فى التعامل مع الصراع العربى الإسرائيلى والانتفاضة الثانية. وقد يكون لدينا ترف الدخول فى حرب واحدة كل مرة، غير أنه ليس لدينا ترف التركيز على سلام واحد.

٤. عـــــــرض: «حــرب أفضل الحالات»

نحن نبنى خطط ما بعد الحرب إلى حد كبير جدًا على خوض حرب أفضل الحالات. وليس لدينا ما يبرر لهذا التخطيط. فقد يواجهنا قتال المدن. وربما نجد استخدامًا لأسلحة الدمار الشامل. وقد نضطر إلى التصعيد الحاد وتكبيد خسائر مصاحبة خطيرة. ومن المحتمل أن نجد صراعات طائفية ويظهر أمراء الحرب، بما فى ذلك المؤتمر الوطنى العراقى.

وليست هناك خطة تستحق أن تؤخذ فى الاعتبار ما لم تبحث صراحة الأخطاء الممكن حدوثها أثناء القتال وكيف ستؤثر على النتائج التى تعقب القتال.

٥. عرض: «جهود إعادة البناء تبدأ بعد أن تضع الحـــرب أوزارها»

لا بد أن يبدأ سعينا لإعادة بناء العراق فى اليوم الأول لبدء العمليات، وليس بعد الحرب. فإن كل ما سوف نفعله من قصف أو اتصال أرضى بالعراقيين سوف ينقلها الإعلام على الهواء مباشرة حيث يشاهده العالم وغالبًا ما سيبحث عن أى عيب أو خطأ. ولا يمكن أن نتصف بالكمال، ولكن من الممكن أن نكون مستعدين ونعمل ونحن على علم بانه حتى الأعمال التافهة أثناء الحرب يمكن أن يكون لها أثر عالمى قوى وتشكل مواقف ما بعد الحرب.

ولا بد أن ندرك أنه فى يوم ما بعد دخول قواتنا المنطقة، سوف يلقى العالم اللوم علينا فيما يتعلق بكل جزء مما سيعقب ذلك من معاناة العراقيين، وكذلك على ميراث صدام من الأخطاء الاقتصادية والإهمال. إن اللحظة الأولى من الحرب هى بداية السلام، وأية خطة لا تعترف بهذا صراحة لهى خطة خطيرة.

٦. عــرض: «فلنتجاهل قضية الإعلام والمعلومات العراقية»

يبدو هذا غير معقول، إلا أن عددًا من الدراسات يتجاهل ضرورة توفير تغطية إعلامية مفصلة للجمهور العراقى لحظة دخولنا الحرب، ثم نسيطر فى الحال على وسائل الإعلام ووزارة الإعلام العراقية ونغيرها بحيث تصبح مصادر مشروعة للمعلومات. بل إن بعض الدراسات الجيدة الخاصة بجهود الحرب النفسية للتعامل مع الجيش العراقى تعالج المشكلة باعتبارها مشكلة تتناول العمل العسكرى وليس الشعب العراقى والفصائل المختلفة داخله.

ونحن الآن نخوض بالفعل معركة لكسب القلوب والعقول لم نفعل الكثير كى ننتصر فيها. وسوف نواجه فى القتال دكتاتورًا يائسًا، وما سوف نقوله فى الإذاعة والتليفزيون، وقد تكون لما سوف نقوله للشعب العراقى أثناء تقدمنا أهميته فى الحد من حرب المدن والمقاومة المطولة أو تحاشيها. ولا بد كذلك أن نكون قادرين على التحدث إلى الفئة المنشقة داخل العراق وطمأنة من نخطط للعمل معهم. ولا بد من إعادة تشكيل وزارة الإعلام والإذاعة والتليفزيون والصحافة التابعة للدولة فى اللحظة التى نصل فيها إليها. والمعروف أن وزارة الإعلام على وجه التحديد واحدة من أسوأ أدوات القمع فى العراق، ولا بد من إلغائها أو إعادة هيكلتها فى اللحظة التى يمكننا فيها ذلك.

لا يمكن معاملة العراق على أنه ملعب فكرى لعلماء السياسة والأيديولوجيين، ويجب ألا يعامل شعبه على أنه مجموعة من الفئران البيضاء التى يمكن لحفنة من الجنود والمنظمات غير الحكومية الأمريكيين دفعها للجرى فى متاهة ديمقراطية



٧- عرض: «تكفى الإطاحة بالنظام كهدف سياسى أمريكى»

عدم تحديدنا بوضوح لأهدافنا السياسية الخاصة بالعراق فيما بعد الحرب مجال آخر لا بد لنا فيه من القيام بعمل مبكر. فالواقع أن حكومة بوش ترددت بالفعل ترددًا شديدًا. كما أن هناك اضطرابًا وعداءً خطيرين فى العالم العربى وسائر مناطق العالم بشأن أهداف الدخول فى الحرب.

ونحن نواجه عالمًا عربيًا الكثيرون فيه ينظرون إلينا على أننا ندخل الحرب من أجل بترول العراق، وإجراء صفقات مقايضة مع الفرنسيين والروس، وخلق قاعدة عسكرية جديدة للسيطرة على المنطقة وخدمة المصالح الإسرائيلية. وقد شجع غياب البيانات السياسية الواضحة بالفعل كل نظرية مؤامرة محتملة.

وخلاصة القول هى أن مقاصدنا النهائية فى العراق بالفعل قضية أساسية لا سبيل للكلمات الغامضة من معالجتها. وهناك حاجة ماسة إلى توضيح مقاصدنا بتفصيل كاف كى نبين أننا نعمل بالفعل من أجل مصلحة الشعب العراقى ونفند نظريات المؤامرة الأساسية التى ظهرت بالفعل، ونثبت أننا لسنا «إمبرياليين جددًا» ولا «محتلين». والواقع أنه لا بد أن نفعل ذلك بأسرع ما يمكن.

٨- عرض: «لا أهمية للأمم المتحدة والعالم فى تشكيل السلام»

نحن نواجه مشكلة قانونية يتجاهلها الكثير من الدراسات الأمريكية الحالية. وتحكم مجموعة من قرارات الأمم المتحدة ما يمكن وما ينبغى عمله فى العراق، حيث يعد «النفط مقابل الغذاء» أوضحها. وفى العالم الواقعى أمامنا الخيارات التالية: (أ) رفض صدارة الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن التى تتناول النفط والغذاء وتدعو إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان فى العراق ووضع ما يخصنا من خطط وهيكل عام و(ب) الاعتماد على الأمم المتحدة فى القيام بما هو واضح أنها مستعدة للقيام به وعمله من أجلنا و(ج) الاعتماد على خليط يضم الولايات المتحدة والأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية سيكون علينا إقامته فى حال نشوب الحرب، وهو خليط لا يمكننا التكهن بما سيكون عليه حاله.

وكل هذه الخيارات سيئة، إلا أن (ج) هو أفضلها ولا بد لنا من مواجهة هذه الحقيقة. ولا بد لنا كذلك من مواجهة حقيقة أنه لا يمكننا نقل مشاكلنا إلى مجتمع دولى لا وجود له على استعداد لأن يقوم بعملية تطهير بعد عرضنا العسكرى. وقد نحصل بالفعل على التعاون الدولى وتعاون الأمم المتحدة، ولكن فقط إذا كانت لنا الريادة وأسهمنا إسهامًا فعالاً. ولا بد من الانتظار مقدار ما يستغرقه ذلك، أو على الأقل إلى حين تسليمنا المهمة للعراقيين.

٩- عرض: «الديمقراطية تحل كل شىء»

تتسم التعميمات العريضة بشأن الحل المفاجئ الذى تقدمه الديمقراطية لمشاكل العراق بقدر شديد من الغباء. فسوف يستفيد العراق من التعددية المضافة من ذلك النوع الذى دعت إليه قرارات الأمم المتحدة بالفعل. بل إن لدى العراق بالفعل بندًا خاصًا بهذه الخطوات فى دستوره الموجود فعلاً أو مسودة الدستور. إلا أن التطبيق فى العراق على مدى ما يقرب من نصف قرن تقريبًا كان رجالاً أقوياء وحكامًا مستبدين. وليس فى العراق أحزاب سياسية يمكن أن يكتب لها البقاء، وليس هناك قادة فى المنفى أو فى الداخل يتمتعون بالمشروعية الشعبية التى لا شك فيها، بينما هناك انقسامات عرقية ودينية وقبلية وعشائرية عميقة.

ولا بد لنا كذلك من التعامل مع مختلف الأهداف والأولويات الخاصة بجيران العراق والأمم المتحدة. وسوف تكون تركيا وإيران قيدين فعليين على الطريقة التى تتعامل بها أية حكومة تأتى مستقبلاً مع الأكراد والشيعة. ويعنى هذا أن لدينا بالفعل أولويات «غير ديمقراطية». ولا بد لنا فى واقع الأمر من فرض وحدة التراب وتحديد الحكم الذاتى الكردى. ولن يكون هذا تقرير مصير مشروعًا أو حلولاً ديمقراطية لهذه القضايا.

ولن يكون العراق حكومة أو ديمقراطية نموذجية لعدة سنوات. فهو يواجه الكثير جدًا من المشاكل الخاصة بالمشاركة فى السلطة الداخلية والتعامل مع القضايا الإقليمية وإنشاء أحزاب سياسية يمكنها تجاوز المصالح الأنانية. وهو يواجه الكثير جدًا من التحديات فيما يتعلق بإقامة حكم القانون وحماية حقوق الإنسان والتعامل مع القضايا الاقتصادية والأمنية الملحَّة.

وإذا حاولنا فرض أكثر مما يجب من نظامنا السياسى، فسوف نواجه كذلك مشاكل متزايدة مع العراقيين والعالم العربى، فى اللحظة التى نحاول فيها أن نقول للعراقيين كيف ينبغى أن يحكموا بها بدلاً من مساعدتهم فى العثور على حلول أفضل. وبدلاً من تحفيز دول عربية أخرى كى تصبح ديمقراطية، سوف نحفز العداء العربى ونعطى العالم العربى انطباعًا بأننا انضممنا إلى إسرائيل فى الاحتلال.

١٠- عرض: «الوجود المحدود وحفظ السلام»

هناك خطط أمريكية للحرب تدعو إلى وجود أمريكى مبكر فى كركوك لضمان عدم محاولة الأكراد الاستيلاء عليها وللحيلولة دون قيام تركيا بأية تحركات. وليس واضحًا بالقدر نفسه أن الولايات المتحدة قد أعدت خططًا لاحتلال المناطق الشيعية بطريقة تمنع المغامرات الإيرانية وتوقف الانتفاضات أو مساعى الفصائل الشيعية للسيطرة عليها. وهناك كذلك من يعارضون بشدة بذل هذه الجهود بسبب المخاطرة او التكلفة، ويرغبون فى تجنب قيام أمريكا بدور عسكرى كبير لحفظ السلام بغض النظر عن المخاطر.

إن شكلاً من أشكال حفظ السلام واستراتيجيات حفظ السلام الواضحة ضرورى، وتعد الحروب السابقة بمثابة درس يفيد بأنه كلما كان تواجد القوات الأمريكية أكثر تبكيرًا كانت المهمة أيسر والتواجد المطلوب أصغر. وهذا لابد منه فى حالة العراق لمنع وقوع حرب أهلية وللتصدى لأمراء الحرب ولتوفير الأمن اللازم لإعادة بناء الدولة. وما لم يحدث هذا فستكون البدائل إما الدخول فى وقت متأخر بموارد أكبر بكثير، أو الفشل فى الجوانب الأساسية الخاصة بتشكيل السلام.

ولا بد أن تكون الولايات المتحدة مستعدة من البداية للتعامل مع قضايا إقليمية أكثر اتساعًا؛ وهى السيطرة على مدينة كركوك وما جاورها، وتشكيل خليطها العرقى، والسيطرة على مناطق إنتاج البترول وتوزيعه. ولا بد كذلك من استعداد الولايات المتحدة لمساعدة العراقيين فى التعامل مع المسألة الدستورية؛ ما هو الخليط الذى يجمع بين تفويض السلطة وبين السلطة المركزية ويكون مقبولاً من العرب والأكراد على السواء؟ (آخر مرة طرحت فيها القضية للتحكيم فى ظل انتداب عصبة الأمم، احتاجت إلى سنوات للحل، وفى النهاية كان لابد من فرضه بواسطة القوات الجوية الملكية باستخدام الغاز السام. ومن المؤكد أن هذه ليست بأفضل سابقة!)

١١- «طريقة إعادة هيكلة حكومة العراق بناء على العوامل المرتبطة بالتكلفة»

لا يمكن معاملة العراق على أنه ملعب فكرى لعلماء السياسة والايديولوجيين، ويجب الا يعامل شعبه على أنه مجموعة من الفئران البيضاء التى يمكن لحفنة من الجنود والمنظمات غير الحكومية الأمريكيين دفعها للجرى فى متاهة ديمقراطية. إن العراق بلد تعداد شعبه ٢٤ مليون نسمة وله تاريخ يزيد على ٨٠ عامًا. وهو له دستور ومسودة دستور. وبه بنية المجلس الوطنى، ونظام قضائى حديث نسبيًا، وتاريخ خاص باتفاقيات الحكم الذاتى القديمة مع الأكراد.

ولدى العراق بنية مركزية قوية تقوم على مجتمع على درجة كبيرة من التحضر. وهو يعتمد اعتمادًا كبيرًا على واردات الأغذية وتخصيص العائد من صادرات النفط. كما أن به ٢٣ وزارة موجودة بالفعل. بعضها الآن أدوات للقمع ولابد من حلها أو إعادة بنائها تمامًا، إلا أن معظمها ضرورى لإدارة البلاد. وكثير من مراكزه الحضرية ومجمعاته ومحافظاته معد طبقًا للحاجات المحلية. وسوف تفشل المقاربة النمطية للحكم المحلى أو الإقليم فشلاً ذريعًا فى اى مكان فى العالم. وهى وصفة تؤدى إلى كارثة فى العراق.

ولا يعد أى عراقى ذى خبرة حقيقية فى حكم العراق فى مجالات تقنية فى عمومها لا سبيل إلى حصرها ضروريًا لحاجات ٢٤ مليون شخص بخلاف بنية الحكم الحالية. ورغم ما فى المحاكم والنظام القضائى والمحامين من عيوب كثيرة، إلا أنهم فى الوقت ذاته عراقيون. ودور حكم القانون وحقوق الإنسان وأمن الفرد أهم بكثير من الديمقراطية، ولا بد أن تقام كذلك على بنية الحكم العراقية الحالية.

نعم، لا بد أن نعمل مع العراقيين على كل مستوى لتطهير النظام الحالى. ولا بد لنا من القضاء على الحزب السياسى الواحد القائم - البعث - و«إزالة الصبغة الصدامية» من الحكومة الحالية، بينما نقيم حكم قانون حديث ونصلح الاقتصاد. ولا بد أن نعطى دورًا للمنفيين، وليس فقط الجماعات التى تعيش فى المنفى مثل المؤتمر الوطنى العراقى الذى يتمتع بقوة داخل الطريق الدائرى فى واشنطن أكثر من أى مكان داخل حدود العراق. ولكن ليس هناك ما يمكن تبرير كل شىء ينفق عليه.

١٢- عرض: «فلتكون جميعًا حلقة مناقشة عملاقة أخرى»

ذلك الخليط العراقى من التوترات الداخلية والخارجية يجعل أية طريقة لإعادة هيكلة السلطة فى العراق تتسم بالبطء، أو تكون من أدنى لأعلى، أو ذات توجه خاص بـ«حلقة المناقشة»، وصفة يكاد يكون فشلها مؤكدًا. وليس لدينا الزمن الكافى لمساعى خلق الإجماع التى تستنفد الوقت. كما أنه من المؤكد أن المجالس والهيئات الاستشارية الصورية تحدث حركة ارتجاعية كبيرة.

وربما نضطر لدفع العراقيين إلى شكل جديد من أشكال بنية السلطة خلال أسابيع من إنهاء القتال. ومن المؤكد أنه ليس لدينا أكثر من بضعة أشهر. كما أنه ليس لدينا وقت للحوار الطويل، وإن كان من الممكن استخدام ذلك لتعديل الترتيبات الأولية.

ولا بد أن نمعن النظر فى الدستور العراقى الحالى وفى مسودة الدستور، وقد أفلحت فى أماكن أخرى فكرة المؤتمر الدستورى والاستفتاء الذى يخلق نظامًا لمواصلة المسيرة. وربما يسمح لنا هذا كذلك بالتعامل مع واقع الصراع على السلطة بتغيير الدستور العراقى الحالى للتعامل مع شكل معدل للجمهورية أو الفدرالية، إضافة إلى شكل ما من أشكال حقوق الأقلية الكردية.

ولكن ليس أمامنا شهور كى نستعد خلالها ولا أكثر من عام كى نجعل النظام الجديد يفلح خلاله. وأية خطة سلام لا تتضمن أهدافًا

واضحة ومحددة منذ البداية، وتستغرق أكثر من ستة أشهر لوضع الترتيبات الرئيسية لاقتسام السلطة، هي خطة مكتوب عليها الفشل منذ البداية.

ولا بد لنا من العثور على طرق لإيجاد اقتسام سريع للسلطة ولإعادة تخصيص ثروة النفط والقيام بذلك بطرق تؤكد الاستقرار السياسي وليس الديمقراطية في حد ذاتها. وهذه ليست قضية كردية وحسب، بل هي قضية من الذي سيقود الشيعة، ويكاد يكون من المحتم أن أي ترتيب يعقب الحرب سوف يعاقب النخبة السنية التي تحكم في الوقت الراهن.

١٣ـ عرض: «لنتجاهل جميعًا دور الدولة الحالي في الاقتصاد»

يدخل في هذا كذلك ما هو أكثر من الحكم وحقوق الإنسان. فشركة النفط العراقية الوطنية هي وحدها أهم تلك الكيانات الكثيرة المملوكة للدولة التي يجب استخدامها لإعادة تشكيل الاقتصاد وتطويره. ولابد أن نعمل مع العراقيين على الفور على تطهير الشركة وغيرها من المؤسسات الاقتصادية التي تؤثر على التنمية، وتحرير القطاع الخاص بقدر الإمكان، وخلق بنية صادقة ذات أساس عراقي من أجل الاستثمار الدولي، وإعادة العراق من جديد إلى التنمية بأسرع ما يمكن.

إن قضية الإصلاح الاقتصادي على نفس قدر أهمية قضية الحكم. ولابد أن تكون هناك خطط صريحة للتعامل مع الصناعة، إلى جانب التركيز بشكل كبير على الطاقة. كما أن تحرير القطاع الخاص، وتشجيع الاستثمار الأجنبي الصادق، والتعامل مع الإصلاح الزراعي، وخلق هيكل للقانون التجاري، جميعها قضايا مهمة.

١٤ـ عرض: «الجيش وقوات الشرطة»

الحرس الجمهوري والشرطة السرية وغيرهما من القوات الموالية لصدام جديرة بالازدراء، ولكن فكرة قيامنا بحل كل قوات الجيش والشرطة والبدء في تدريب مجموعات جديدة من الصفر مسألة غير عملية وتتسم بالخطورة.

الكثير من عناصر الجيش النظامي وطنية وليست موالية لصدام. ونحن لا نريد أن يكون الشارع هو مصير ٤٠٠ ألف وطني يصبحون معادين. كما أننا لا نريد أن نترك جيشًا ضعيفًا في الخدمة وجيشًا غاضبًا في الشوارع. وكانت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى مثالاً واضحًا للأثر الذي يمكن أن نلمسه. فلنطهر الجيش، ولنطهر سلك الضباط، ولنوفر التدريب السياسي، وغيره وغيره بكل السبل، ولكن لنترك العناصر المحترفة والقادرة على ما هي عليه من قوة. ولنترك للعراق بعض الكرامة، ولنستميل الجيش بدلاً من أن ندمره.

بل إن ترك الشرطة كما هي ـ بعد التطهير نفسه ـ أكثر أهمية. إذ يأتي على رأس الأولويات الغذاء والأمن وبعد ذلك الوظائف والأمن.

ومحاولة جلب توليفات الخبرة الخاصة بالأجانب، وتدريب قوات شرطة جديدة من الصفر، وخلق نظام جديد للشرطة والقضاء من الصفر يكاد يكون مهمة مستحيلة فيما يتعلق بالقوى العاملة والتكلفة ودقة التوقيت. أما تطهير القوة الموجودة بالفعل فليس كذلك.

١٥ـ عرض: «الدَين والتعويضات»

لا بد أن نكون على قدر كبير جدًا من الحرص بشأن مجرد التلميح إلى أننا نبادل مستقبل عراق ما بعد صدام بالحصول على الدعم، وسوف يؤدي تحميل النظام الجديد عبء مليارات الدولارات من الديون والتعويضات وعقود الطوارئ إلى شل حركته، تمامًا مثلما شللنا حركة جمهورية فايمار في يوم من الأيام.

وينبغي أن نتخذ قرارًا بشأن السياسة الداعية إلى الإعفاء من الديون والتعويضات، وإبطال النظام الجديد لعقود الطوارئ.

١٦ـ عرض: «دخل النفط يعوم كل السفن»

حان الوقت لمراجعة الواقع. فوزارة الطاقة تقدر أن إجمالي عائدات صادرات النفط العراقية في عام ٢٠٠١ كان ١٤،١ مليار دولار (بما في ذلك التهريب) من بين إجمالي الصادرات البالغ ١٥،٨ مليار دولار واقتصاد يساوي ٢٨،٢ مليار دولار بسعر السوق. ويقل إجمالي الناتج المحلي عن ثلث ما كان عليه في عام ١٩٨٩، إلى جانب عقدين من الحرب والعقوبات يجب التعويض عنهما.

وليس من المحتمل أن تحل عائدات النفط كل مشاكل التنمية في العراق. فسوف يكون نصيب الفرد الحقيقي من ثروة النفط أقل من عُشر ما كان عليه في ذروته عام ١٩٨٠ نتيجة لزيادة عدد السكان وانخفاض أسعار النفط. ومع ذلك لا يزال بإمكان النفط تسديد الكثير، ولكن لا يمكنه تسديد تكلفة إعادة البناء والتنمية. ولنأخذ النقاط التالية بشأن العراق في اعتبارنا:

* الهبوط المطرد في الثروة النسبية منذ ١٩٨٢ وليس ١٩٩١؛ حيث انخفض نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي بنسبة ٧٠٪ قبل حرب الخليج.
* الزيادة الضخمة في عدد السكان: ٩،١ ملايين عام ١٩٧٠، و٢٢،٧ مليون في عام ٢٠٠٠، و٣٦،٩ مليون في عام ٢٠٢٠، و٤٠٪ من السكان تحت سن الخامسة عشرة. ويزيد معدل البطالة على ٢٥٪.
* لم تعد لديه ثروة نفطية من الناحية النسبية.

فنصيب الفرد حاليًا يزيد قليلاً على ٧٠٠ دولار مقابل ما يزيد على ٦ آلاف دولار في عام ١٩٨٠ وهناك ما هو أسوأ في العائدات الثابتة. فقد كان نصيب الفرد السعودي في عام ١٩٨٠ حوالي ٢٣،٨٢٠ دولار مقابل ٢،٥٦٣ دولار في عام ٢٠٠١.

* يعتمد العراق على النفط للحصول على الغذاء وعلى القطاع «الأسود» في التشغيل. وهو يعتمد اعتمادًا شديدًا على واردات الأغذية منذ أواخر السبعينيات. وتشير التقديرات إلى أنه سوف يعتمد في ٧٠٪ من الغذاء على الواردات بمجرد انتعاش الاقتصاد.
* وجود أزمة طبية وتعليمية.
* الكثير من نتائج الاقتصاد الموجه الذي تركز لمدة ثلاثة عقود تقريبًا حول الحكم الدكتاتوري. وهناك بعض المؤسسات الاقتصادية القوية دون أن يكون هناك نظام سوق حقيقي فيما يتعلق بتوزيع الأعمال المصرفية والقانون التجاري الموحد والتأمين وسعر الفائدة.
* التنمية الصناعية ضعيفة وتاريخها ضعيف.
* عائدات النفط وقضية التنمية أمر مهم، وكذلك المشاركة في العائدات، ولكن شركة النفط العراقية الوطنية لديها بلطجيتها وقتلتها. وهناك كلام عن حقن بالمياه وضخ مفرط؛ وهناك ٢٤ حقلاً تعمل من بين ٧٣ حقلاً، كما أن من ٢٠ إلى ٤٠ بالمائة من الحقول في خطر.

نعم، إن المال سيكون مشكلة خطيرة، وخاصة ما لم يكن هناك إعفاء من الديون والتعويضات.

١٧ـ عرض: «نزع الأسلحة سريع ودائم»

لابد لنا من سياسة واضحة تجاه الصناعات الحربية العراقية والمنشآت مزدوجة الاستخدام منذ البداية، ولابد أن نفهم أن عراق ما بعد الحرب سوف يظل قائمًا في منطقة لا تزال تمثل تهديدًا ويزداد انتشار الأسلحة النووية فيها. ومع ذلك فمهما كان ما نتخلص منه، فسوف تبقى الموهبة البشرية والمنشآت الرئيسية مزدوجة الاستخدام. كما أنه من الممكن أن يدفع التخلص من الأسلحة النووية العراق في اتجاه الاعتماد على الحرب البيولوجية.

إننا بحاجة إلى خطة قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى لنزع أسلحة العراق. ولابد أن تتضمن الخطة طويلة المدى طريقة ما لاستخدام توليفة من قرارات مجلس الأمن والعمل الوطني للحد من أي احتمال لانتشار الأسلحة النووية في المستقبل، وربما كانت هناك حاجة إلى شكل من أشكال ضمانات الأمن الأمريكي للحد من الحافز الذي يمنع أية أنظمة حاكمة في المستقبل من نشر الأسلحة النووية.

١٨ـ عرض: «استراتيجية ممنوع الخروج»

أظهر كل جهد سابق لحفظ السلام أن وجود استراتيجية خروج واضحة أمر في غاية الأهمية. والأمر الأساسي في هذه الحالة هو استراتيجية الدخول التي تجعل السلام ممكنًا، ووضع أهداف متواضعة وقابلة للتحقيق، ومعاملة العراقيين كشركاء، والرحيل حين يريدون هم ذلك أو نكون نحن على استعداد للرحيل. ولكي لا تكون هناك أية فرصة لنشوب حرب أهلية، لابد أن نعمل بوضوح لما فيه مصلحة العراق وأن نخطط للرحيل مبكرًا وليس في وقت متأخر.

علاج «أعراض الحرب والسلام في العراق»

أول خطوة لعلاج مرض معقد مثل أعراض الحرب والسلام في العراق هي التعرف على طبيعة المرض. وكما أظهرت القائمة السابقة، فإن هذا غالبًا ما يوحي بالعلاج. إلا أن الحقيقة التي تظل قائمة هي أننا سنواجه عقدًا على الأقل فيه المزيد من عدم الاستقرار بمنطقة الخليج، سواء أدخلنا في حرب مع العراق أم لم ندخل، وبغض النظر عن الطريقة التي ستسير بها الحرب. فالتخلص من صدام وما لدى العراق من أسلحة الدمار الشامل مجموعة مهمة من الأهداف إذا سارت الحرب سيرًا حسنًا. إلا أن عدم الدخول في الحرب يمكن أن يُحْدث ما هو أكثر من توفير قاعدة لجعل العراق أفضل إلى حد ما، وبالتالي يتيح للعراقيين التحكم في مصيرهم. وأية نتيجة للحرب لن تعيد تشكيل الخليج أو الشرق الأوسط.

وتلغي فكرة التحول الديمقراطي الفوري بعد انتهاء الحرب والانتشار في أنحاء المنطقة قانون السبب والمسبِّب، وهي فكرة مثيرة للضحك. وكذلك الحال بالنسبة لفكرة أننا نعرف ما يكفي عن البناء القومي بحيث ننشئ الولايات المتحدة العراقية.

إن أفضل ما يمكننا عمله هو تقليل أخطائنا وأثر قانون النتائج غير المتعمدة إلى أدنى حد ممكن. ويتطلب ذلك الواقعية والالتزام. وإذا كنا نعتمد على المعجزات والنوايا الطيبة، أو نعمل باعتبارنا محتلين وليس شركاء، فمن المؤكد أن نكون غالبًا أكثر شقاء حين تحل الذكرى العاشرة للحرب المقبلة، مثلما كنا في الذكرى العاشرة لحرب الخليج. ■

ترجمة: أحمد محمود

عـــام صـــعـب...

قــال بـاول.. ويقــول البشــرى




■■ لم أكن قد تشرفتُ بمعرفة «مباشرة» بالمستشار طارق البشرى قبل هذا اليوم من خريف عام ١٩٩٥ حين التقيته «شخصيًا» للمرة الأولى فى حفل توزيع لجوائز خصصت للصحافة العربية.

يومها كان على وشك أن يترك منصة القضاء، بعد أن بدا أن «الواقع» قد لا يحتمل مطلق حياديته واستقلاليته.

ويومها كان قد تم اختياره كمفكرٍ للعام. وكانت بعضُ محاولاتى الصحافية لتأصيل وتوثيق وللتدقيق فى القصة «الحقيقية» لنشأة تيارات العنف الدينى قد اختيرت لجائزة «التحقيق الصحفى». وكان أن جمعتنا لبعض الوقت طاولةٌ واحدة.. وبحكم المناسبة والبروتوكول صورةٌ تذكاريةٌ واحدة.

ويومها استوقفنى هذا القدرُ من الخجلِ الرفيع وتلك الدرجةُ من التواضعِ الجم لدى «مفكر العام». ويومها استغربت كيف كان هذا الصوت الخفيض الهادئ ينطق بأحكام صارمة فى عدالتها.. حادة فى استقلاليتها.

ويومها أدركت كيف «يمشون على الأرض هونًا».. وكيف إذا «خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا».

بعدها حرصت على ألا يفوتنى ما يكتب طارق البشرى.. وهو مُقلٌ فى ما يكتب. ولعلها سمة القاضى فى إصدار الأحكام؛ يتمهلُ حتى يتحقق، وتبقى لديه «تبرئة مائة جانٍ خير من إدانة برىء واحد».

العرب فى مواجهة العدوان
طارق البشرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٢٠ صفحة

وحين قرأت عرفتُ قيمةَ أن يدرسَ القانونَ من يتصدى للكتابة، فيجيد التسبيبَ والاستنباطَ والتكييف. ويدققُ اللفظ والمعنى. ويبتعدُ بالضرورةِ عن «الكلام المرسل».. وكان طبيعيًا أن يكون البشرى من أولئك الذين «يُقنّنون» الكتابة.

آخر كتابات البشرى ـ أو بالأحرى آخر كتبه ـ حمل غلافُه الموحى، بسيطُ التصميم عبارةً بسيطةً تقريريةً مباشرة «كقرارات القضاء». تخلو من الإبهامِ أو الإيهامِ.. أو المبالغة: «العرب فى مواجهة العدوان». وهو عدوانٌ ـ وبغض النظر عن الاختلاف حول الأسباب أو حتى الوصف و«التكييف» ـ تتسارعُ وتيرتُه وتتعددُ أساليبُه.. بل وحتى إطاره الجغرافى. من تدميرٍ وإنهاء بات واقعًا لقوةٍ كانت مفترضةً فى وادى الفرات، إلى غيومٍ تبدو داكنةً فى الأفق الجنوبى لوادى النيل. ومن محاولات لمحو قضية العرب المحورية فى فلسطين «نهائيًا»، إلى محاولات لمحو الهوية ذاتها، بدعوى التطوير أو التشذيب. ومن ملاحقات عنصرية بالتوقيف و«التبصيم» فى المطارات والموانئ، إلى مطالبات بالتغيير، تحملُ شكلاً واسمًا عنوان «الشراكة» وتأخذُ ـ بواقع منظومة العلاقات والقوى ـ سلطةَ الجبر. وإن أبدى المجبورون ـ مع اختلافِ أسبابهم ـ غيرَ ذلك. محاولين «هم أيضًا» تسميةَ الأشياء بغير أسمائها. رافعين حينًا شعارَ الواقعية، ومحتمين حينًا آخر بحكمة «بيدى لا بيد عمرو». أو مؤكدين ـ إعلاميًا على الأقل ـ أننا already على الطريق: فالنساءُ مُمَكَّنات.. وتطوير التعليم على قدمٍ وساق.. والديمقراطيةُ «مطابقةٌ للمواصفات».. وكل شىء إذن على ما يرام. ولسنا ـ نحن ـ المقصودين بالخطاب أو المطالبة.

ورغم أن طارق البشرى كان قد انتهى من كتابه قبل الإعلان عن خطاب وزير الخارجية الأمريكى كولين باول والذى عُرف «بمبادرة الشراكة فى الشرق الأوسط»، إلا أن «التزامن» جمع بالمصادفةِ بين المبادرةِ ذات البنود التى باتت معروفة والكتاب الذى يتصدى عنوانُه «لمواجهة العدوان».

ونحن حين نعمد إلى مناقشة أطروحات باول بأفكار البشرى خاصةً، فإن هذا إنما يرجع إلى أسباب ثلاثة:

١ ـ أنه عُرفَ عن صاحب الكتاب أنه مهمومٌ دائمًا بقضايا «ذات صلة». مثل الهوية.. والديمقراطية.. وحقوق الأقليات فى المواطنة. (كتاب البشرى «المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية» والذى صدر فى أعقاب أحداث خريف ١٩٨١ يعد مرجعًا فى الموضوع).

٢ ـ أن موضوع الكتاب، ومن ثم عنوانه «فى مواجهة العدوان».. وفى بعضٍ من محاضرة باول ـ رغم اتفاقنا مع كثيرٍ مما فيها من تشخيص ـ عدوانٌ يراه الكثيرون يستأهل المواجهة.

٣ ـ أن صاحب الكتاب ـ وبغض النظر عن دقة المصطلح والتعريف ـ محسوبٌ على «الإسلاميين». والإسلامُ (دينًا ومفاهيمَ وأتباعًا) هو بطبيعة الحال فى القلب من مبادرة باول ـ مهما حاولت الدبلوماسيةُ ـ كعادتها ـ الانزلاق بنعومة حول الحقائق.

أيًا ما كان الأمر فإن طارق البشرى يرى فى مبادرة وزير الخارجية الأمريكى، أو بالأحرى فيما انطوت عليه ـ كما قال لى فى حديث خاص ـ انتهاكًا بواحًا لكل ما كان مستقرًا فى قواعد القانون الدولى ومبادئه. معتبرًا أن الدرس الوحيد الإيجابى الذى يجب أن نتعلمه من هذا الخطاب هو أنه إذا كان الأمريكيون يعتبرون بلادنا التى هى على بعد آلاف الأميال، مجالاً لاهتمامهم، مما يعطيهم الحق فى مشاركتنا شؤونها «فما أحرانا أن نعتبر فلسطين وهى على بعد مائتى ميل فقط مجالاً لاهتمامنا وجزءًا لا يتجزأ من أمتنا ومن مستقبلنا».

وكانت العلاقةُ بين الأمن القومى و«العمق الفلسطينى» قد أخذت نصيبها من البحث والدرس فى غير موضعٍ من كتاب طارق البشرى. والذى بعين «المؤرخ» يلاحظ أنه «بالرجوع إلى تاريخ نصف القرن الأخير لمصر، فإننا لا نكاد نرى أمرًا واحدًا تلتقى عليه سياسات الملك فاروق عندما كان يحكم مصر، ومصطفى النحاس زعيم حزب الوفد وقتها وخصم الملك فاروق، وجمال عبد الناصر الذى خلع الملك فاروق وأزاح النحاس والوفد، لا يوجد ما التقت فيه سياسة هؤلاء الثلاثة إلا أهمية فلسطين لمصر والعداء للصهيونية

وعام أصعب؟

أيمن الصياد

ودولتها إسرائيل، واستشعار الخطر على أمن مصر من الوجود الصهيوني عند حدودها الشمالية الشرقية.

فماذا إذا كنا اليوم نجد السلاح النووى بيد إسرائيل على بعد مائتي كيلو متر تقريبًا من القاهرة، ومن وادى النيل بمصر، وهو فى يد دولة عدوانية خاضت أربع حروب ضد مصر في مدى نصف القرن الأخير. وهي دولة استيطانية تعتمد على الكذب والتوسع والعدوان. فإذا لم تكن فلسطين في هذا الإطار ذات أهمية أمنية لمصر، وإذا لم تكن إسرائيل بوصفها الحاضر وبوصفها الذى نشأت به، مجال خطر يتهدد الأمن المصرى والسورى واللبناني، فما هو الخطر إذًا. وهذا كله يفضي بنا إلى اليقين، أو إلى الظن الراجح، والكلام للبشرى، بأن من لا يتفق مع فاروق - النحاس - عبد الناصر فيما لم يجمعوا على أمر غيره، ومن لا يدرك مخاطر ما نحيا فيه الآن من ظرف سياسي وعسكرى محدق بنا، من لا يفعل يكون مفرطًا في حق مصريته أو سوريته.. إلخ، فضلاً عن أنه يكون مُفرِّطًا في عروبته وإسلاميته».

ويعبر طارق البشرى عن مفهوم «الأمان في العمق» والذى يعنون به فصلاً آخر من كتابه، بسرد حكاية سفينة مصرية جنحت على شاطئ الإسكندرية في السبعينيات وتهشمت جوانبها. أيامها - يحكى البشرى - أوضح له صديق كان من ربابنة السفن الكبيرة: «إن ربان السفينة الجانحة أخطأ بالاقتراب من الشاطئ عندما اشتدت به الريح وعلا الموج، كان الأحرى به ألا يقترب من الشاطئ، وأن يدخل بسفينته في عرض البحر». وحين سأله متعجبًا وكيف يكون عرض البحر الهائج آمن على السفينة من الشاطئ الأقل هياجًا، أجابه بأنه عندما يشتد الريح ويعلو الموج، فأمان السفينة فى العمق، إنها إن اقتربت من الشاطئ ضربتها الأمواج على صخوره فتتكسر، أما فى العمق فهي كلها أمواج فى أمواج، إن ضربها موج تلقاها موج آخر وحملها.. وعندما تعصف الريح ويثور الموج فالأمان فى العمق».



يعتبر طارق البشرى - ويشاركه الكثيرون الرأى - أن بعض ما جاء في خطاب باول «حقًا» إنما كان يُقصَد به «باطلَ التدخل الأمريكي المتبجح في الشؤون الداخلية». وهو أمرٌ مهينٌ تحظره كل الوثائق الدولية.

ويبقى السؤال: كيف كان لوزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إذن أن يقف هكذا - بلا حرج - ليملى من جانب واحد خطوات «ما سنتشارك في تحقيقه»؟

فى كتابه يقدم طارق البشرى قراءته للحدث الأفغاني، راصدًا كيف أن مفهوم «العولمة»، ومع الدفقات الإعلامية والفكرية والسياسية التى راج بها، طمس في المقابل مبدأين دوليين جوهريين، كانا هما أقوى ركنين تعتمد عليهما فى الساحة الدولية حركات شعوب «العالم الثالث» وحكومات هذه الشعوب، هذان المبدآن هما: مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها، ومبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول. وقد صرنا الآن لا نكاد نرى أو نسمع أيًا من هاتين العبارتين في أى مقروء أو مسموع من الصحف والكتب الحديثة والخطب والمؤتمرات والتصريحات، وذلك في السنوات العشر الأخيرة، رغم أنهما عبارتان كانتا تملآن أسماعنا وأبصارنا لعشرات السنين منذ بداية القرن العشرين.

ويستغرب طارق البشرى في حديثه معى عن مبادرة باول أمورًا ثلاثة:

١- أنه يتكلم عن الإصلاح السياسى والديمقراطي، برغم أن الولايات المتحدة هي من يدعم الحكومات المستبدة في بلادنا. وهو كثير الإشارة «لأصدقاء» الولايات المتحدة من حكام الشرق الأوسط في حين أنه في ذات الوقت يلوح بتغييرهم.

٢- أن وزير الخارجية الأمريكي يرسم لبلادنا «نحن» سياسات حول نظم الحكم وحول الاقتصاد والتنمية، وحول التعليم. رغم أنه هو ذاته وحكومته لم يخترهم أحد «من شعوبنا» ليتكلم باسم مصالحه في انتخابات حرة أو مزيفة.

٣- أن الولايات المتحدة مع تحدثها «الممل» عن الديمقراطية، تصنع حكامًا في الخارج. وتضع لهم أسماء مثل أسمائنا.. ثم تصدرهم إلى بلادنا. حسبما حدث في أفغانستان. وحسبما يراد للعراق ولغيره. وهي في نهاية المطاف تفرض هؤلاء بقوة الوجود المادى - لا الديمقراطي - للجيش الأمريكي بعد الغزو والاحتلال.

ويلاحظ البشرى أن باول يخصص لتحقيق كل ذلك ٢٩ مليون دولار. في حين أن وزارة الثقافة المصرية احتاجت ٩,٥ مليون من الدولارات لتغطية نفقات ليلة واحدة احتفلت فيها ببداية الألفية الثالثة.



قضيةُ الديمقراطية والمجتمع المدني، والتى يرى عدد من المثقفين أنها تمثل الجوهر - المقبول على الأقل - في مبادرة باولَ، شغلت بعض إشكالياتها جانبًا مهمًا ومثيرًا من كتاب البشرى. فهو يرى أن الدولة المركزية الحديثة نشأت في بلادنا ونمت واستفحلت، وذلك على حساب وجوه النشاط الشعبى المختلفة، ونعرف أنها اليوم أشد استفحالاً بما هى مصرة عليه من السيطرة على كل وجوه الأنشطة والخدمات وغيرها، وبحسبان أنها ليست مستعدة لأن تدع لأى فرد أو جماعة أن تمسك بإمكانية المبادرة العامة أو إصدار القرارات الذاتية أو إنفاذها فى أى شأن عام.

ويلاحظ البشرى أن تكوين الدولة وتشكيلها المهنى والهرمي لا ينفتح على خارجها، وهي لا تتغذى من خارجها بما يظهر في المجتمع من خبرات وكفايات في أى فرع من فروع النشاط، ولا يحدث ذلك إلا في النادر الذى يعول عليه، ولا يحدث بطريقة ذات اطِّراد وذات أساليب تنظيمية تكفل حسن الاختيار مع التتابع.

ولأن «الأمر ليس شراً كله» يبقى هناك أن لهذا الوضع أثرًا حميدًا، يتعلق بأن أجهزة الدولة والإدارة في مثل بلدنا إنما تتكون من أشخاص وأفراد ينتمون إلى النسيج العام الذى يتكون منه المواطنون، ويحملون الطابع الثقافي والاجتماعى العام ذا الغلبة في تكوين المواطنين، وهذا لا يجعله محصور الفكر والنظر الاجتماعى في تكوين طائفى أو قبلي محدد، ولا يجعله أيضًا مقصورًا على تشكيل حزبى محدد أو على انتماء طبقي اقتصادى محدد.

ولكن من جهة أخرى، فإن هذا الوضع ذاته يكسب هذه الأجهزة طابعًا استبداديًا، ويولد لدى رجالها دائمًا أنهم قوامون على المجتمع أوصياء على الجماعة الوطنية في سائر وجوه نشاط أفرادها ومجموعاتها، وإن التشكيل الهرمى لهذه الأجهزة هو من طبائع الأشياء بحسبانها أجهزة تنفيذ، ولكنها عندما تصير أجهزة تقرير ذات طابع وصائى على المجتمع كله أفرادًا وجماعات، وعندما تكاد تنعدم الطرق النظامية لتجديد أشخاص الأجهزة وعناصرها، عندما يحدث ذلك لمدد طويلة تنمو ظاهرتان هما غاية في الإضرار، إحداهما هي «شخصنة القيادة» أى تصير قيادة شخصية وفردية، وثانيتهما أنها تصير هى مصدر الشرعية في المجتمع، لأنها تمثل التشخيص الفردى لجهاز وأجهزة هرمية ذات يقين ثابت أنها القوامة على المجتمع والوصية عليه في جميع وجوه نشاطه أفرادًا وجماعات.

وهو يقصد «بالشخصنة» هنا: «ما يؤدى إليه طول المُكْث في العمل العام في وظيفة محددة ذات أداء معين، ما يؤدى إليه ذلك من اندماج بين الشخص وبين الوظيفة، من حيث كون الشخص ذا طموح ومصالح فردية ومشاعر ذاتية، ومن حيث إن الوظيفة مجموعة صلاحيات تتعلق بالعمل العام وبالمهام المرصودة ضمن جهاز معين، لإدارة هذا الجهاز وتحديد خططه وأساليب عمله ومواجهة التحديات وحل المعضلات في إطار الصالح العام الذى أعد الجهاز لحراسته وتحقيقه. وأن طول المكث يدمج بين الأمرين سيما إن كان ذلك في موقع ذى قرار، وسيما أن توافر لذى القرار من أوضاع الاستبداد ما يجعله يبدو في أعلى التكوين الهرمى مصدرًا للشرعية، ويبدو ثابتًا لا يحتمل التغيير».

الكتاب الذى خصصه صاحبه للحديث عن مواجهات العام «الصعب» صدر مع إطلالة عام يبدو أنه لن يكون بحال أقل صعوبة، إن لم يكن - بحكم الشواهد - «أصعب»



إن وزير الخارجية الأمريكى يرسم لبلادنا «نحن» سياسات حول نظم الحكم وحول الاقتصاد والتنمية، وحول التعليم. رغم أنه هو ذاته وحكومته لم يخترهم أحد «من شعوبنا» ليتكلم باسم مصالحه فى انتخابات حرة أو مزيفة









ويخلص البشرى من كل هذا معالجًا مسألة الديمقراطية إلى أن الدولة «بتكوينها المشار إليه تقف بعناد وإصرار من دون تحقق أية إمكانية لتداول السلطة أو تفتح أبواب التغيير فيها أو التعديل من خارجها. وتسد الذرائع في وجه أى مما يمكن أن يفضى إلى إمكانية تداول أو تغيير أو تعديل من خارج نطاقها التنظيمى».



يتحدث باول - والمفاهيمُ مقبولةٌ بلاشك - عن «الديموقراطية.. والحرية.. وتطوير التعليم.. وتمكين المرأة»، وبغض النظر عن رأى يتطرفُ - يسارًا - فيذهبُ إلى القول بأنه «سُمّ فى العسل» وبأنها «كلمة حق يراد بها باطل»، أو - يمينًا - فيرى أنها الفرصة التاريخية للحاق بركب الحداثة والتقدم، يبقى الأوفق، والذى يمكنُ الإجماعُ عليه أن الإشكالية الأولى هنا تتمثل فى «التعريف.. والمصطلح». أخذًا فى الاعتبار هنا خصوصيةً ثقافية، لا يمكن - أو على الأقل لا يصح - تجاهلها.

ويحضرنى هنا ما قرأته ذات يوم للبشرى فى سياق آخر. وهو الحريص - كقاض - على تدقيق المصطلحات وتبيانها، ليصح تداولها بين مستخدميها. محذرًا من استيراد تعبير وافد من استخدام مجتمع آخر «نعزله عن سياقه الخارجى، ونزرعه فى مجتمعاتنا وهو غريب عليها بمفهومه الوافد واستخدامه فى السياق المغاير». ضاربًا مثلاً بتعبير «الأصولية الإسلامية» وهو الذى يجد اعتراضًا عليه من جل من يُطلَق عليهم بالدلالة السياسية التى يستخدم بها فى السنين الأخيرة. «لأن تعبير الأصولية الإسلامية أطلق على الحركات السياسية المعاصرة. من خارج هذه الحركات، فهم لم يطلقوا على أنفسهم هذا الاسم، ولا واحدة من هذه الحركات رضيت وتسمت به. وأكثر من ذلك فقد أطلق على ظاهرة سياسية وثقافية منبثقة من مجتمعاتنا، وأطلق عليها من خارج هذه المجتمعات، وعلى ألسنة أقلام أوروبية وأمريكية وله عند هؤلاء الأقوام مدلول خاص بهم، ثم نقل بمضمونه المتبلور فى سياق تلك المجتمعات الغربية، ليشير إلى ظواهر وجدت لدينا وهى بعيدة تمامًا عن السياق الغربى».

وليس هذا الأمر جديدًا، يوضح البشرى «المؤرخ». فلقد استخدمنا فى الثلاثينيات والأربعينيات مصطلح الفاشية «الذى ظهر فى الفكر السياسى الأوروبى تعبيرًا عن ظاهرة سياسية ظهرت فى إيطاليا بعد الحرب الأولى وانتشرت، وقواها الحكم النازى فى ألمانيا فى الثلاثينيات. استخدمنا هذا اللفظ الذى وفد إلينا من الخارج لنشير به ونسمى به حركات سياسية وطنية ودينية ظهرت لدينا فى إطار التحرير الوطنى من الاستعمار، وكان من أوفد إلينا هذا المصطلح هو الأقلام الغربية، وأخذناه عنها لنصف به أنفسنا أو بعضًا من أنفسنا، رغم اختلاف السياق واختلاف التجارب التاريخية المولّدة لكل من الظواهر السياسية الغربية والظواهر السياسية لدينا، وكان أوضح هذه الظواهر أن ما أطلق عليه لفظ «الفاشية» فى أوروبا كان حركات سياسية تستهدف فيما تستهدف التوسع والعدوان على الشعوب الأخرى، وما أطلق عليه لفظ «الفاشية» فى بلادنا كان حركات سياسية تستهدف فيما تستهدف رد العدوان السياسى والثقافى على شعوبنا ومقاومة هذه الشعوب للاستعمار فى صوره المتعددة.

ويعتبر البشرى أننا بهذا الاستخدام للمصطلحات السياسية الاجتماعية الغربية فى غير سياقها الاجتماعى السياسى الذى نشأت فيه واستخدمت، وبهذا النقل لها إلى سياق اجتماعى وسياسى مختلف، إننا نكون بذلك قد طمسنا على أعيننا ونكون غمت علينا ظواهرنا المعيشية وغفلنا عن معانيها، وليس بعد ذلك درجة من درجات التبعية الفكرية، وليس بعد ذلك درجة من درجات الاغتراب عن أنفسنا والذهول عن واقعنا.

ولحرصه على الحوار والتواصل، يعتقدُ البشرى - ولسماحته هنا فضلٌ فى هذا الاعتقاد - أن التباين الدلالى للألفاظ لدى جماعات وأفراد ومثقفين فى هذا المجتمع، قد يكونُ مسؤولاً - ولو إلى حد ما - عن استقطاب يبدو حادًا أحيانًا. وعن ضياع لإمكانات التفاهم بين من هم متشاركين - بالضرورة - فى مجتمع واحد - وبالافتراض - فى همٍ واحد.



ويبدو اهتمامُ البشرى بإيجاد نوعٍ من التفاهم المشترك - بديلاً عن الصراع - بين جماعات الأمة الثقافية المختلفة، واضحًا وجليًا فى كتابه. إذ يحذر فى «التمهيد» له (وهو تحذيرٌ لا يبتعد كثيرًا عن أجواء ما بعد مبادرة باول) من كل التوترات السياسية والفكرية التى عانينا منها خلال العقود السابقة. ومن الإدارة السيئة لوجود الحوار الفكرى والثقافى التى عانينا منها خلال هذه العقود القريبة، وهى إدارة للحوار تمثل سوؤها فى تعمد إثارة وجوه التفريق بين التيارات السياسية والثقافية وإشاعة جو من الخوف المتبادل بين بعضها البعض، وهى إدارة نبع سوؤها من عاملين أساسيين:

أولهما: التوجهات الثقافية والإعلامية الوافدة من الخارج، والتى آلت على نفسها وعلى أتباعها أن يتحول انتباه شعوبنا من فكرية الصراع والمواجهة بيننا وبين أطماع الدول الكبرى الغربية، أن يتحول إلى فكرية الصراع والمواجهة بين فصائلنا الفكرية والسياسية بعضها البعض، من نوع قضايا حقوق الإنسان وحرية التعبير والتعددية والمرأة وغير ذلك من القضايا، واعتبارها هى «أم القضايا»، وذلك ليكون بأسنا بيننا ولئلا يستمر بأسنا موجهًا ضد المعتدين على أرضنا وشعوبنا من الخارج.

وثانيهما: السياسة الداخلية لدولنا المركزية لإدارة الإعلام فى بلادنا بالطريقة التى لا تمكن المعارضة السياسية من أن تتوحد أو تتقارب أو تبلور موقفًا مشتركًا فى مواجهة سياسات التبعية الاقتصادية والسياسية، وفى مواجهة قوى الاستبداد السياسى الداخلية.

ورغم ذلك، لا يُخفى البشرى تفاؤله المعتاد فيلاحظ أنه ورغم كل هذه التوترات والصراعات السياسية، ورغم سوء قصد الإدارة الرسمية الإعلامية والثقافية، استطعنا أن نقارب بين التيارات السياسية والفكرية فى بلادنا فى عدد من القضايا المهمة. ويلاحظ أنه فى السنوات القليلة الماضية، بدأ يشيع نوع من التفاهم المشترك بين الداعين إلى الجامعة الإسلامية السياسية والداعين إلى الجماعة العربية. والتفاهم أيضًا بين رؤى المرجعية الإسلامية والداعين إلى استعادة سيادتها وبين ذوى المنهج الوضعى العلمانى من الوطنيين. وذلك فضلاً عن أسس التفاهم والعيش المشترك ذات الجذور الممتدة بين المسلمين والمسيحيين بجامع المواطنة.

ومن باب أن «رُبَّ ضارة نافعة» يعتبر البشرى أن مخاطر التهديد العدوانى لسياسات الهيمنة الأمريكية ومخاطر التهديد الصهيونى على بلادنا، كان ذلك من وقائع التمهيد للتقارب بين ذوى المنطلقات المتباينة من المواطنين الحريصين على الذود عن أوطانهم وشعوبهم وثقافاتهم. وكانت القدس وفلسطين ووقائع ما يحدث فيهما وانتفاضات الشعوب من أجل تحريرهما هو من عوامل التوحيد فى المواقف والتقريب فى الأهداف والتفاهم فى الأفكار.

ويستدرك بأنه لا يمكن القول بأن ما تحقق صار عصيًا على الانتكاس من بعد أو النقصان، ولا أقول أنه لا يحتاج دائمًا إلى يقظة وحيطة وحراسة، «ولكننى أقول أنه تحقق قدر إيجابى معتبر من التقارب فى هذه الجوانب، رغم المعوقات ومحاولات الإفشال ممن هم يملكون الكثير الذى يقدرون به على التعويق والإفشال».



أيهما نقاوم ونجعل له الأولوية فى المعالجة. هل هو فى إصلاح أمراض الداخل أم مقاومة أخطار الخارج؟ وأيهما السبب وأيهما النتيجة، وهل الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟



أيًا ما كان الأمر فإن باول ألقى محاضرته بعد كثير من الانتظار و«التوجس». والحاصل ورغم هذا «الاستقطاب» الذى يبدو مزمنًا وتاريخيًا فى حالتنا الثقافية، إلا أن الموقف «العاطفى» المسبق من كل ما يأتى من الناحية الأخرى من الأطلنطى، كان فى أغلب الأحوال وراء ما بدا موقفًا عربيًا «مبدئيًا» وآنيًا ومباشرًا من مبادرة باول. إلا أنه ورغم كل شىء، سرعان ما وجد السؤالُ الحرجُ مكانه - وإن على استحياء - لطاولات البحث ونقاشات المثقفين: «أيهما نقاوم ونجعل له الأولوية فى المعالجة. هل هو فى إصلاح أمراض الداخل أم مقاومة أخطار الخارج؟ وأيهما السبب وأيهما النتيجة، وهل الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟».

يعتبر طارق البشرى فى كتابه أن السؤال يجسد واحدة من المشاكل الفكرية الثقافية شبه المزمنة فى تاريخ أمتنا. ذلك «لأننا لم نهتم بحلها الحلول الشاملة، ونكتفى كثيرًا إزاءها بالحلول السياسية السريعة أو بالتغطية الإعلامية الكثيفة، فتخبو ونحن نظن أنها زالت، ثم تحدث الواقعة التاريخية بكل وضوحها وتضاريسها وينقسم الناس






حولها كما كانوا في السابق «وكأننا لم نبت ليلة معًا» كما يقول الشاعر القديم.

ويستعرض البشرى أمثلة «للسؤال الأزمة» من التاريخ القريب والبعيد. إذ أنه «ما أن ظهرت أزمة الخليج في عامي ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ حتى انقسم الناس ـ أو القسم الغالب من الرأى العام السياسى الفعال ـ انقسم إلى فريقين كادا أن يكونا متواجهين، قسم يركز على الأوضاع الداخلية وما فيها من استبداد ويستخلص من ذلك إدانة العراق ويغض الطرف عن الوجود الأمريكي العسكرى باعتباره مجرد أثر ورد فعل، ويغلو البعض فيرى الوجود الأجنبي عنصر دفاع مبرر الوجود عن استقلال بلد عربي. وقسم يركز على الاحتلال الأمريكي بحسبان أن المشاكل العربية لابد أن تحل في الإطار العربي وحده، ويغلو البعض فيتخذ موقف الدفاع عما صنعت العراق في الكويت، وليس المهم هو ما غالى به البعض من الفريقين، ولكن المهم هو أن هذا الجدل الفكرى والسياسى الذى اتخذ طابع الصراع جاء ترداداً لذات ما قام من جدل وصراع في بداية القرن العشرين حول إصلاح الأمة من الداخل على طريقة حزب الأمة في مصر أم بجلاء الاحتلال الأجنبي على طريقة الحزب الوطني.

والأهم من ذلك ـ يرى البشرى ـ أن غالب الأحزاب في بلدنا وغالب الجماعات السياسية قد صادفه هذا الانقسام من داخله، سواء من التيار الإسلامى أو التيار القومى أو التيار الليبرالى أو التيار اليسارى، في كل من هذه التيارات، وجدنا من يركز على الخطر الخارجي على طريقة الحزب الوطني القديم أيام مصطفى كامل ومحمد فريد، ووجدنا من يركز الاستبداد الداخلى باعتباره أصل المشاكل على طريقة حزب الأمة القديم أيام أحمد لطفي السيد ومن شايعه. وهذا ما يظهر نوعًا من الوهن الذى يمس قوة التماسك والاتساق الفكرى والثقافى في نظرنا لقضية أساسية عايشناها منذ بداية القرن العشرين. ويعكس قدرًا من الاضطراب في موقفنا من هذه القضايا.

ويعتبر البشرى أننا كنا «قد وجدنا الهدفين في مصر وجعلناهما عملية سياسية واحدة في ثورة ١٩١٩، ولكن الحل الذى كنا أدركناه في هذه الثورة التى جمعت بين مطلب الاستقلال ومطلب الديمقراطية، ما لبثنا أن تعثرنا به عندما لم يحل أى من الهدفين حله الحاسم، وجاء من تيارات الثلاثينيات وما بعدها من يطرح خيار الأولوية من جديد، ويركز على أى من الهدفين قبل الآخر، أو دون الآخر. وهكذا لم يحسم أمر المزج بين المسألتين في نسق فكرى واحد، أو بعبارة أدق فإن هذا النسق الواحد لم يشع في البيئة الثقافية ليشكل أحد أركان التيار الرئيسى الأساسى في الفكر السياسى السائد».

ورغم إقرار البشرى بتاريخية «السؤال الأزمة»، إلا أنه يلاحظ «في قراءته للحدث الأفغانى» أن ثمة ما تغير. وأن شيئًا شبيهًا في هذه المسألة لم يحدث. وأن السؤال المزمن توارى ولو إلى حين. فالكثيرون من الإسلاميين لا يطيقون نظام حكم «طالبان» في أفغانستان، ناهيك عن غير الإسلاميين، ومع ذلك فلم يظهر صوت يؤبه بقوته أو فاعليته يؤيد الأمريكيين في ضربهم الأفغان وغزو أراضيهم، ومن الناحية الشعبية بين العرب والمسلمين، يكاد يقوم نوع من التوافق الجماعى ـ إن لم نقل الإجماع ـ على إدانة الحرب الأمريكية ضد الأفغان مع كراهة هذا الصنيع القمعى المتجبر من الساسة الأمريكيين، ومن ناحية الحكومات فإنه فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكي ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، خضوع الضعيف وانصياع الخائف.

ورغم أننا نوافق البشرى في كثير مما ذهب إليه بهذا الخصوص، إلا أن أسئلة «مؤرِّقة» وذات صلة تظل مشروعة:

١ـ إلى أى مدى.. وإلى أى فترة من الزمن يظل هذا «التوافق الجماعى» كما يسميه البشرى، والذى كان منا ـ ربما ـ أمام الحدث الأفغانى. ففي بلادنا و«بعد أن تهدأ الفورة.. ويبدو جليا ما في القِدْر»، يصبح طبيعيًا أن ننسى أو ننشغل.. أو نتشاغل. ويصبح طبيعيًا أيضًا أن ترتفع أصوات تتحدث عن «الواقعية.. والحسابات». ولعلى أذكر هنا ما لاحظه الأستاذ هيكل ذات يوم من أن تظاهرات الاحتجاج في الغرب على حرب مزمعة ضد العراق، وعلى ما يجرى في فلسطين، يتجاوز بمراحل، حجمًا وتأثيرًا، تلك التى تشهدها، عنوة أو على استحياء، شوارعنا العربية.

٢ـ هل تمتد وحدة الموقف والشعور و«الحسابات» إلى «الحالة» العراقية؟ (راجع خطاب المثقفين الكويتيين الذى رفضت صحف عربية نشره لفترة من الزمن.. وكذلك بيان المثقفين المصريين «المحاولة».. ولاحظ ما لحق بصور ابتسامات وسلامات وقبلات قمة بيروت من تآكل وبهتان).

٣ـ إلى أى مدى تنجح الآلة الإعلامية الرهيبة، وضغوط الفقر ولقمة العيش، وتصريحات «العجز وقلة الحيلة»، والإحساس المتنامى بالوهن والإحباط واليأس، في أن تدفع بالبعض إلى حالة من الرضا، بما هو واقع. بل ـ وهذا يفهمه علماء النفس ـ تحبيذه أحيانًا والدفاع عنه.



بدأ العامُ الأصعب والمشهدُ عربيًا كالآتى: عاصفةٌ تهدد تخومَ الشرق ـ وإن لم تدو الصواريخ في سماء بغداد «فوراء الأكمة ما وراءها». وعاصفةٌ تهدد باقتلاعِ «ضمير الأمة وهويتها». واجتياحٌ وإذلالٌ وقتلٌ يومى. وتجريفٌ للأراضى وتدميرٌ للمنازل أمام كاميرات التليفزيون، التى يبدو أن العالمَ كلَّهُ قد اكتفى بها «حركةً وفعلاً» أمام ما يحدث أمامه ـ وأكرر ـ يوميًا في قرى فلسطين وبلداتها. وبعد أن وجد البعضُ ضالته ـ إبراءً للذمة والضمير ـ في الالتهاء بجدلٍ عقيمٍ حول «الاستشهاد والانتحار».

يبدأ العامُ الأصعب، وغيومٌ كثيفةٌ من الغموض والإلهاء والإرباك. وجروحٌ تبدو جديدة وأخرى لا تريد أن تندمل. ومخططاتٌ «سوداء» تقضم بأنياب «اثنية» جنوب الوادى، تحت دعاوى الحرية وحماية الأقليات. ووسط طبول «القبائل» ونذر التمزق، مازال حمَّام الدم يغسل شوارع الجزائر التى لم تحتمل ديمقراطيةً التى تصور البعضُ يومًا أنها ستكون مبشرتها في عالمنا الإسلامى المتهم.

يبدأ ـ هكذا ـ العامُ الأصعب، والذى سيشهد على الأغلب لمسةً «أو ضربةً» المبضع الأولى في جراحة، هي كبيرةٌ بحكم الشواهد، وعميقةٌ بحكم تشخيصٍ أعلنَت أعراضُه ـ أو بعضُها على الأقل ـ مهما كانت دبلوماسية المحاضر في قاعة Heritage. وهو بالمصادفة كان رئيسًا للأركان في حرب الخليج الثانية ١٩٩١ والتى انتهت ـ وبغض النظر عن المقدمات والأسباب ـ بالاحتلال العسكرى «الفعلى» للولايات المتحدة الأمريكية للخليج العربي. واستقرار وجودها الصريح «والشرعى» على ضفافه العربية.

وكان هذا الحدث قد اتسم بأمرين مهمين ـ وأعود هنا إلى كتاب البشرى ـ أولهما «أنها كانت المرة الأولى التى تضربنا فيها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها، فلم يحدث قبلها في الوطن العربي أن استخدم السلاح الأمريكي بالأيدى الأمريكية ضد بلد عربي، كان يستخدم من قبل عن طريق الصهاينة، وكان يستخدم عن طريق الصراعات الداخلية، ولكن التدخل الأمريكي المباشر في حرب صريحة ضد بلد عربي، وتضرب بنفسها شعبًا عربيًا مسلمًا، فقد كان ذلك هو الحادث الأول، إن لم تخطئ الذاكرة، وثانى الأمرين: أنها كانت المرة الأولى التى تجتمع فيها دول الغرب ذات الثقل على ضرب بلد عربي أو إسلامى بغير تعارض ذى شأن بين مصالح هذه الدول وبغير اختلاف في السياسات يصل إلى حد التعارض إزاء حرب ساخنة. وذلك كله منذ اجتمعت الدول الأوروبية الكبرى ضد محمد على في عام ١٨٤٠».



ربما يبقى لازمًا الإشارةُ ـ ثانيةً ـ إلى أن طارق البشرى انتهى من كتابه قبل الإعلان عن مبادرة باول. وأن الصلة بينهما «توقيتًا وموضوعًا» لم تكن أكثرَ من مصادفة.

والكتاب على أية حال يضم عددًا من المقالات التى كتبها البشرى في مطبوعات مختلفة خلال العام «الصعب» ٢٠٠٢ والذى بدأ فيه العالم (ونحن في القلب المستهدف منه بحكم اتهامٍ حارٍ في قضائه القضاة) يشهد توابع «الزلزال» الضخم الذى هز الدنيا كلها صباح الثلاثاء الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

والكتاب الذى خصصه صاحبه للحديث عن مواجهات العام «الصعب» صدر قبل أسابيع، ومع إطلالة عام يبدو أنه لن يكون بحال أقل صعوبة، إن لم يكن ـ بحكم الشواهد ـ «أصعب» وسط طبول حرب تدق عاليًا منذرة ـ دعك من كل شىء آخر ـ بطوفانٍ لا يأمنُ أكثرُ المتفائلين «العقلاء» نتائجَه. مهما كانت «الجبال عالية» في نظر الواهمين باستقرار، أو المتوهمين بصداقة وعلاقات استراتيجية. ■



يحاول المجبورون تسمية الأشياء
بغير أسمائها. رافعين حينًا شعارَ الواقعية،
ومحتمين حينًا آخر بحكمة «بيدى لا بيد عمرو».
أو مؤكدين. إعلاميًا على الأقل
ـ أننا already على الطريق



وطـــن يأكـــل أبنـــاءه .. اليمـــن

حـــسن أبو طالـــب

■■ الذين تابعوا المشهد الجنائزى المهيب الذي ودع جثمان الراحل جار الله عمر، الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكى اليمنى، إلى مقبرة الشهداء في الثلاثين من ديسمبر الماضي، ولاحظوا الشعارات المندة بالإرهاب والتطرف والمتمسكة بالديمقراطية والداعية إلى ثقافة التسامح، والتي رفعتها كل الأحزاب اليمنية، يقعون في حيرة من أمرهم، فإذا كانت كل القوى السياسية اليمنية مؤمنة بالتعددية السياسية والفكرية، فمن المسئول إذا عن بيئة التطرف السياسي والفكرى التي أفرزت قاتلي جار الله عمر، ثم الأطباء الأمريكيين الثلاثة الذين عاشوا في اليمن لمدة تزيد على العقدين يقدمون خدمات إنسانية لبسطاء اليمن في قرية جبلة النائية التي عجزت أيادى الدولة عن الوصول إليها لقلة الموارد. ومن قبل هؤلاء مئات من شهداء الكلمة والعمل السياسي، أخذتهم طاحونة العنف والاقتتال الأهلي.

وإذا كان الجميع لا علاقة له باى خلايا إرهابية أو مجموعات على علاقة بتنظيم القاعدة، فكيف تحولت البلاد إلى ملاذ لهؤلاء، يعبرونه وقت يشاءون ويعملون انطلاقا منه ضد هذا الطرف أو ذاك وقت يريدون؟، ثم كيف يكون الخطاب الرسمي متباهيا بالديمقراطية والتعددية، وفي الوقت نفسه ترى كل القوى السياسية الخارجة عن سلطان الحكم، بما في ذلك من لهم نواب منتخبون بإرادة الشعب في البرلمان، أنها منبوذة ومستبعدة عن المشاركة في صنع القرار أو التأثير في صيرورته؟.

أسئلة مثيرة وكثيرة وتزداد إثارة بعد تلك الاتهامات التي كالها رئيس الوزراء عبد القادر باجمال في تقرير رسمي قدمه لمجلس النواب في اليوم الأخير من العام ٢٠٠٢ حول جهود الحكومة لمواجهة الإرهاب، وهي اتهامات طالت أحزابا معينة لم تحدد بالاسم، باعتبارها تحمي الإرهاب وتتستر على عناصر ذات صلة بالقاعدة عادت إلى البلاد في الفترة الماضية، وشجعتها على القيام بأعمال تخريبية وإرهابية، والتحريض ضد الحكومة ومصالح الشعب وذلك من منابر المساجد، التي خرجت منها فتاوى بمحاربة الأجانب عامة والأمريكيين خاصة باعتبارهم كفرة. وفي التقرير تأكيدات على صلات مالية لهذه العناصر الحزبية - المفترض أنها معروفة للدولة ولكن لها وزنها السياسي الثقيل - مع تنظيم القاعدة، وذلك من خلال بعض تنظيمات خيرية ودينية وبعض شخصيات في الخارج، استخدمت في تمويل تفجيرات في بعض المحافظات اليمنية.

وبعيدًا عن الاتهامات والتلميحات التي اعتُبرت موجهة بالأساس إلى حزب التجمع اليمني للإصلاح الذي يقوده الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر رئيس مجلس النواب اليمني، فإن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا لم تقدم الدولة على اعتقال هؤلاء المتورطين في أعمال أو صلات إرهابية وقدمتهم إلى العدالة، أم أن هناك أسوارا من الحماية السياسية والمعنوية حول هؤلاء يصعب اختراقها وتستعصى على الدولة نفسها؟.

وهنا فإن واقعة توقيف السلطات الألمانية ١١ يناير ٢٠٠٣ الشيخ محمد علي المؤيد الذي وصل ألمانيا لغرض العلاج، ومساعده، بطلب من السلطات الأمريكية، تقدم بعض الدلالات المهمة. فحسب الرواية الأمريكية أن الشيخ المؤيد أحد العناصر التي دعمت تنظيم القاعدة بالأموال، وفقا لما جاء في اعترافات عبد الرحيم الناشرى المتهم بكونه أحد قيادات القاعدة في منطقة الخليج. وهو ما لم يتم إبلاغه للحكومة اليمنية رغم التعاون الأمني المفترض بين الجانبين.

وهناك ثلاثة جوانب، كل منها يعبر عن جانب من الأزمة السياسية في اليمن. الأول: أن الشيخ المؤيد عضو بارز في التجمع اليمني للإصلاح، وإمام وخطيب مسجد ورئيس جمعية أهلية ومستشار في وزارة الأوقاف اليمنية، أو بعبارة أخرى هو رمز إسلامي شعبي ورسمي معا، ومن شأن اعتقاله والفشل في منع تسليمه إلى السلطات الأمريكية، أن يهز مصداقية الحكومة بشأن حماية مواطنيها، وأن يضعها في موقف حرج سياسيا أمام الرأى العام، ومن ثم تزداد مساحة الرفض الشعبي للتعاون الحكومي مع أمريكا في الحملة ضد ما يسمى بالإرهاب الدولي.

وثانيًا: إن كون الرجل عضوا في الإصلاح يجعل الأخير معنيا مباشرة بالجهود القانونية والدبلوماسية الهادفة إلى منع تسليمه للسلطات الأمريكية من جانب، والتأكيد على براءة الرجل من التهم الموجهة إليه كعضو نشط في «الإرهاب الدولي»، باعتبار أن التهمة هنا موجهة أيضا ولو بطريق غير مباشر للتجمع نفسه، وفي ظل الملابسات التي أحاطت باغتيال جار الله عمر، يمكن للمرء أن يتصور حجم المأزق السياسي الذي يواجه التجمع كحزب ينطلق برنامجه من رؤية دينية إسلامية، ويعمل على إثبات دوره كحزب ديني يدعو إلى التسامح وينبذ ثقافة العنف، وينفي عن نفسه أي تهمة تتعلق بالإرهاب داخليًا أو خارجيًا.

وثالثاً: إن اعتقال الشيخ المؤيد الذي يعرف شعبيا داخل اليمن كداعية وكرجل يهتم بمساعدة الفقراء عبر جمعية الإحسان التي يرأسها، من شأنه أن يعمق الرؤية القائلة بأن الحرب الأمريكية على الإرهاب لا تفرق بين المعتدلين أو المتطرفين من أبناء المجتمعات الإسلامية، وإنما هي موجهة بالأساس إلى الإسلام كدين، وكل تعبيراته الأهلية، وإن السلوك الأمريكي يبرر عمليات عنف ضد المصالح الأمريكية في اليمن نفسها كما في غيرها.

دعـــاوى الانتـــصـــار وعـمليـات الاستبـعـاد:

مثل هذه الأسئلة المحيرة وغيرها كثير تعبر عن بعض ملامح الحالة السياسية التي يعيشها اليمن منذ ما يقرب من عقد، وتحديدا منذ انتهاء ما يعرف بحرب صيف ١٩٩٤، أو حرب انتصار الوحدة على الانفصال وفقا للتعبيرات الرسمية الشائعة. وهي حالة معقدة إلى حد بعيد، تختلط فيها دعاوى الانتصار مع عمليات استبعاد وتقييد منهجية للأحزاب المعارضة، وتزداد فيها شعارات التمسك بالتعددية كخيار سياسي لا محيص عنه، وفي الوقت نفسه تقل مساحة المشاركة أمام كل التيارات السياسية بما في ذلك تجمع الإصلاح الذي لعب دورا مشهودا في إقصاء الحزب الاشتراكي عسكريا في صيف ١٩٩٤، واعتبر نفسه من المنتصرين حينها، ولكنه خرج من تحالف الحكم لاحقا، وفضل العمل كحزب معارض ولكن تحت مظلة السلطة.

وفي ظل خطاب إعلامي غالب تصريحا وتلميحا، ويعكس مفردات الفرز السياسي والمناطقي والتخوين الوطني، تطالب أحزاب المعارضة المنضوية تحت أحزاب اللقاء المشترك، وفي مقدمتهم الحزب الاشتراكي بالمصالحة الوطنية العامة كمخرج من حالة الجمود السياسي التي تخيم على البلاد، ويأتيها الرد متمثلا في اتهامات بخيانة الوطن والوحدة، ونصائح بالخروج من اللعبة السياسية، باعتبارهم مهزومين لا حق لهم في الوجود السياسي أو حتى العضوى. فضلا عن التشكيك في مشروعية مطالب المصالحة السياسية وتصويرها رغبة شريرة في الالتفاف على الديمقراطية، وتعبيرا عن نزعة لاقتسام السلطة بعيدا عن إرادة الناخبين. ثم تطورت اللغة والمفاهيم إلى دعوة بالاصطفاف الوطني، لكن دون أمل في المشاركة في الحكم، وكان الدعوة تعني أن تؤيد الأحزاب ما يقوم به الحزب الحاكم، وأن تمنحه صكا ناصع البياض، يملأه بالطريقة التي يريد.

حـرج سيـاسى وانكشـاف أمنـى:

وقد ازداد الوضع السياسي حرجا، والأمني انكشافا طوال عام ٢٠٠١، فعلى خلفية الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، وفي ضوء الحقائق الخاصة بأن اليمن كان معبرا - على الأقل منذ منتصف الثمانينيات إبان حملة «الجهاد» الأمريكية الإسلامية ضد الاحتلال السوفيتي السابق لأفغانستان، وحتى منتصف التسعينيات حين عاد «الأفغان العرب» إلى بلادهم - لعناصر أصيلة في تنظيم القاعدة، فضلا عن بيئة فكرية واجتماعية وقبلية حاضنة لهذه الأفكار والتنظيمات منذ فترة طويلة، وفي ضوء الضغوط الأمريكية والخيارات المحدودة أمام الحكومة اليمنية، لم يكن سوى سبيل التعاون الأمني واسع المدى. وفي مثل هذه المسائل الأمنية التي تختلط فيها عمليات الاستخبارات السرية بالتعاون العضوى غير المعلن، يصبح كشف الحقائق أمرًا متعذرًا، مما يثير الشائعات والتفسيرات التي تخرج أحيانًا بعيدًا عن جوهر الأمر وصحته. لكن الأمر المؤكد للجميع، ومنذ زيارة الرئيس على عبد الله صالح للولايات المتحدة في نوفمبر ٢٠٠١، أن هناك تعاونا يمنيا أمريكيا في مواجهة القاعدة وفلولها الذين احتموا بقبائل اليمن وجبالها وطبيعتها الوعرة، إضافة إلى بعض الشخصيات النافذة فيها. وهي صيغة تعاون ذات طبيعة فريدة اختلطت فيها معونات أمريكية لتدريب طواقم يمنية مع بعض معدات حديثة في مجال مكافحة الإرهاب وحماية الحدود، إضافة إلى وعود قاطعة من قبل القيادة اليمنية بالسيطرة على حركة شخصيات دينية يمنية نافذة، والتي تعتبر أمريكيا متورطة مباشرة في الهجوم على مصالح أمريكية في اليمن وفي المنطقة. ومن أبرزها الشيخ عبد المجيد الزنداني رئيس مجلس شورى الإصلاح، ومؤسس جامعة الإيمان التي ينظر إليها كحاضنة لأفكار التطرف الديني.

بيد أن الأمر الذى لم يكن متصورا لدى قطاع كبير من اليمنيين، أن يصل التعاون الأمني مع الجانب الأمريكي إلى حد الطلب الرسمي بقيام عملية اغتيال لعناصر متهمة بكونها قيادية في تنظيم القاعدة، مثل ما حدث مع ابو على الحارثي وستة من مرافقيه في الثاني من نوفمبر ٢٠٠١ في صحراء مارب، بواسطة طائرة أمريكية بدون طيار، أطلقت صاروخا أودى بحياة من كانوا في السيارة.

وبينما تحمل الرؤية الرسمية تفسيرا مفاده ان اغتيال هؤلاء أمر مشروع، باعتبارهم عناصر إرهابية خارجة عن الدولة، وأن التعاون مع الولايات المتحدة بالصورة التي تمت بها عملية الاغتيال مبرر بعدم قدرة الأجهزة الأمنية على الوصول إليهم، وأن الأمر لا يعدو أن يكون

الأمر المؤكد للجميع، ومنذ زيارة الرئيس على عبد الله صالح للولايات المتحدة فى نوفمبر ٢٠٠١، أن هناك تعاونا يمنيا أمريكيا فى مواجهة القاعدة وفلولها الذين احتموا بقبائل اليمن وجبالها وطبيعتها الوعرة، إضافة إلى بعض الشخصيات النافذة فيها. وهى صيغة تعاون ذات طبيعة فريدة



فى مهب الريح!

استعانة بالأجهزة المتطورة التى لدى الجانب الأمريكى، وأن قرار الاغتيال كان يمنيا بحتا حسب بيان رئيس الوزراء أمام مجلس النواب. أما الرؤية الشعبية والسياسية الأخرى فترى الواقعة من منظور التفريط فى السيادة الوطنية وتجاوز القانون، والتحول إلى سياسات لاتليق بالدول المتحضرة، فالأصل هو إخضاع الخارجين عن القانون إلى العدالة، وترك القضاء يحدد المسئولية الجنائية والعقاب المناسب.



هذه الواقعة الفريدة تعكس شقا معتبرا من أزمة النظام السياسى اليمنى نفسه، فالظاهر أن تيارات أصولية منظمة وذات علاقة وثيقة مع القاعدة أو مع جماعات إسلامية عربية معروف عنها انتهاجها للعنف، وتدخل تحت تعريف الإرهاب بصورة أو بأخرى، هى جزء من بنية النظام السياسى نفسه، ومعنى أى مواجهة حقيقية معها، هى مواجهة النظام لنفسه، أو بالأحرى مواجهة أركان من النظام أركانا أخرى، بما يعنيه الدخول فى مرحلة أخرى من الحروب الأهلية التى تعتبر سمة طبيعية من سمات التطور السياسى اليمنى عبر العصور، والتى تُحسم عادة عبر التوازنات القبلية والأموال والأسلحة.



تداخل هيكلى:

هذا التداخل الهيكلى الذى زادت حدته منذ حرب صيف ١٩٩٤ سمح بعمليات اختراق أعضاء من التنظيمات المتهمة بالتطرف والإرهاب إلى كبريات أجهزة ومؤسسات الدولة. ويُشار هنا إلى واقعتين مهمتين: الأولى أن أحد المطلوبين فى القائمة الأمريكية التى قدمت للجهات الأمنية اليمنية نهاية عام ١٩٩١ ويدعى فواز البرعى كان يعمل فراشا فى دار الرئاسة، حيث اختفى أو قد يكون أُخفى بعد تسلم الأجهزة اليمنية القائمة الأمريكية للمطلوبين. أما الواقعة الثانية، ففى أثناء محاكمة أبو الحسن المحضار قائد تنظيم جيش أبين عدن الإسلامى، الذى اختطف سياحا أجانب عام ١٩٩٨، ذكر أن هناك أعضاء فى التنظيم يشغلون مراتب عليا فى الأمن اليمنى والجيش. ووفقا لمعلومات الأمن اليمنى، فإن هذا التنظيم هو جزء أساسى أو على الأقل له صلات تنظيمية مع حركة الجهاد اليمنى التى يعد الشيخ طارق الفضلى أحد رموزها.

إن دور الشخصيات البارزة دينيا أو عسكريا أو قبليا فى تدعيم الرؤى الاستبعادية للآخر، لايغنى عن الإشارة إلى أن نمو هذا التيار سواء أخذ صورة دينية أو سياسية ذات شكل ظاهرى حديث فى اليمن له أسبابه وأشكاله المختلفة، نشير إلى أربعة عوامل مرتبطة معا:

* دور القبيلة التى تمثل البناء الاجتماعى المُحكم فى اليمن وما زالت تحافظ على تقاليدها ولا تتنازل عنها بسهولة وتعتبر أن ذلك عار عليها إلى يوم الدين، لاسيما فى توفير الحماية لمن يستجير بها.

* العوامل الطبيعية حيث التضاريس الجبلية الوعرة، التى تساعد أى مجموعة إذا ما تسللت إليها فى التحصن بها بعيدا عن أعين الدولة. والشواطىء البحرية الطويلة التى يستحيل السيطرة عليها كلية، وهى من مصادر التهريب للأفراد والسلع والأسلحة.

* الفوضى والفساد فى الجهاز الإدارى وغياب المحاسبة والقانون، فضلا عن اختراق التنظيمات الأصولية لمؤسسات الدولة وأجهزة الأمن والجيش.

* تغلغل كبار أعضاء وقيادات التيارات الأصولية فى البنية الاقتصادية اليمنية، وربما مثل بعضهم غطاء اقتصاديا لتمويل الأنشطة شبه العسكرية لتنظيماتهم الأصولية المختلفة.

قيود العمل السياسى:

«التفريط فى السيادة الوطنية» وفقا للرؤية السياسية غير الحكومية فى موضوع الإرهاب والعلاقة مع الولايات المتحدة لا يعد المصدر الوحيد لنقد الحكومة وإثارة التساؤلات أمام القيادة السياسية، فهناك قضايا داخلية أخرى فرضت نفسها أضافت قدرا من السخونة والحماسة على مجمل العمل السياسى. فبالرغم من اقتراب موعد الانتخابات النيابية فى أبريل المقبل، ومن ثم اقتراب نهاية البرلمان الحالى، فإذا بالمؤتمر الشعبى الحاكم، وعبر الأغلبية الساحقة التى يتمتع بها فى البرلمان يعمد إلى تعديل اللائحة الداخلية لمجلس النواب، وبحيث تصادر على حق النواب فى التقدم بأسئلة أو استجوابات للوزراء، حيث جعل التعديل الذى تم فى الأسبوع الثالث من ديسمبر ٢٠٠١ للمادتين ١٩ و٢٥ من اللائحة، هذا الحق النيابى الصرف مشروطا بموافقة رئيس المجلس وتسليم الأسئلة مسبقا للجنة مختصة قبل السماح بتوجيهها إلى الوزير المختص. والأمر هنا لم يعد يخص المجلس الحالى نظرا لاقتراب موعد حله، ولكنه يخص المجلس القادم، وكأن الحكومة تحصن نفسها مستقبلا من حق المساءلة البرلمانية، وتلغيه عمليا حتى قبل أن يُنتخب النواب من قبل المواطنين.

فبدلاً من توسيع دائرة الرقابة البرلمانية وتفعيل دورها فى بيئة سياسية مُقيدة بالأساس، فإذا بالتعديلات والقرارات تتخذ لمزيد من تقييد الحق الرقابى، وذلك لصالح السلطة التنفيذية التى تحتاج فى الأعراف الديمقراطية والبرلمانية إلى مزيد من الرقابة الشعبية على أدائها، وليس العكس.

وفى سياق المزيد من القيود على العمل السياسى تجرى محاولة تشريع قانون جديد للمظاهرات والمسيرات، يحد من هذه الظاهرة ويحمل المسئولين عنها أعباء قانونية وأمنية ليست من سلطتهم. وهى المحاولة التى أثارت أحزاب اللقاء المشترك، ورأت فيه حسب بيانها الصادر فى ١٧ ديسمبر ٢٠٠١، قانونا يصادر ما تبقى من الهامش الديمقراطى وقمع الحريات الأساسية ومنع المواطنين من حقهم فى التعبير والاحتجاج، وأنه لا يخدم سوى الفساد المستشرى والممارسات الخاطئة والمظالم القائمة، وأنه بمثابة إعلان لحالة الطوارئ، وهو لايزيد على كونه مشروع عقوبات تجرِّم المواطنين فى حال التعبير عن رأيهم، فيما يؤكد التوجهات السيئة للحكومة.

وبينما ركزت الأنظار على مناهضة قانون التظاهر والمسيرات، فإذا بمشروع الميزانية المقدم للبرلمان يجد معارضة حتى من قبل النواب المنتمين للمؤتمر الشعبى، باعتبار أن الموازنة تفتقر إلى الحد الأدنى من التوازن، وتضفى على غالبية المواطنين مزيدا من الفقر وكثيرا من المعاناة.



على الجانب الآخر، تنشط أحزاب اللقاء المشترك للحفاظ على الحد الأدنى من شروط العمل الديمقراطى المتمثل فى ضبط إجراءات العملية الانتخابية المقبلة، حيث تمكنت هذه الأحزاب بالمشاركة مع المؤتمر الشعبى العام فى أكتوبر ٢٠٠٢، من التوصل إلى اتفاق تعديل قانون الانتخابات وتشكيل اللجنة العليا للانتخابات، وتنفيذ عملية القيد والتسجيل، رغم بعض التجاوزات. وتبلور الدافع الأكبر لمثل هذه المهمة فى تمهيد البيئة السياسية لانتخابات تتمتع بأكبر قدر ممكن من النزاهة، وتتيح مشاركة أوسع، وتساعد على انتخاب برلمان جديد يعكس التوازن السياسى والاجتماعى والمناطقى القائم فعلا فى البلاد. وهو تطور إيجابى بكل المقاييس، وإن كان بحاجة إلى برهان عملى، وبحاجة إلى اختبار حقيقى وقت الانتخابات المقبلة.

أسلحة شرقية وأموال غربية:

وفى المدى الزمنى نفسه كشفت واقعة صواريخ سكود الكورية الشمالية التى استوردتها اليمن وأوقفتها السفن الأسبانية والأمريكية فى الحادى عشر من ديسمبر ٢٠٠٢ فى بحر العرب قبل دخولها الموانئ اليمنية، ثم ما لبثت أن أفرجت عنها الولايات المتحدة بعد الحصول على تفسيرات وضمانات يمنية رسمية عليا بأن الصواريخ، وهى خمسة عشر صاروخا تحمل رؤوسا شديدة الانفجار، هى مجرد تنفيذ لعقود قديمة تعود إلى عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩، وأنها جاءت

في ضوء دروس حرب الوحدة ضد الانفصال عام ١٩٩٤، وأنه لا نية لشراء صواريخ جديدة من كوريا الشمالية، وأن المسألة مرتبطة بتطوير القدرات الدفاعية اليمنية ليس إلا. فضلا عن أن اليمن جزء من الحملة الدولية ضد الإرهاب، وأنها تتعاون في ذلك مع الولايات المتحدة تعاونا كبيرا، وليس من حق واشنطن بالتالي أن تضع القيود على مساعي اليمن لتطوير قدراته الدفاعية، طالما أنها تخصه وحده، وأن تلك النوعية من الصفقات لن تحول إلى أي طرف آخر.

ونظرا لأن الصواريخ متوسطة المدى، ولا تصلح في حال مواجهة جماعات إرهابية منتشرة في ثنايا الجبال والأودية اليمنية، فقد طرح التساؤل نفسه: من هي جهة التهديد التي ترغب الحكومة اليمنية في ردعها؟ وخاصة أن العلاقات اليمنية مع الجيران المباشرين، كعُمان والسعودية، في حال طيبة، وما دامت هناك مساعٍ يمنية للانضمام إلى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، فالمفترض أن الشعور بحالة التهديد ليس قائمًا وغير موجود في هذا الاتجاه. وربما اجتهد البعض في تحديد جهة التهديد التي تعمل الحكومة اليمنية على ردعها بأنها في الجانب الآخر على البحر الأحمر، أو بالتحديد إريتريا. بيد أن مثل هذه التفسيرات لم تجد صداها لدى المواطن اليمني العادي الذي نظر إلى المسألة من زاوية أن الحاجة للإنفاق على مشروعات التنمية وتحسين حياة الناس البائسة مقدمة على الإنفاق على أسلحة ليس هناك ما يشير إلى احتمال استخدامها، ولا ضرورة حالة لامتلاكها.

بيد أن التطورات في مجال التسليح كشفت جانبا مثيرا آخر، ففي أثناء زيارة الرئيس علي عبد الله صالح الى موسكو، والتي جاءت بعد أيام قلائل من إغلاق ملف صواريخ سكود، تم التفاهم على شراء اليمن مقاتلات روسية حديثة من طراز ميج ٢٩ و٢٠ نظاما صاروخيا من طراز «كورنيت إي» المضاد للدبابات، وطائرات مروحية حربية من طراز «كاموف». والمثير في الأمر كله أن الأسلحة الشرقية التي تتوافق مع العقيدة العسكرية اليمنية والتي قوامها أسلحة روسية بالأساس، سوف تتولى تمويلها الولايات المتحدة. وهي سابقة تتوافق مع طبيعة النظام الدولي القائم حاليا والذي بات يسمح بالمتناقضات وبأمور لم يكن يمكن تصورها من قبل، وذلك حسب ملاحظة الرئيس علي صالح إبان زيارته إلى لبنان التي تلت زيارته لموسكو، التي فسر فيها ما قيل عن تمويل بقيمة ٦٥ مليون دولار لشراء أسلحة روسية وطائرات بأنه من دواعي الحرب ضد الإرهاب التي جعلت أشياء كثيرة ممكنة. والمهم هنا أن هذه السابقة تكشف عن حجم التداخل في المصالح الاستراتيجية الكبرى بين اليمن والولايات المتحدة وروسيا في آن واحد.

قضايا مترابطة ومتناقضات بالجملة:

مثل هذه القضايا المترابطة مع بعضها ما بين سياسي أمني واقتصادي واجتماعي واستراتيجي، تشير إلى حالة تعبئة فكرية واستقطاب سياسي في كل الاتجاهات، وقدر من التضارب إن لم يكن الانفصال بين التبريرات الرسمية وبين القناعات الشعبية ورؤى وتحركات أحزاب المعارضة، وهي حالة تبدو غير مريحة سياسيا ومحملة بمتناقضات كثيرة، ولاسيما أن الشعور الجارف بالاستبعاد يسيطر على حركة أحزاب اللقاء المشترك، وهو شعور سلبي، في الوقت نفسه تجتهد دوائر عديدة من السلطة التنفيذية في تعميقه، مدفوعة باعتبار أن ذلك يؤدي إلى سوء الحسابات السياسية بين هذه الأحزاب وبعضها، أو داخل كل حزب بمفرده، ومن ثم يحدث انفلات لرابطة العقد التي تجمع بين هذه الأحزاب، وهو ما يتيح فوزا كبيرا للمؤتمر الشعبي في الانتخابات البرلمانية المقبلة، ومن ثم سيطرة مريحة على عمل مجلس النواب دون إزعاج من معارضة أيا كانت نوعيتها أو طبيعة فكرها وأيديولوجيتها.



في مثل هذه البيئة السياسية محدودة الآفاق ومقيدة الحركة، مشدودة الأنظار إلى مزيج من لقمة العيش والكرامة وحريات سياسية ومشاركة مشروعة، هناك من يجتهد في فتح قنوات للتغيير السلمي، عبر تحسين عمل الآليات التعددية الموجودة وتوسيع آفاقها، وهناك أيضا من يؤمن بأن التطوير السياسي والاجتماعي والنهضوي الحقيقي في ربوع اليمن، لا يستطيع أي حزب بمفرده أيا كانت إمكاناته أن يحققه، فالقضية كبيرة وتحتاج إلى جهد كل أبناء اليمن أيا كانت رؤاهم السياسية والفكرية. ويمكن القول أن تجربة أحزاب اللقاء المشترك، والتي تطورت عبر تجربة أحزاب مجلس التنسيق الأعلى خلال السنوات الخمس الماضية، تمثل هذا الجهد السياسي السلمي الهادف لبلورة صيغة ائتلاف وتنسيق حزبية عريضة تتفق على برامج وخطط محددة من أجل دعم الديمقراطية وضمان نزاهة الانتخابات القادمة وإفساح المجال أمام تشكيل مجلس نواب يعكس الحالة التعددية القائمة في المجتمع وفي الشارع السياسي معا، جنبا إلى جنب إفساح المجال أمام عملية احتكاك سياسي طبيعي بين الأحزاب اليمنية بعيدا عن أساليب المكايدة السياسية، وتهميش الأدوار وتشتيت عمل الأحزاب من خلال تأجيج الصراعات الداخلية بين قيادييها وكوادرها. وهي الأساليب التي برعت فيها طوال العقد الماضي أجهزة تنفيذية محسوبة على المؤتمر الشعبي، وعلى نحو جعل العمل الحزبي مزيجا من المغامرة والمشقة وهدرا للإمكانات البشرية والمادية، ودون عائد حقيقي على التطور السياسي في البلاد.

هذه المفردات السياسية والأمنية، والتناقض بين الخطاب الرسمي بمفرداته المتفائلة عن الديمقراطية والتعددية السياسية، وفي الآن نفسه جملة من الممارسات البعيدة عن الانفتاح على الآخر السياسي، الممزوجة بحملات إعلامية تقوم على التشكيك الدائم في صدق القوى السياسية الأخرى، وتدينها دومًا وتشكك في وطنيتها على خلفية مطالبها بتوسيع هامش الحريات السياسية وإفساح المجال لمشاركة حقيقية غير مقيدة، كل ذلك يشكل بعضا من خلفية حادثتي الاغتيال اللتين نفذهما قاتلان محسوبان على عمليات التعبئة الفكرية والدينية والسياسية الخاطئة، وذلك بغض النظر عن كونهما ذوي صلة بتنظيم القاعدة أو خلية إرهابية، أو جهة أمنية ما، أو حزبا سياسيا مشروعا ذا طابع أيديولوجي وديني معين.

دلالات الاغتيال:

ولعل الدور الذي كان يقوم به جار الله عمر في تجسيد الترابط الحزبي في مواجهة سياسات الانغلاق والتقييد السياسي ومسعى تأكيد الطابع السلمي على العملية السياسية برمتها، تفسر كثيرا بعض بواعث الاغتيال، إضافة إلى بواعث أخرى تكمن في الانغلاق الذهني والتطرف الديني الذي يميز قطاعًا لا بأس به من الأجيال اليمنية الجديدة، والذي تغذيه تفسيرات وفتاوى دينية وسياسية معا، تقوم أساسا على تكفير المخالف وطنيًا ودينيًا، ونفي الآخر، ومشروعية التخلص منه بقرار فردي محض، والنظر إلى مثل هذا العمل باعتباره تقربا إلى الله تعالى، وليس عملاً شائنًا يرفضه الشرع ولا يقره منطق، ولا يقبل به وجدان فطري سليم.

إن المتأمل لتاريخ جار الله عمر السياسي وأفكاره السياسية، ودوره لاسيما في السنوات الخمس الماضية في تشكيل ائتلافات سياسية عريضة بين الأحزاب اليمنية وبعضها، يدرك تماما أن عمل الاغتيال لم يكن مقصودا به كفرد وحسب، بل كتيار سياسي أخذ في التجذر والترسخ - وإن كان ببطء - في الحياة السياسية اليمنية، يدعو إلى الشفافية السياسية وتشكيل الائتلافات الحزبية والسياسية العريضة، وعدم الانسحاب من العمل السياسي مهما كانت القيود والتبعات، وتحمل المخاطر في سبيل الهدف الأسمى المتمثل في إقامة حالة سياسية ديمقراطية حقيقية، وباعتبارها عاصمًا من التورط في أساليب القمع، وتخليص الحسابات السياسية بالعنف والقوة الغاشمة وفق الطريقة التي تميزت بها اليمن بشطريها قبل الوحدة وبعدها، ووصلت إلى آفاق دموية كبرى كما في أحداث يناير ١٩٨٦ في الجنوب سابقا، وفي حرب صيف ١٩٩٤ بعد الوحدة. وهو ما لا يأتي إلا من خلال ربط الناس بالسياسة وربط الأحزاب بهموم الناس وقضاياهم الحقيقية التي يعيشونها كل يوم وكل لحظة، والدفاع عنهم وعن مصالحهم والترويج لأمانيهم وتطلعاتهم، والسعي الدءوب إلى تجسيد تلك الطموحات فعلا وقولا.



هذه المعاني والدلالات الرمزية والمادية، والتي تربط بين الخاص والعام في عملية اغتيال جار الله عمر تتضح تماما في الأسلوب الذي تم به الاغتيال من حيث المكان والمناسبة. فبينما سعى أصحاب المناسبة، أي حزب التجمع اليمني للإصلاح، لجعل مؤتمرهم العام الثالث المنعقد في ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٢، تعبيرا عن نقلة كيفية في علاقة الحزب بمجمل الأحزاب السياسية اليمنية الأخرى، عبر دعوة قياداتهم ورموزهم للمشاركة في أعمال المؤتمر، وتجسيدا لسياسة الحزب المتصاعدة في التلاقي مع الأحزاب الأخرى لمواجهة عثرات العمل الديمقراطي في البلاد تحت مظلة «أحزاب اللقاء المشترك» (التي أثبتت دورها في تنقية الجداول الانتخابية قبل عدة أشهر)، جاء الاغتيال في باحة المؤتمر وأمام كل الحاضرين من قيادات سياسية ومندوبين وأعضاء الحزب، ليجسد رسالة سياسية مختلفة تماما. فالمطلوب شق اللحمة الحزبية المتصاعدة، وإثارة الشكوك فيما بين الأحزاب اليمنية، ودفعها لمناطحة بعضها بعضا، وأن تبقى مُشرذمة في عملها وفي رؤيتها، وبما يتيح لقوى أخرى أكثر تنظيما وإمكانات مادية أن تسود وتتحكم في المصير الوطني، فضلا عن إلصاق تهمة الإرهاب بالتجمع اليمني للإصلاح، وإفشال مؤتمره الثالث ودفعه إلى بؤرة الدفاع عن الذات، والتخلي عن المشاركة في تجمع أحزاب اللقاء المشترك، وإثارة الشقاق بين التجمع من جهة والحزب الاشتراكي من جهة أخرى.

وهي الرسالة التي فهمتها أحزاب اللقاء المشترك على نحو سريع، أدركت أن عملها في صورة لائتلاف عريض وفق برنامج يهدف إلى

نظرا لأن الصواريخ متوسطة المدى،
ولا تصلح في حال مواجهة جماعات إرهابية
منتشرة في ثنايا الجبال والأودية اليمنية،
فقد طرح التساؤل نفسه: من هي جهة التهديد التي
ترغب الحكومة اليمنية في ردعها؟ وخاصة
أن العلاقات اليمنية مع الجيران المباشرين،
كعُمان والسعودية، في حال طيبة



تطوير العمل الديمقراطى أولاً وأخيرًا، بات يشكل مصدر قلق حقيقى لقوى سياسية متنفذة فى البلاد، كما أدركت أن انغماسها فى حالة شك متبادل سيعنى تحقيق هدف القاتل والجهة التى وراءه أيًا كانت. ومن ثم فإن الرد الوحيد هو استكمال مسيرة أحزاب اللقاء المشترك والعض عليها بالنواجز. وهو ما أكدته هذه الأحزاب فى أكثر من تحرك رمزى وموضوعى على السواء فيما بعد واقعة الاغتيال. فيما أدرك قادة التجمع اليمنى للإصلاح أن الاغتيال بالطريقة التى تم بها كان هدفه «فتنة عمياء لا تبقى ولا تذر، لا لشىء إلا لأن الإصلاح قد اتخذ قراره من وقت مبكر، بالنضال السلمى الدءوب والمستمر لترسيخ قيم الخير وتجذيرها فى واقع المجتمع خلقًا وسلوكًا وممارسة فى واقع الحياة»، وذلك حسب قول محمد عبد الله اليدومى أمين عام التجمع. (جريدة الصحوة، ٩ / ١ / ٢٠٠٣)

كلمات سياسية أخيرة:

هذا الجانب العام تتضح معانيه ومضامينه أكثر فى ضوء الرسالة السياسية والفكرية التى كان يعبر عنها جار الله عمر من موقعه الحزبى تارة، واستنادا إلى رؤيته الثقافية العريضة لأحوال اليمن تارة أخرى، ومن خلال استيعابه لطبيعة الأزمة العضوية التى تستحكم باليمن سواء قبل الوحدة أو بعدها، ومدى تأثرها بعوامل ذاتية وأخرى إقليمية، والتى يتطلب مواجهتها بالعمل الدءوب والمخلص، ومشاركة كل قطاعات الشعب، ولملمة جهود الخيرين من أبناء الوطن. فواقعة الاغتيال من جانب آخر، استهدفت التأثير على حالة التماسك الداخلى التى تميز بها الحزب الاشتراكى فى أعوامه الأخيرة رغم الهجمات الشرسة التى تعرض لها. وهى الحالة التى لعب فيها جار الله عمر دورا بارزا من خلال موقعه الحزبى وتحركاته المحلية والعربية والدولية فى الفترة التالية لحرب صيف ١٩٩٤، ومن خلال أفكاره التى استطاع أن يجسدها بالمشاركة مع رموز اشتراكية أخرى، فى برنامج الحزب ووثائقه المختلفة، والتى قامت على التمسك بالوحدة، ومناهضة الفكر الشمولى والتمسك بالتعددية، وإعلاء مفاهيم النظام والقانون والعدالة والمواطنة المتساوية بين كل أبناء اليمن.

إن الخطاب الأخير الذى ألقاه القائد الحزبى الاشتراكى أمام الحضور فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث لتجمع الإصلاح يعطى لمحة عن آخر الهموم التى كان يحملها الرجل. وهى جميعها تدور حول قيمة الديمقراطية سواء للعمل الحزبى الداخلى أو بالنسبة لبناء الأوطان وتجنيبها آثار التشظى والتفتت وويلات العنف والحروب الأهلية. «فالديمقراطية ليست شعارا بل منظومة متكاملة لا تتجزأ أساسها المواطنة المتساوية واحترام العقد الاجتماعى بين الحكام والمحكومين وصيانة الحريات والحقوق الإنسانية دونما تمييز. وكما أن جمهور المواطنين يحتاج على الدوام إلى تأمين الحد الأدنى من المساواة فى الفرص، وقدرا من العدالة والخدمات الاجتماعية المتاحة للجميع»، كما أن اليمن بحاجة إلى مجلس نواب يمثل اليمن بكل فئاته ومصالحه المختلفة.

وإن ثمة حاجة ماسة إلى تسريع الخطى فى طريق التحديث عبر سياسة شاملة وجملة إجراءات وقوانين ثورية بما فى ذلك التصدى لثقافة العنف ومنع الثارات والإسراع فى إصدار قانون ينظم حيازة وحمل الأسلحة ومنع المتاجرة بها، وذلك بدلا من فرض قانون يمنع المظاهرات ويناهض الحريات».

(جريدة الأيام ١/٢٩/٢٠٠٣).

أفكار أصيلة:

مثل هذه الأفكار الجامعة لم تكن وليدة اللحظة، أو مجرد رطانة سياسية، ولكنها تعبير عن قناعات كبرى ذات جذور، تشكلت من خلال تجربة حزبية وسياسية عريضة، ومرت على تجارب مختلفة لم تخلُ من دماء ومواجهات وقتال وتسويات وتوازنات وتضحيات جسيمة. وهى من جانب آخر تلخص القناعات الأساسية التى توصل إليها الحزب الاشتراكى اليمنى، كدليل عملى لإخراج البلاد من معضلات التنمية التى تحيط بها من كل مكان. ومنذ اللحظة الأولى التى أتيح لى اللقاء معه قبل عقد كامل فى مبنى اللجنة المركزية للحزب وسط صنعاء، أثناء إجراء بحث ميدانى عن الوحدة اليمنية، نشره لاحقا مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت مطلع ١٩٩٤، ولم يكن قد مر على إعلان دولة الوحدة سوى شهور معدودة، سادها مناخ من التفاؤل السياسى الذى استند على تقاسم السلطة بين المؤتمر الشعبى كممثل للشمال والحزب الاشتراكى كممثل للجنوب، كانت مفردات دولة النظام والقانون والمواطنة المتساوية والتمسك بآليات الحوار السلمى تمثل المفاتيح الأساسية لما يفكر فيه ويدعو إليه بين أجهزة الحزب ومؤسساته المختلفة. وفى هذا اللقاء الذى استمر أكثر من سبع ساعات متواصلة فى مكتب متواضع ملىء بالكتب المفتوحة على صفحات بعينها، والدراسات التى اختلطت فيها ملاحظات وهوامش عدة بأصلها ونصها، فضلا عن أوراق حزبية ومجلات ثقافية متنوعة، دار الحديث فى معظمه حول الطريقة التى تمت بها اتفاقات الوحدة وتقاسم السلطة والربط بين الوحدة

وإطلاق حالة تعددية سياسية، أو ما سمى آنذاك بالربط العضوى بين الوحدة والديمقراطية، وكانت هناك فكرة مسيطرة على تحليل جار الله عمر لكل هذه التطورات، وهى فكرة ربطت بين حالة الأزمة المستحكمة التى وصل إليها الشطران ولم يكن لها من مخرج سوى الوحدة القائمة على توازن دقيق يعكس حالة اليمن بكل تنويعاته وخبراته. وهو توازن لا يتحقق إلا من خلال إطلاق الحريات وربطها بمشروع تحديثى حقيقى وشامل، يخرج اليمن من دائرة التخلف التى تعصف به، سواء فى آليات عمل السلطة أو طريقة التفكير الجماعية أو البنى التعليمية والأداء الإعلامى، وأيضا إعادة النظر جذريا فى أداء الأحزاب اليمنية، سواء التى خبرت السلطة، أو تلك التى عملت بصورة سرية لمدة طويلة، وأعلنت عن نفسها بعد قيام الوحدة.

لم يقتصر الحوار وقتها على شئون اليمن وهمومه، وتطرق إلى موضوعات شتى، كانت تجد صداها فى تطورات عربية ودولية شتى من جانب وفى الكتب والأوراق التى كانت متناثرة حوله من جانب آخر. وفى هذا الحوار، الذى كان الأول فى سلسلة لقاءات امتدت على مدى عشر سنوات فى صنعاء وعدن والقاهرة ودمشق وبيروت، تجسدت قدرة الرجل على ربط الأحداث وبعضها، والنظر إليها كسلسلة متواصلة، وليست كمجرد وقائع متفرقة ومنفصلة عن بعضها البعض. ومما تحتويه ملاحظات أولية عن الحوار الأول الذى جرى فى صنعاء ١٩٩١، تحليله لأزمة التيارات الدينية الإسلامية، والذى يبدو صالحا حتى اللحظة، وقام على أن أصل الأزمة التى تواجهها المجتمعات الإسلامية بأحزابها المشروعة وغير المشروعة يعود إلى التحول من نظرية ومناهج القدوة السلمية التى جسدتها تحركات الأوائل من المسلمين، تجارا وعلماء وطلاب علم وفقهاء، والذين تحركوا صوب كل المناطق الجغرافية، إلى نظرية الفتح القسرى للمجتمعات، بما فيها المجتمعات التى يعيشون فيها. وبينما كانت آليات القدوة السلمية تفتح المجتمعات أمام مد إسلامى سلس وشفاف دون هزات أو توترات أو مواجهات حضارية، فإن نتيجة الفتح القسرى والعنيف لا تعدو أن تكون إلا فتحا لأبواب المواجهات السياسية والفكرية وحالة فوضى، نتيجتها دائما خسارة المجتمعات الإسلامية ودخولها فى معارك جانبية، أفقدتها القدرة على تطوير ذاتها، كما أفقدتها القدرة على التواصل الطبيعى مع المجتمعات الأخرى هنا وهناك.

كان جار الله عمر أحد أوائل المنادين بالتعددية السياسية فى ظل تجربة دولة اليمن الديمقراطى بقيادة الحزب الاشتراكى، حيث نظر إليها، وعن قناعة أصيلة ونتيجة تحليل عميق للوضع اليمنى والدولى معا، كمخرج سلمى من حالة الاقتتال الداخلى التى ميزت تجربة الحزب الاشتراكى فى الحكم، والتى وصلت إلى ذروتها المأسوية فى يناير ١٩٨٦، حيث راح ضحية الانقسام ثم الاقتتال بين أعضاء اللجنة المركزية حوالى أربعة آلاف قتيل. وتمثلت أولى أفكاره حول التعددية فى طرح فكرة التعددية الثورية داخل الحزب وأجهزته، ولكنها لم تجد الصدى المناسب نظرا لسطوة الأفكار الثورية والاشتراكية الكلاسيكية. ثم تطورت الفكرة لاحقا وفى الفترة السابقة مباشرة على الدخول فى عملية الوحدة، إلى إطلاق تعددية حزبية تقتصر على ما وصفه آنذاك بالأحزاب الثورية، القريبة من الفكر الاشتراكى أو غير المتصادمة معه، وذلك دون الأحزاب التى كانت فى حالة صراع تاريخى مع الحزب الاشتراكى. وفى تلك الفترة، وحسب اعترافه الذاتى، كانت أحداث التحول الدموى التى لحقت بتجارب النظم الشيوعية فى بلدان أوروبا الشرقية، ماثلة فى الأذهان، وكان من الضرورى البحث عن مخرج سلمى، يعترف بقيمة التنوع الاجتماعى والتعدد السياسى.

وفى مقال مبكر نشر فى خضم الجدل حول ضرورة اتخاذ خطوات وحدوية ملموسة، ربط جار الله عمر بين ضرورة ربط أى تصور للوحدة بين مسألتين «الأولى شكل الوحدة كإطار لجمع شمل اليمنيين وتحقيق مطلبهم الوطنى فى وجود الكيان الموحد، والثانية أن تكون الوحدة وسيلة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى ولتحقيق الديمقراطية وتعميمها فى أوساط السكان.. فبإنجاز هاتين المسألتين سوف تأخذ الوحدة أفقها التاريخى التقدمى وستشكل أساسا حقيقيا للنهوض الحضارى» (فى جدلية الوحدة والديمقراطية، مجلة قضايا العصر، العدد ١٢، ديسمبر ١٩٨٩، ص ١٢).

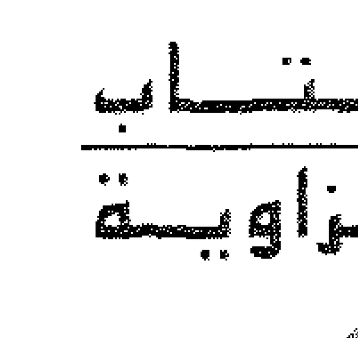
واقعتان بارزتان:

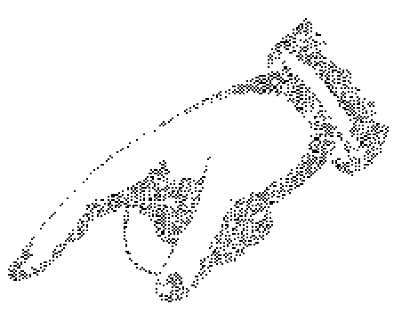
هذا الإدراك المبكر بقيمة الديمقراطية كآلية للتحديث والنهوض، كانت تدفع أحيانا إلى طرح مسارات عمل مختلفة عن التوجه السائد، وثمة واقعتان تبرزان هذا المعنى. الأولى أثناء الأزمة السياسية التى بدأت نهاية عام ١٩٩٣ وانتهت بحرب صيف ١٩٩٤، والمعروفة بأزمة الاعتكاف الثالث لنائب رئيس مجلس الرئاسة على سالم البيض، والتى مرت بعدة مراحل، من أبرزها التوصل عبر لجنة حوار القوى الوطنية إلى وثيقة العهد والاتفاق فى ١٨ يناير ٩٤ فى عدن. ورغم أن جار الله عمر بصفته عضوا فى المكتب السياسى للحزب، كان دائما ما يناط إليه المشاركة فى أية حوارات بين الحزب الاشتراكى والقوى الحزبية



كان جار الله عمر أحد أوائل المنادين بالتعددية السياسية فى ظل تجربة دولة اليمن الديمقراطى بقيادة الحزب الاشتراكى، حيث نظر إليها، وعن قناعة أصيلة كمخرج سلمى من حالة الاقتتال الداخلى التى ميزت تجربة الحزب الاشتراكى فى الحكم، والتى وصلت إلى ذروتها المأسوية فى يناير ١٩٨٦







السيف والنار فى السودان
تأليف: سلاطين باشا

يعد هذا الكتاب إحدى أهم الوثائق التاريخية التى تتحدث عن فترة مهمة للغاية فى تاريخ مصر والسودان وهى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والذى شهد حوادث شديدة الأهمية والتأثير وفى مقدمتها الثورة المهدية فى السودان.

ومؤلف الكتاب سلاطين باشا وهو ضابط نمساوى ولد عام ١٨٥٧ فى فيينا وجاء إلى مصر عام ١٨٧٨ ودخل فى خدمة الحكومة المصرية، وقد عيَّنه جوردون باشا أحد القادة الذين أداروا السودان بالإنابة عن مصر حاكمًا لدارفور عام ١٨٨٤ لكنه لم يمض عليه سوى وقت قصير فى منصبه حتى اعتقلته جيوش المهدى فادعى اعتناق الإسلام والإيمان بالمهدية إلى أن فر عام ١٨٨٥ إلى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان.

وبقى سلاطين باشا بعد ذلك موظفًا فى حكومة السودان فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩١٤ ثم ترك الخدمة مع بدء الحرب العالمية الأولى وعاد إلى النمسا ليعمل فى خدمة الصليب الأحمر، ولما عقدت الهدنة عام ١٩١٨ انتُدِبَ عضواً فى بعثة الصلح فى باريس.

وقد ألَّف سلاطين باشا كتابه عام ١٨٩٥ ثم نقله السير ونجت باشا الذى كان حاكمًا للسودان ثم معتمداً لبريطانيا فى مصر، إلى الإنجليزية، وقامت جريدة البلاغ بتعريبه وتولت مكتبة الحرية بأم درمان طبعه عام ١٩٣٠.. ثم أصدرت سلسلة «تاريخ المصريين» التى تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية منه عام ١٩٩٠.



أخذت عدة ظواهر معاكسة فى التبلور مثل ظاهرة المعارضة اليمنية فى الخارج، وإن كانت افتقرت إلى التجانس، ونشوء تحالف سياسى جديد بين المنتصرين هيمن تماما على مجمل العملية السياسية فى البلاد، وإقصاء الحزب الاشتراكى وزيادة الضغط عليه وعلى من بقى من أعضائه وكوادره



الأخرى، إلا أنه لم يشارك فى هذا الحوار الذى جرت جولاته الختامية والأساسية فى عدن، حيث ظل مقيمًا فى صنعاء، ومحافظًا على عادته فى الذهاب إلى مكتبه بمقر الحزب الكائن فى وسط العاصمة. وكان تساؤلى له فى ذلك الوقت ـ أثناء حوار جمعنا فى منزله بصنعاء ـ لماذا لم تشارك فى الحوار وبقيت هنا فى العاصمة؟ وجاءت إجابته: «حتى لا تقطع شعرة معاوية مع الإخوة فى صنعاء».

ففى ظل مناخ الأزمة السياسية والتحرشات الأمنية التى لحقت بالكثير من كوادر الحزب الاشتراكى، تم استدعاء الكثيرين منهم إلى عدن، أخليت مواقعهم التنفيذية لمن كانوا فى الوزارات المختلفة، ولم تبق الاعناصر محدودة جدا. وكان مثل هذا الوضع يثير اتهامات بالتحضير لتحرك انفصالى. وبينما كان التيار السائد بين كوادر الحزب هو العودة إلى عدن للاحتماء بها من الضغط والتحرش الأمنى الغالب فى صنعاء، تمسك جار الله عمر بالبقاء فى صنعاء درءا عن الحزب اتهامات الانفصال وتوتير الحالة السياسية وتعميق الأزمة، وتوفيرا لقناة اتصال لغرض التهدئة والاحتواء.



الواقعة الثانية ترتبط أيضا بالطريقة التى أدار بها الحزب، وتحديدا أمينه العام، الأزمة السابقة مباشرة على الحرب ١٩٩٤، فبعد التوصل إلى وثيقة العهد والاتفاق، والتوقيع عليها فى ٢٠ فبراير ١٩٩٤ فى العاصمة الأردنية عمان، برز تياران داخل الحزب الاشتراكى، الأول يصر على التشدد واشتراط تطبيق البنود الأمنية الواردة فى الوثيقة بكل ما فيها من ضمانات، وذلك قبل أن يعود البيض إلى العاصمة صنعاء ومعه كوادر الحزب إلى مواقعهم المختلفة. أما التيار الثانى وكان الأقل عددا وتأثيرا، وكان يرى أن تطبيق الوثيقة، التى هى مشروع تحديثى شامل، يحتاج إلى وقت طويل وخطط عمل وموارد، وأن المهم أن يكون هناك بعض المرونة فى مواقف الحزب حتى لا تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، خاصة فى ضوء الاستعدادات العسكرية الكثيفة من قبل الطرف الآخر. واستنادا إلى مبررات واقعية وحرصا على حد أدنى من التواصل بين الطرفين المؤسسيْن لدولة الوحدة، قدم جار الله عمر رؤية مكتوبة فى ٣٠ مارس ٩٤، أى قبل حوالى شهر واحد من اندلاع القتال، وقدمها فى صورة رسالة إلى أعضاء المكتب السياسى، والأمين العام للحزب ونائبه بعنوان «أبعاد الأزمة الراهنة ومصير الوطن». وفيها لاحظ الرجل أن الأسلوب الهجومى الذى عمل به الحزب إبان أزمة الاعتكاف، وتكلل بالنجاح فى التفاف القوى السياسية وراء مطالب الحزب المعروفة بالمطالب الـ ١٨، ثم تضمينها فى وثيقة العهد والاتفاق، لم يعد مناسبًا بعد التوقيع عليها. فحركة الطرف الآخر تحولت من الدفاع إلى الهجوم، ومثل تبنى السلطة فى صنعاء للوثيقة مبررًا لأن يبدى الحزب بعضًا من المرونة، وحتى لا يفقد تعاطف وتأييد التيارات السياسية اليمنية التى وقفت معه سابقا. وطرح جار الله عمر أسلوبًا تدريجيًا يتمثل فى عودة تدريجية لبعض كوادر الحزب إلى صنعاء، وأن يترافق ذلك مع بعض الخطوات الأمنية، على أن يتم التئام مؤسسات الدولة وعودة البيض بصورة متدرجة أيضا.

المهمة الصعبة..
البقاء حيناً تحت الضغوط:

كانت حرب ١٩٩٤ تعبيرا عن استمرار القاعدة اليمنية المعروفة المتمثلة فى الحسم عبر السلاح والمال، وتراجعا عن الالتزام بالآليات السياسية، وبعدها تشكلت عدة ظواهر سلبية طالت اليمن دون استثناء، مع حجم أكبر من المعاناة لأبناء المناطق الجنوبية. وتمثلت أكبر النتائج فى استمرار الوحدة كحقيقة عضوية لا قابلية للتراجع عنها، ويقابلها تضعضع المشروع الحضارى التحديثى الذى مثلته عملية بناء الوحدة بالطريقة السلمية التى قامت بها فعلا فى مايو ١٩٩٠، وإلى جانب هذه النتيجة الأساسية أخذت عدة ظواهر معاكسة فى التبلور مثل ظاهرة المعارضة اليمنية فى الخارج، وإن كانت افتقرت إلى التجانس، ونشوء تحالف سياسى جديد بين المنتصرين هيمن تماما على مجمل العملية السياسية فى البلاد، وإقصاء الحزب الاشتراكى وزيادة الضغط عليه وعلى من بقى من أعضائه وكوادره، رغم أنه لم يكن لهم أى دور فى مسألة «إعلان الانفصال» بالطريقة التى جرى بها بعيدا عن أجهزة الحزب ومكتبه السياسى، وتفاقم الأزمة الاقتصادية، ونشوء حالة من الانكسار النفسى بين أبناء الجنوب وميل عام للعزوف عن المشاركة فى الحياة السياسية.

كانت مهمة صعبة لمن بقى من قيادات الحزب الاشتراكى، وكان عمادها الأساسى الحفاظ على الحزب كمؤسسة سياسية، والدخول فى عملية مراجعة ونقد ذاتى لما حدث، واستيعاب حالة الضغط السياسى والمعنوى التى أجادت فيها القوى المنتصرة فى الحرب على نحو فريد، وإعادة بناء أجهزة الحزب بما يلائم الأوضاع الجديدة، لكن فى



الوقت نفسه التمسك بالأفكار التحديثية وبالتعددية السياسية، والخروج من حالة الانكسار السياسي، والتطلع إلى المستقبل عبر التمسك بوثيقة العهد والاتفاق، وإعادة تصحيح المسار السياسي لدولة الوحدة ورفع المظالم عن أبناء الجنوب التي لحقت بهم عقب عمليات الاجتياح والنهب التي تعرضوا لها أثناء القتال وبعده.

لم تكن المهمة سهلة خاصة في تزايد الضغوط الداعية إلى إعادة تشكيل قيادة الحزب وإقصاء من سموا بالانفصاليين، وربط إعادة مقار الحزب والإفراج عن أمواله ووثائقه وممتلكاته بإعادة تشكيل الأجهزة القيادية للحزب. وكم تحملت القيادات والكوادر التي استمرت في صنعاء الكثير من الضغوط المعنوية والمادية على السواء. لكن التيار الغالب كان مع مواجهة هذه الضغوط وعدم الانصياع إليها، خاصة مطلب إدانة الانفصال، كشرط مسبق لتطبيع العلاقة مع الحزب، وتقليل الهجوم الإعلامي عليه. وفي هذه المرحلة كان كثيرون من قيادات الحزب في الخارج، ومنهم من عارض قرار الانفصال صراحة ومنهم من لم يشارك فيه أصلا، ومنهم من نفى نفسه طواعية إلى الخارج. وكان جار الله عمر واحدا من الذين نفوا أنفسهم طواعية إلى خارج اليمن، حيث جاء إلى القاهرة لمدة اقتربت من العام، في الوقت نفسه استمروا في التمسك بعلاقتهم ودورهم داخل الحزب.

في هذه الفترة التالية للحرب والمفعمة بالضغوط، جرت حوارات مكثفة بين قيادات الداخل وقيادات الخارج، بهدف الإبقاء على الحزب واستمراريته. وكانت الحصيلة طرح شعارين مترابطين، الأول إدانة الحرب وإدانة الانفصال معا، والثاني نحو مصالحة وطنية عامة وشاملة.

إدانة مـــــزدوجـــــة

ومن وجهة نظر جار الله عمر فإن هذه الإدانة المزدوجة لها ما يبررها. فالحرب على السلطة التي ميزت تاريخ اليمن الحديث والقديم على السواء، والتي تكررت كثيرا «تسببت في تدمير العمران على قلته، أفضت إلى إفشال كل محاولات بناء دولة مركزية فاعلة أشاعت الفوضى وعدم الاستقرار الأمني، وأدت - وهذا هو الأخطر - إلى خلق قابلية شعبية للاستبداد، ووضعت مصير البلاد برمتها رهنًا للقوة دون أن يكون للأغلبية راى أو مشاركة من أى نوع. كما أن الحرب كرست عادات سلبية من قبيل احتراف مهنة الحرب وتمجيد القوة وأسبقيتها على العقل، وخلقت مجتمعًا قابلاً للتحريض على الكراهية، وفي كل الحروب الأهلية اليمنية أديرت في ظل هالة من الشعارات الوطنية والدينية المقدسة بينما كانت في حقيقتها ترمي إلى تحقيق أهداف دنيوية محضة».

«وعلى الرغم من أن حرب صيف ١٩٩٤ أنهت ما كان يعرف بازدواجية السلطة، إلا أنها من جانب آخر لم تنه معاناة المواطنين، وليس ثمة شيء يستطيع إعادة قطار اليمن للسير على قضبان المستقبل سوى الحوار والمصالحة التي تنهي حالة الانقسام السياسي والاجتماعي وتؤهل اليمن للقرن الجديد». بيد أن المصالحة ليست مجرد جلسة حوار أو بيانات تعتمد لغة الاسترضاء الشكلي، إنها خطة عمل، تتضمن «الاتفاق على برنامج شامل وتفصيلي للإصلاح السياسي، والفصل بين الدولة بوصفها كيانًا وطنيًا وبين المؤتمر الشعبي العام باعتباره حزبًا سياسيًا كسائر الأحزاب. وإبعاد القوات المسلحة عن الانشغال بالشئون السياسية والحزبية، وإصدار القوانين لإقامة منظمات مجتمع مدني بطريقة حرة ومسئولة. وإجراء انتخابات محلية حرة ونزيهة». (المصالحة في سبيل الديمقراطية والبناء، ص ص ١٥ - ٢٢)

ورغم مرور خمس سنوات على دعوة المصالحة هذه، فإن الواقع اليمني الراهن يبدو بحاجة ماسة إلى كل عنصر فيها، ويكفي أن أحد أبرز دعاة المصالحة الوطنية الشاملة والمشروع التحديثي الشامل قد دفع حياته ثمنًا لها، أم سيظل اليمن عاجزا عن إدراك أنه بات وطنًا يأكل أبناءه حينا، ويدفع بهم إلى الخارج والمجهول حينا آخر. ■

أهــم المراجــع

- د. حسن أبو طالب، الوحدة اليمنية.. دراسات في الانتقال من التشطير إلى الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤.
- مجموعة من الباحثين، وحدة اليمن.. الأزمة والحل، أوراق مؤتمر لندن نوفمبر ١٩٩٥، معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن.
- بشير البكر، حرب اليمن.. القبيلة تنتصر على الوطن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (د. ت).
- محمد ردمان الزرقة، اليمن.. مؤامرة الانفصال وانتصار الوحدة، ط ٢، صنعاء، ١٩٩٥.
- علي هيثم الغريب، اليمن.. أسباب الأزمة وإعلان الحرب والانفصال، عدن (د. ت)

(مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، وباحث متخصص في الشئون اليمنية.

(تضم «أحزاب اللقاء المشترك» أحزاب: التجمع اليمني للإصلاح، الحزب الاشتراكي اليمني، حزب الحق، التنظيم الوحدوي الشعبي الناصري، حزب البعث الاشتراكي القومي، اتحاد القوى الشعبية.

كتـــاب الـزاويـــة



انتصار المهدى

كانت هزيمة يوسف باشا سببًا في خضوع كردوفان كلها للمهدى فصار في إمكانه الآن أن يهيىء لنفسه العدة التى كانت تنقصه. فأخذ في جمع الأموال والأسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التى انضمت إليه. وكانت هذه القبائل تعتقد أنه المهدى المنتظر الذى لا تحدثه نفسه إلا بإقامة الدين ولا قيمة للأموال والأمتعة فى نظره.

وفشت أخبار المهدى فى كل ناحية وكانت هذه الأخبار إذا تنوقلت بين أهالى كَردوفان الذين لم يصيبوا إلا قليلاً من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة. وخرج من الأهالى عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمون جبل غدير الذى كان يسمى جبل ماسة وبعض من الأهالى تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفى الحكومة المشتتين فى أنحاء البلاد. وكانت هذه الأحوال توافق أهواء العرب الرُحَّل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الأهالى وكانوا يتهمونهم بالولاء للأتراك، وفي الوقت نفسه أيضًا وجدوا في هذه الحالة طمأنينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة.

واتصل المهدى بتجار الأُبَيِّض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءًا كبيرًا من سائر البلاد. وقد أدركوا هم الحالة تمامًا وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيها واستعد كثير منهم لمشايعة المهدى.

أما مشايخ الدين فقد رأوا فى هذه الحركة ما يرفع مقامهم وكانوا يفخرون بأن واحدًا منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه، أنه المهدى وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدى جميع الأتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها.

■■ شغلت «المسألة اليهودية» وهى صيغة دبلوماسية مهذبة لـ «المشكلة اليهودية» سياسيى العالم خاصة أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وتناول جوانبها المختلفة عشرات الكتاب والمؤرخين من اليهود وغير اليهود. ومن بين الذين شغلتهم هذه المسألة أو المشكلة ـ سمها ما شئت ـ رائد صناعة السيارات فى الولايات المتحدة وأحد آباء الصناعة الأمريكية هنرى فورد الذى كتب بين عامى ١٩٢٠ و١٩٢٢ مقالات فى صحيفة ديوبورن إندبندنت جمعها فى كتاب بعنوان «اليهودى العالمى». يقول فورد فى كتابه إنه استهدف من كتابة هذه المقالات تعريف الشعب الأمريكى بحقيقة المسألة لوضع الحلول الصحيحة لها، بدلاً من تركها تتفاقم كما حدث فى أنحاء أخرى من العالم. ويرى رجل الصناعة الأمريكى أن اليهودى نوعان.. نوع يريد أن يسيطر على غير اليهود «الأغيار» ليحكم اليهود العالم من أورشليم، والثانى يهودى يضحى بالعالم ليقيم دينه ويحافظ على سبته. ويرصد فورد فى هذا الكتاب محاولات اليهود للسيطرة على الإعلام والتمويل والسياسة بأقوال زعماء اليهود وقادتهم آنذاك لدعم ما يقول. ويخلص فورد إلى أن عمله هذا ما هو إلا صيحة تحذير لمواطنيه الأمريكيين أغياراً ويهوداً من طموحات ذلك «اليهودى الدولى». وقد قامت مكتبة الشروق الدولية بترجمة الكتاب لإصداره فى خمسة أجزاء، صدر الجزء الأول منها قبل أيام.

وتقدم مجلة «الكتب.. وجهات نظر» الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب■

المحرر

قصة اليهود فى أمريكا

هنرى فورد

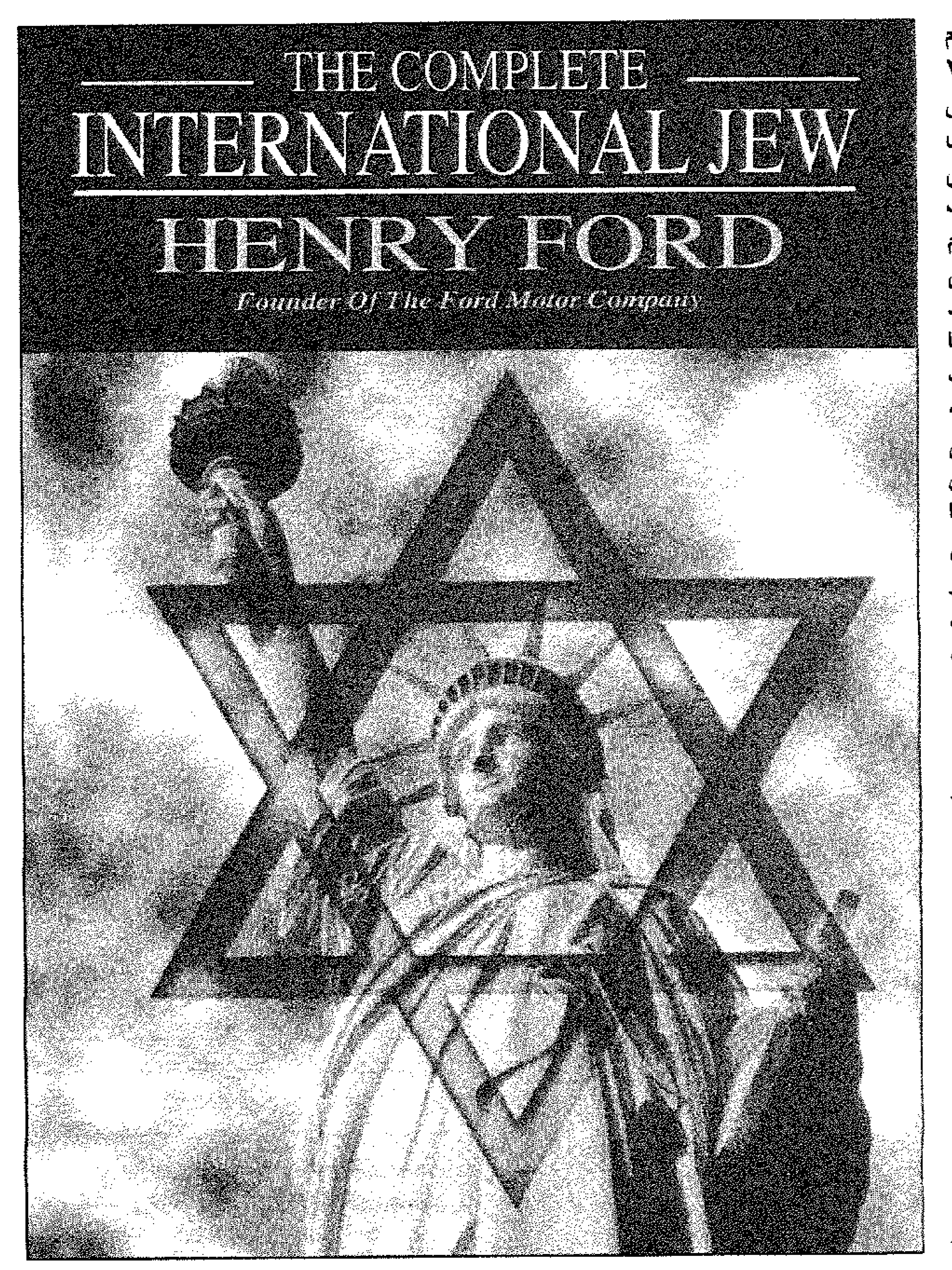
■■ يبدو ـ للوهلة الأولى ـ وكأن النظام الاقتصادى لأمريكا الشمالية قد تطور بشكل مستقل عن اليهود. ورغم تلك المقولة فأنا مازلت أتمسك بما أكدته من أن الولايات المتحدة (ربما أكثر من أى دولة أخرى) قد امتلأت للحافة بالروح اليهودية. وقد بات هذا أمراً معروفاً فى أماكن عدة، ولاسيما تلك التى سكانها أكثر قدرة على تقييم مثل هذا الموضوع..

فى مقابل تلك الحقيقة، أليس هناك مبرر لوجهة النظر القائلة بأن الولايات المتحدة تدين بوجودها لليهود؟ وإذا كان الأمر بالفعل كذلك، كم مرة إذن يجب التأكيد على مقولة أن النفوذ اليهودى هو الذى أفضى بالولايات المتحدة إلى ما هى عليه الآن، بمعنى آخر كونها أمريكية؛ فما نطلق عليه «الهوية الأمريكية» «الأمركة»، ما هو إلا الروح اليهودية لكن بعد أن ردت إلى أصلها».

(ويرنر سومبارت «اليهود ورأس المال الحديث» صفحتا ٣٨ و٤٣).



يؤرخ للوجود اليهودى فى أمريكا مع قدوم المستكشف كريستوفر كولمبس. فقد شهد يوم ٢ أغسطس ١٤٩٢ حادث طرد ما يزيد على ٣٠٠ ألف يهودى من إسبانيا، وهو الحدث الذى كان مؤشراً لبداية الأفول لهيبة إسبانيا، وفى اليوم التالى أبحر كولمبس باتجاه الغرب مصطحباً معه جماعة من اليهود الذين لم يكونوا بأى حال من الأحوال لاجئين، ولكن على ما يبدو أن خطة الملاح أثارت تعاطف اليهود ذوى النفوذ لمدة طويلة من قبل. ويخبرنا كولمبس نفسه بأنه اعتاد الاجتماع والتحادث مع اليهود. وللتدليل على مدى عمق العلاقة بين الطرفين بعث كولمبس بأول خطاباته التى يشرح فيها تفاصيل اكتشافاته لصديق يهودى، وهو يعتبر أن اليهود كانوا سبباً رئيسياً فى تدشين الرحلة التاريخية التى أضافت لمعرفة وثروات البشرية «النصف الآخر من الكرة الأرضية»، أما القصة السائرة بأن الملكة إيزابيلا قد باعت مجوهراتها لتمول الرحلة فقد اختفت تماماً من وثائق البحث. الرواية السائدة تقول بوجود ثلاثة «مارانوس» (أو يهود سريين)، تمتعوا بنفوذ عظيم فى البلاط الملكى الإسبانى وهم: لويس دو سانتاجيل الذى كان تاجراً مهماً من فالنسيا كما شغل منصب «فلاح» للضرائب الملكية، وقريب له اسمه جابرييل سانشيز كان أمين الخزائن الملكية، وصديقهم رئيس البلاط الملكى خوان كابريرو. هؤلاء الثلاثة عملوا باجتهاد للتأثير على تفكير الملكة إيزابيلا مصورين لها نضوب الخزائن الملكية واحتمال أن يكتشف كولمبس ذهب جزر الإنديز، حتى بدت الملكة على أهبة الاستعداد لأن ترهن مجوهراتها لتمويل الرحلة، وتمنى سانتاجيل أن يحصل على إذن يخوله إقراض المال بنفسه، وقد كان، حيث قدم حوالى ١,٧٠٠ دوكات أى ما يعادل ٢٠ ألف دولار وهو يساوى ١٦٠,٠٠٠ بقيمة المال اليوم (عام ١٩٢٠). ومن المحتمل أن القرض قد فاق تكاليف الرحلة.



وقد رافق كولمبس فى الرحلة خمسة يهود على الأقل هم: لويس دى توريز المترجم، ماركو الجراح، بيرنال الفيزيقى، ألونزو دولاكال وجابرييل سانشيز، كما أن الأدوات الفلكية والخرائط التى استخدمها الملاحون كانت يهودية الأصل. وكان لويس دى توريز أول رجل تطأ قدمه الأرض الجديدة، بل وأول من اكتشف استخدام الدخان، وقد استقر دى توريز بكوبا، ويقال إنه هو من أسس للسيطرة اليهودية على صناعة الدخان كما هو الحال اليوم. وقد نال عملاء كولمبس القدامى العديد من المزايا للدور الذى قاموا به، غير أن كولمبس نفسه أصبح ضحية لمؤامرة دبرها بيرنال طبيب السفينة، وتلقى معاملة سيئة للغاية، ثم انتهى به الأمر إلى السجن كمكافأة له.

بدأ اليهود ينظرون لأمريكا ـ منذ تلك اللحظة ـ على أنها حقل خصب، وبدأت أفواج المهاجرين تتجه بقوة صوب أمريكا الجنوبية وعلى الأخص البرازيل، ولكن مساهمة اليهود العسكرية فى أحد الخلافات التى نشبت بين البرازيليين والهولنديين جعلت يهود البرازيل يرتأون ضرورة الهجرة وهو ما فعلوه، حيث هاجروا باتجاه إحدى المستعمرات الهولندية، أو ما يطلق عليه الآن مدينة نيويورك. فى البداية لم يلق الوجود اليهودى ترحيباً من عمدة المدينة الهولندى آنذاك بيتر ستيفسانت الذى اعترض على استقرار اليهود بين السكان المحليين وأمرهم بالرحيل، غير أن اليهود كانوا قد أخذوا حذرهم، وحتى يتأكدوا من أنه سيتم استقبالهم حتى وإن لم يكن مرحباً بهم، قاموا بشراء أسهم فى الشركات؛ ولذا بعد إبطال أمر ستيفسانت بترحيلهم، قال المديرون الذين وافقوا على استقبال اليهود بأن السبب الأهم الذى حتم عليهم ذلك هو «رأس المال الضخم الذى استثمروه فى أسهم الشركة». ورغم ذلك فقد منعوا من الالتحاق بالخدمة العامة، ولم يسمح لهم بافتتاح محلات البيع بالتجزئة والتى كانت ستقودهم لمجال التجارة الخارجية ـ التى بدأوا فى ممارستها كلها بشكل يقارب الاحتكار بسبب صلاتهم بأوروبا. هذا فقط مثال من آلاف الأمثلة التى يمكن الاستدلال بها على ثروة اليهودى. فإذا فرضت عليه حظراً من ناحية ستجده يبرع فى ناحية أخرى، وحينما حظر عليه الاتجار فى الملابس الجديدة قام بالاتجار فى الملابس المستعملة، ودشن ذلك بداية عمليات التهريب المنظم للملابس المستعملة. وحينما حرم عليه الاتجار فى البضائع تاجر فى النفايات، فاليهود هم من

اليهودى العالمى: المملكة اليهودية.. نظرة أمريكية «الجزء الأول»
هنرى فورد
ترجمة أميمة عبداللطيف
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ١٢٥ص

اليهود هم من أسسوا لتجارة النفايات فى العالم، بمعنى آخر لقد عثروا على الثروة فى حطام الحضارة وعلموا الناس كيفية استخدام السجاجيد القديمة وكيفية تنظيف الريش القديم والاستفادة من جلود الأرانب وقد طوروا تجارة الفراء والتى يحتكرونها الآن

أسسوا لتجارة النفايات في العالم، بمعنى آخر لقد عثروا على الثروة في حطام الحضارة، وعلموا الناس كيفية استخدام السجاجيد القديمة وكيفية تنظيف الريش القديم والاستفادة من جلود الأرانب وقد طوروا تجارة الفراء والتي يحتكرونها الآن، وإليهم ينسب كذلك تحويل العديد من أنواع الجلود إلى علامات تجارية جذابة، والترويج لها على أنها أنواع من الفراء ذات درجة عالية من الجودة. وكان اليهود هم أول من أعطوا لفكرة التجديد قيمة تجارية، حيث إننا سنجد في هؤلاء «الكهنة الرجال» - الذين نفخوا في أبواقهم في مدننا وأنقذوا المكواة القديمة والزجاجات القديمة والأوراق والمنسوجات القديمة - سنجدهم نسل أولئك اليهود الأوائل الذين برعوا في تحويل (المصائب) إلى نجاح ونفاية الأرض إلى مادة ذات قيمة.



وفي حركة تخلو من الذكاء، أجبر بيتر ستيفسانت اليهود على جعل نيويورك الميناء الرئيسي في الولايات المتحدة، ولكن بعد ذلك أجبر غالبية يهود نيويورك على الفرار إلى فيلادلفيا أثناء الثورة الأمريكية، إلا أن معظمهم آب إلى نيويورك في أقرب فرصة واتتهم، ويبدو أن الدافع الغريزى جعلهم يدركون بأن نيويورك ستكون فردوس المنفعة الرئيسية لهم في الأيام الآتية وقد تأكد صدق حدسهم، ذلك أن نيويورك استقر بها أكبر تجمع يهودى في العالم، وغدت البوابة التي يتم من خلالها فرض ضرائب على معظم صادرات وواردات أمريكا، كما أنها صارت - عمليًا - معقل التجارة في أمريكا، وتدين بالفضل في ذلك لسادة المال، أما أرض المدينة ذاتها فقد صارت هي الأخرى ضمن حيازات اليهود، وتكشف قائمة بمالكي العقارات في المدينة أنه نادرًا ما يوجد اسم لمالك غير يهودى، وبالتالي لم يكن أمرًا مستغربًا أن الكتاب اليهود - حينما رأوا هذا الرخاء غير المسبوق والنمو في الثروة والنفوذ اليهودي - كانوا يصيحون بشكل حماسي بأن الولايات المتحدة هي بالفعل الأرض الموعودة والتي تنبأ بها الأنبياء، وأن نيويورك هي القدس الجديدة، بل إن البعض ذهب إلى حد تشبيه قمم جبال الروكي بأنها جبال صهيون، كما أن هناك سببًا آخر يتمثل في الثروة المعدنية والساحلية التي كانت بحوزة اليهود.



هذا النفوذ كاد يتعرض للتهديد حينما ظهر مشروع مقترح بإنشاء ممر مائي من شأنه أن ينشئ ميناء في كل مدينة كبيرة على البحيرات العظمى، وأن يأخذ من نيويورك الهيبة التي احتفظت بها باعتبارها البوابة التي تتوقف عندها خطوط السكك الحديدية الرئيسية، هذا الأمر حدا باليهود لتقديم احتجاجات شديدة كان الدافع الرئيسي وراءها هو أن معظم ثروتهم الموجودة في نيويورك تعتمد بالأساس على أن تظل نيويورك كذلك، وسوف تتحول هذه الثروة إلى قيمة زائفة مصطنعة في حال ما إذا جد أى تطور من شأنه أن يحول نيويورك إلى مدينة عادية على الساحل وليست المدينة التي يقطن بها ممولو الضرائب لجباية الضرائب، ونتيجة لذلك كان لابد من عمل أى شيء لإيقاف المشروع وإلا فإن معظم ثروة اليهود في المدينة سيكون مآلها التناقص. لقد كان الوضع رائعًا قبل الحرب، أما ما آل إليه الأمر الآن، فإن الإحصائيين سيجدون الأمر صعبًا بمكان للحديث عنه.

في خلال خمسين عامًا زاد تعداد السكان اليهود في الولايات المتحدة من (خمسين ألف نسمة) إلى ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، ويقطن فلسطين حوالي مائة ألف نسمة، أما الجزر البريطانية فيبلغ تعداد اليهود فيها حوالي ثلاثمائة ألف نسمة، وهذه نقطة تحسب لصالح اليهود؛ لأن السيطرة الكبرى والواضحة التي يمارسها اليهود في إنجلترا فيما يتعلق بالشئون المهمة كانت ستجعل الوضع شديد الصعوبة بالنسبة لليهود الأكثر فقرًا إذا تواجدوا في إنجلترا بأعداد أكبر، وبالتالي من المستحسن أن يتواجدوا في بريطانيا بأعداد قليلة، ويعترف بعض البريطانيين - الذين يتمتعون بدرجة من الوعي - بأن مشاعر العداء للسامية قد تطفو على السطح في بريطانيا في سبيل قضية ما، غير أن هذه المشاعر لن تظهر - بأى حال من الأحوال - ضد اليهود الأغنياء الذين لا يمكن الوصول إليهم والذين في أيديهم السيطرة على الأمور السياسية والشئون الاقتصادية العالمية، وربما يكون صحيحًا أن أكثر الأسباب شيوعًا لمعاداة السامية هو أفعال اليهودى الدولي (العولمي)[1]، والذى هو في العادة غير معروف، وآمن، بينما يكون ضحية ذلك هو اليهودى الفقير، ولكن العداء للسامية سيكون موضوع المقال القادم. وإذا ما تفحصنا أعداد اليهود في كل من بريطانيا والولايات المتحدة سنجد أنها تشير إلى أن النفوذ الخارق الذى تمتع به اليهود الماليون لم يكن في واقع الأمر معتمدًا على أعداد اليهود، ولكن الحقيقة المذهلة حول اليهود تتمثل في كون هذا النفوذ العالمي - الذى لا يجابه - قد اقترن بتدنٍ نسبي في أعداد اليهود، حيث إن هناك حوالي أربعة عشر مليون يهودى في العالم، وهم مماثلون في هذا التعداد مع الكوريين، وسنرى لاحقًا كيف أن هذه المقارنة مع الكوريين ستكون بمثابة دليل حى على مدى النفوذ الذى يمتلكه اليهود. ففي عهد جورج واشنطن - على سبيل المثال - كان هناك حوالي أربعة آلاف يهودى في البلاد، وكان معظمهم من التجار الميسورين الذين كانوا يفضلون الاستقرار بالساحل الأمريكي، وكان من بينهم حاييم سولمون الذى ساعد المستعمرات بإقراض ثروته كلها في وقت حرج. غير أن هؤلاء وجدوا صعوبة في الاندماج في المجتمع ولم يشغلوا أى وظائف عادية أو حتى في قطاع الزراعة، ولم يبدوا اهتمامًا يذكر بعملية الصناعة، ذلك أن جل اهتمامهم تركز على عملية البيع، ولم يظهر اليهود اهتمامًا بعملية الصناعة إلا مؤخرًا، ولكن حتى عمليات الصناعة التي انخرطوا فيها كانت ملحقة بخطط التجارة. الصناعة من شأنها أن تدخر الربح، والنتيجة لم تكن تقليص تكاليف المنتج للجمهور ولكن على العكس من ذلك؛ لأن أحد ملامح العمل اليهودى - كما اتضح - تمثلت في جعل الاقتصاديات تتم لصالح العمل وليس لصالح الجمهور.

بالنسبة لليهودى كلمة العمل مرادفة للمال، أما ما يفعله اليهودى الناجح بالمال بعد أن يحصل عليه فتلك قصة أخرى، ولكن لا يسمح له بالتورط في «وحل المثالية»؛ لأن ذلك الأمر من شأنه أن يحول بينه وبين الحصول على الدولار. أما فيما يتعلق بأرباحه المالية فلا يجب أبدًا أن ترتبط بالإصلاحات التطوعية التي يحاول من خلالها حفنة من الرجال تحسين ظروف العمال. وهذا الأمر لا يعود بأى حال من الأحوال لأن اليهود قاسية قلوبهم بالضرورة، وإنما هو مرتبط بالدرجة الأولى بالتصور اليهودى لمفهوم العمل، فالعمل هو مسألة أموال وسلع وليس مسألة أشخاص، ووفقًا لهذا المبدأ إذا كنت تمر بمعاناة وقلق فسوف يتعاطف معك اليهودى، أما إذا كان بيتك هو أحد عناصر نزاع العمل بينك وبينه فهو يتعامل بمبدأ أنك أنت وبيتك كيانان منفصلان؛ لأنه وفق نظريته للعمل فإنه يجد صعوبة شديدة في «أنسنة» هذا البيت؛ لأن ذلك معناه أن يسلك سلوكًا أكثر رحمة من السلوك الذى يصفه بعض الناس بأنه «قاس»، أما اليهودى نفسه فلا يشعر بأن هذه التهمة عادلة؛ لأنه يبرر ذلك السلوك بأن الأمر في النهاية ما هو إلا «عمل».



وربما في خلال هذا الإطار يمكن توضيح ظاهرة «محلات العرق» اليهودية في مدينة نيويورك، فحينما أشفق أفراد الأمة العطوفون على فقراء يهود محلات عرق نيويورك، لم يكن لديهم أدنى علم بأن أصحاب فكرة ومديرى تلك المحال هم أنفسهم من اليهود، وبالفعل فعلى الرغم من أنه فخر لبلدنا بأنه لا يوجد اضطهاد للأفراد بسبب لونهم أو جنسهم أو عقيدتهم الدينية، فالحرية مؤمنة للجميع غير أن الحقيقة التي رصدها كل المحققين تقول بأنه إذا كانت هناك معاملة غير إنسانية عومل بها اليهودى، فمصدرها دائمًا يأتي من قومه والقيمين عليه وسادته، وليس هناك دليل على أن أيًا من «صاحب المحل» أو العامل - كلاهما يهودى - قد تعاملا مع هذا الأمر على أنه وضع ليس إنسانيًا أو قاسيًا، وإنما كانوا يعتبرونه «عملاً» وكان العامل اليهودى يعيش على أمل أنه في يوم ما ستكون لديه غرفة مليئة بالأفراد الذين يحيكون له الملابس، هذا الأمل حثهم على الاهتمام اللانهائي بـ «العمل» والطموح الشديد للعمل من أجل تحقيق هدف أساسي ألا وهو صعود السلم المهني والتحول إلى سادة يعملون، بدون أدنى إحساس بالقهر أو الظلم، وهو على كل حال أسوأ شيء يسببه الفقر. ولا ينظر اليهود مطلقًا للعمل الشاق على أنه نكبة، كما أنهم لا يعتبرون أنهم سيظلون قابعين في المراتب الدنيا من الوظائف للأبد، وبالتالي فهم يبذلون طاقاتهم في محاولة الصعود بدلاً من إلقاء اللوم على الظروف التي يعملون فيها، أو حتى محاولة العمل على تحسينها.



كل ما ذكر هو أمر محمود من الناحية الفردية ولكن على المستوى الاجتماعي هو أمر ضار؛ لأنه حتى وقت قريب كانت المراتب الدنيا من الوظائف غير مراقبة (ليست خاضعة لأى إشراف من الدولة) ولم تر الدوائر العليا ضرورة حتمية في استحداث إصلاحات ومكاسب صناعية، ورغم أن لليهود سجلاً عظيمًا في مجال الأعمال الخيرية إلا أن سجلهم في الإصلاح الصناعي لا يكاد يذكر. وإذا كان التعاطف المحمود الذى يكنونه لذويهم يدفعهم للتبرع بجزء من أرباحهم لتصحيح بعض من الحاجات الإنسانية التي نتجت عن الطريقة التي يحصلون بها على أرباحهم، فإنه يبدو من الناحية الأخرى أن فكرة إصلاح الطريقة التي يحصلون بموجبها على أرباحهم - حتى تختفي الحاجات وأوجه القصور الناتجة عن ذلك أو حتى تتقلص - هو أمر لم يطرأ على أذهانهم. وللتدليل على ذلك فإن هناك عددًا من الأسماء الخيرة بين صفوف اليهود الأغنياء، ولكن لا يوجد في مقابل ذلك اسم واحد يؤيد الأنسنة الفعالة للصناعة وطرقها وعوائدها. وهذا أمر سيئ، ولكنه مفهوم، بل أهم من ذلك أنه يكشف عن العديد من الأمور التي يلام عليها اليهودى من قبل أولئك الذين لا يفهمون طبيعته، وربما يسمح اليهودى للآخرين بأن يشاركوه جزئيًا نتائج الرفاهية التي يتمتع بها، غير أنه لن يذهب بعيدًا في السماح بتقاسيم العمليات التي أدت لهذه الثروة أو حتى المشاركة في الثروة أثناء صناعتها، ولا يجب أن يفهم هذا السلوك على أنه تم بدافع اللاإنسانية وبلادة الشعور، وإنما بدافع المفهوم المتأصل لدى اليهودى حول قواعد لعبة العمل، في ضوء هذا المفهوم تبدو بعض مقترحات الإصلاح الصناعي ضربًا من الجنون، مثلما يعتبر اقتراح أن تنسب إحدى ضربيات البيسبول لصالح الخصم على اعتبار أنه أمر إنساني.



اليهودى الأمريكي لا يندمج في المجتمع، هذه حقيقة ليس الغرض منها تقريعه أو كيل اللوم له، فاليهودى

بإمكانه الاختلاط مع الأمريكيين إن أراد، ولكنه لا يفعل ذلك، وإذا ما حدث وتحقق هذا الاختلاط وتصادف أن تعرض لتحامل ضده - باستثناء نوع من التحري يثيره النجاح الخارق لهم - فسيكون ذلك التحامل بسبب ترفعهم. لا يتم الاعتراض على اليهودي لشخصه أو لعقيدته أو لجنسه. وقيمه الروحية يشاركه فيها العالم بأسره، ولكن رغم ذلك فهو لا يندمج؛ لأنه يحيا على الشعور بالتفرد وبكونه غير منتم. هذا ما يميزه ويجعله متفردًا عن الآخرين، ومن وجهة نظر معينة قد يكون هذا تميزًا رائعًا، ولكن لا يجب أن يكون هذا التميز مبررًا دائمًا لشكواه ضد الأغيار[٢] بصفة عامة، ذلك أن هنالك ميلاً يهوديًا لفعل ذلك. ولكن بدلاً من الشكوى من الأفضل أن يوضح للأغيار ما هو الموقف الحقيقي لليهود من المسألة اليهودية، وحينما قال أحد اليهود الشباب: «هناك فرق كبير بين اليهودي الأمريكي والأمريكي المتهود، فالأخير هو من الأغيار الهواة، مكتوب عليه أن يظل طفيليًا للأبد». إن الجيتو ليس نتاجًا أمريكيًا وإنما هو استيراد يهودي صرف، ذلك لأنهم اختاروا أن ينعزلوا في تكوينات اجتماعية متميزة، وتقول الموسوعة اليهودية في معرض تعليقها على هذا الموضوع: «إن التنظيم الاجتماعي لليهود المقيمين في الولايات المتحدة مختلف بعض الشيء عن هذا التنظيم في بلدان أخرى، ذلك أن اليهود سعوا - بدون أي إجبار - للعيش جنبًا إلى جنب وهي صفة مميزة مازالت سائدة».

وإذا أردنا عمل قائمة بمجالات العمل التي سيطر عليها يهود الولايات المتحدة، فإن ذلك يعني أننا حتمًا سنضع أيدينا على معظم الصناعات الحيوية للبلاد. وصناعة المسرح - وكما يعلم الجميع - هي صناعة يهودية بحتة. إنتاج المسرحيات والحجز وعمليات المسرح كلها في يد اليهود، وهذا من شأنه أن يفسر حقيقة أنه في كل عملية إنتاجية يمكن أن تشتم رائحة الدعاية، وربما من خلال إعلانات تجارية صارخة لا يعود أصلها للكتاب المسرحيين وإنما للمنتجين. وتشمل القائمة كذلك:

* صناعة السينما.
* صناعة السكر.
* صناعة الدخان.
* ما يقرب من نصف صناعة تغليف اللحوم.
* ستين بالمائة من صناعة الأحذية.
* الملابس الجاهزة للرجال والنساء.
* معظم متعهدي الحفلات الموسيقية.
* المجوهرات.
* الحبوب.
* القطن.
* تأليف المجلات.
* نشرات الأخبار.
* الكحول والقروض.

هذا فقط لذكر بعض الصناعات التي تقع تحت سيطرة اليهود في الولايات المتحدة إما بمفردهم أو بالشراكة مع يهود آخرين وراء

و.. من يحكم أمريكا؟

سهير السكري

■ قد لا يكون من الخطأ تمامًا القول بأن الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الأقوى في عالم اليوم هي دولة مؤسسات تعتمد على التخطيط ويرسم سياساتها خبراء الـ Think Tanks «مجامع الخبراء»، إلا أن هذا القول كان يمكن أن يكون صحيحًا إلى ما قبل السنوات العشرين الماضية، ولكن الأوضاع في الولايات المتحدة تغيرت الآن إلى حد أن الكثير من الأمريكيين أخذوا يشعرون بأنهم فقدوا القدرة على حكم أنفسهم بأنفسهم، وبخاصة بعد التطورات الأخيرة قبيل الانتخابات لعضوية الكونجرس في نوفمبر الماضي وبعدها، ولاسيما فيما يتعلق بقرار الكونجرس السماح بشن الحرب على العراق. ذلك أن الصهاينة، وعلى رأسهم مورس ج. أميتاي (Morris J. Amitay)، رئيس اللوبي الصهيوني في واشنطن المسمى «اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة» (America Israel Public Affairs Committee (AIPAC))، وريتشارد بيرل (Richard Perle)، رئيس مجلس السياسة الدفاعية الذي يسدي المشورة إلى وزير الدفاع رامسفيلد، كشفوا القناع أخيرا عن حقيقة قوتهم بعد أن نجحوا في إحكام قبضتهم على جميع مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة. فأخذوا يظهرون على التليفزيون وفي الإذاعة وغيرهما من وسائط الإعلام، ويتحدثون بكل صلافة واستكبار خلف واجهة مزيفة من الوطنية الأمريكية المتطرفة لإمرار أجندة صهيونية عنصرية لا تخدم غير مصالح إسرائيل والصهيونية واليهودية العالمية مع إلحاق أشد الضرر بمصالح الولايات المتحدة ومكانتها في العالم، والويل لمن يعترض على وجهة نظرهم أو يمس بها ولو مسا خفيفا سواء أكان مواطنا عاديا أم صحافيا أم محللا سياسيا أم مفكرا أم عضوا في الكونجرس نائبًا أو شيخًا، إذ سرعان ما يجعلونه يحس بشناعة ما ارتكبه من خطأ أو خطيئة، إما في جيبه أو في وظيفته أو في مكانته أو، في الحالات المستعصية، في حياته! ولكن نجد مع ذلك أن هناك من أخذ يتساءل عن سبب هذه القوة، ومن الذين يقفون وراءها.





إن الولايات المتحدة هي بالفعل دولة كبرى تعتمد على مؤسسات ترسم سياساتها بعد دراسة وتمحيص. وقد فطن الصهاينة من وقت طويل لتلك المؤسسات وأدركوا ما لها من أثر قوي في الحياة العامة الأمريكية ودور حاسم في استقطاب مراكز القوى في الولايات المتحدة. فعملوا بصورة منهجية على التغلغل فيها والسيطرة عليها و/أو إنشاء مؤسسات خاصة بهم على غرارها؛ وبذلك احتكروا، أو كادوا أن يحتكروا، سوق «مجامع الخبراء» الآنفة الذكر في الولايات المتحدة. وها نحن نجد اليوم أن أشد تلك المؤسسات تأثيرا هي مؤسسات تخضع للسيطرة الصهيونية التامة.

ولم تقتصر المؤسسات الأمريكية على إجراء الدراسات الموالية لإسرائيل، بل تخصصت أيضا في «تفريخ» عدد من أنبغ وأقدر الشخصيات، يهودا أو غير يهود، أمريكيين أو مزدوجي الجنسية، من ذوي الميول الصهيونية أو المؤمنين بأن المخططات الصهيونية تخدم أمريكا، ثم تتولى الجهات الصهيونية الصرف بعد ذلك في «زرع» هؤلاء في مراكز صنع القرار وغيرها من الأماكن الحساسة في الإدارة الأمريكية سواء كانت ديمقراطية أو جمهورية. بل بلغ من جراءة تلك الجهات أنها حين ترى أن شخصا ما، حتى إذا كان غير أمريكي، يمكن أن يخدم سياسة بذاتها في وقت بذاته، فإنها لا تتورع عن ترتيب أمر منحه الجنسية الأمريكية قبل ما لا يزيد على يوم واحد من تاريخ تعيينه في المنصب، وذلك كما حدث في حالة «مارتن إنديك» (Martin Indyk).

والتحكم في هذه المؤسسات نابع من سياسة عامة تنفذها «المنظمة الصهيونية العالمية» ويرجع عهد وضع خطوطها الرئيسية

البحار. وسيدهش الأمريكيون إذا ما رأوا قائمة برجال الأعمال الأمريكيين تلون الهيبة التجارية فيما وراء البحار، وهم في معظمهم يهود ولديهم فهم لقيمة الاسم الأمريكي، وحينما تكون في بلد أجنبي وتصل إلى مكتب يحمل علامة «الشركة الأمريكية للاستيراد» أو «الشركة التجارية الأمريكية» أو غيرها من الأسماء الفضفاضة، تذهب هناك أملاً في أن تجد شخصًا أمريكيًا، غير أنك بدلاً من ذلك تجد شخصًا يهوديًا كل علاقته بأمريكا هي رحلة قصيرة قام بها، وربما يلقي هذا بعض الضوء على الطريقة التي تدار بها طرق العمل الأمريكية في بعض أنحاء العالم، حيث يمكن لحوالي ثلاثين أو أربعين جنسية مختلفة أن تقوم بالعمل تحت الاسم الأمريكي، بل وتقوم به بشكل قانوني، لذا ليس بمستغرب أن الأمريكيين لا يدركون بعض ملامح أسلوب العمل الأمريكي والتي يتم تغطيتها في الصحافة الأجنبية. وكان الألمان يشتكون منذ فترة طويلة بأن العالم يحكم على الألمان من خلال صورة التاجر اليهودي الرحالة والذي يتحدث بالألمانية.



وتبدو حوادث الرخاء اليهودي في الولايات المتحدة أمرًا شائعًا، ولكن الرفاهية وهي مكافأة عادلة لبعد النظر والتطبيق، لا يجب أن تُخلط بالسيطرة والاحتكار. أما فيما يتعلق بالرفاهية التي حازها اليهود، فيمكن لأي مجموعة أخرى أن تحوزها، فقط إذا ما كانت على استعداد لدفع الثمن الذي دفعه اليهود وهو ثمن غال جدًا، وكقاعدة، فكل شيء يمكن أن يوضع تحت الاعتبار. ولكن سيكون من المستحيل على أي تحالف من الأغيار، وفي ظل ظروف مشابهة أن يحوز ذات السيطرة التي حصل عليها اليهود، لسبب غير متوافر في الأغيار، وهي صفة العمل معًا واتحاد الهدف والتماسك الذي يفرضه الانتماء لمجموعة عرقية واحدة، وهو ما يميز اليهود. فبالنسبة للأغيار لا يهمهم في شيء أن هناك أغيارًا آخرين، أما بالنسبة لليهودي فيهتم كثيرًا إذا ما علم أن الرجل الذي يقف ببابه ما هو إلا يهودي آخر مثله. يمكن القول إذن بأن اليهودي قد صادفه النجاح في كل شيء جربه في الولايات المتحدة فيما عدا الزراعة، والمبرر الذي غالبًا ما يقدم في الأدبيات اليهودية هو أن الزراعة العادية تعد أمرًا بسيطًا للغاية لأن ينخرط فيه اليهودي بمواهبه وذكائه، وبالتالي فهو غير مهتم بها لإنجاحها، ولكنه حقق نجاحًا في صناعة الألبان والماشية وهي صناعة تحتاج «للعقل». وقد بذلت محاولات عديدة في أنحاء عدة من الولايات المتحدة لبدء إنشاء مستعمرات زراعية يهودية ولكنها قصة من الفشل المتواصل، وقد عزا البعض هذا الفشل إلى نقص معرفة اليهود بالزراعة العلمية، بينما قال آخرون بأنه يعود إلى كراهية اليهود للعمل اليدوي، وقال آخرون إنه يعود إلى نقص عنصر المضاربة في الزراعة. في كل الأحوال فإن اليهودي حقق نجاحًا في الوظائف غير المنتجة عن الوظائف المنتجة. وبعض دارسي المسألة يقولون بأن اليهودي لم يكن أبدًا إنسانًا يهتم بالأرض ولكنه كان دائمًا تاجرًا، وأحد البراهين على تأكيد ذلك هو اختيار اليهود لفلسطين لأن تكون بلادهم، هذا القطاع من الأرض الذي يشكل بوابة بين الشرق والغرب، والذي هو أيضًا قبلة المرور البري للعالم.■

الهوامش

(١) كما عرفنا، كتب هنري فورد مقالات الكتاب سنوات ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢م، ولم يكن مصطلح العولمة ظهر ذلك العصر، ونعتقد أن ما قصده بالدولي، هو ما نقصده بالعولمي اليوم.

(٢) الأغيار، غير اليهود (Gentiles).

إن الصهاينة الذين بدأوا في أول عهدهم منذ مائة عام، تسخير أنفسهم لخدمة مصالح الغرب خدمة العبد للسيد إذا ساندهم الغرب في تحقيق أمانيهم، قد انتهى الأمر بهم، إلى أن أصبحوا الآن هم الأسياد



إلى أول مؤتمر صهيوني عالمي عقد في بال في سويسرا عام ١٨٩٧ وتمخض، في جملة أمر، عن تأسيس تلك المنظمة. ونحن نرى الآن أن المخطط الصهيوني الذي رسم منذ ذلك الزمن قد نُفذ بحذافيره ولم يتبق غير وضع اللمسات الأخيرة لإسرائيل الكبرى فالسيطرة على العالم أجمع من خلال أقوى دولة أيا كانت، وهذه الدولة هي اليوم الولايات المتحدة الأمريكية.

ففي الأشهر الثمانية عشر الأولى من رئاسة بوش، نجحت هذه الشبكة من الشخصيات البارزة المتواجدة في وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ومجلس الأمن الوطني فضلا عن المكتب التنفيذي لرئاسة الجمهورية في اختطاف وتقويض كامل برنامج إدارة بوش في مجالي الأمن الخارجي والوطني وذلك إلى الحد الذي أصبح معه حلفاء أمريكا في أوروبا وأمريكا اللاتينية والعالم العربي ومنطقة آسيا والمحيط الهادي يعتبرون الولايات المتحدة الشريكة الرئيسية لأرييل شارون في السير بالعالم في الطريق المؤدية إلى الوقوع في هاوية الانهيار الاقتصادي والحروب السكانية، بدءا من الخليج العربي والشرق الأدنى.



ويرجع الجانب الأكبر من قدرة هذه الخلية على تقويض دعائم أي سياسة رشيدة إلى أنها تعمل في شكل شبكة وثيقة الترابط، بنقاط تنسيق وطيدة مع وكالات الأنباء في الولايات المتحدة ومع مجموعة بأكملها من مجمعات الخبراء (Think Tanks) والمؤسسات المعفاة من الضرائب التي تمد الجهود التخريبية لأعضاء تلك الخلية بالدعم الإداري في واشنطن العاصمة. ومن بين تلك المؤسسات معهد المشروع الأمريكي / المبادرة الأطلسية الجديدة» (The American Enterprise Institute/New Atlantic Initiative)، و«مؤسسة التراث» (The Heritage Foundation)، و«معهد هدسون» (The Hudson Institute)، و«معهد كاتو» (The Cato Institute). ويتم تمويل جميع هذه المؤسسات بدورها من خلال رابطة صغيرة من المؤسسات المعفاة من الضرائب، على رأسها «مؤسسة ميلون سكيف» (The Mellon Scaife Foundation)، و«مؤسسة برادلي» (The Bradley Foundation)، و«مؤسسة أولن» (The Olin Foundation)، و«مؤسسة سمث ريتشاردسون» (The Smith Richardson Foundation). غير أن قوة هذا الجهاز تعتمد على مدى تواجد أعضائه في أجهزة الإدارة. ذلك أنك ما إن تزيحهم من مناصبهم حتى تفقد عملياتهم كل فعاليتها فتتلاشى وتموت.

ومن بين الذين قرروا التصدي لهذا التحكم وكشف مخططاته ليندون لاروش (Lyndon LaRouche)، المرشح للرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٤، ووزير العدل الأمريكي السابق رامزي كلارك (Ramsay Clark)، ومنظمة A.N.S.W.E.R المنتشرة في كل أنحاء الولايات المتحدة وغيرها من المنظمات، إذ تزعموا حركة جبارة انضم إليها عدد هائل من الأمريكيين العرب لأنهم وجدوا فيها السند الأمريكي القوي للتصدي لحملة التشويه الموجهة عالميا ضد العروبة والإسلام ومحليا ضد ذات وجودهم في الولايات المتحدة.

وقد قال رامزي كلارك في إحدى كلماته التي يستمع إليها مئات الألوف من الأمريكيين «إن أغلبية الشعب الأمريكي لا تؤيد الحرب، لا بل إن ما لا يقل عن نصف الشعب يعارضها صراحة. ومن الأدلة على ذلك خروج ٢٠٠٠٠٠ أمريكي في ٢٦ أكتوبر الماضي للتظاهر أمام البيت الأبيض تحت شعار «لن تشنوا الحرب باسمنا».

وكلام وزير العدل السابق هذا يجد صداه فيما لا يحصى من المواقف المعلنة، التي ظهر بعضها في شكل بيانات صادرة عن كبرى كنائس البلاد، ومن أهمها الكنيسة الكاثوليكية ونفس الكنيسة البروتستانتية التي ينتمي إليها الرئيس بوش، وكذلك عن اتحادات العمال والنقابات المهنية، وظهر بعضها الآخر في شكل إعلانات، من بينها إعلانات على صفحات كاملة من كبريات الصحف اليومية، تحت توقيع آلاف المثقفين والأكاديميين والمنتمين إلى الأوساط الفنية، ولاسيما في هوليوود، لا بل حتى أعضاء الجماعات اليهودية المناهضة للصهيونية.

إذن لماذا تصر الإدارة الأمريكية على الاستمرار في دق طبول الحرب على العراق والاستماتة في البحث عن أي حجة لشنها؟ ومن هي القلة القليلة التي تخطط لتلك الحرب، ولمصلحة من تخطط لها إذا وضعنا في اعتبارنا أن أغلبية الشعب الأمريكي لا ترى أن مثل تلك الحرب تخدم مصلحته؟ ومن هم المسئولون الحقيقيون عن رسم هذه السياسة؟



إن أفضل سرد موثق لماهية هذه المجموعة والانتماءات الحقيقية لكل من أعضائها ورد في الموقع الإلكتروني www.larouchein2004.com الخاص بـ Executive Intelligence Report(EIR).

(١) دوجلاس ج. فايث
(Douglas J. Feith)

(٢) دافيد وورمزر
(David Wurmser)

إن هذين الموظفين اللذين عينهما بوش، أولهما في منصب وكيل وزارة الدفاع المسئول عن السياسات العامة وثانيهما في منصب المستشار الأقدم لوكيل وزارة الخارجية المسئول عن مراقبة التسلح والأمن الدولي، يجسدان مشكلة «الشبكة» أو «الخلية» المذكورة على أنصعها. فقد كانا قبل تولي منصبيهما الحاليين في الحكومة مرتبطين ارتباطا وثيقا بأعنف الدوائر الإسرائيلية ذات الميول الجابوتنسكية ويدعوان علنا إلى سياسات تتعارض كل التعارض مع هدف بوش المعلن المتمثل في الحل القائم على دولتين للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

ودوجلاس فايث مسئول في منصبه الحالي عن صوغ التوجيهات في مجال السياسة الدفاعية، واتصالات وزارة الدفاع بالحكومات الأجنبية، والمشاركة في أفرقة العمل المشتركة بين مختلف الوكالات. وقد مثل وزارة الدفاع في جميع المفاوضات مع إسرائيل، وكان أكبر موظف في الوزارة يشارك في اجتماعات عقدت في يونيه ٢٠٠٢ مع وزير داخلية إسرائيل عوزي لانداو والجنرال دافيد تزور بشأن تأسيس مكتب إسرائيلي - أمريكي دائم في واشنطن لتنسيق شئون «الأمن الداخلي». ويستدل من الأنباء المنشورة أنه لو قُدِّر لهذا المكتب أن يخرج إلى الوجود لزوَّد إسرائيل بإمكانية غير مسبوقة للحصول على بيانات تتعلق بالأمن الوطني للولايات المتحدة فضلا عن مقادير خطرة من المدخلات المتصلة بالسياسات التي تحدد تطور الإستراتيجية الأمريكية لمكافحة الإرهاب.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اسم فايث ورد قرب رأس قائمة المتهمين بالتآمر مع بولارد (Pollard)، اليهودي الأمريكي المدان بالتجسس لحساب إسرائيل والمحكوم عليه بالسجن مدى الحياة، علما بأنه لم يقبض لا على فايث ولا على أي أحد من المتهمين الآخرين.

وفي الفترة التي ترك فايث فيها العمل في الحكومة وقبل أن يعود إلى العمل فيها، أصبح المحامي المسئول عن إدارة «مكتب محاماة فايث وزيل»، الذي نفذ مهام واسعة النطاق بالاشتراك مع الصناعات العسكرية الإسرائيلية، وكانت له فروعه في واشنطن ونيويورك والقدس وتل أبيب وموسكو.

وخلال عمله خارج الحكومة، شارك فايث أيضا في عدد من أجهزة اللوبي الإسرائيلي المعروفة وكذلك في مكتب استشارات ذي صلات وثيقة بالروابط العسكرية فيما بين تركيا وإسرائيل.

وقد شارك فايث في دراسة استغرقت سنة كاملة أعدَّت لـ «معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا»

الواقع مقره في القدس وواشنطن، وعنوانها «قطيعة حاسمة: استراتيجية جديدة لكفالة أمن الدولة». وكان من بين المشاركين الآخرين في إجراء هذه الدراسة ريتشارد بيرل ودافيد وورمزر وزوجته ميراف وورمزر. ومن جملة ما دعت إليه هذه الدراسة وقف ما تقدمه إسرائيل بحسب اتفاقات أوسلو من الموارد المالية إلى السلطة الفلسطينية وقيام إسرائيل بالتحضير للعمليات العسكرية ضد سوريا في سياق ازدياد نشاط حزب الله في جنوب لبنان.



وكتب فايث في الفترة التي كان فيها خارج الحكومة لهيئتين لهما أهميتهما الكبرى من هيئات اللوبي الإسرائيلي هما: «الأمريكيون العاملون لكفالة سلامة إسرائيل» و«المنظمة الصهيونية الأمريكية».

وقد شاركت كلتا هاتين الهيئتين مع عدد من قادة الصهاينة المسيحيين في اجتماع ابتزازي في البيت الابيض عقد في يولية ٢٠٠١ عمد الصهاينة المسيحيون فيه إلى التهديد بوقف دعم المسيحية التبشيرية للرئيس بوش مالم يُعْطِ النور الأخضر مائة في المائة لآريل شارون لكي يسحق الفلسطينيين.

ونشرت «المنظمة الصهيونية الأمريكية» في عام ١٩٩٩ كتابا يشرح بوضوح استحالة إقامة دولة فلسطينية. وقد كتب فايث أحد فصول ذلك الكتاب، وبذلك سجل على نفسه من جديد معارضته الصارخة للسياسة الراهنة لإدارة بوش تجاه هذه المسألة.

ودافيد وورمزر يشبه فايث من حيث إنه يبرز هو أيضا كشخص لا يخجل من كونه من أتباع جابوتنسكي يعمل من داخل وزارة الخارجية الأمريكية لتقويض سلطة وزير الخارجية كولن باول. وقد كان وورمزر حتى تعيينه في أوائل هذه السنة في منصبه الحالي في وزارة الخارجية المدير المسئول عن السياسة المتصلة بالشرق الأوسط في «معهد المشروع الأمريكي» ومدير برنامج البحوث الإستراتيجية والسياسية في «معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا». وكان هذا المعهد قد أعد الإستراتيجية لرئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو بمشاركة من فايث وبيرل أيضا، في حين أن مكتب وورمزر أعد التقرير اللازم بتوجيه من بيرل، علما بأن التقرير المذكور دعا إلى إنهاء «صهيونية العمل» وإخضاع إسرائيل بالجملة للسياسة الجابوتنسكية المبنية على القمع الوحشي لحقوق الفلسطينيين والقيام في نهاية المطاف بضم الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧.

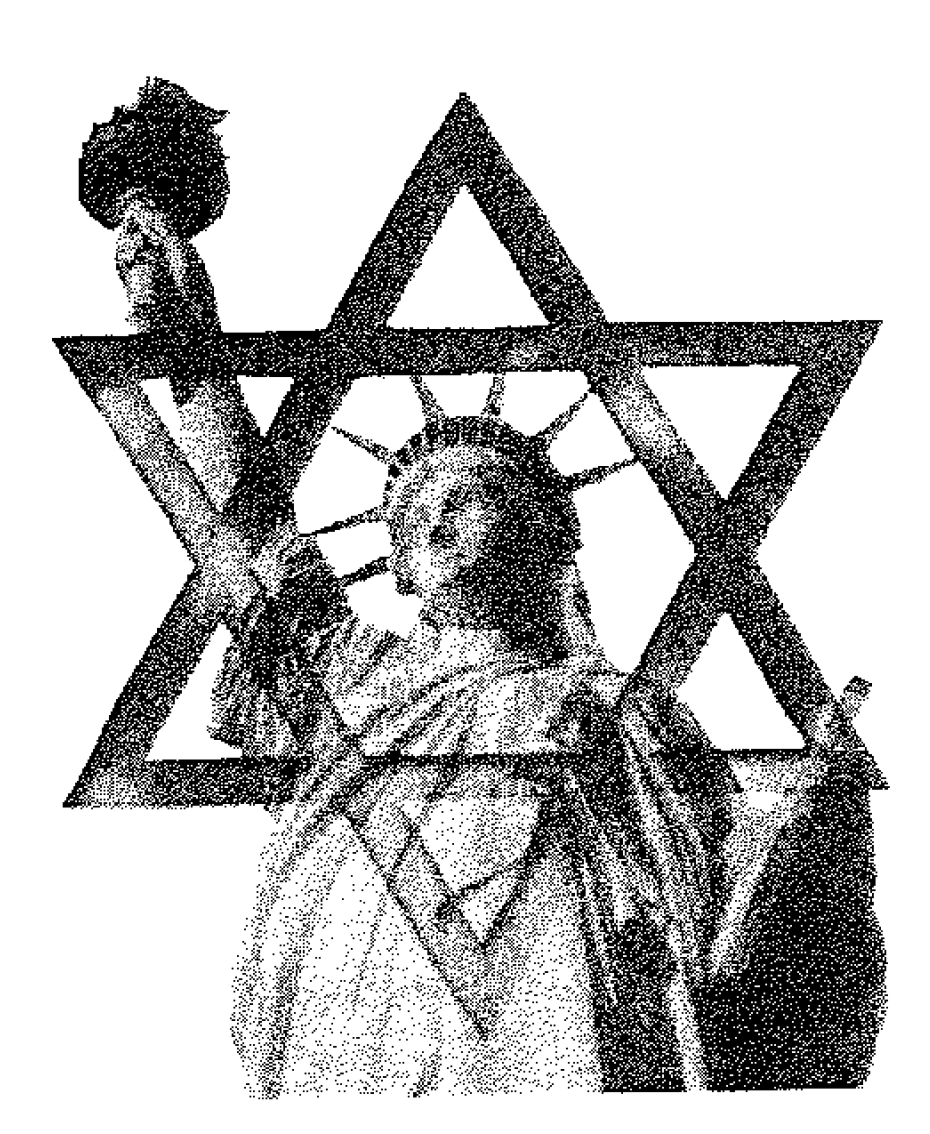
ومن عام ١٩٨٤ إلى عام ١٩٩٤، كان وورمزر مدير المنح الدولية لـ«معهد واشنطن للسياسة المتصلة بالشرق الأدنى»، وهو مجمع خبراء (Think Tank) متفرع من «اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة» (إيباك) (America Israel Public Affairs Committee (AIPAC))، أسسه مارتن إنديك (Martin Indyk) المولود في أستراليا الذي كان مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى في عهد الرئيس كلنتون ثم أصبح سفير الولايات المتحدة لدى إسرائيل. وقبل مجيئه إلى الولايات المتحدة، كان إنديك يعمل في مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي كان آنذاك إسحاق شامير. وفي وقت أسبق، حين كان يعمل في الهيئة الأسترالية المناظرة لمجلس الأمن الوطني الأمريكي، كانت تحوم حوله شبهات كثيرة بكونه عميلا لإسرائيل. وفي أواخر أيامه كسفير للولايات المتحدة لدى إسرائيل، حقق مكتب التحقيق الفيدرالي (إيف. بي. آي) معه بسبب سلسلة من الانتهاكات الأمنية التي ارتكبها، كان من بينها اجتماعات لم يبلغ عنها مع رئيس الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية، أي الموساد، وكذلك بسبب حيازته لبيانات سرية مخزونة في كمبيوترات شخصية غير مصونة.

ووورمزر يشبه فايث من حيث إنه أسهم بالعديد من المقالات في مجلة «آوتبوست» (Outpost) التي تصدرها المنظمة الصهيونية الأمريكية. وعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كتب وورمزر على صفحات «الويكلي ستاندرد» (Weekly Standard) الصادرة عن الإمبراطورية الصحافية التي يملكها روبيرت مردوك (Rupert Murdoch)، وهو من أكبر أنصار إسرائيل، أن المملكة العربية السعودية، وبخاصة ولي العهد الأمير عبد الله، ينبغي أن يُحَمَّلا المسئولية المباشرة عن ارتكاب الهجمات الإرهابية. كما أنه ربط بين ولي العهد وبين «الوهابية المتزمتة» وحذر من أن في إمكان الأمير أن يستعيد التعاون بين المملكة العربية السعودية والعراق وسوريا. ثم كتب في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١ «أن شبكة بن لادن نشأت داخل هذه الكتلة الإستراتيجية المؤلفة من الوهابية والأمير عبد الله وسوريا والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية ثم أصبحت الهيكل الإرهابي الذي يوحد بين ما كانت حتى الآن جماعات مستقلة ومنعزلة وغير منسقة استراتيجيا. و«القاعدة» في أساسها وليدة سياسات آل سعود».



لماذا تصر الإدارة الأمريكية على الاستمرار فى دق طبول الحرب على العراق؟ ومن هى القلة القليلة التى تخطط لتلك الحرب، ولمصلحة من تخطط لها إذا وضعنا فى اعتبارنا أن أغلبية الشعب الأمريكى لا ترى أن مثل تلك الحرب تخدم مصلحته؟





(٢) ميراف وورمزر

(Merav Wurmser)، زوجة دافيد

كانت الدعوة إلى إحداث قطيعة استراتيجية بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية موضوعا رئيسيا من المواضيع التي عني بها عدد من مجامع الخبراء المرتبطة بصلات وثيقة مع وورمزر. وفي هذا الصدد، نجد أن ميراف وورمزر زوجة دافيد، التي تدير برنامج الشرق الأوسط لمعهد هدسون، أخذت بزمام المبادرة في التهجم على المملكة العربية السعودية في أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

ولميراف ارتباطات واسعة النطاق بالاستخبارات الإسرائيلية تكونت نتيجة لنشاطها السابق كمشاركة في تأسيس (Middle East Media Research Institue (MEMRI)) معهد البحوث المتصلة بوسائط إعلام الشرق الأوسط (ميمرى)، وهو هيئة أخرى من الهيئات الواقعة مقارها في القدس وواشنطن تتوفر على اختيار وترجمة المقالات المهيجة للمشاعر من الصحف العربية والإسلامية لتعميمها على وسائط الإعلام العالمية والحكومة الأمريكية.

وقد أسست ميراف معهد «ميمرى» بالاشتراك مع ييجال كارمون، وهو كولونيل متقاعد كان يعمل في استخبارات الجيش الإسرائيلي وشغل عدة مناصب عليا في الاستخبارات وعمليات مكافحة الإرهاب الإسرائيلية.



ويعمل «معهد هدسون» علانية على الدعوة إلى قيام الولايات المتحدة بالاحتلال العسكري للمقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية التي توجد فيها كل احتياطياتها البترولية و«تحرير» تلك المقاطعة من حكم آل سعود. وقد كتب ماكس سنجر، المشارك في تأسيس معهد هدسون، مقالة نشرت في مايو ٢٠٠٢ في كل من «الجيروسالم بوست» و«النيويورك صن» (ويملك كليهما عضو مجلس إدارة المعهد كونراد بلاك) بعنوان «حرروا المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية»، طالب فيها باقتطاع ما سماه «الجمهورية الإسلامية لشرق الجزيرة العربية» من جسد المملكة. وفي يونية ٢٠٠٢، عقدت في مبنى الكونجرس برعاية معهد هدسون حلقة دراسية استهدفت آل سعود بوصفهم المسئولين عن رعاية الهجمات التي وقعت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتولت رئاسة الحلقة ميراف وورمزر.

ولايخفى أن السيناتور الجمهوري ماكين والسيناتور الديمقراطي ليبرمان آخذان في شن هجوم منسق على بوش يهددانه فيه بأنه إذا لم يعلن الحرب على صدام حسين ويوفر الدعم التام لخطط شارون الحربية فإن ماكين سينافسه في انتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٤، الأمر الذي سيضمن فشل بوش. وقد أحدث هذا التهديد مفعوله كما يدل على ذلك رضوخ بوش لشارون في خطابه الذي ألقاه في ٢٤ يونيه بشأن مستقبل العلاقات الإسرائيلية ـ الفلسطينية.



وتذكر مصادر مقربة من إدارة بوش أن المدير السياسي للبيت الأبيض كارل روف (Carl Rove) بالتهديد الذي يمثله تألب ماكين وليبرمان على الرئيس فأخذ يصر على تفحص كل قرارات الرئيس المهمة في مجالي السياسة الخارجية والأمن الوطني للتكفل بألا تتخذ إدارته أي إجراء يمكن أن يغضب حكومة شارون أو اللوبي الصهيوني الأمريكي، الأمر الذي كان سيعرض للخطر فوز الحزب الجمهوري في الانتخابات لعضوية الكونجرس التي أجريت في نوفمبر ٢٠٠٢ وإعادة انتخاب بوش في عام ٢٠٠٤.

(٤) بول فولفوفتز

(Paul Wolwowitz)

إن نائب وزير الدفاع بول فولفوفتز شخصية لها سطوتها داخل إدارة بوش، وكان لها فضل فتح الأبواب على مصراعيها لدخول أعضاء «الخلية» في صفوف موظفي وزير الدفاع.

وفولفوفتز يدعو من عهد طويل إلى الأخذ بالمبدأ المنصوص عليه في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Memorandum 200 (NSSM-200)) والقاضي بالحد من تعداد سكان بلدان العالم الثالث ومن سيادة تلك البلدان بأي ثمن، سواء أكان ذلك بالحرب أم بالأمراض الفتاكة أم بأي وسائل إبادة أخرى «مشروعة» أو غير مشروعة لكي لا تستخدم هي مواردها الطبيعية التي يعتبرها التقرير ملكا لأمريكا وإنجلترا. وكان على رأس قائمة البلدان المستهدفة مصر وإيران وبعض دول أفريقيا السوداء.

هذا وقد بدأ فولفوفتز حياته الوظيفية الحكومية في عهد إدارة فورد حين عمل تحت رئاسة هنري كيسنجر وفريد إيكليه (Fred Ikle) وهو شخص آخر يشتبه في انتمائه إلى «اللجنة السينية» (X Committee) بصفة مساعد خاص لمدير وكالة مراقبة التسلح ونزع السلاح. وفي عهد إدارة ريجان ـ بوش، كان فولفوفتز مدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية، ثم أصبح فيما بعد رئيس شئون شرق آسيا وسفير الولايات المتحدة لدى إندونيسيا. أما تحت رئاسة جورج بوش الأكبر، فقد كان فولفوفتز وكيل وزارة الدفاع

المسئول عن رسم السياسات.

وكان لفولفوفتز دور فعال في تعيين فايث في البنتاجون وكذلك في اختيار ريتشارد بيرل لرئاسة مجلس السياسة الدفاعية التابع لوزير الدفاع رامسفيلد. كما أنه عين دوف زاكهايم، وهو عميل يميني آخر من عملاء اللوبي الصهيوني، في وظيفة عليا في البنتاجون بصفة مراقب حسابات.

ومن حيث أن فولفوفتز ثاني أعلى مسئول في البنتاجون، فإنه اضطر إلى الامتثال للخط المرسوم في تصريحاته العلنية؛ أما فيما وراء الكواليس، فإن الأمر مختلف. من ذلك أنه عمد في اجتماع في كامب دافيد عقد في ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ وضم كبار موظفي الإدارة في مجال رسم السياسات إلى الدعوة إلى القيام بغزو أمريكي كامل للعراق بغية الإطاحة بصدام حسين ردا على هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بالرغم من عدم وجود أي دليل على ضلوع العراق فيها.

(٥) ريتشارد بيرل
(Richard Perle)

إذا أردنا الدقة فإن ريتشارد بيرل لا ينتمي إلى إدارة بوش، ووظيفته كرئيس لمجلس السياسة الدفاعية هي محض استشارية. وواقع الحال أن بيرل موظف لدى «هولنجر كوربوريشن» (Hollinger Corporation, Plc.)، وهي امبراطورية إعلامية تابعة لعضو مجلس اللوردات كونراد بلاك يقع مقرها في لندن وتملك «الديلي تيلجراف» في انجلترا و«الجيروسالم بوست» في إسرائيل وسلسلة من الصحف في جميع أنحاء الكمنولث البريطاني وفي الولايات المتحدة. وهنري كيسنجر يشارك في رئاسة المجلس الاستشاري الدولي لـ «هولنجر كوربوريشن».

وفي الآونة الأخيرة، بدأ كونراد بلاك ومايكل ستاينهارت، وهو من أكبر مقدمي الدعم المالي لجوزيف ليبرمان، في إصدار صحيفة يومية جديدة في مدينة نيويورك هي «النيويورك صن»، والمقصود بها بجلاء ترويج برنامج فريق دعاة الحرب.

(٦) هنري كيسنجر
(Henry Kissinger)

وهنري كيسنجر هو أيضا عضو في مجلس السياسة الدفاعية الذي يرأسه بيرل، شأنه في ذلك شأن مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جيمز وولزي (James Woolsey)، الذي هو أيضا محامي المؤتمر الوطني العراقي وأكبر داعية للقيام بغزو عسكري أمريكي للعراق.

وقد ذكرت «النيويورك تايمز» مؤخرا أن إعادة إدراج غزو العراق في جدول أعمال إدارة بوش جاء نتيجة لتوصية من مجلس السياسة الدفاعية.

وقد كرس بيرل، المعروف في أوساط صنع السياسات في واشنطن باسم «أمير الظلام»، حياته العامة لترويج سياسة هنري كيسنجر الفتاكة المتجسدة في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Memorandum 200 (NSSM-200).

وفي عام ١٩٧٨، نجد أن بيرل، الذي كان آنذاك موظفا في لجنة التحقيق الفرعية الدائمة التابعة لمجلس الشيوخ التي كان يرأسها السيناتور الديمقراطي هنري جاكسون، استضاف المستشرق الدكتور برنارد لويس حين جاء إلى واشنطن لترويج سياسته القائلة بوجود ما أسماه «قوس الأزمات» لدى مجلس الأمن الوطني على عهد كارتر الذي كان يضم زبجنيو برجنسكي وصموئيل هنتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» سيئة الصيت.

وفي عهد إدارة ريجان، قدم براين (Bryen) من «المعهد اليهودي لشئون الأمن الوطني» ليصبح نائب بيرل، واستخدم الاثنان منصب بيرل لتنفيذ «أبارتهيد تكنولوجي» ضد طائفة واسعة من بلدان العالم الثالث عن طريق المطالبة بإعطاء وزارة الدفاع حق الفيتو ضد أي مبيعات خارجية لأي تكنولوجيات «ذات استخدام مزدوج» يمكن أن تكون لها أي تطبيقات عسكرية.

(٧) جون بولتون
(John Bolton)

وكيل وزارة الخارجية الأمريكية المسئول عن مراقبة التسلح والمنظمات الدولية، وهو الذي جاء بدافيد وورمزر ليكون مساعده الخاص.

وفي إطار منصبه المذكور بوصفه رئيس هيئة مراقبة التسلح، قام بولتون بدور رئيسي في «استعراض السياسة النووية» الذي اضطلعت به إدارة بوش، والذي انتقده بشدة الجنرال الروسي ليونيد إيفاشوف في مقابلة له مع إحدى وكالات الأنباء في ١١ يناير ٢٠٠٢. وكان من رأي إيفاشوف أن الاستعراض ينادي بالاستخدام الوقائي أو الإستباقي للأسلحة النووية ضد الدول اللانووية، وأنه بالإضافة إلى ذلك يتسق مع سياسة هنري كيسنجر المجسدة في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Mem orandum 200 (NSSM-200) بشتى مظاهر تلك السياسة.

وقال إيفاشوف في هذا الخصوص: «لو طالعنا استراتيجية الأمن الوطني التي وضعتها الولايات المتحدة للقرن القادم لوجدنا أن الأمريكيين يعتبرون استنفاد الموارد الطبيعية وتسارع نمو سكان العالم مشكلتين من المشاكل ذات الأولوية... ولهذا فإن من الجلي أن ما تفعله الولايات المتحدة في مختلف بقاع العالم إنما تفعله لإجبار أمم تلك الأصقاع على الدخول في مسار التنمية التراجعية... وإذا كانت هذه النتيجة التي خَلُصتُ إليها صحيحة، فإن الأسلحة النووية تصبح في تلك الحالة حقا أسلحة من أسلحة ميدان القتال».

(٨) ج. د. جاك كراوتش
(J. D. "Jack" Crouch)

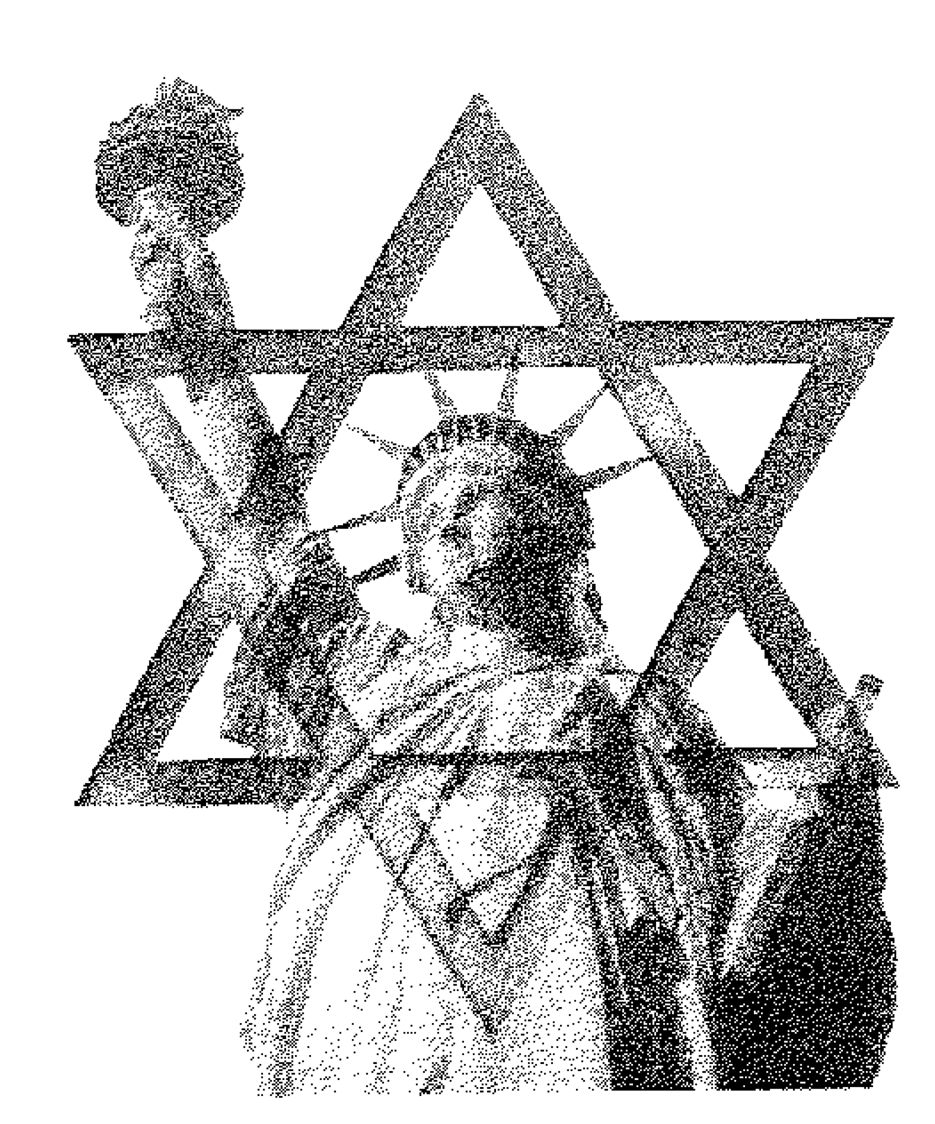
هو مساعد وزير الدفاع المسئول عن الأمن الدولي، وله مكانه كعضو كامل العضوية في عشّ «الشبكة» أو «الخلية» داخل البنتاجون.

وقد بدأ كراوتش حياته الوظيفية الحكومية كمساعد تشريعي للسيناتور الجمهوري مالكولم والوب (Malcolm Wallop)، وهو سيناتور موال للإنجليز من أعضاء اللجنة المختارة المعنية بالاستخبارات، وكان يساعده فيها معاونه الرئيسي آنجيلو كودفيلا (Angelo Codevilla) الذي هو الآن مدير مشارك لشعبة الأمن الوطني في «معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا» التي كان دافيد وورمزر يعمل فيها أيضا. وهذا المعهد هو مجمع الخبراء الذي أعد برئاسة بيرل، لأغراض نتنياهو الذي كان رئيس الوزراء في ذلك الوقت، دراسة عن كيفية سحق أي تحرك نحو إنشاء دولة فلسطينية، ووضع حدّ لـ «الصهيونية العمالية» المتمثلة في «حزب العمل» الإسرائيلي والاستعاضة عنها باقتصاد «السوق الحرة» الذي تنادي به «جمعية مونت بلران» (Mont Pelerin Society).

وكراوتش معروف بأنه من دعاة الحرب العريقين، وقد روّج في السنوات الأخيرة للحرب ضد كوريا الشمالية لتدمير «المجمع النووي فيها»، وكذلك للحرب ضد كوبا للقضاء على نظام كاسترو.



أيقن الكثير من الأمريكيين الآن أنهم فقدوا السيطرة على حكم أنفسهم بأنفسهم بسبب الصهاينة الأمريكيين المتحدين مع الصهيونية العالمية ومركزها إسرائيل. وقد ضاق بعضهم بهذا الوضع إلى درجة أنهم بدأوا يتهمون أعضاء الكونجرس بخيانة أمريكا



ولكن ما هي جذور الأفكار التي تجعل كراوتش ينادي بشن مثل «حرب الثلاثين سنة» هذه؟ حين كان كراوتش خارج الحكومة، انتمى إلى جماعة «الجمهوريون المغتربون / جامعة أكسفورد» (Republicans Abroad-Oxford University) التي تدعو أعضاءها إلى «الاعتماد على التجارب الإمبريالية البريطانية». وعلى الأخص، أخذت هذه الجماعة بالأفكار التي بشر بها في أوائل القرن العشرين السر هالفورد ماكندر (Halford MacKinder)، صاحب «الجغرافية السياسية» التي تقضي بالاستيلاء على «قلب» المنطقة الأوراسية، والتي وفرت للملك إدوارد السابع الغطاء الذي تستر تحته لإشعال نيران الحرب العالمية الأولى.

(٩) آيان برجنسكي
(Ian Brzezinsky)

يعمل في البنتاجون تحت الرئاسة المباشرة لكراوتش بصفة نائب مساعد وزير الدفاع لأوروبا وحلف شمال الأطلسي (الناتو). وهو نجل زبجنيو برجنسكي الذي كان مستشار الأمن الوطني للرئيس كارتر، وعراب المجاهدين الأفغان، وأحد مريدي المستشرق البريطاني برنارد لويس.

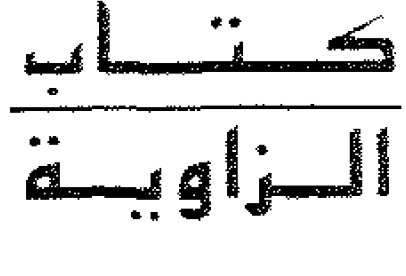
(١٠) إليوت أبرامز
(Elliot Abrams)

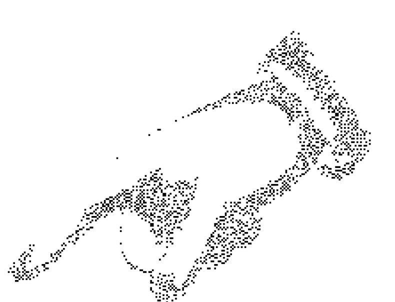
هو المدير الأقدم لمكتب الشئون الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمليات الدولية. وكان زميلا أقدم في فرع معهد هدسون في واشنطن العاصمة. وبعد الاشتغال لمدة قصيرة في قطاع الأعمال والمجال القانوني، عُيِّن أبرامز رئيسا للجنة الأمريكية المعنية بالحرية الدينية على الصعيد الدولي التي عمل من خلالها مع الحاخام مورتن روزنثال (Rabbi Morton Rosenthal)، مدير شعبة أمريكا الجنوبية لرابطة مكافحة التشهير التابعة لـ «بناي بريث».

وكان أبرامز أحد الكامنين في عش المشتبه بكونهم جواسيس لإسرائيل - وبضمنهم بيرل وجافني (Gaffney) وبراين - وكانوا جميعا من موظفي مجلس الشيوخ في أواخر السبعينيات وأسندت إليهم وظائف مهمة داخل إدارة ريجان.

(١١) تم جوجلن
(Tim Goegelin)

مسئول عن تيسير اتصالات البيت الأبيض بـ «المجتمع الديني»، وقد تولى وظيفته في البيت الأبيض على أساس ما له من صلات قديمة العهد بـ «جاري باور» (Gary Bauer)، وهو صهيوني مسيحي يروج لمساعي شارون الحربية في الشرق الأوسط.





مصر والسودان

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية ومالكتها قبل حكم المهديين؟

هل تدرك وتفهم جيدًا كل مملكة من الممالك المتمدينة - السائرة مجردة عن الهوى إلى شواطئ النيل الصالحة للملاحة - أن الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية إلى الأراضى التى تحصل عليها كل منهن؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعيًا شريفًا فى كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة فى أن الفضيلة تقتضى التجرد عن الهوى وعدم تعريض مصالح مصر للخطر؟ هل ترضى كل مملكة رضاء المخلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وإنفاق الأموال فى سبل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لا يجيء إلا من اعتداء غير مشروع؟ هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل فى شئون مصر وحقوقها المشروعة؟

تلك أسئلة تدخل فى دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لا يكون من عملى البحث فيها ومناقشتها والإفصاح عن غوامضها.. إن كل ما أرمى إليه هو الإفضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى إلى تقريرها وازع من ضميرى يذكرنى دائمًا بأهمية وفائدة وقيمة السودان لمصر، وإنى أصرح بمناصرتى لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل ما لى من قوة.

إن الأسباب التى دفعت محمد على إلى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن، كانت ولاتزال وستبقى وجيهة جدًا، ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر.

من يحكم أمريكا؟



كل هؤلاء هم بالفعل أمريكيون، ولكنهم كلهم وبدون استثناء صهاينة خدموا خدمة مباشرة إما فى إسرائيل، أو فى لجان أو مؤسسات إسرائيلية لها فروع فى أمريكا. والترشيح لعضوية الكونجرس ورئاسة الجمهورية فى أى من الحزبين الديمقراطى والجمهورى لا يمكن أن يتم إلا بموافقة اللجنة الرئاسية لكل من الحزبين، وبذلك فإنها تتحكم فيمن يُقْبَل ترشيحه لينوب عن الشعب الأمريكي، علما بأن الصهاينة نجحوا فى السيطرة التامة على كلتا هاتين اللجنتين. أما التمويل فإنه يتم من خلال مؤسسات مالية ذات ارتباط مباشر بالمؤسسات الراسمة للسياسة الأمريكية المذكورة أعلاه. وهذه المؤسسات المالية تدعم هذا الترشيح وتعمل من خلال إعلام ممول ومسيطر عليه من الصهيونية العالمية. ويتعين على كل مرشح و/أو ممثل ألا يحيد عن «الصراط المستقيم» الذى تحدده السياسة الصهيونية المرسومة، وإلا فإنه يحدث له ما حدث للنائبة السوداء «سينثا ماكنى» (Cynthia McKinney)، التى تجرأت على طلب إجراء تحقيق نزيه لمعرفة حقيقة ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما تجرأت على انتقاد سياسة إسرائيل فى فلسطين، وصوتت ضد الحرب على العراق، فإذا بأموال الصهاينة تتدفق بالملايين من جميع أرجاء الولايات المتحدة كما جاء فى صحيفة «النيويورك تايمز»، وتم شراء الأصوات لإزاحتها من الكونجرس. وحين نجحوا فى إزاحتها، قال رئيس «إيباك» مورس أميتاى «فلتكن هذه عبرة لمن اعتبر»، وذلك على ما ذكرت «النيويورك تايمز» أيضا فى عددها الصادر فى ٢٢ أغسطس ٢٠٠٢. ويلاحظ فى هذا الصدد أن قرار الحرب على العراق اتخذ قبل أسبوع واحد من الانتخابات لعضوية الكونجرس فى نوفمبر الماضى، وكان التصويت بالموافقة على ذلك القرار هو الثمن الذى دُفع للصهاينة من أجل الفوز فيها. وبذلك أصبحت الديمقراطية الأمريكية «معروضة للبيع» على حد قول الكثير من الأمريكيين المخلصين المحبين لبلدهم.



وها نحن نجد اليوم أن العبيد أصبحوا هم الأسياد! ولكن مع أنهم يحاولون دائما اتهام كل من يعارض الحرب بالخيانة. فإن الأصوات تعلو باتهامهم هم بالخيانة بتدبيرهم وإقحامهم أمريكا فى حرب غير إنسانية تخالف الدستور الأمريكى. لا لشيء إلا لخدمة مصالح إسرائيل والصهيونية العالمية التى تريد السيطرة على العالم.

وقد أيقن الكثير من الأمريكيين الآن أنهم فقدوا السيطرة على حكم أنفسهم بأنفسهم بسبب الصهاينة الأمريكيين المتحدين مع الصهيونية العالمية ومركزها إسرائيل. وقد ضاق بعضهم بهذا الوضع إلى درجة أنهم بدأوا يتهمون أعضاء الكونجرس بخيانة أمريكا.

إن الصهاينة الذين بدأوا فى أول عهدهم منذ مائة عام، بتسخير أنفسهم لخدمة مصالح الغرب خدمة العبد للسيد إذا ساندهم الغرب فى تحقيق أمانيهم، قد انتهى الأمر بهم، على ما بينا آنفا، إلى أن أصبحوا الآن هم الأسياد. وقد اعتمد الصهاينة أكثر ما اعتمدوا على إنجلترا وفرنسا، كل منهما عندما كانت لها صولة وجولة فى زمانها. ولا مشاحة فى أنهم قدموا خدمات جليلة لهاتين الدولتين، ثم من بعدهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنهم أخفوا طوال ذلك الوقت أن ما كانوا يعملون ويخططون له فى الحقيقة هو أن يتملكوا فى نهاية المطاف زمام حكم العالم فى غضون فترة المائة عام التى انتهت فى عام ١٩٩٧.



بيد أن من حسن الحظ أن أعداد الساخطين على هذا الوضع آخذة فى الإزدياد يوما بعد يوم وهناك اليوم حالة وعى شعبى أخذت تسرى سريان النار فى الهشيم، كما بدأت الأصوات تعلو فى الكنائس وفى الجامعات والنقابات والأوساط الفنية ولاسيما فى هوليوود، لا بل حتى فى الكثير من الجماعات اليهودية المناهضة للصهيونية. ولأول مرة فى تاريخ الولايات المتحدة، يتظاهر ٢٠٠٠٠٠ أمريكى أمام البيت الأبيض يوم ٢٦ نوفمبر الماضى ضد الحرب قبل اندلاعها. وهناك جماعات كثيرة، من بينها جمعية A.N.S.W.E.R وجمعية وزير العدل الأمريكي السابق رامزى كلارك، تخطط لمظاهرات أخرى حاشدة أمام البيت الأبيض ليعلم راسمو سياسة الدمار الشامل أن غالبية الشعب الأمريكى تقول «لا» للحرب.

نعم، إن الصهاينة يملكون القوة بالفعل عن طريق الإدارة الأمريكية، إلا أن سياسة الحرب والاحتلال والاستعمار تحتاج إلى دعم شعبى، وهو غير متوفر لهم. ولهذا فإن المعارضة الشعبية العامة العارمة لابد لها أن تنتصر على القوة الغاشمة أيا كان طغيانها. ■



بإبداعات جديدة وأسرار جديدة
يعود للقاهرة لثالث مرة...!

شيف شامبون يلقاكم مجدداً
فى الجريل

من ٢٩ يناير وحتى ٦ فبراير



الجريل يستقبل الشيف الفرنسى دانييل **شامبون** الحاصل على **ميشلان ستار** ليقدم إبداعات وأسرار جديدة فى الفترة من **٢٩ يناير وحتى ٦ فبراير**. إستمتعوا بمذاق وخبرة عشرات السنوات وتراث عائلى تتوارثه الأجيال، شامبون ينقل إبداعاته من **بيرجوار** الفرنسية حيث أشهر أطباق **الفواجراه والترُفل** إلى القاهرة من خلال الجريل... مطعمنا الفرنسى. تعال إلى الجريل حيث سحر الليالى الفرنسية.

بالتعاون مع:

AIR FRANCE

للحجز وللمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بمكتب حجوزات المطاعم تليفون: ٧٩٧١٨١٨ داخلى: ١١٥١

للحجز فى جميع أنحاء العالم برجاء الإتصال بالهاتف المجانى رقم: ٢٢ ٣٣٣ ٤٤ ٠٨٠٠.

حــواء الجديدة

الحقيقـــة والمبالغـــة في قصة الاستنســـــاخ البشـــــرى

محــمــد أبوالغـــار

الاستنســاخ شيء عـادى وطبيعي في بعض الكائنــات ذات الخلية الواحدة مثل البكتيريا والميكروبات المرضية التى تنقسم بسـرعة فائقة إلى الآلاف والملايين من نسـخ أخـرى مطابقـة تمامـاً للخليـــة الأولى



■ منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا يعتبر مجيء طفل جديد إلى الدنيا حدثاً مهماً بالنسبة لأسرته، ويكون الحدث أكثر أهمية، إذا تم الحمل بعد فترة عقم طويلة، وقد يكون حدثاً قومياً للأمة كلها إذا كان المولود وليـاً للعــهـد، ويذكــر تاريخ مـصـر الحـديث الأفـراح والليالى الملاح التى صاحبت مولد الأمير أحمد فؤاد ابن الملك فاروق والذى استمر وليّاً للعهد ثم ملكاً لفترة قصيرة وهو طفل حتى تم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وعبر التاريخ كان الإنسان يرغب دائماً في محاولة تخليد نفسه بإنجاب الأطفال.

وفي بعض الأحـيـان يـعـانى الزوجـان من مشاكل تؤدى إلى العقم وصعوبة فى حدوث الحمل بالطريق الطبيعي، حينئذ يتدخل الطب لحل المشكلة، وأصبحت إمكانية حدوث الحمل مـتـاحـة بالطرق الـحـديـثـة التى تطورت في السنوات الأخيرة، وبقيت نسبة بسيطة من حالات العقم التى يعجز الطب عن إيجاد علاج لها.

وكانت طريقة «أطفال الأنابيب» هى المدخل الأساسى لعلاج الحالات المستعصية من العقم.. وكانت هذه التكنولوجيا المتقدمة هى السبب الرئيسى لتفكير العلماء في تطويرها إلى تكنولوجيا الاستنساخ.

كـــيـف يـحـــدث الحــمل الطبــيــعى؟

تتحرك الحيوانات المنوية من المهبل داخل الرحم ومنه تتحرك إلى أنابيب فالوب حيث تلتقى بالبويضة التى تكون قد خرجت من المبيض ودخلت الأنبوبة، ويتم الإخصاب بدخول الحيوان داخل البويضة. وتتحرك البويضة المخصبة داخل الأنبوبة في اتجاه الرحم ويحدث انقسام داخل هذه الرحلة وداخل الرحم وفى النهاية يلتصق الجنين بجدار الرحم ويتم الحمل.

كـيف يحدث الحـمل فى أطفـــال الأنابيب؟

فى أطفال الأنابيب يتم تكوين الجنين من حيوان الزوج وبويضة الزوجة خارج الجسم وتستخدم هذه الطريقة للتغلب على مشاكل تعوق إخصاب البويضة داخل الجسم، مثل انسداد قنوات فالوب التى تحمل البويضة من المبيض للرحم أو بسبب الضعف الشديد للحيوانات المنوية القادرة على إخصاب البويضات بالطريقة الطبيعية أو عدم وجود حيوانات منوية فى السائل المنوى مع وجودها داخل الخصية.

وفى جميع الحالات يتم إعطاء السيدات أدوية منشطة تسبب نضوج عدد من البويضات يتم متابعة نموها عن طريق الموجات الصوتية، وعندما تصل للحجم المناسب يتم التقاط البويضات بإبرة طويلة تدخل إلى المبيض عن طريق المهبل ويكون توجيهها بمساعدة الموجات الصوتية، ويتم إخصاب البويضة بالحيوان المنوى للزوج الذى يؤخذ من السائل المنوى أو من داخل الخصية، ويتم ذلك فى المعمل وتوضع البويضة المخصبة فى الحضانة فى سوائل مغذية ودرجة حرارة ونسبة ثانى أوكسيد الكربون مماثلة للظروف الموجودة داخل رحم الأم. ويستمر انقسام الجنين خارج رحم الأم لمدة تتراوح بين يومين إلى ثلاثة أيام وأحياناً خمسة أيام وبعدها ينقل الجنين إلى داخل الرحم.

وتكنولوجيا أطفال الأنابيب مخالفة تماماً لتكنولوجيا الاستنساخ.

مــا هو الاســـتــنســـاخ؟

هو تكوين مجموعة من الخلايا أو إنسان أو حيوان تكون متطابقة تماماً فى تكوينها الجينى والوراثى للكائن الذى استنسخت منه.

و الاستنساخ شيء عادى وطبيعى فى بعض الكائنات ذات الخلية الواحدة مثل البكتيريا والميكروبات المرضية التى تنقسم بسرعة فائقة إلى الآلاف والملايين من نسخ أخرى مطابقة تماماً للخلية الأولى.

كــــيـف بـدأت رحلة الاستنساخ وكيف تطورت؟

بدأت هذه الرحلة عام ١٩٠١ حين استطاع العالم الألمانى هانز سبنسمان إجراء انقسام فى دودة مكونة من خليتين فقام بشطرها إلى دودتين كل منهما تحتوى على خلية واحدة مماثلة تماماً للأخرى.

وفى سنة ١٩١٤ قـام نفس العـالم باستنساخ دودتين متشابهتين، ثم قام بعد ذلك بتفريغ بويضة من المواد الجينية الموجودة بها ونقل خلية مكتملة النمو داخل البويضة.

وكـان ذلك البـحـث هـو أول الطريق فى استنساخ الإنسان وقد حصل سبنسمان على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٣٥ عن هذه المجموعة من الأبحاث.

وفى عام ١٩٥٠ قام عالم النبات الشهير ستيوارد باستنساخ النبات واستطاع زيادة إنتاج الجزر آلاف المرات بهذه الطريقة.

وفى عـام ١٩٥٢ اسـتـطـاع العـالمـان الأمريكيان كينج وبريج استنساخ ضفدعة ولكنهما لم يسمحا، لأسباب أخلاقية للضفدعة بأن تنمو وتتحول إلى ضفدعة ناضجة وأنهوا التجربة. ومنذ هذا التاريخ أصبح استنساخ الفواكه والطماطم والجزر وكثير من الحشرات والكائنات الحية الصغيرة شيئاً عادياً.

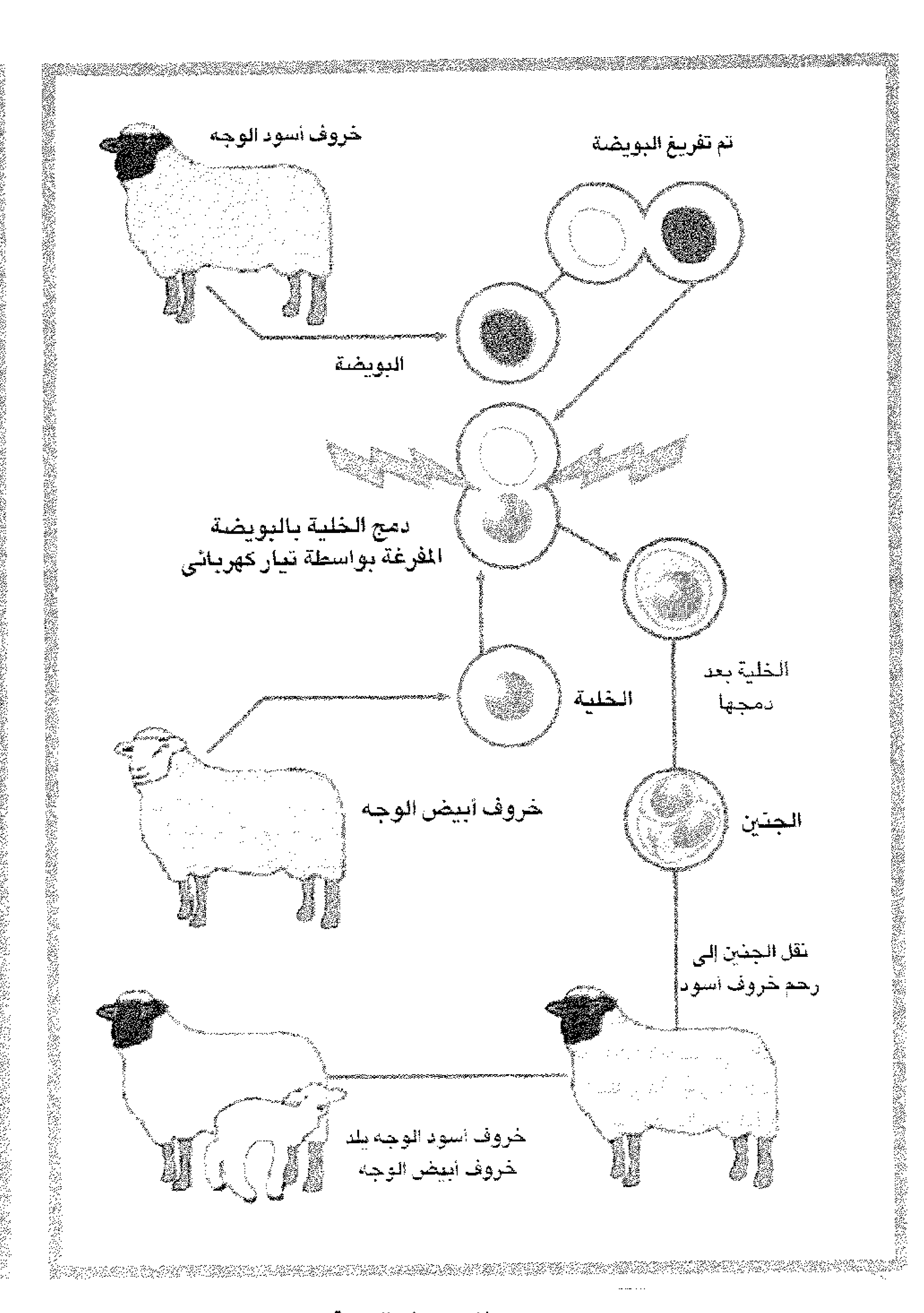
وفى عام ١٩٥٣ حدثت الثورة الكبرى فى عالم البيولوجيا والطب وذلك باكتشاف مكونات الدنا (DNA) والتى هى أساس كل شيء فى الحياة وموجودة داخل النواة فى كل خلية كائن حى. ونال العالمان الأمريكيان واطسن وكريج جائزة نوبل فى الطب على هذا الاكتشاف الذى غير وجه الحياة على الكرة الأرضية.

وبهذا الاكتشاف الذى يعتبر من أكبر الاكتشافات العلمية فى تاريخ الطب - إن لم يكن أكبرها وأهمها - بدأت ثورة البحث فى علوم الوراثة، والذى أصبح التقدم فيه طريقًا مهمًا لخير البشرية إذا أحسن استخدامه وكارثة على البشرية إذا أسيء استخدامه.

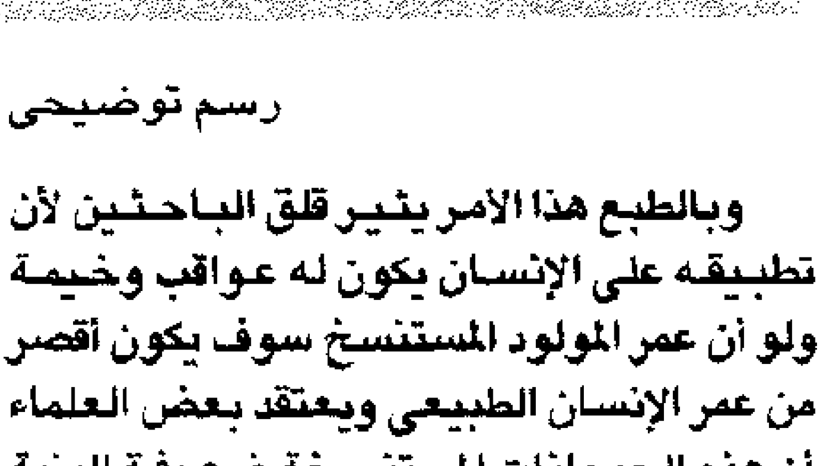
وتطبيقاً لهذا الاكتشاف بدأ علم الهندسة الوراثية الجبار فى اكتشافاته المثيرة للجدل.

وبدأ التطور سريعاً فاستطاع العالم البريطانى هالدان استنساخ ضفدعة كاملة وكان ذلك أول خطوة فى طريق استنساخ الفقريات.

وفى عام ١٩٧٠ قام العالم الأمريكى بريج باكتشافه المذهل فى الهندسة الوراثية وذلك بإحداث انقسام فى الدنا (DNA) واستطاع تكوين أول (دنا) مصنعة فى المعمل والذى



رسم توضيحي لاستنساخ النعجة



رسم توضيحي لاستنساخ الإنسان

أصبح الأساس في تصنيع أنواع مهمة كثيرة من الأدوية في المعمل وخاصة الهورمونات مثل الأنسولين بدلاً من استخراجها من دم وبول الإنسان والحيوان وحصل بريج على جائزة نوبل على هذا الكشف الجبار.

وفي عام ١٩٧٤ وافقت المحكمة الدستورية العليا في الولايات المتحدة على أن يجرى العلماء أبحاثًا على الأجنة البشرية الناتجة من الإجهاض.

وفي عام ١٩٧٨ ولدت في بريطانيا أول طفلة أنابيب وذلك بإخصاب بويضة الأم بالحيوان المنوى للزوج خارج الجسم ونقل الجنين للرحم بعد ثلاثة أيام وقام بذلك العالمان البريطانيان إدواردز وإستبتو.

وفي نفس العام كتب مليونير أمريكي كتاباً يدعي فيه أنه استنسخ نفسه وحقق أرباحاً تقارب المليون دولار من بيع الكتاب ولكن الهيئات الطبية اعتبرت الكتاب رواية خيالية وليست حقيقية كما ادعى المؤلف.

وفي عام ١٩٨٤ استنسخ العالم الدنمركي ويلادنسن نعجة من خلية مأخوذة من جنين ووضعها في بويضة مفرغة وهي خطوة أسهل بكثير من استخدام خلية مكتملة النضوج والذى تحقق بعد ذلك في النعجة دوللي. جذبت الولايات المتحدة هذا العالم الدنمركي ليعمل في شركة أمريكية لاستنساخ السلالات الراقية من جميع الحيوانات بما في ذلك البقر. وكانت أبحاث هذا العالم هي التي شجعت ويلمت على إجراء التجربة المعجزة وهي استنساخ دوللي من خلية مكتملة النضوج في عام ١٩٩٧.

وفي عام ١٩٩٨ استخلص العلماء الخلايا الجذرية وبدأت مراحل استخدامها في العلاج وفي نفس العام بدأ إنتاج حيوانات بها جينات آدمية نقلت إلى الحيوان من الإنسان مثل النعجة دوللي. ووضعت النعجة دوللي أول مولود لها وثبت أن النعجة المستنسخة يمكن أن تقوم بالحمل الطبيعي.

وفي نفس العام تمت بنجاح زراعة خلايا قاعدية في المعمل تنتج إلى ما لا نهاية خلايا ممكن أن تستخدم كقطع غيار للأنسجة التالفة في جسم الإنسان وفي نفس الوقت أثيرت قضية عمر الحيوانات المستنسخة والتي ربما يكون عمرها أقل من العمر الافتراضي ولكن هذا الموضوع لم يحسم علمياً حتى الآن.



وفي سنة ٢٠٠٠ وافق الرئيس الأمريكي بوش على تمويل أبحاث الخلايا القاعدية لإنتاج الأنسجة ووافق مجلس اللوردات البريطاني على استنساخ الخلايا القاعدية بغرض أبحاث العلاج على أن لا يستمر عمر الجنين الذى تستخرج منه الخلايا أكثر من ١٤ يومًا وبعد ذلك يتم تدميره وكان ذلك في يناير ٢٠٠١.

وفي ٢٠٠١ أيضاً نجح العالم الأمريكي والياباني الأصل واكاياما في استنساخ خلايا آدمية تنتج الأنسولين البشرى في الحيوانات.

وفي مارس ٢٠٠١ استنسخ العلماء في كاليفورنيا ثلاثة خراف ولدت بصحة جيدة ولكن اثنين منها ماتا فجأة بسبب مرض نقص المناعة والكثير من الحيوانات المستنسخة عاشت فترة أقل من عمرها الافتراضي ولم يعرف السبب بالضبط هل هو بسبب مشكلة في الجزء الأخير من الكروموزومات أو بسبب زيادة العمر الأصلي للخلية المستخدمة أو لأسباب أخرى يمكن التغلب عليها في المستقبل.

وبالطبع هذا الأمر يثير قلق الباحثين لأن تطبيقه على الإنسان يكون له عواقب وخيمة ولو أن عمر المولود المستنسخ سوف يكون أقصر من عمر الإنسان الطبيعي ويعتقد بعض العلماء أن هذه الحيوانات المستنسخة ضعيفة البنية والمناعة ولو أنها تُركت في المزارع مع بقية الحيوانات لماتت ولم تستطع الحياة والتكيف ولكن وجودها تحت رعاية طبية يعطيها إمكانية استمرار الحياة، وفي معمل إحدى شركات الاستنساخ للحيوانات في ولاية كانساس الأمريكية كانت نسبة حدوث الحمل في الخراف المستنسخة ٦٪ فقط ونصفها يموت في الأيام الأولى بعد الولادة.

وفي يوليو عام ٢٠٠١ نشر مقال مهم في مجلة سيانس (Science) وهي من أكثر المجلات العلمية احتراماً في العالم، ويقول الكاتب أن هناك حقائق بدأت في الظهور تشير بأن الحيوانات المستنسخة ليست طبيعية تماماً من الناحية الجينية وهذا يفسر قصر عمرها.

أنواع الاستنساخ:

استنساخ الخلايا والأنسجة

بعد مرور حوالى خمسة أيام من عمر الجنين في المعمل يصبح فيه عدد كبير من الخلايا التى تكون قادرة على الانقسام بسرعة فائقة ثم التطور لتصبح خلايا متخصصة كخلايا الأعصاب أو الكبد أو القلب أو الجلد وهى التي يتكون منها جميع أنسجة الجنين بعد ذلك. وهذه الخلايا الأولية تسمى الخلايا القاعدية وقد استطاع العلماء فصل هذه الخلايا وزرعها في المعمل وحيث إنها تتكاثر بسرعة فائقة إلى ما لا نهاية فنتج عن ذلك البلايين والبلايين من هذه الخلايا ويستطيع العلماء إعطاء إشارات كيميائية معينة لتحويل الخلايا القاعدية إلى خلايا متخصصة كخلايا الكبد أو الكلى والأعصاب وغيرها. ويمكن بعد ذلك نقل هذه الخلايا عن طريق فيروسات معينة لا تؤذى الإنسان إلى العضو المصاب لإصلاحه وإعادته لوظيفته الطبيعية وهذه الطريقة قادرة على شفاء كثير من الأمراض العضال وسوف توفر الأموال الطائلة التي تنفق على عمليات نقل الأعضاء وهى مكلفة للغاية وفيها كثير من المخاطر وحيث إن أهم مشاكل نقل الأعضاء هى رفض الجسم المريض للعضو المنقول وطرده خارج الجسم وهو ما يعنى فشل العملية. أما بالنسبة لحقن الخلايا المستخرجة من الخلايا القاعدية داخل نسيج العضو المريض فربما سوف تتعرض أيضاً للرفض والطرد، ولذا فإن استخدام خلايا من المريض لتكوين الجنين الذى سوف تستخدم خلاياه القاعدية في إنتاج الخلايا المتخصصة سوف يكون خطوة مهمة لأن النسيج المستنسخ لن يتم طرده لأنه أصلاً مكون من خلايا المريض. وتعتبر هذه الوسيلة في حالة نجاح تطبيقها هى العلاج الأمثل للأمراض المزمنة وهى مستقبل الطب في العالم.

وحالياً تجرى الأبحاث بمئات الملايين من الدولارات للتقدم في هذا المجال المهم الذى سوف يكون فتحاً هائلاً في عالم الطب. وهذا النوع من الاستنساخ مفيد للبشرية ولمستقبلها وللطب والجميع يشجعون الأبحاث فيه وقد تراجعت كثير من الدول التى رفضت تمويل الأبحاث في هذا المجال مثل الولايات المتحدة وبدأت في تمويل هذه الأبحاث حتى تستطيع أن تحافظ على السبق في التقدم الطبى والعلاج الحديث.

وقد اختلط الأمر عند الكثيرين مما أدى إلى المطالبة بوقف أبحاث استنساخ الخلايا القاعدية وهى التى تفيد فى علاج الأمراض المزمنة وهناك فارق كبير بين استنساخ إنسان يأكل ويشرب وله حقوق وبين استنساخ مجموعة من الخلايا فى المعمل.

الاستنساخ فى الحيوان

وفى ٢٧ فبراير ١٩٩٧ نشر فى مجلة ناتشر (Nature) العالمية المتخصصة فى العلوم مقال يعلن فيه استنساخ النعجة دوللى من خلية حيوان مكتمل النمو. وقد قاد الباحث إيان ويلمت فريق البحث العلمى الذى استطاع دمج خلية أخذت من الثدى فى بويضة مفرغة وخصبت البويضة وتكون جنين تم نقله إلى رحم نعجة أخرى لتلد النعجة دوللى.

وقد انتفض العلماء فى العالم من الدهشة والذهول لهول الحدث ولم تكن الخطورة بسبب استنساخ أحد الثدييات وهى النعجة وإنما لأن الإنسان أيضاً من الثدييات، وقد أعلن العالمان الكبيران الحائزان على جائزة نوبل فى الطب عام ١٩٦٢ فرانسيس كريك وجيمس واتسون واللذان اكتشفا الجزيئات المكونة للأحماض المكونة للجينات والكروموزومات وهى أصل كل علوم الإخصاب والوراثة أن هذا كشف مذهل يصعب تصديقه وانطلق العلماء فى البحث فى الاستنساخ بواسطة خلايا مكتملة النضوج فاستنسخ العالم واكاياما الفأر فى اليابان فى عام ١٩٩٨ والعالم كاتو الخروف والعالم باجوس المعزة وفى عام ٢٠٠٠ استنسخ العالم شان القردة والعالم أونوشى الخنزير.

وقد استخدم هذا التكنولوجى فى استنساخ سلالات متميزة من بعض الحيوانات واستخدمت الماعز التى قد نقلت لها بعض الجينات الآدمية لتنتج لبنًا يعالج أمراض الإنسان أو تنتج لبن أطفال طبيعيًا مثل لبن الأم بجميع فوائده ولكنه أُنتج فى الحيوان. وهناك أفكار تراود بعض العلماء باستنساخ خنزير به جينات آدمية يصلح كقطع غيار بشرية للإنسان.

أما استنساخ الحيوانات الصغيرة فسوف يساعد على التحكم فى الجينات وذلك لاستخدامه فى المحافظة على الحيوانات النادرة.

الاستنساخ البشرى بغرض التناسل

تحتوى كل خلية من جسم الإنسان على ٤٦ كروموزومًا داخل النواة وهى تحمل الصفات الجينية والوراثية الكاملة لهذا الإنسان ويستثنى من ذلك البويضة عند الأنثى والحيوان المنوى عند الذكر والذى يحتوى كل منهما على ٢٣ كروموزومًا وفى الأحوال العادية عند الإخصاب يتم اتحاد البويضة بالحيوان المنوى وتتكون الخلية التى تحتوى على ٤٦ كروموزومًا وهو مجموع الكروموزومات الناتجة عن هذا الاتحاد. وتنقسم هذه الخلايا لتُكوِّن جميع أنسجة جسم الإنسان والتى تحتوى كل خلية فيها على ٤٦ كروموزومًا.

وببساطة، الاستنساخ هو تفريغ بويضة السيدة من ٢٣ كروموزومًا التى تحتوى عليها وتوضع خلية مكتملة النضوج بها ٤٦ كروموزومًا تؤخذ من أى مكان من جسم الإنسان المراد استنساخه وباستخدام تيار كهربائى بسيط يتم تخصيب البويضة المفرّغة بالخلية الناضجة، وكانت إعادة برمجة النواة الموجودة فى خلية ناضجة ومتخصصة بواسطة السيتوبلازم الموجود فى البويضة هو الفتح الكبير فى عالم الاستنساخ لأن ذلك يعنى أن هذه الخلية قادرة على الإخصاب وتنقسم البويضة المخصبة لتنتج جنيناً يمكن نقله للرحم وحين يلتصق الجنين بجدار الرحم يتم الحمل ثم الولادة بعد ذلك. وهذا الجنين لا يحمل جينات وراثية من الأم وبالتالى لا يأخذ منها أية صفات وراثية. باستثناء بعض المواد البسيطة الموجودة فى السيتوبلازم ويأخذ الجنين جميع الصفات الوراثية من صاحب الخلية التى استخدمت فى الإخصاب والذى قد يكون ذكراً أو أنثى ويكون الطفل المولود مشابهاً تماماً وبنسخة طبق الأصل من صاحب الخلية التى استخدمت فى الإخصاب.

التطورات التى حدثت فى استنساخ الإنسان:

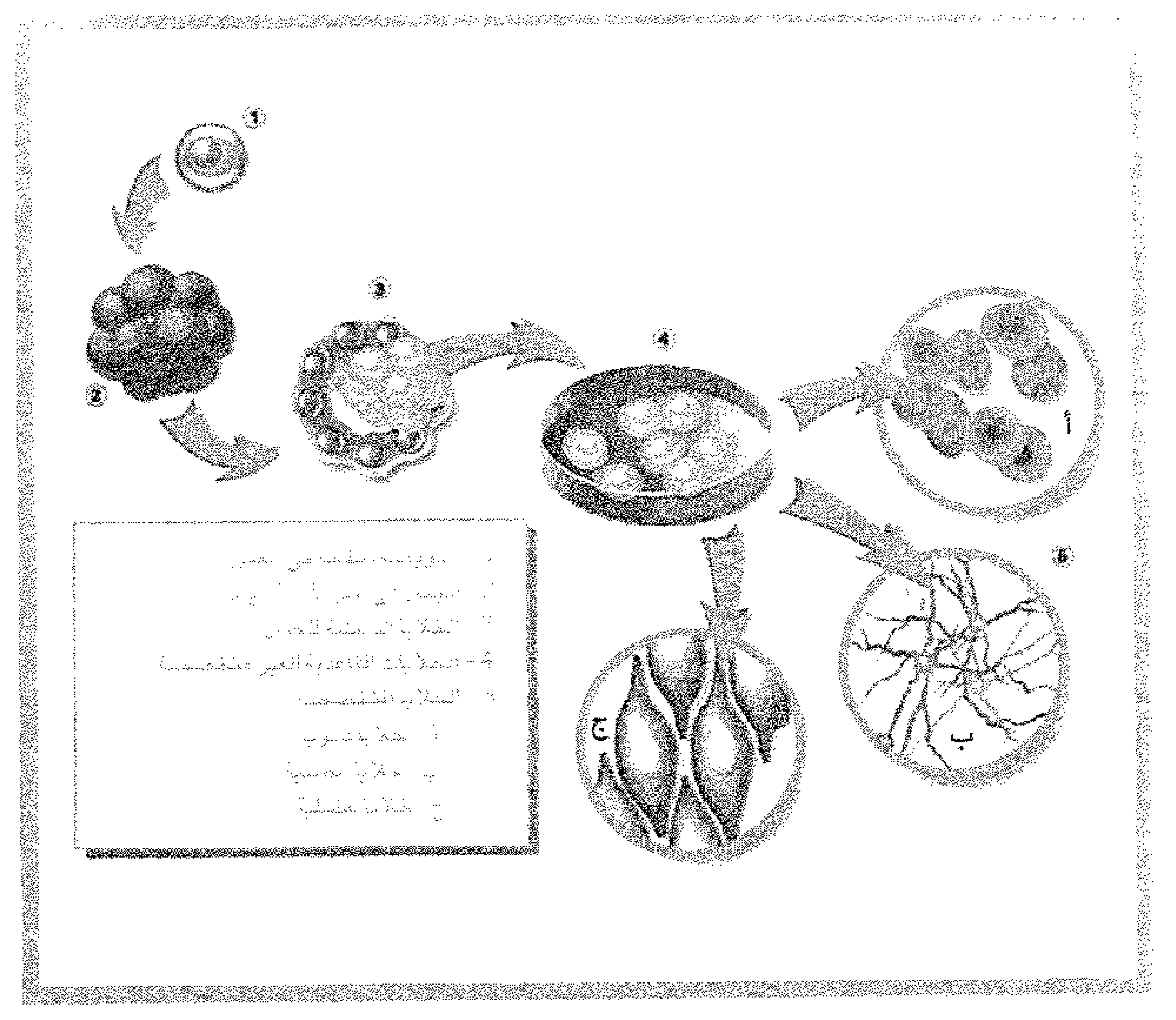
إن التكنولوجيا التى استخدمت فى استنساخ النعجة دوللى من خلية ناضجة مكتملة تدمج مع بويضة مفرغة من المواد الجينية والوراثية بها هى نفس التكنولوجيا الممكن استخدامها فى استنساخ الإنسان. والطفل المستنسخ سوف يشبه فى جميع الصفات المظهرية والوراثية وكذلك الجنس الإنسان الذى أخذت منه الخلية، ويعنى ذلك أن المرأة ممكن أن تلد بدون وجود ذكر وهو ما يسمى بالتكاثر اللاجنسى، وكون الطفل يحمل جميع الصفات الوراثية لمن أخذت منه الخلية، فإن ذلك لا يعنى أنه مطابق له فى كل شىء لأن البيئة والمجتمع الذى عاش فيه صاحب الخلية منذ سنوات طوال يختلف عن المجتمع الذى سوف يعيش الطفل المستنسخ فيه. ولتقريب الأمر فإن الطفل المستنسخ سوف يكون مثل التوأم المتشابه مع وجود فارق عدد كبير من السنوات فى العمر.

ويعتبر استنساخ الإنسان من الموضوعات المهمة والمثيرة للجدل فى العالم وفى الأخلاقيات والأديان والسياسة. وفى السابع من أغسطس عام ٢٠٠١ أعلن العالم الأمريكى زافوس والعالم الإيطالى أنتينورى فى مؤتمر صحفى أنهما بصدد استنساخ حوالى مائتى طفل. بما أن العلماء قد استنسخوا كل هذه الثدييات والحيوانات الصغيرة، فلماذا لا يستنسخ الإنسان وهو من نفس الفصيلة؟

ولذا أصبح من المعقول بل والمنطقى أن يحاول بعض الباحثين استنساخ الإنسان ولما كان حب الاكتشاف فى الاختراع لا يعادله شىء عند العلماء، فلك أن تتصور حجم الحافز لتكون أنت العالم الأول فى هذا السبق.

الطفل المستنسخ يشبه فى جميع الصفات المظهرية والوراثية وكذلك الجنس الإنسان الذى أخذت منه الخلية، ويعنى ذلك أن المرأة ممكن أن تلد بدون وجود ذكر

زراعة الخلايا القاعدية فى المعمل



وقد شجع ذلك الإعلان الكثيرين على الدخول فى هذا المجال حتى ولو كانوا من غير المتخصصين، وأعلن عالم الطبيعة الأمريكى رتشارد سيد بأنه سوف ينشئ معملاً لاستنساخ الإنسان، ولما أعلنت الحكومة الأمريكية أنها لا تساعد أبحاث الاستنساخ أفاد بأنه لا يرغب فى معونة أو مساعدة من الحكومة وقد أرسلت له هيئة الرقابة على الأدوية الأمريكية إنذاراً تحذره من إجراء هذه الأبحاث.



وفى هذه الأثناء أعلن عدد من الشركات فى العالم عن استنساخ الإنسان والكثير من هذه الشركات لا يملك الكفاءة العلمية أو الخبرة البحثية للقيام بذلك.

وأحد الأمثلة هى شركة كلونيد وقد سجلت هذه الشركة عام ١٩٩٧ فى جزر الباهاما لتفادى إجراءات التسجيل والقيود الرقابية فى كل الدول الغربية. ويرأس هذه الشركة كلود فوريلهون وهو صحفى سابق وقائد محترف لسيارات السباق وقد سمى نفسه (النبى رائيل) وهو يقود طائفة صغيرة اسمها الرائيليين وتقود الفريق العلمى لهذه الطائفة طبيبة فرنسية اسمها بريجيت بواسيليه. وبعد أن أعلنت هذه الطبيبة بأن جمعية الرائيليين عازمة على استنساخ إنسان، تم استدعاؤها أمام لجنة فى الكونجرس الأمريكى وحلفت اليمين فى ٢٥ مارس ٢٠٠١ وأخبرت اللجنة بأنها عازمة على ذلك وفى الطريق إلى استنساخ طفل من خلايا طفل آخر عمره عشرة أشهر وقد توفى فى حادث. ومن المعروف أن هذه الطبيبة ليس عندها خبرة سابقة أو أبحاث منشورة فى هذا المجال. وأعلنت الطبيبة أنه من وجهة نظر الأب والأم أن استنساخ طفل بدلاً من الطفل الذى مات يعتبر عملاً لا يتعارض مع الأخلاق وحيث إن الطرق العلمية يمكن لها ذلك فإنها لا ترى أن هناك مانعًا أخلاقيًا فى منع الاستنساخ. وأعلنت الدكتورة بواسيليه أيضاً أن هناك أكثر من خمسين سيدة ترغب فى حمل الطفل المستنسخ داخل رحمها حتى يكبر وتلده ومن بين هؤلاء السيدات ابنة الطبيبة بواسيليه شخصيًا والبالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً.

وفى هذه الفترة طالبت هيئة الأغذية والصحة الأمريكية شركة كلونيد والدكتورة بواسيليه بالتوقف عن هذه الأبحاث لأن ذلك مخالف للقوانين الفيدرالية الأمريكية.

وفى عام ١٩٩٨ أعلنت شركة أمريكية أخرى عن استنساخ جنين وذلك بنقل بويضة إنسان داخل بويضة بقرة بعد تفريغها من المواد الجينية وبعد أن وصل عدد خلايا الجنين إلى ٣٢ خلية قرر العلماء تحطيم الجنين وعدم نقله داخل رحم البقرة. وقد صنعت أجنة مشابهة بعد ذلك بين الإنسان والخنزير.

وقد قررت ٢٩ دولة أوروبية فى ١٩ يوليو ٢٠٠١ منع تجارب الاستنساخ إلا للأغراض العلاجية وهو ما يعنى استنساخ الخلايا بغرض إحلال الخلايا مكان الخلايا المصابة فى الكبد والكلى وغيرها من الأعضاء.

هل هناك مخاطر من استنساخ الإنسان بغرض التناسل؟

يبالغ الكثيرون في تقدير مخاطر الاستنساخ على البشرية لأن نسبة النجاح في استنساخ الحيوان ضعيفة جداً وسوف تكون أضعف في الإنسان، ولذا فإن القول بأن العلماء سوف ينتجون جيشًا من المستنسخين أو أنهم سوف ينتجون الإنسان ذا القدرات الخارقة، فإن هذا لا يتماشى مع الحقائق العلمية المتاحة، ومن المعروف أن أكبر وأهم المخاطر الحقيقية هي ولادة طفل غير طبيعي. وهناك كثير من المعلومات المستقاة من استنساخ الحيوانات تفيد بأنه يبدو أن عمر الحيوانات المستنسخة ربما يكون أقل من عمرها الافتراضي وغير معروف حتى الآن بدقة السبب في ذلك. وبالطبع قد ينطبق ذلك على الإنسان وليس هناك على وجه الأرض إنسان يريد طفلاً له، معروف مسبقاً أن عمره قصير. وحتى الآن لم تنجح في الحيوان عمليات استنساخ من خلايا الخصية أو الخلايا العصبية وهذا يعني أن طريقاً طويلاً ما زال أمام العلماء.



أن العلماء الحقيقيين وحتى الراغبين منهم في استنساخ الإنسان لا يتصورون إطلاقاً أنهم قد يحاولون إجراء هذه العملية الآن وقبل إجراء دراسات طويلة على الحيوان والتي لا زالت هناك مشاكل جمة يجب التغلب عليها أولاً للتأكد أن الحيوانات المستنسخة ستكون سليمة وتتمتع بصحة جيدة.

وهناك أيضاً مشاكل نفسية لأن المولود سوف يظل دائماً وأبداً يقارن بالشخص الذى استنسخ منه وربما بسبب ذلك ضغوطاً أو توقعات منه تؤثر عليه نفسياً. وربما يضغط الأبوان لتحفيز مهارات وقدرات الطفل ليكون مثالاً لأبيه وذلك بسبب التركيز على الدور الذى يتوافق فيه مع الأب. وقد يتأثر الطفل بأنه نسخة وليس أصلاً مما قد يؤثر عليه نفسياً.

وهناك أيضاً مخاوف مستقبلية بعدم الاقتصار على الاستنساخ وإنما نقل الجينات من خلية لأخرى من الإنسان إلى الحيوان والعكس. ويكون ذلك في منتهى الخطورة لأنه يعني أن بعض الآباء قد يطلبون أطفالا (تفصيل) بمقاسات وألوان معينة.

وبالرغم من أن غالبية رجال القضاء وعلماء الأخلاق يرفضون الاستنساخ إلا أن البعض منهم يوافق عليه مثل جريجوري بنس الذى ألف كتاباً اسمه (من يخاف من الاستنساخ) والذى قال فيه أن الأطفال المستنسخين هم أطفال مثل بقية الأطفال الطبيعيين ويكون المستنسخ مماثلا للتوأم الواحد الخارج من بويضة واحدة.

ويقول أحد العلماء أن اعتراضه الوحيد على الاستنساخ هو أنه قد يؤدى إلى مضار على المولود أو الأم والأب. ويبدو أنه ليس هناك اتفاق كامل ورأى واحد نهائى بين العلماء وكذلك بين رجال الدين فى هذا الأمر.

الدين والاستنساخ

الإسلام: رفض علماء الدين الإسلامى فى مصر الاستنساخ للتكاثر والإنجاب ووافقوا عليه بغرض إنتاج خلايا تستخدم فى علاج فشل الأعضاء المختلفة.

تبقى نقطة واحدة فيها اختلاف بسيط وهو الرأى فى أخذ خلية من الزوج وحقنها فى بويضة الزوجة، هناك رأى يوافق على ذلك ورأى لا يوافق لأنه فى هذه الحالة يكون الجنين من الناحية الوراثية من الأب فقط والأصل أن يكون الجنين من ذكر وأنثى أما استنساخ الحيوان فهو موافق عليه لخدمة البشرية.

الكنيسة القبطية: رأيها مشابه لرأى الدين الإسلامى فى تحريم الاستنساخ (الآدمى) بغرض الإنجاب والتكاثر.

الكنيسة الكاثوليكية: تحريم الاستنساخ بصفة تامة وفى جميع الأحوال لأنهم يعتقدون أن الاستنساخ هو استنساخ للجسد ولا يوجد دليل على استنساخ الروح.

اليهودية: الموافقة على استنساخ البشر فى حالات معينة لأن الاستنساخ فى رأيهم لا يتعارض مع كرامة الإنسان ولكن بعض رجال الدين يعارضون الاستنساخ لأنه قد يؤذى الأسرة.

الكنيسة البروتستانتية: معارضة الاستنساخ مثل الكنيستين القبطية والكاثوليكية.

رأى علماء الأخلاق

هناك اختلافات كبيرة بين علماء الأخلاق حول الاستنساخ ولكن معظم العلماء يعارضون الاستنساخ على الأقل فى الوقت الحالى لعدة أسباب أهمها: احتمال حدوث ضرر للطفل المولود بوجود أمراض عضوية أو أن عمره قد يكون قصيراً.

وهناك أيضاً احتمال الأضرار النفسية التى تقع على الطفل لأنه لن يكون إنساناً له كيانه وشخصيته المستقلة وإنما هو نسخة من إنسان آخر وقد تظهر مشكلة عند الآباء والأمهات أثناء تربية الطفل لأنهم قد يعتقدون أنه يجب أن يكون له صفات معينة وأن يتصرف بطريقة معينة.

وقد يتصرف الآباء حيال الأبناء كأنهم أشياء وليسوا آدميين يتطورون مع الزمن. ويخاف البعض أنه مع تطور التكنولوجيا يصبح الاستنساخ هو الوسيلة المفضلة للإنجاب بحيث يختار الأب صفات وشكل الطفل مما يؤثر على تكوين البشرية.

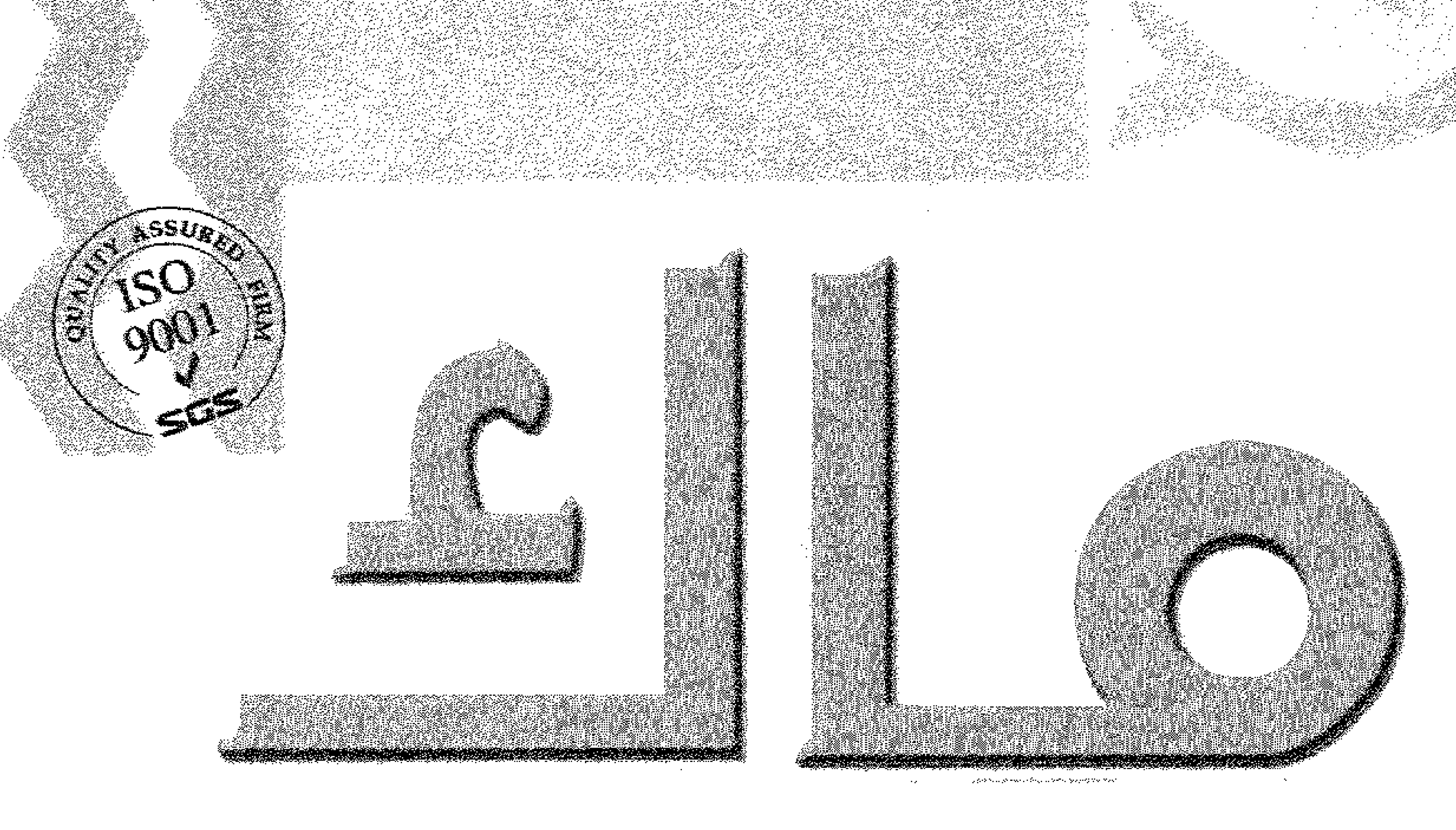
أما مؤيدو الاستنساخ فيقولون أنه مع تقدم التكنولوجيا. سوف يتفادى الآباء الأطفال المشوهين والذى يحملون جينات وراثية ضارة. وأن الطفل المستنسخ سوف يعرف وهو طفل صغير مواهبه، فيمكنه أن يتعلم ويتدرب فى هذا الاتجاه، وأن الآباء والأمهات سوف يحبونه بنفس درجة الأطفال العاديين.

والمؤيدون يعتقدون أن الاستنساخ سوف يزيد أعداد العلماء والموهوبين فى مختلف المجالات وهو مفيد للمجتمع.

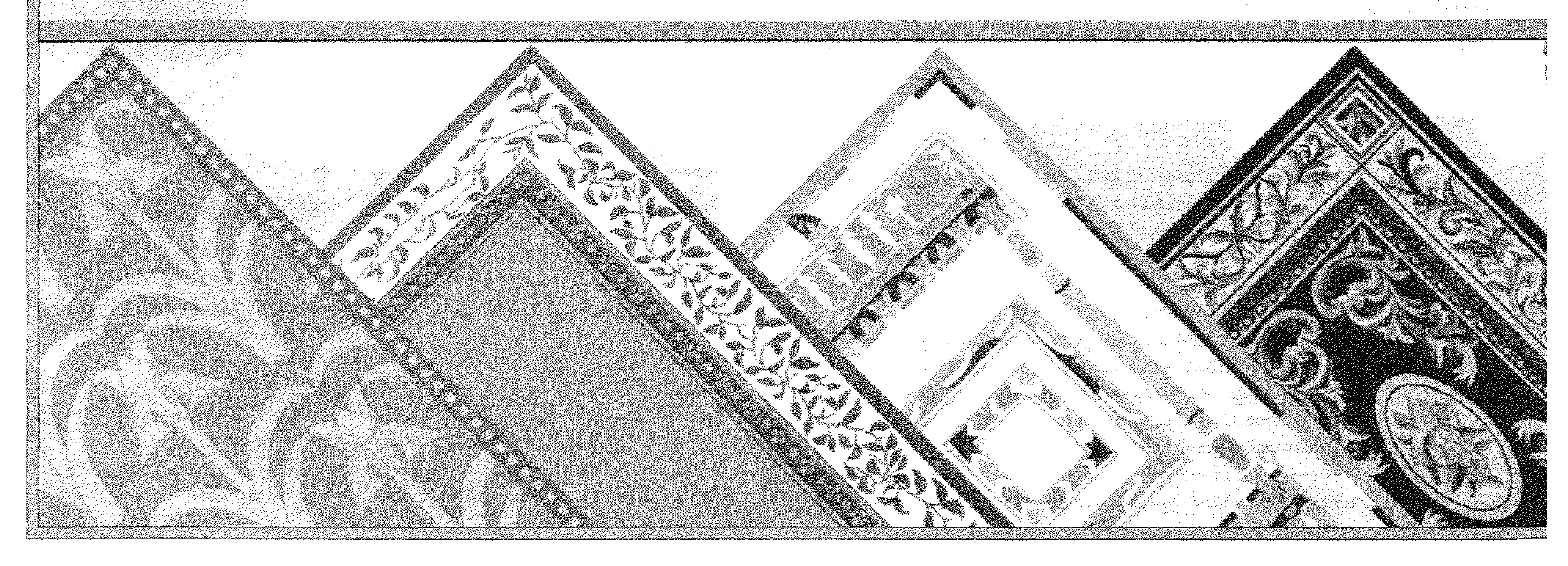
ويقولون أيضا أن الاستنساخ ممكن أن يعالج العقم الميئوس منه ويمكن فى المستقبل أن ينتج عن هذه التكنولوجيا علاج لكثير من الأمراض المستعصية. ■



متواجد في مراكز



ماك
ISO 9001 QUALITY ASSURED FIRM SGS
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.





أوعية الحكمة

الفخار فى حياة المصريين

Poteries et Proverbes d'Egypte
(الفخار والأمثال الشعبية فى مصر)
Nessim Henry Henein
Le Caire: Institut Francais
D'archeologie Orientale, 1992.

عمرو كمال حمودة

الصور الملونة: نائلة رفعت

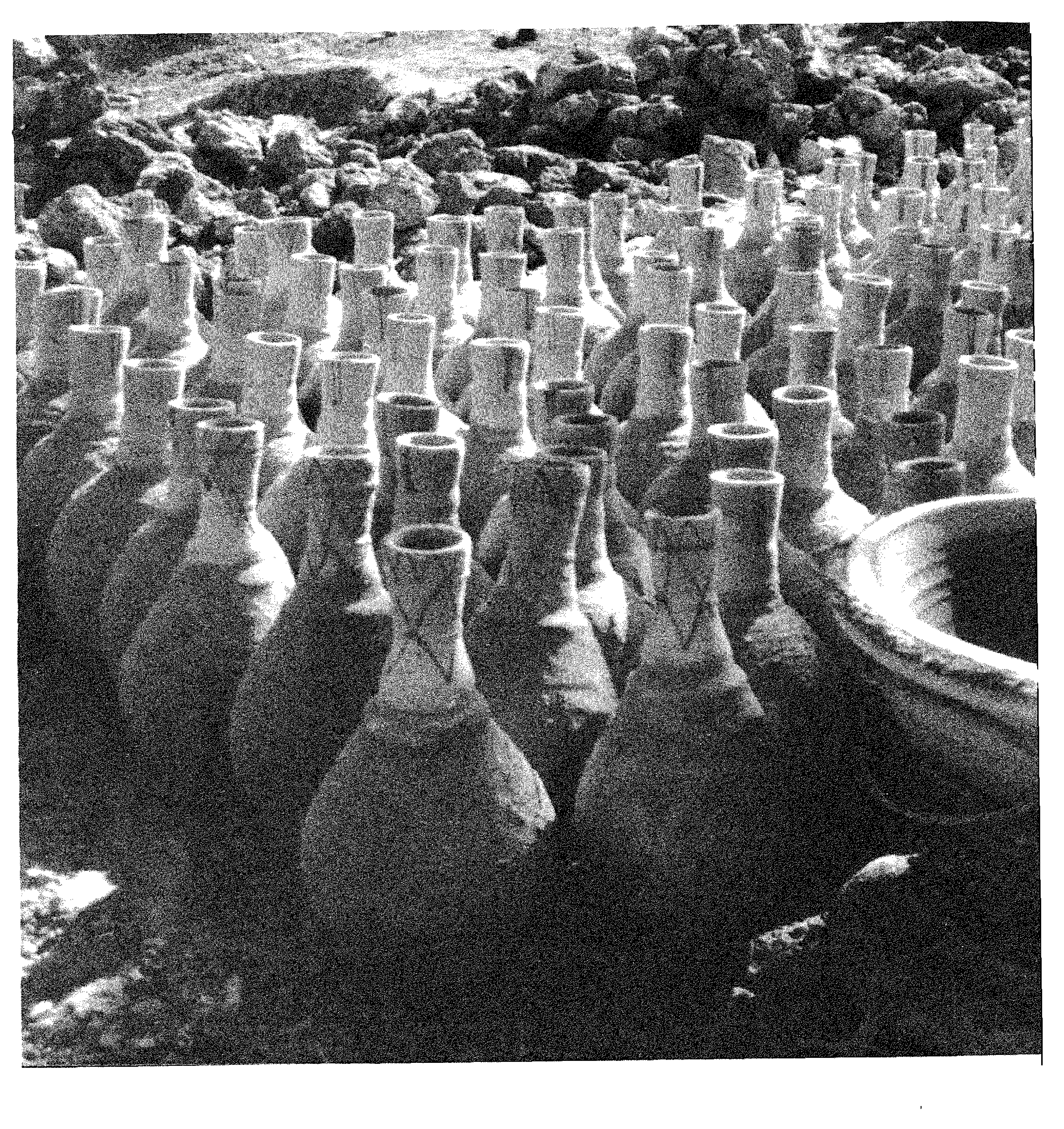
■ ■ هناك كتب صغيرة تحمل من معانى الحكمة ما يفوق الكتب الضخمة المعقدة.. منها هذا الكتاب الجميل الذى يتحدث عن الفخار فى حياة المصريين، وارتباط أصنافه المتعددة والمتنوعة بميراث من الأمثال الشعبية، عبرت بعفوية وحكمة عن معان عميقة وذكية من حياة الناس على مدى تاريخى طويل.

وهى المرة الأولى والفريدة فى تاريخ الإنسان المصرى أن يُحكى جزء مهم من حياته عبر إحساسه وارتباطه بنوع من الفن ألا وهو صناعة الفخار.

نبتت فكرة الكتاب عندما رأت إدارة متحف «دوفين» بفرنسا عام ١٩٧٩ إقامة معرض عن الفخار الشعبى المصرى، واتفق المتحف مع العلامة نسيم حنين كى يجمع نماذج تبرز الأنواع والأشكال المختلفة للفخار المصرى والتى تعبر عنه بأصالة.. مع صلتها على صعيد آخر بحياة الطبقات الشعبية.

فى البداية تجول المؤلف فى أنحاء الدلتا، وزار «الفواخير» فى قرية «أشمون جريس» بمحافظة المنوفية وثنى بمدينة «سمنود» بمحافظة الغربية، ثم طاف بصعيد مصر بادئًا بمحافظة الفيوم حيث زار «فاخورة نزلة أبشواى» ومنها إلى «فاخورة البلاص» و«فاخورة حجازة» بمحافظة قنا، ثم ختم جولته بزيارة «فاخورة القصر» بواحة الداخلة.

ولقد اكتشف نسيم حنين من خلال الرحلة، أن استخدام الطين (الطفلة ـ الصلصال) علامة مهمة بل خط



مهيمن في الحياة اليومية عند المصريين، فاليوم مثلما كان في الماضي يستخدم الفخار بكثرة وبطريقة عادية في نقل المياه للبيوت وفي الاحتفاظ بالطعام وفي تخزين الحاصلات الزراعية وفي صناعة الجبن الريفي وفي خض اللبن وفي شرب الماء وترطيبه وغير ذلك من الاستخدامات المتنوعة، التي نجدها في تفصيلات الحياة اليومية.

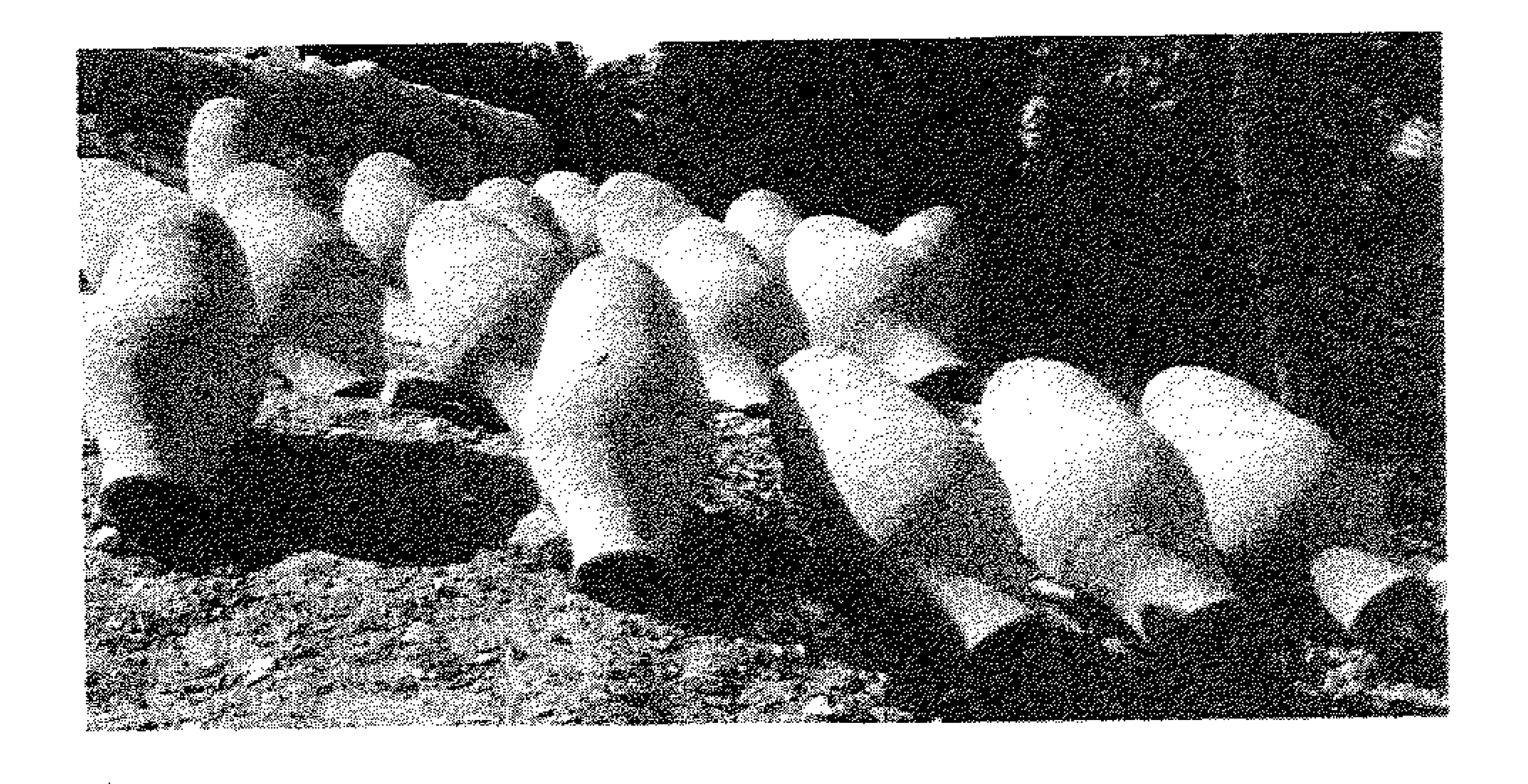
ويبدو أن الدافع الأولى للمؤلف، كان تقديم شهادة حول الأشياء التي لم تفلح المدنية الحديثة في هزيمتها. فالبلاستيك - رغم حجم وسرعة انتشاره - وكذلك الألومنيوم، لم ينجحا في طرد الفخار عن عرش الاستخدام، فالمصريون لايزالون يحبون شرب الماء من «القلة الفخارية» ومن «الزير الفخار» ويخضون اللبن في الريف والبوادي بالمخضات الفخارية.. ويعود ذلك للولع القديم المتأصل منذ الحضارة الفرعونية، ثم لسبب آخر وهو الفقر. فبسبب رخص أسعار الأواني الفخارية استمر استخدامها حتى الآن.

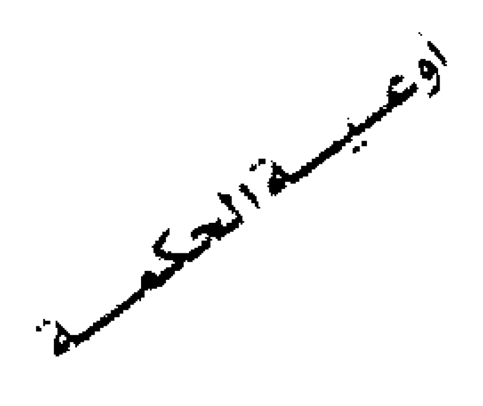
ومن خلال البحث اكتشف نسيم حنين عدم اهتمام أية جهة بالتاريخ لصناعة الفخار أو تجميع نماذج دالة منه اللهم إلا المجموعة الضئيلة الموجودة بالمتحف الزراعي بالدقي، لذا كان من دوافعه الأخرى التوثيق والحفاظ على الميراث القديم من الأواني الفخارية المصرية.

وترتيبًا على ذلك تمكن من التاريخ لحياة المصريين من خلال استعراضه لتطور صناعة الفخار، وأوضح أن الحضارة المصرية القديمة ولدت من الطين والصلصال، وقامت صناعة الفخار على طول ضفاف النيل وبالواحات الصحراوية، لتصاحب احتياجات المصرى وترتبط بإبداعاته وفلسفته في الحياة، فتلك القطع الفخارية التي تناولها الكتاب نتاج مذهل لحب المصرى للتشكيل والتكوين والصياغة. ولم يكن غريبًا أن الإله «خنوم» كان الإله المكلف بتشكيل الجسم الإنساني قد تصوره ونحته المصريون على هيئة صناع الفخار (الفخراني) بجدارية بمعبد «أمنحتب الثالث» بمدينة الأقصر حيث تراه وهو يعمل على «طبلية الفخار».

وإذا كان الإناء والقدرة هما وحدة الأثاث الأولى لدى الإنسان المصرى، فإن العلاقة الحميمة قد ولدت بينهما منذ اللحظة الأولى. بل إن المحتوى يمتزج بالآنية في علاقة حميمة هي الأخرى. ولو أردنا توضيحًا أكثر.. فالعدس أو اللحم الذى يطبخ داخل الآنية يعطي رائحة متميزة للآنية تزداد توثقًا والتصاقًا مع كل مرة تتم فيها عملية الطبخ.

انظر للمرأة وعلاقتها بالبلاص.. هي علاقة حميمة، منها التعبير عن الأنوثة. فعندما تضع المرأة البلاص على رأسها وتتمايل به وترفع باليد الأخرى جلبابها كاشفة عن ساقها، فهي تلفت أنظار الرجال لفتنتها.. ومن ناحية أخرى فهي تستعرض كفاءتها في الحفاظ على البلاص ممتلئًا بالماء وهي تسير به دون أن تسقط منه نقطة واحدة.. وقد لا يعرف الكثيرون أن «البلاص» عند المرأة المصرية له وظيفة أخيرة.. فهو ملاذها عند الأحزان.





الأوانى الفخارية.. والأمثال الشعبية:

أثناء عملية التأليف للكتاب.. تداعت أفكار المؤلف نحو سياق جديد. فلقد بدأت الأفكار تتغير وتتسع بما اكتشفه نسيم حنين من أمثال شعبية متعلقة بالأوانى الفخارية.

لقد وجد أن هذه النماذج التى جمعها ترتبط بها خبرات وتجارب وأحلام وتعبيرات فى اللغة اليومية المتداولة بين المصريين، على هيئة حكم وأقوال مأثورة من الأدب الشفاهى والتى تحمل كمًا كبيرًا من المتناقضات، إلا أنها تدور حول «تيمات» محددة. الإنسان، سواء كان رجلاً أو امرأة، الفقر، الحرمان، الحرية، اللعنة.

والمثل الشعبى نتاج إبداع فردى، تعيد إنتاجه الجماعة، وتحتفظ به، ويحوله العقل الجمعى إلى مأثور شعبى وحكمة للجماعة ذاتها على مدى الأيام مما يصعب معه تحديد زمان المثل أو المكان الذى ظهر فيه.

ويقول نسيم حنين:

«فى عام ١٩٨٨ عثرت لدى ورثة تاجر أقمشة بالحمزاوى فى حى الجمالية يدعى الحاج سيد حسن الحريرى (رحل عن الدنيا فى شهر يوليو ١٩٧٧ عن عمر يناهز السادسة والسبعين) على مخطوطتين تحتويان على عشرين ألف مثل شعبى بالإضافة لنداءات للباعة الجائلين، وفوجئت بكم هائل من الأمثال الشعبية المرتبطة بصناعة الفخار، تعكس سلوك الإنسان المستخدم للأوانى الفخارية أمام التفاصيل المختلفة للحياة وأسبابها، بل وجدت نفسى أمام عملية نقد فذة للمواقف المختلفة مع بحث دائم عن الحقيقة حتى أدركت أن هناك توازيًا دقيقًا بين فكرة الحفاظ على الفورم (الشكل) للآنية الفخارية والفكرة من المثل الشعبى الذى يحفظ الحكمة والمأثور فى اللغة.. وعند لحظة الإدراك تلك نبعت فكرة العلاقة بين الفخار والأمثال الشعبية فى حياة المصريين اليومية».

كان جميلاً من المؤلف أن أدخل القارئ فى هذه الحياة اليومية دون استخدام خطاب نظرى فتحول الكتاب من ناحية.. إلى نزهة مرحة بين أشكال الفخار والخزف والأمثال الشعبية، ثم دراسة جادة وبحث إثنوجرافى من ناحية أخرى.

أنواع الفخار.. والمدن.. والأمثال:

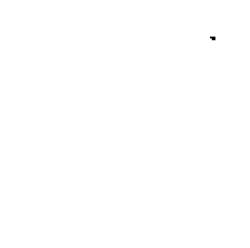
تقع الفواخير الرئيسية لصناعة الفخار فى مصر فى الدلتا والصعيد فى الأماكن التالية:

* الدلتا.. دسوق ـ منشية شربال وتلا ومنوف وأشمون فى محافظة المنوفية ثم الزقازيق وبلبيس بمحافظة الشرقية ثم الفسطاط بمدينة القاهرة.

* الصعيد.. نزلة إبشواى بمحافظة الفيوم ثم سمالوط الحواتكة وأخميم وجرجا ثم حجازة وبلاص وإسنا بمحافظة قنا ثم قرية القصر بواحة الداخلة.

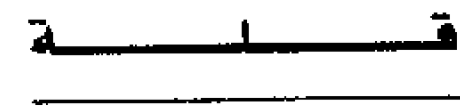


حلة



المدينة: بلبيس
المحافظة: الشرقية
المادة: طين أحمر أو صلصال
المثل: «إذا اتعود القط كشف الحلة.. مش ممكن يرجع عنها».
(بمعنى أنه من الصعوبة بمكان التخلص من العادة السيئة).

قلة

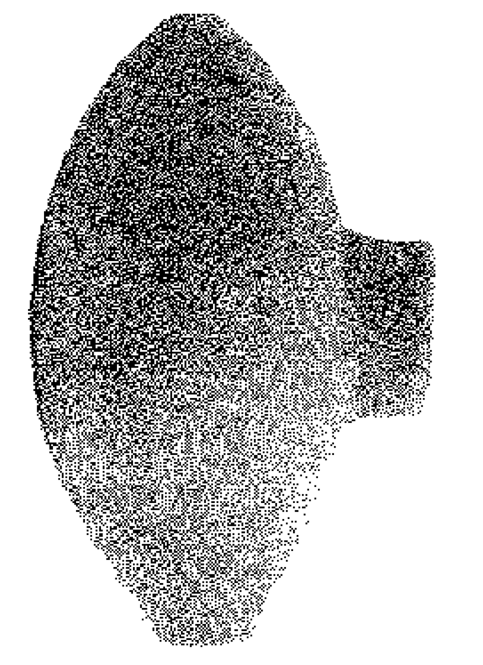


المدينة: بلبيس
المحافظة: الشرقية
المادة: طين أحمر بشرائط بيضاء
المثل: «سيبوا دى.. واشربوا من دى»
وقد أطلق الفلاحون هذا المثل على أورطة عسكرية تركية كانت تسقى الفلاحين حسب مزاجها.. فصار مثلاً حول تعنت صاحب السلطة.

قدرة غزاوى

المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المادة: طين أحمر
المثل: «كانت القدرة ناقصة بتنجانة.. صبحت طافحة ومليانة».
وهو يقال للسخرية من شخص أصابه الثراء فجأة.

مخاضة



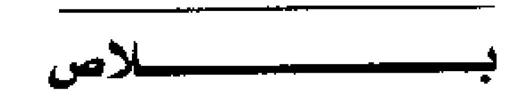
المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المثل: «خض من غير زبدة».
(المعنى.. مجهود يتم بدون نتيجة).

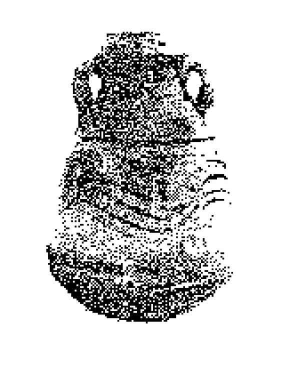
وعاية



المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المادة: طين أحمر مضاف إليه رماد الفرن
المثل: «كل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

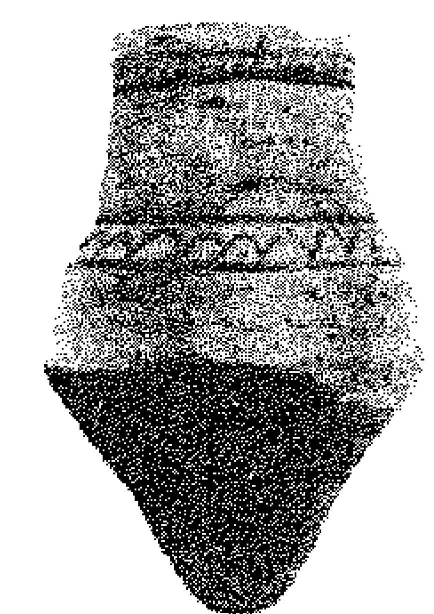
بلاص





المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المثل: «اسمها فهيمة وهى عبارة عن بلاص مش»

زير



المدينة: منوف
المحافظة: المنوفية
المثل: «آدى الزير.. وآدى غطاه».
ويقال عند البرهنة على حقيقة معينة.

كـــــــانــون

المدينة: سمالوط.
المحافظة: المنيا
المثل: «قبل ما حطب جاب الحطب وقال ابنى الكوانين فين».
ويقال عن الشخص الذى يضع العربة امام الحصان.

طاجن كـــحــريت

المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
المثل: «حط طاجن على طاجن.. حــزينة ياللى مالكيش راجل».
ويقـال عن المرأة التى تعـيش وحـيـدة ولا يشغلها سوى الأعمال اليومية.

طـــبـــلـــة

المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
مجموعة أمثال:
* «إذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا.. فلا تلومن الصبيان على الرقص».
* «طول ما أنت زمار وأنا طبال ياما قدامنا من الليالى الملاح».
* «زى الطبل منفوخ على الفاضى».
* «زى الطبل.. صــوت عــالى وجــوف خالى».
* «اسمه زى الطبل».

رحـــــايـــة

المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
المثل: «الحبة تدور وللرحاية ترجع».
بمعنى أن كل شىء يأخـذ دورته ثم يصل لنهايته. وأيضًا مثل آخر: «إيده زى الرحاية» ويقال على الشخص الذى يتمكن من عمل كل شىء مثله مثل الرحاية التى تطحن جميع أنواع الحبوب.

زيـــــــر

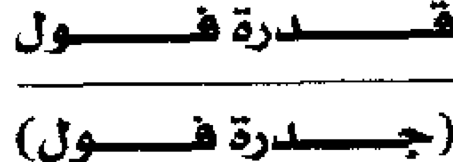
المحافظة: قنا
الأمثال: «إكفى الزير على غطاه يظهر اللى وراه».
«نواية تسند الزير»
«بمعنى: شىء صغير جداً يمكنه أن يكون ذا نفع كبير»
«طلب الغنى شقفة كسر الفقير زيره»
«الفقى يقيس الميّة فى الزير»

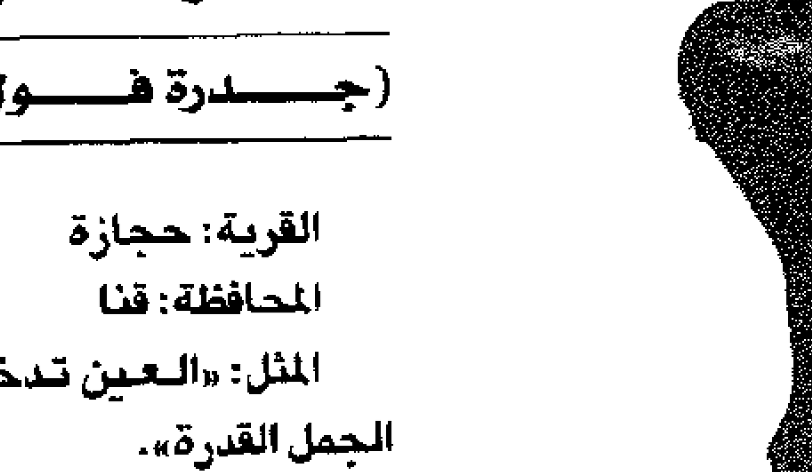
بـــــلاص

المدينة: بلاص (وهى أصل صناعته)
المحافظة: قنا
وتوجد ثلاثة أحجام من البلاص:
* علاوة وهو البلاص الكبير
* نصة وهو البلاص المتوسط
* بوكلة وهو البلاص الصغير
المثل: «تهجيص فى بلاليص»
(بمعنى كلام كبير فارغ.. وفى النهاية لا قاع له)

قـــــــادوس

المدينة: البلاص
المحافظة: قنا
المثل: «زى قواديس الساقية.. المليان يكب على الفارغ»





قـــدرة فـــول

(جـــدرة فـــول)

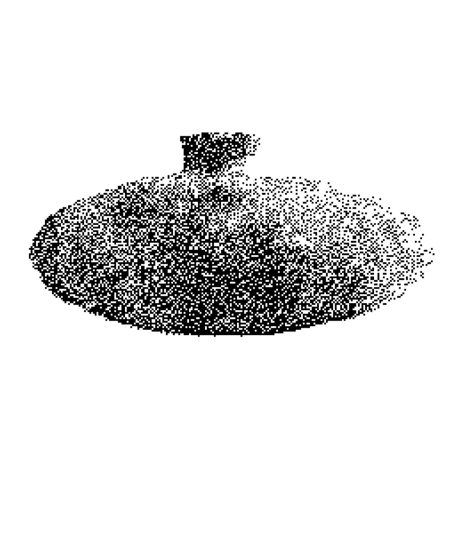
القرية: حجازة
المحافظة: قنا
المثل: «العين تدخل الرجل القبـر وتدخل الجمل القدرة».

إبـــريـــق

القرية: إبشواى
المحافظة: الفيوم
المثل: «إذا تصـادم إبريقـين لابد واحـد ينكسر»

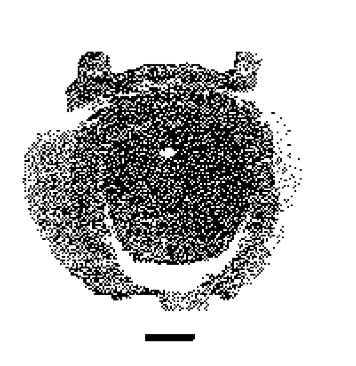
قـــدرة فـــول

القرية: إبشواى
المحافظة: الفيوم
المثل: «اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها»



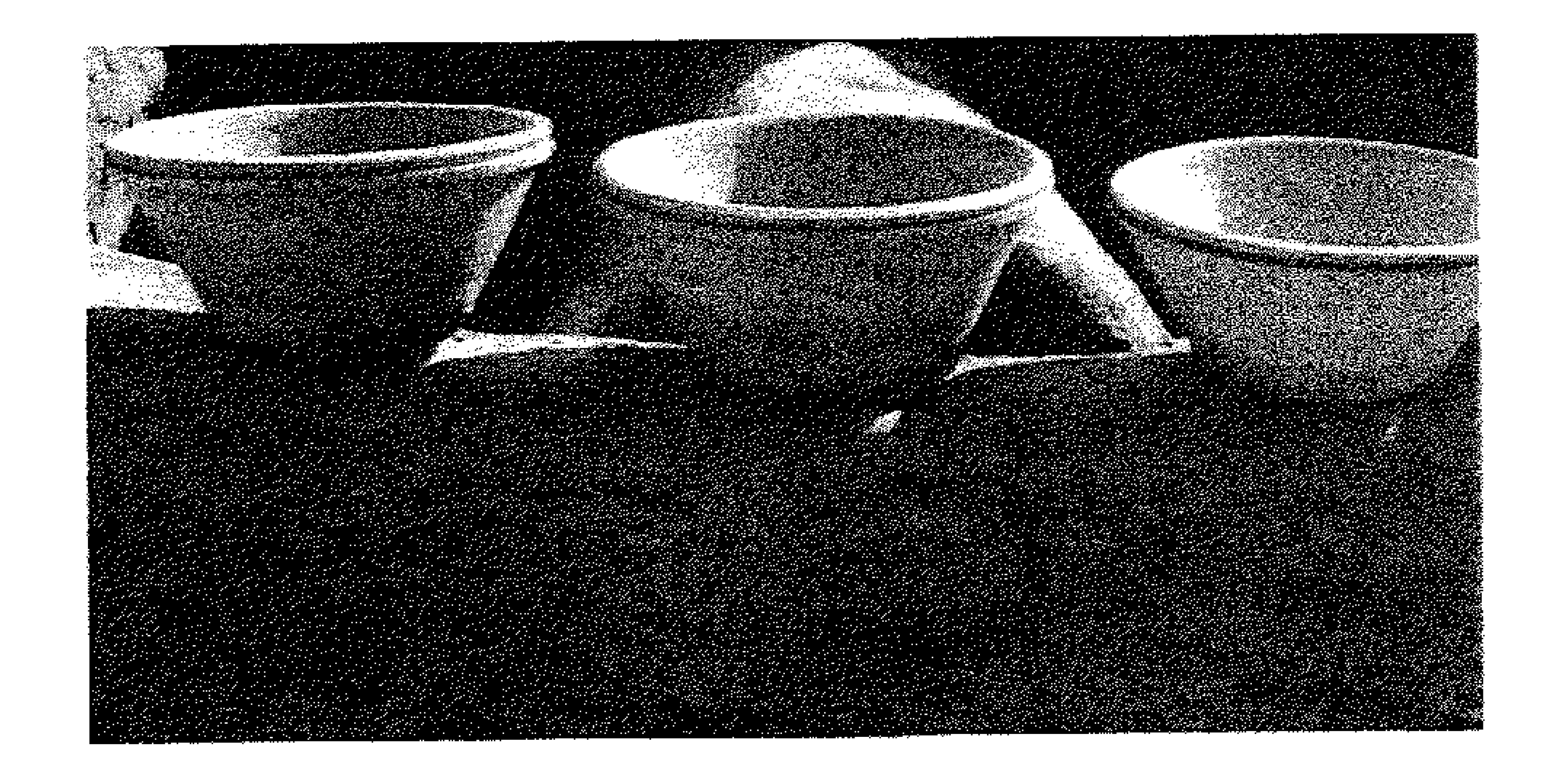
جـــرة أو ســـقى

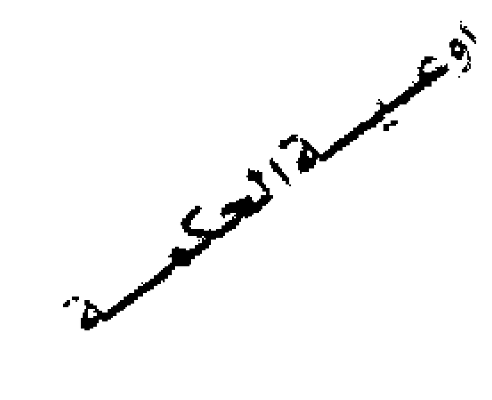
القرية: القصر بواحة الداخلة
الأمثال: «الضرة مُرة ولو كانت حلق جرة».
«شربة من برة توفر الجرة»
«خلى العسل فى جراره لما تيجى أسعاره»



كـــــانــون

القرية: النازلة بمحافظة الفيوم
المثل: «آخد الغندور وأنام جنب الكانون»





طشت ومصفاية



القرية: القصر بواحة الداخلة
المثل: «لما أنا ست وانت ست مين يكب الطشت»

إبريق



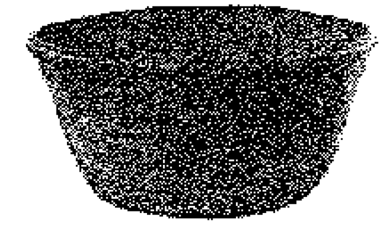
القصر ـ واحة الداخلة
المثل: «مين يقدر يقول البغل في الإبريق»

قادوس



القصر ـ واحة الداخلة
المثل: «زي قادوس الساقية مشنوق من رقبته ورجله»

ماجور



القصر ـ واحة الداخلة
(وعاء كبير لعجينة الخبز)
الأمثال: «إكفي على الخبر ماجور»
«فاتت عجينها في الماجور وراحت تضرب الطنبور»

دست

القصر ـ واحة الداخلة
(وعاء لطبخ الطعام)
الأمثال: «ماله الدست بيغلي.. قال من كتر ناره»
«نايبك في الدست والمغرفة تايهة»
«الدست قال للمغرفة يا سودة يا معجرفة..
قالت كلنا ولاد مطبخ»
«اغسل الدست وصفيه ما ينضح إلا اللي فيه»

عن صانع الفخار وفنه وأدواته:

الفخار فن صاحب الإنسان منذ فجر التاريخ، ووصل عنده إلى درجة القدسية (الراكو وهو فن الخزف والفخار في اليابان يعتبر فناً مقدساً وهي صناعة تحت الرعاية المباشرة للإمبراطور) وكان لكل حضارة نماذجها الفخارية المتميزة سواء في الصين أو اليونان أو مصر أو العراق أو إيطاليا.. ذلك أن الطين مادة طيعة وبسبب لدانتها أصبحت قادرة على التحور والتشكل بسهولة، وعندما تأخذ شكلها النهائي كآنية تتماسك وتثبت ويصبح سطحها أملس رقيقًا وبعد حرقه يتحول لخزف جميل لا ينكسر.. وتلك هي عبقرية الطين ومن الطين جاء الإنسان، نفس المادة مختلطة بالهواء والماء.

ويشكل أكسيد الألومنيوم ومادة السيليكا بالإضافة لبعض المعادن الأخرى الأقل في الأهمية.. المكون الرئيسي لمادة الطين.



والطين بجودته توفر في الحضارة المصرية بسبب طمي النيل، ولذلك عرفت الأسرة المتوسطة الحاكمة من ٢٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قبل الميلاد أنواعًا عالية من الفخار والخزف مثل الجعران المطلي باللون الأزرق الفاتح والكراسي الخزفية الصغيرة بوجوه الرجال والحيوانات المطلية «بالجليز» ومنها مجموعة كبيرة بمتحف المتروبوليتان في جناح المصريات.

ومن عهد الأسرة الثامنة عشرة وجدت مزهريات جميلة بقرية «القرنة» بالأقصر عليها كتابة رقيقة تؤكد أن المزهرية قد تم تكريمها بلمسات الإله أوزوريس، (محفوظة بمتحف المتروبوليتان).

ومن مدينة الفسطاط جاءت مجموعة رائعة من الأطباق الخزفية أثناء الحكم الإسلامي الفاطمي في القرنين ١١ و١٢ الميلاديين وهي موجودة لدى المقتني الأرمني الأمريكي المليونير ديكران كيليكيان.

ولكن الجماليات الفائقة في الخزف جاءت من الحضارة الصينية نتيجة لوفرة مادتي البنتونيت والكاولين فهما يعطيان تلك اللمعة والبريق الأخاذ عند حرق الأواني الفخارية في الأفران.



صانع الفخار هو الفنان الوحيد الذي يتعامل بصورة مباشرة مع الطين (مادة فنية).. يد بيد ووجه بوجه في ملامسة وتلاحم كاملين دون أية حواجز.. وعندما تحدثت مع الفنان أحمد أبوزيد عن ذلك قال: «الفخار هو أنا.. عندما أمسك بقطعة الطين يصيبني الخوف، لأنني في تلك اللحظة أكون في طريقي لمحاولة الفهم.. وعندما أحرك الماء مع الطين تتحرك روحي هي الأخرى، وعندما أقوم بتحريك الدولاب بقدمي ومعه اليدان الممسكتان بقطعة الطين على القرصة، فإن روحي هي الأخرى تهتز مع وقع (الريتم) وعادة ما أكون متوتراً، عصبياً، شاعراً بالضعف ثم تتسق الروح في داخلي وأرتفع إلى الانتظام وأبدأ في الشعور بالتحكم فيما هو مرن ويعمل الحوار بقوة بيني وبين المادة وقد أنتشي وأصل لحالة غياب عن الوعي ولأنني في تلك اللحظة أعبر إلى الماوراء وهذا هو الفن».

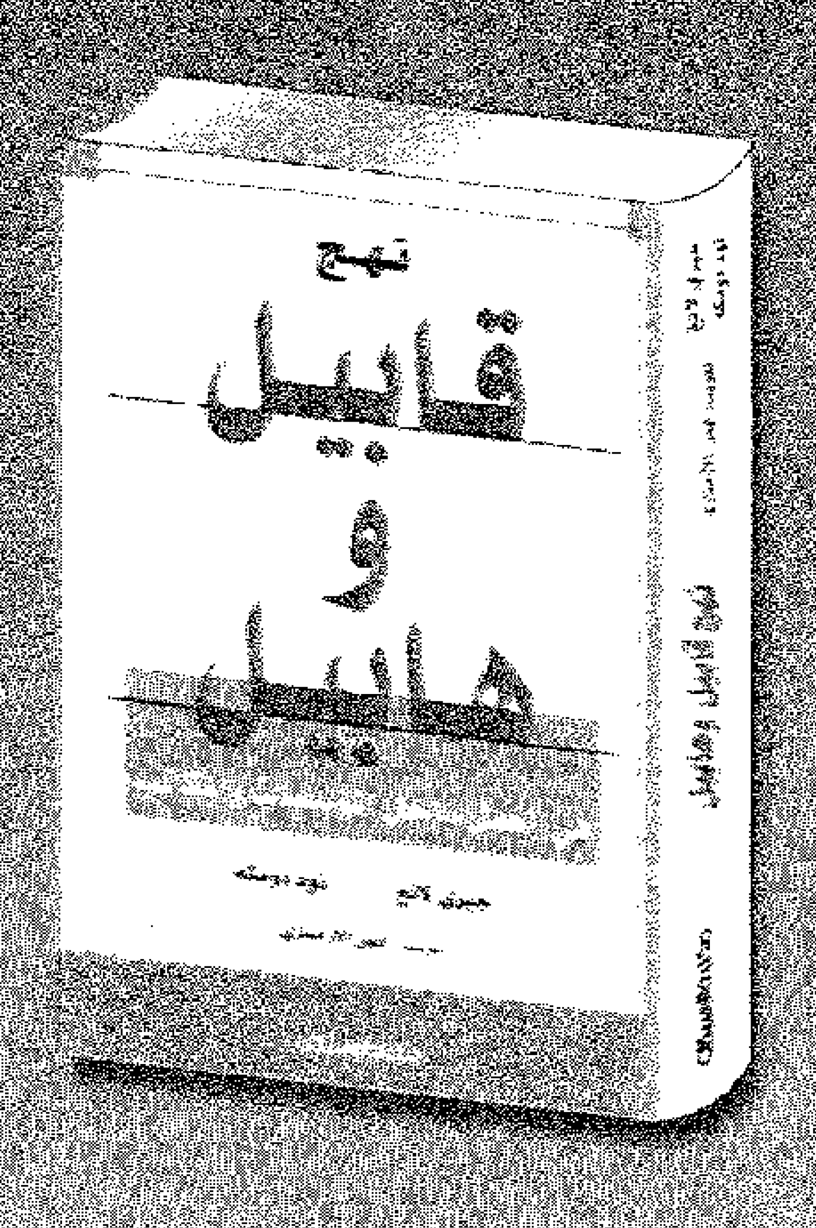
وسألته عن طريقة العمل.. فقال:

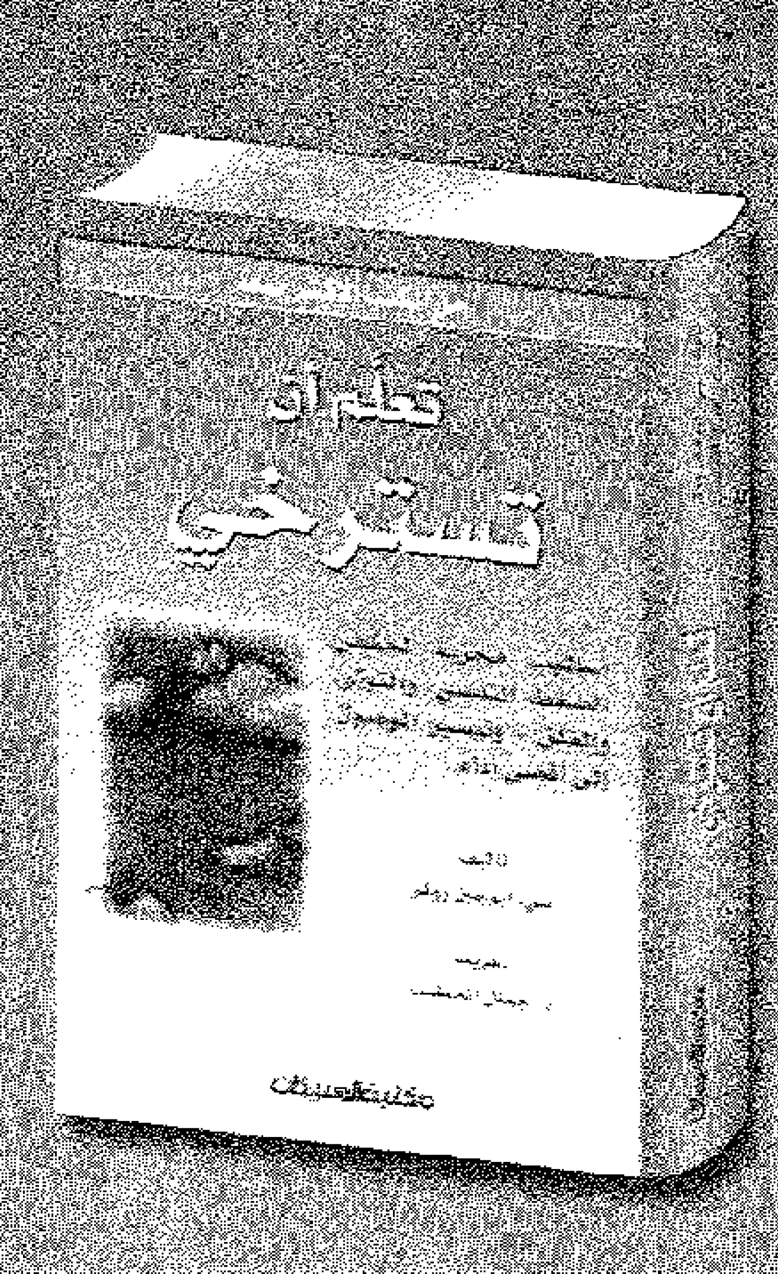
«الماء عنصر مهم وفي غالب الأحوال تنشأ ورشة الفخار بجوار مجرى المياه. أقوم بتفتيت الطينة ثم أدخل عليها القش تتحمل درجة الحرارة وبعد ذلك أدير الدولاب وأمسك بالطين لأقوم بعملية التشكيل. وبدايتي تكون في تحديد نقطة المركز، وأعمل من خلال هذه النقطة ولا أخرج عنها أبداً، لأن المركز هو الذي يحدد توازن كل شيء.

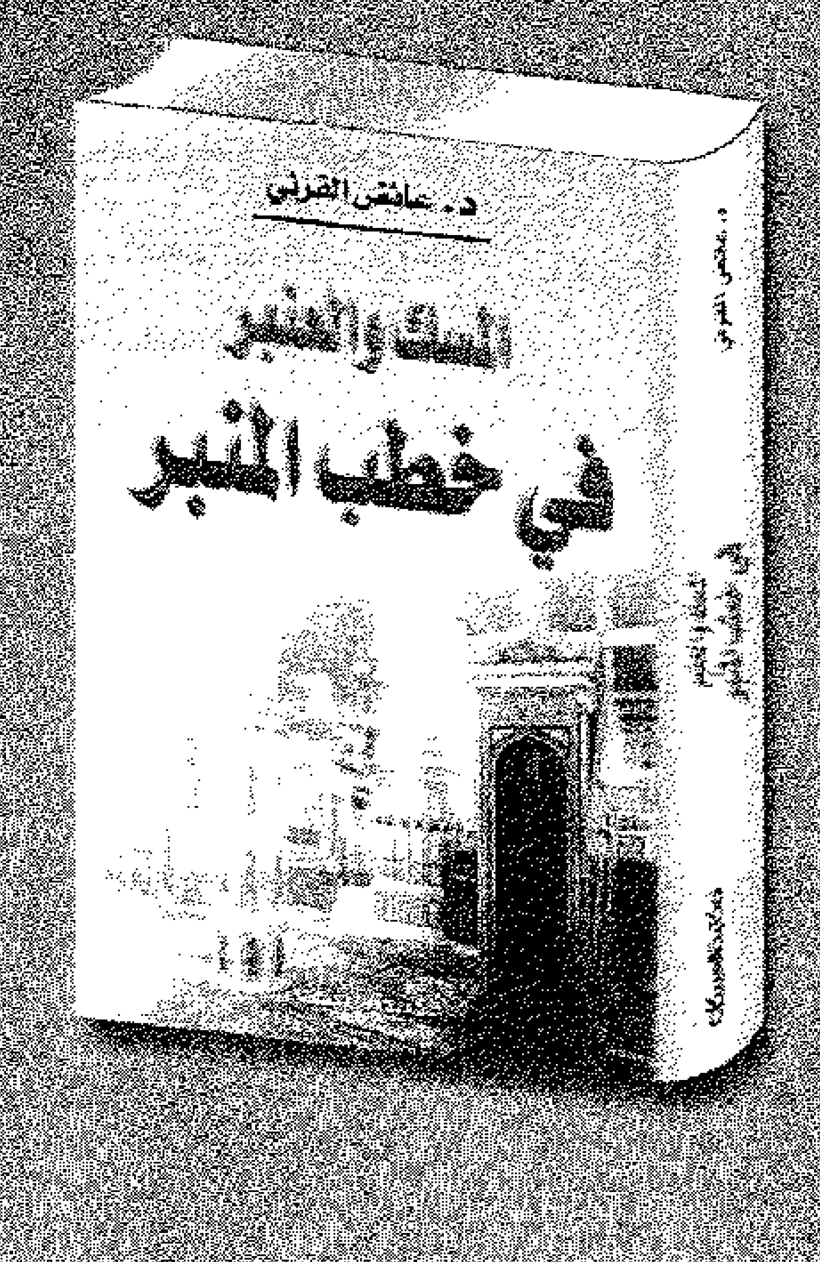
أثناء عملي لا أفكر أبداً.. فالفخار هو الذي يفرض عليّ الاختيار، وأنا أتعامل معه بحب وانحني على قطعة الطين بحب واهتمام.. وعندما أضيف قليلاً من الماء للطين أشعر وكأني أضيف ماء الحياة فيتحقق الوجود».■

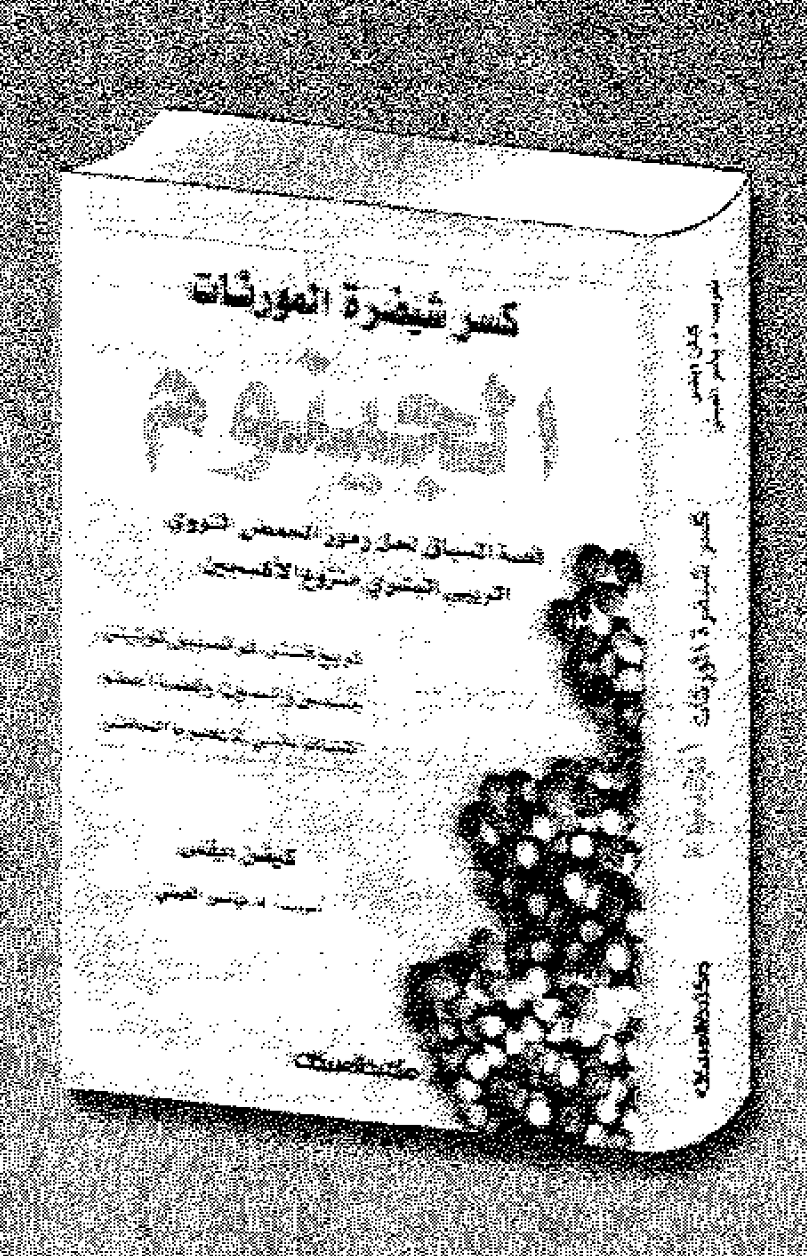

مكتبات ونشر
العبيكان
Obëkan
Publishers & Booksellers

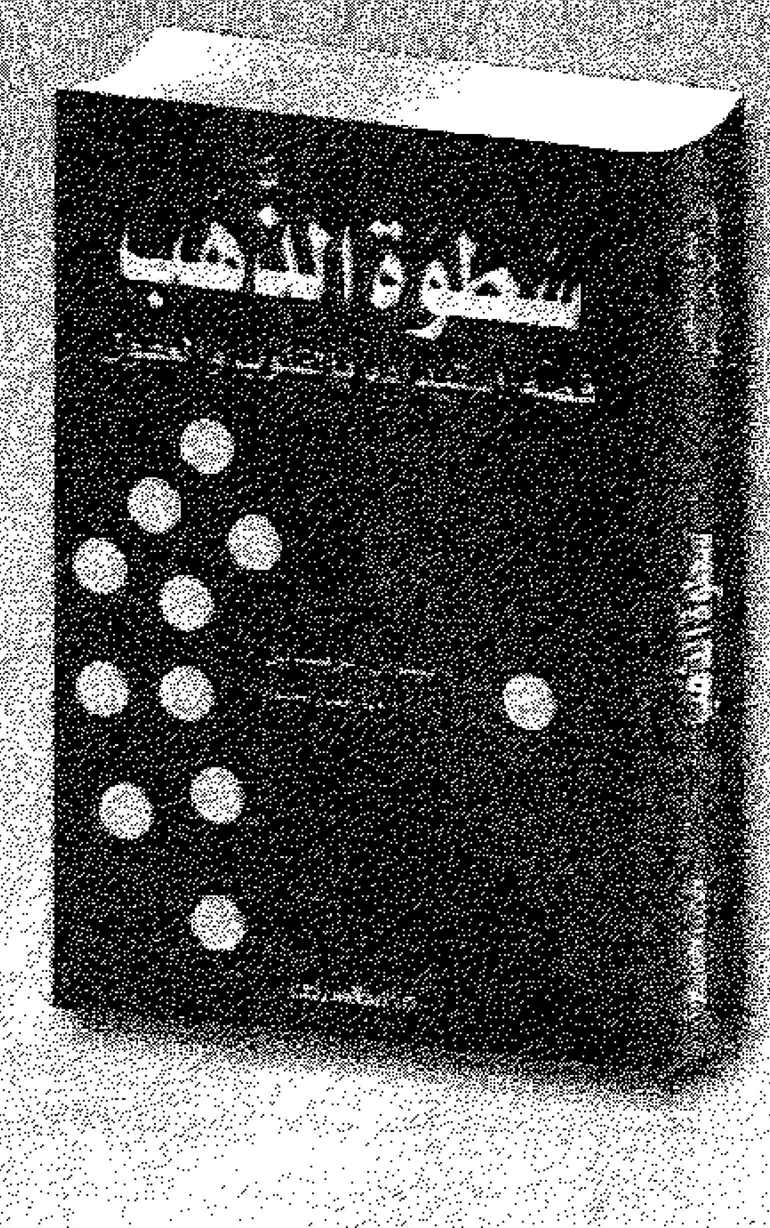

آخر
الإصدارات


قابيل
و
هابيل

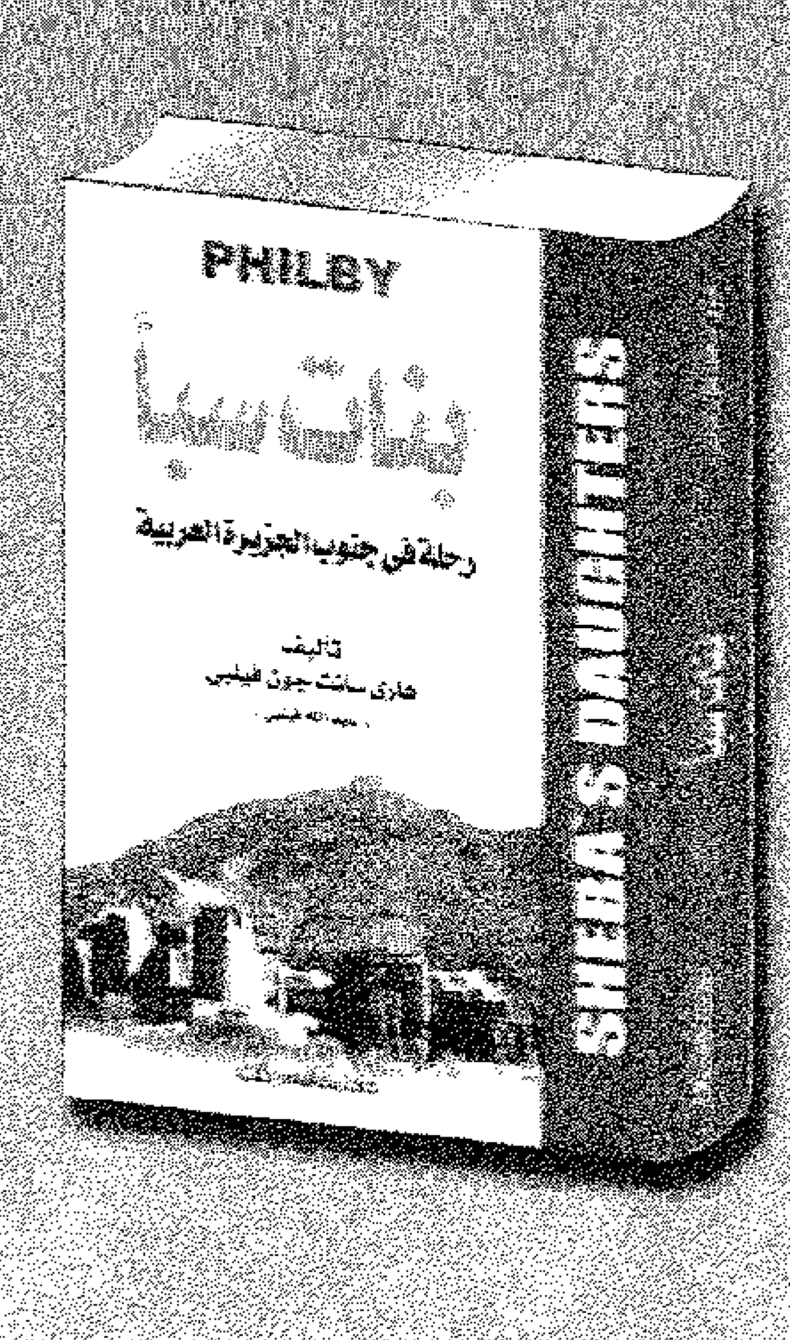

تعلم أن
تسترخي

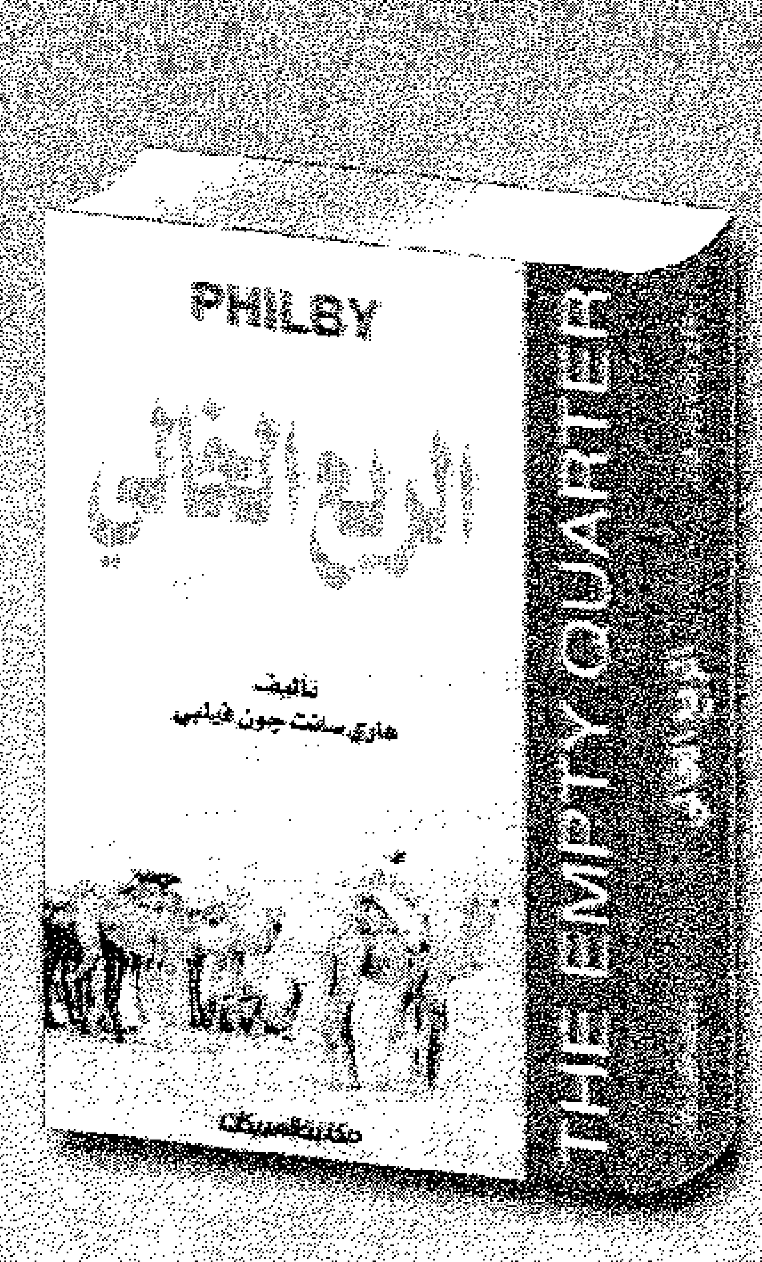

د. عائض القرني
المسك والعنبر
في خطب المنبر


كسر شيفرة المورثات
الجينوم


سطوة الذهب


مئة سر بسيط
من
أسرار السعداء


PHILBY
بنات سبأ
رحلة في جنوب الجزيرة العربية
تأليف
هاري سانت جون فيلبي
SHEBA'S DAUGHTERS


PHILBY
الربع الخالي
تأليف
هاري سانت جون فيلبي
THE EMPTY QUARTER

حقيقة مشكلة
الرق
في السودان





يوسف الشريف

■■ منذ استيلاء الجبهة الإسلامية على السلطة فى السودان عبر الانقلاب العسكرى الذى تزعمه العميد عمر حسن البشير فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩، والحديث عن ممارسة الرق فى القطر الشقيق ظاهرة تترى تباعًا ضمن الشواغل الإنسانية فى العديد من الصحف ومراكز الدراسات ومنظمات حقوق الإنسان فى أمريكا بوجه خاص، حيث أسفر هذا الاهتمام مؤخرًا عن خطة مبيتة لوصم العرب المسلمين فى الشمال بالقهر والجور فى تعاملهم غير الحضارى واللا إنسانى مع أبناء الوطن الواحد من الزنوج المسيحيين والوثنيين فى جنوب السودان، وتكمن خطورة هذا الاتهام فى كونه واحدًا من الادعاءات المغلوطة التى دأبت الإدارة الأمريكية على استخدامها فى تبرير مشروعية منح الجنوبيين حق تقرير المصير، إيذانًا بتقسيم السودان إلى دولتين وربما دويلات عرقية متناحرة يسهل السيطرة عليها.

وإذا كان نظام الإنقاذ الحاكم فى السودان قد ارتكب جريمة سياسية وتاريخية فادحة حين أضفى القداسة على الحرب الأهلية، واعتبر قتال أبناء الشمال «جهادًا» فى سبيل الله، وضحاياهم شهداء أبرارًا فى جنة الخلد مع الملائكة والقديسين، بينما يعتبر الضحايا من أبناء الجنوب كفرة وملحدين ومأواهم النار وبئس القرار. فلا يلومن هذا النظام سوى نفسه إذا كان الرئيس بوش قد ابتلاه بالسيناتور جون دانفورث مبعوثًا شخصيًا له فى السودان وهو أولاً قسيس الاعتراف للرئيس الأمريكى، وأيضًا مرشح التحالف المسيحى اليهودى واللوبى النفطى فى الكونجرس!

ومنذ مباشرة دانفورث لمهامه فى السودان، وهو يذكى نيران الفتنة عرقيًا تحت شعار الاضطهاد الدينى وانتهاك حقوق الإنسان الذى يكابده أبناء الجنوب، ومن ثم راح يدعم فى المقابل أنشطة المنظمات التبشيرية المشبوهة بنحو مليون دولار يوميًا بدعوى الإسهام فى أعمال الإغاثة الإنسانية للمتضررين من ويلات المجاعات والأوبئة والمروعين بالحرب الأهلية، ولا شك أنه جهد مقدر ومشكور لدى الجنوبيين فى غياب الدور العربى وضعف إمكانات الحكومة السودانية، على أنه تزامن مع هذا النشاط شن حملة دعائية محمومة تستهدف وصم السودان بممارسة الرق، كان أول من روج لها الرابطة القومية الأمريكية المناهضة للرق (NAPS) تحت قيادة الدكتور أنطونى بول وهو رئيس شعبة الأحياء بكلية أوكورد فى هانتشفيل بولاية الباما، حيث تواصل إرسال أعداد من أعضائها إلى جنوب السودان ووضع التقارير الدورية عن تطورات ظاهرة الرق، فيما قامت الرابطة ببناء بعض المدارس ومساكن لإيواء التلاميذ فى عدد من القرى الجنوبية أوائل التسعينيات!

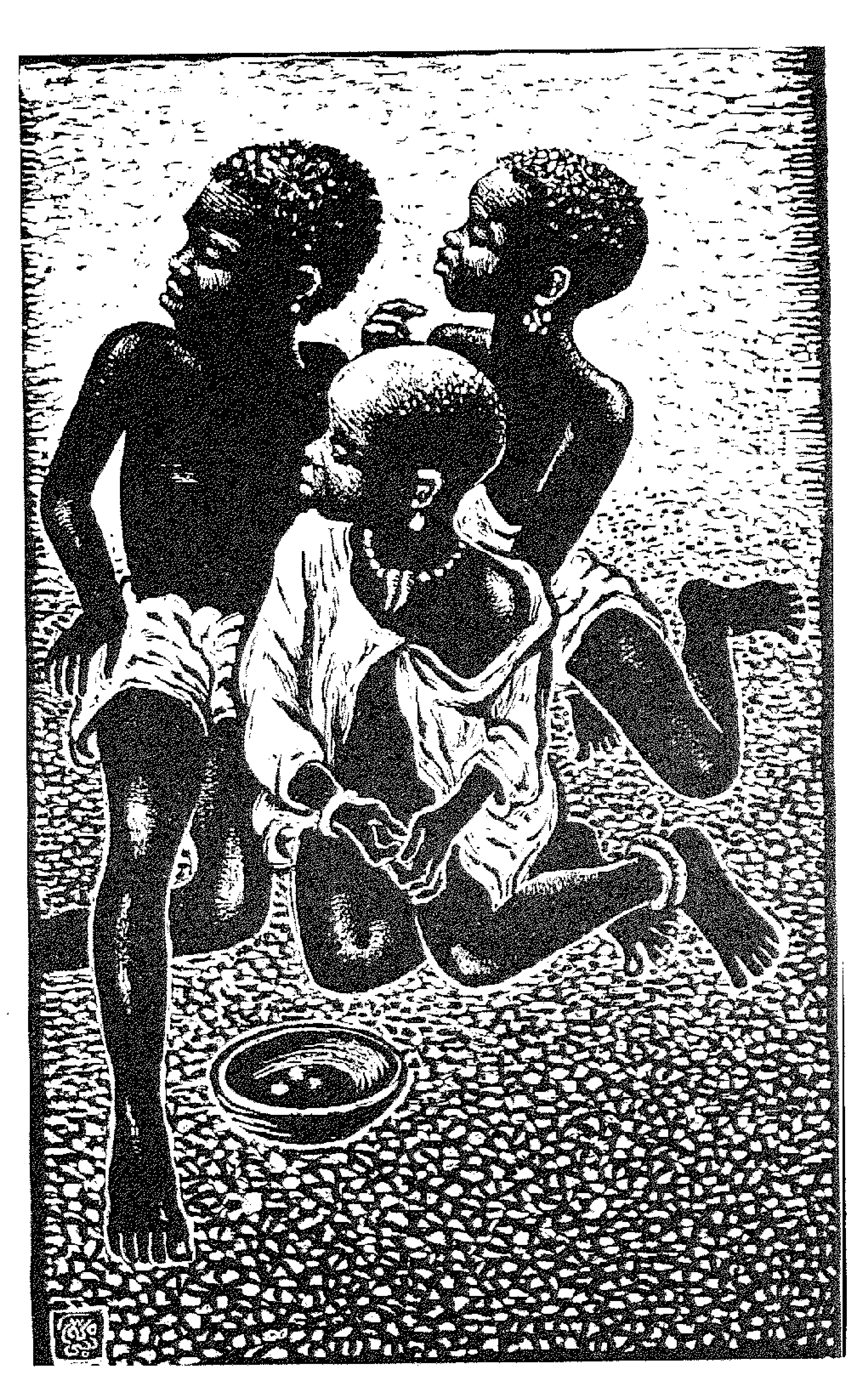


وهكذا تسربت تلك التقارير إلى وسائل الإعلام الأمريكية، وراحت تتداعى لمأساة الرق فى السودان بشكل مثير للكراهية ضد العرب المسلمين فى السودان، وقد بدأت صحيفة «لوس انجيلوس تايمز» الحملة عام ١٩٩٥ بتقرير نشرته حول غارة شنتها قوات الدفاع الشعبى التابعة للجبهة الإسلامية على إحدى قرى الجنوب لمطاردة فلول الحركة الشعبية التى تمارس التمرد تحت قيادة العقيد جون جارنج وقالت الصحيفة إن الغارة صرعت العديد من الرجال وأسفرت عن نهب الكثير من ممتلكات السكان و.. سبى بعض النساء والأطفال، ثم خلص التقرير إلى قصة تحرير الفتاة تريزا نيابول دينق ابنة الاثنى عشر ربيعًا من أسر الرق مقابل خمسين دولارًا!

بعدها عرضت بربارا فوجل المدرسة بالصف الخامس فى إحدى مدارس مدينة دينفر بولاية كلورادو الأمريكية قصة تريزا على تلاميذها، وسرعان ما انفعلوا بها وانخرطوا ضمن حملة دولية تهدف إلى شراء الأرقاء من سادتهم بغرض تحريرهم، ومن ثم تبرعوا مبدئيًا بقيمة وجبة الغذاء لهذا الغرض.

وفى أكتوبر عام ١٩٩٦ دعا النائب دونالد.م. باين إلى جلسة استماع فى الكونجرس حول نفس القضية، ونجح فى تكوين هيئة خاصة لبحث المسألة السودانية فى الاجتماع السنوى للمؤتمر العام للسود، ثم لم تمض أيام حتى أطلق باين حملة مناشدة قومية تدعو إلى تحرير ١٠٣ بين نساء وأطفال من أسر الرق فى السودان، ونجحت الحملة فى الحصول على توقيعات الآلاف من الأمريكيين على المذكرة التى قدمت إلى الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون والأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان.





وكان المفوض السابق لحقوق الإنسان فى الأمم المتحدة، كاسبار بيرو قد زار السودان عدة مرات وخلص إلى وجود ممارسات للرق فى إطار الحرب الأهلية بين القوات الحكومية وقوات المعارضة بقيادة جارنج، بينما تقول منظمة «هيومان رايتس واتش» أن الحكومة لا تعير انتباهًا إلى سلوك أفراد قواتها وميلشياتها فى مناطق القتال، فى الوقت الذى عرضت حالات صارخة خضع فيها أطفال جنوبيون للتجنيد العسكرى قسرًا بعد انتزاعهم من وسط ذويهم، ثم ينتهى التقرير الأول للمنظمة الصادر عام ١٩٩٥ بعنوان «أطفال الشوارع الأرقاء والأطفال الجنود» ثم الملحق الإضافى الصادر عام ١٩٩٦ بعنوان «خلف خط النار»، إلى وصف مسهب للمجاعة فى جنوب السودان وشهادات موثقة حول ممارسات الرق.

وقد أدانت المنظمة - وهى أمريكية - الحكومة السودانية لعدم التزامها بالمواثيق الدولية وخاصة ما يتعلق منها بحقوق الطفل، واتفاقية الرق لعام ١٩٢٦، وكذا الاتفاقيات الملحقة بها عام ١٩٥٦ حول مناهضة الرق، فيما استنكرت «هيومان رايتس واتش» نفى الحكومة السودانية للاتهامات الموجهة لها بهذا الخصوص، رغم ثبوتها فى أضابير لجان الأمم المتحدة، وأهابت فى نفس الوقت بالمنظمات الدولية المعنية مثل «اليونيسيف» و«الصليب الأحمر» للنهوض بمسئولياتها عبر التدخل لوقف هذه المعاناة الإنسانية وإنهاء تلك التجارة غير المشروعة!

والشاهد أن الحملة كانت لها تداعياتها المؤسفة فى أوساط الأمريكيين السود، الذين تتنازعهم ذكريات الاسترقاق التى تعرض لها جدودهم وجداتهم، حين جرى انتزاعهم من بيئتهم وعائلاتهم الأفريقية وبيعهم عبيدًا لفلاحة الأرض والقيام بالأعمال الشاقة فى القارة الأمريكية الجديدة بعد اكتشافها على يد البيض الأوروبيين.

وتروى الصحافة الأمريكية قصة شايلا مونتجمرى وهى كانت طالبة لعلم الأحياء فى كلية دوثان بالباما، وكيف تمكنت مع ١٨

طالبًا وطالبة من السود من قضاء أعياد رأس السنة عامًا بعد عام في إحدى القرى التي تعاني ويلات الحرب الأهلية في جنوب السودان، وكم هي سعيدة لأن كونها أمريكية لم يفقدها صلتها بجذورها الأفريقية، الأمر الذي جعلها تأخذ على عاتقها مساعدة أبناء عشيرتها الذين يتعرضون للفقر والمرض والخوف والرق في جنوب السودان!



ولم تختص أمريكا وحدها السودان بالترويج لممارسة الرق، ولكن بريطانيا التي استعمرت السودان وتبنت سياسة المناطق المقفولة على جنوبه عبر وضعها إسفينًا حضاريًا ولغويًا وثقافيًا واجتماعيًا بينه وبين الشمال، من هنا استثمرت البارونة كوكس تراكم الخبرات البريطانية بالسودان والحنين إلى أمجاد الدولة العظمى التي لم تكن تغرب عنها الشمس، وشنت أقوى وأذكى حملة ضد نظام الجبهة الإسلامية إبان كان الدكتور الترابي رجله ومفكره وعرابه، ثم لم تتوقف رغم استبعاده من السلطة عن مواصلة ما بدأته.

وقد أثارت هذه المرأة حولها شخصيًا وحول نشاطاتها السياسية والإعلامية جدلاً واسعًا سواء داخل بلادها أو على صعيد السودان، فهي قد بدأت حياتها ممرضة كرست حياتها للعمل الطوعي، فخلعت عليها الملكة إليزابث لقب بارونة، تقديرًا لجهودها في العديد من مناطق العالم التي تعاني مآسي الحروب والنزاعات والأوبئة والمجاعات وبينها بورما والسودان الذي قامت بزيارته عدة مرات، وخاضت تجربة العمل تحت وابل الرصاص والقنابل والصواريخ، وقد حازت بشجاعتها ومبادراتها الإنسانية على العديد من الأوسمة والدكتوراة الفخرية في بريطانيا وغيرها، حيث وقع عليها الاختيار كراعية لجامعة بورتموث!

البارونة كوكس التي تشغل منصب نائبة رئيس مجلس اللوردات، تحظى باحترام المعارضة السودانية، لمعرفتها وتبنيها هموم وشجون السودان، ودعوتها لرموزه ومفكريه للتنوير بقضاياه وشرحها أمام مجلس اللوردات، بينما يكن لها نظام الجبهة الإسلامية عداء مستحكمًا إلى حد اعتبارها شيطانًا في هيئة امرأة، بسبب انتقاداتها الصارخة له، واتهامه بالتعصب ضد المسيحيين سواء عبر ما يسمى «المشروع الإسلامي» أو التوجه الحضاري، ووصمه - وهو الأخطر - بممارسة الرق والعبودية المنافية للإسلام ضد الجنوبيين!

وقد بدأ اهتمام كوكس بالسودان حين كان ابنها يعمل ضمن برنامج إنساني لرعاية اللاجئين الإريتريين في مدينة «الدمازين» بشرق السودان، وفي إحدى رسائله لها شكا من نقص شديد في عدد الممرضات، وعندئذ قررت التوجه إلى هناك مع فريق من الممرضات الإنجليزيات المتطوعات، حيث عاشت ثلاثة أشهر في منطقة «حمرة الوز» تؤدي واجبها حتى نقلت نشاطها بعدئذ إلى مدينة الأبيض عاصمة ولاية كردفان.

أما عن اهتمامها بمشكلة الرق، فكان عبر قراءتها كتابًا مهمًا عنها بالإنجليزية بعنوان «الرق في السودان» من تأليف الدكتور علي بالدو والدكتور عشاري، وكلاهما يعمل ضمن هيئة التدريس بجامعة الخرطوم، حيث كان للأمانة العلمية والجهد المبذول في جمع الوثائق والشهادات والتحقق من صحتها دور بارز في رواج الكتاب داخل السودان وخارجه باعتباره أهم مرجعية علمية لمشكلة الرق في السودان، وخاصة أنه شهادة من أهلها!

وحين امتنعت حكومة الجبهة الإسلامية عن تقديم التسهيلات التي طلبتها البارونة كوكس لزيارة المناطق المنكوبة بالرق في جنوب وغرب السودان وجبال النوبة، لم تعدم الوسيلة في القيام بالتحقيقات الميدانية عبر بعض الدول الأفريقية المجاورة للسودان ومنظمات الإغاثة والتبشير وكذا الحركة الشعبية بزعامة جارنج.

كوكس التي ولدت في السادس من يوليو عام ١٩٣٧ استطاعت بنفوذها وشهرتها فضح ممارسات العبودية في السودان، وهي دائمًا تعزز ادعاءاتها بالحجج والوثائق والصور، مؤكدة على أن نظام الجبهة الإسلامية هو المسئول الأول عن تشجيع تلك الممارسات أو السكوت عليها، بل وإنكارها إذا لزم الأمر، وتقول إنها لمست خلال جولاتها في المناطق المنكوبة تعاطفًا كبيرًا من جانب بعض التجار وزعامات القبائل العربية المسلمة تجاه ضحايا الرق، إذ كانوا يبادرون إلى دفع الإتاوات إلى خاطفيهم مقابل تحريرهم، مؤكدة على أنها كانت شاهدة عيان على تحرير ٣٢٠ طفلاً وامرأة، وأنها التقت بهم وبالسماسرة الذين تولوا مهام التسوية ودفع مبالغ الفدية للخاطفين، كما أنها تحققت من تشغيل عدد آخر من الفتيات والنساء الجنوبيات خادمات لدى أسر عربية وأطلقت عليهم وصف «أسياد»، غير عدد آخر من الأطفال الذين جرى تشغيلهم غصبًا كرعاة لقطعان الماشية التي يملكها شماليون.

والملافت للانتباه أن صدى اتهام السودان بالرق، وصل عبر البارونة كوكس إلى منظمة التضامن المسيحي التي تتخذ من سويسرا مقرًا لها، وقد تضمن تقريرها الصادر في يوليو عام ١٩٩٩ وبثته وكالة رويتر مزاعم خيالية حول نحو ٦٠٠ صبي وفتاة من جنوب السودان كانوا مجتمعين تحت شجرة في منطقة «يارجوت» بانتظار تحريرهم من الرق، وعلى لسانهم روى التقرير ألوان وأشكال القسوة والوحشية التي عوملوا بها من الشماليين، غير عشرات القصص حول عشرات الآلاف من العبيد الجنوبيين الذين يعمل غالبيتهم لدى العرب في ولايتي دارفور وكردفان.. إلخ.



النظام الحاكم في الخرطوم رغم كل سوءاته وكم وألوان المصائب التي يعاني السودان من ويلاتها، ليس المسئول الأول عما يثار حول قضية الرق، فهو قد ورث تلك المتناقضات عن الأوضاع السابقة



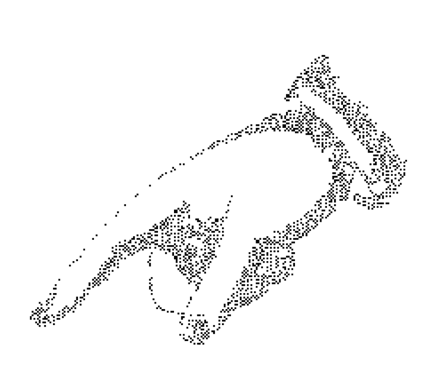
كل هذه الاتهامات والشهادات والتقارير الغربية حول ممارسات الرق في السودان، لا تكاد تجافي في الغالب الأعم منها الحقيقة والموضوعية، لكنها - وهنا بيت الداء - بعيدة كل البعد عن فهم أبعاد الظاهرة عبر اعتماد معايير الرصد والتقييم الغربي، وليس كما يجب في سياقها التاريخي والتقاليد والقيم الشعبية الموروثة في السودان، ولعل الأمر برمته يدعونا إلى حد استدعاء منطق المؤامرة في الترويج المتعمد لمأساة الرق في السودان على هذا النحو.

هنا نضرب مثالاً بالافتراءات التي دأب المؤرخون الغربيون والإنجليز بصفة خاصة، حول جلب محمد علي الرقيق من شباب السودان، بينما الحقيقة التي تؤكدها وقائع التاريخ وشهاداته ووثائقه، أن السودانيين كانوا مع المصريين قوام جيش محمد علي ومتساوين في الحقوق والواجبات والامتيازات، وهم قد تشربوا العلوم أو التدريبات العسكرية الحديثة في الكلية الحربية ومعسكرات الجيش بأسوان، على يد نخبة متميزة من الضباط الأكفاء تحت رئاسة الجنرال سيف، وهو كان أحد قادة جيش نابليون، حتى أعلن إسلامه وعرف باسم سليمان باشا الفرنساوي، وهؤلاء الضباط والجنود السودانيون كانوا طليعة التنوير والتقدم في المناطق التي جاءوا منها بعد عودتهم إلى السودان.

وفي كتاب القاضي الأمريكي بيير كرابت «الخديوي إسماعيل المفترى عليه»، ما يشي بالحقيقة التي تبرئ ساحة مصر من تهمة ممارسة الرق في السودان، حيث يؤكد بالوثائق الثبوتية أن تجارة الرقيق كانت وقفًا على الأجانب فحسب، وتحت حماية قناصل الدول الأوروبية وأمريكا المعتمدين في الخرطوم عهدئذ، وكانت البواخر النيلية التي تنقل العبيد من جنوب السودان ترفع أعلام تلك الدول وفي مقدمتهم العلم الأمريكي، بينما كان معظم المقاولين والوسطاء والجلابة من السودانيين وفي



كتاب الزاوية



فشل حملة هيكس

كان المهدى مع قدوم حملة هيكس للقضاء عليه قد حمَّس جنوده وأخبرهم أن النبى قد أوحى إليه أن عشرين ألفًا من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة. وفى أول نوفمبر برح الأبيض قاصدًا إلى بركة فانضمت قواته إلى جيش الأمراء الذى كان قد أرسله قبلاً وأخذ الجميع فى مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والإعياء قد فعلا فيهم فعلهما. وفى ٣ نوفمبر كان أبو أنجه والجهادية السود مختبئين فى غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش إلى الوقوف وإقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفًا ظاهرًا لا يُخطئه أى رام. فكان فى كل لحظة يقع جمل أو بغل أو إنسان قد أعياه السير. واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعانى الآلام من العطش ولا يستطيع السير إلى أى جهة.

وفى الليل زحف أبو أنجه ورجاله ثانيًا وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلَّفة من الناس والدواب وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين: «مصر فين يا ست زينب دلوقت وقتك»، أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذى كان يذهب فى الهواء.

وفى صباح اليوم التالى تقدم هكس وقد خلف وراءه أكوامًا من القتلى وبعض المدافع التى قُتل رجالها. ولكنه قبل أن يقطع ميلاً هجم عليه نحو مائة ألف من المتحمسين المتوحشين الذين خرقوا الجيش ودخلوا إلى القلب، وحدثت عندئذ مقتلة هائلة، وبعد خمسة عشر يومًا عاد المهدى إلى الأبيض ومعه الغنائم التى أودعها بيت المال.



إن وصم هذه العمليات بالرق
لا يستند إلى الحقيقة والواقع، لأن الهدف
من الاختطاف ليس الاسترقاق فى الغالب
ولا البيع والشراء، وإنما انتظارًا للربح
عبر الفدية التى يتكفل بها القادرون
من الشماليين أو الأجانب



مقدمتهم الزبير باشا، هذا فى الوقت الذى تغاضى فيه المؤرخون الأجانب عمدًا عن الدور الإنسانى والسياسى المشهود الذى لعبه الضباط والموظفون المصريون فى تنفيذ الأوامر المشددة الصادرة من الخديوى إسماعيل فى التصدى لتجارة الرقيق وحماية أبناء السودان من الاسترقاق ووقف مأساة انتزاع الأطفال من ذويهم وقطع دابر الأجانب وتاديب التجار والوسطاء المحليين، وفى وقت سابق لتحريم الرق دوليًا!

من هنا يجدر الحذر من الوقوع فى شراك الخطط المشبوهة والأساليب الملتوية والادعاءات الملتبسة التى تتهم السودان بممارسة الرق، غفلاً من الإدراك الواقعى المعايش لهذه الظاهرة ميدانيًا، وكيف عادت تطل برأسها من جديد بعد صدور الحكم بإعدامها فى السودان وكافة دول العالم نهاية القرن ١٩.



فالسودان الذى تبلغ مساحته مليون ميل مربع بما يوازى مساحة دول غرب أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط، ويضم مئات القبائل وعشرات القوميات والأعراق والثقافات والأديان واللغات والرطانات، إلا أنه كأمة وكيان سياسى متناسق ومتماسك لم يتخلق بعد، ولا تزال السلطة المركزية فى الخرطوم عاجزة عن بسط هيبتها ونفوذها على مختلف ربوع السودان، ولعله من هنا كانت نشأة وضرورات «الإدارة الأهلية»، كونها الوكيل عن السلطة المركزية بحكم شعبيتها ونفوذها القبلى أو الدينى أو السياسى فى العديد من المناطق النائية ومناطق أطراف السودان!

كانت للإدارة الأهلية محاكم وسجون وقوانين محلية موروثة وغير مكتوبة، وكانت لها سطوتها وكلمتها النافذة فى حل المشكلات، سواء بين الأفراد أو القبائل وفقًا لتقاليد «الأجاويد» التى كانت تغلب الحكمة والعدل والتسامح، وقد نجحت الإدارة الأهلية فى القيام بمهامها على خير وجه قرونًا بعيدة، حتى تبنى الرئيس نميرى دعوة اليسار السودانى لإلغائها بدعوى التحديث والتقدم حتى لو كان على حساب التطور الطبيعى.

من هنا فقد السودان واحدة من أهم آليات الإدارة والأمن والتحكيم، خاصة فى النزاعات المستحكمة فى مناطق التماس بين القبائل العربية والقبائل الزنجية، فهذه القبائل السودانية كانت حريصة على تمييز افرادها عبر ما يسمى «الشلوخ» اى تشريط الوجه أشكالاً معينة، ومثال ذلك حرف H الذى كانت تختص به قبيلة الشايقية وحرف T وكان وقفًا على قبائل دنقلة أو الدناقلة، وعلى غرارهم كانت القبائل الجنوبية الزنجية لديها ما يميز ملامح أفرادها عبر عمليات الكى والوخز بالإبر، بل إن هذا التمييز كان سائدًا حتى فى التعرف على ما لدى كل قبيلة من أبقار أو جمال أو أغنام.

وكأى مجتمع قبلى موغل فى التخلف كانت المعارك غالبًا ما تندلع بين هذه القبائل عندما تثور الخلافات حول تحديد زماماتها من الأراضى أو نصيبها من المياه، وربما بسبب اختلاط الماشية أو الادعاء بسرقتها، بينما كانت الأسلحة التى يشهرها كل طرف تجاه الطرف الآخر لا تتعدى السيوف والحراب، ولعل من قرأ كتاب الزعيم والمفكر السودانى الجنوبى فرنسيس دينق (Dynamics of Identification) «القوى المحركة للهوية» يدرك إلى أى مدى كان يعود الوئام والصفاء وروح التكامل فى أعقاب المعارك التى كانت تنشب آنذاك بين قبيلة «البقاره الحمر» العربية فى الشمال وقبيلة «الدينكا أنفوك» الزنجية فى جنوب السودان.



فى خضم تلك العلاقات والمنازعات بين القبائل فى مناطق التماس، كان الاختطاف المتبادل للأطفال والنساء جزءًا مكملاً لعمليات الغزو والانتقام أو الانتصار، كما كانت استعادتهم فى مقابل فدية من الماشية أو استبدالهم رهينة برهينة جزءًا مكملاً أيضًا لعملية المصالحة وفقًا لما يصدر عن الإدارة الأهلية فى الجانبين من أحكام بهذا الشان.

فلما اندلع التمرد الثانى لأبناء الجنوب عام ١٩٨٣ بزعامة العقيد جون جارنج، وقويت شوكة ميلشياته عددًا وعتادًا وتنظيمًا عبر الدعم الأفريقى والعربى والدولى، ونجاحه فى اختراق الصفوف والخطوط العسكرية للقوات الحكومية فى عهد نميرى، ثم تصاعدت قوة التمرد إلى حد الاستيلاء على المدن تباعًا فى عهد حكومات الصادق المهدى الائتلافية (٨٦ ـ ١٩٨٩)، بدأ فى استدراك الفراغ الذى تخلف عن إلغاء «الإدارة الأهلية» عبر تسليح القبائل من ميزانية الدولة لمواجهة زحف التمرد وقوته، ومن هنا تحديدًا تغيرت تقاليد المعارك وحسم النزاعات بين قبائل التماس، بالتزامن مع تصاعد موجة اختطاف الرهائن، وفيما غابت تقاليد الأجاويد برزت إلى السطح ظاهرة تحرير المختطفين




مشكلة الرق في السودان

مقابل فدية مالية ومن الإنصاف أن يوجه الاتهام إلى الغرب وأمريكا ومنظمات الإغاثة والتبشير وحقوق الإنسان الدولية بمسئوليتهم عن ابتداع هذا الأسلوب، ومن ثم تحولت عمليات الاختطاف تحت تهديد السلاح إلى لون من المغامرات التجارية وباب للإثراء غير المشروع!

ومن الإنصاف كذلك أن يقال إن وصم هذه العمليات بالرق لا يستند إلى الحقيقة والواقع، وذلك لأن الهدف من الاختطاف ليس الاسترقاق في الغالب ولا البيع والشراء في سوق النخاسة، وإنما انتظارًا للربح عبر الفدية التي يتكفل بها القادرون من الشماليين والأجانب بوجه خاص، بمعنى أن هذه الظاهرة لا علاقة لها بالدين ولا لدوافع عرقية أو عنصرية، أولاً لكونها مشتركة بين القبائل العربية الشمالية والقبائل الزنجية الجنوبية، في ضوء الاتهامات الدولية التي تلاحق جارنج حول اختطاف ميلشياته للأطفال الجنوبيين وتجنيدهم في صفوفها، أو اختطاف أطفال شماليين واستعادتهم بالتبادل مع أطفال جنوبيين رهائن لدى القبائل الشمالية!

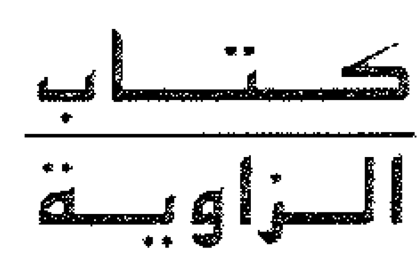
والأدهى والأمر أن وكالات الأنباء فاجأت الجميع بخبر وصول أول فوج من الفتية الجنوبيين إلى أمريكا منذ نحو عامين، حيث أعلن عن تعاون الحكومة الأمريكية بإعاشتهم وتعليمهم وتأهيلهم لتولي الوظائف، ولا أحد يعلم كيف وبأي أسلوب تم تجميع هؤلاء الصبية، وهل بموافقة ذويهم أم لا؟ ولماذا اقتصر الاختيار على الجنوبيين فحسب، إلا أن يكون الهدف رعاية نواة السلطة في الدولة الجنوبية الانفصالية المرتقبة!

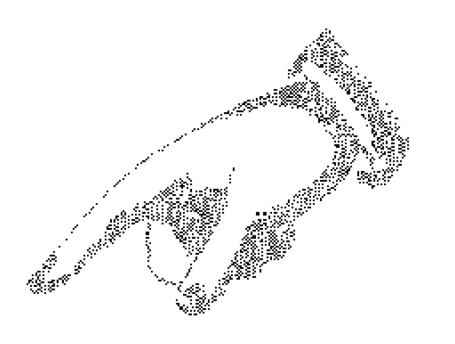
من جهتها لم تتوان الحكومة السودانية عن الرد على الافتراءات التي تتهمها بغض الطرف عن ظاهرة الرق، واتهمت البارونة كوكس باعتماد المعايير المزدوجة عبر التغاضي عن اختطاف ميلشيات جارنج للصبية والشباب ودفعهم إلى ميادين القتال، باعتبار أن هذا التعامل يخضع لمعيارها للرق، وقالت إن كوكس دأبت على الدخول بدون تصريح رسمي إلى المناطق التي يحتلها جارنج، وأنها لذلك تتبنى ادعاءاته الكاذبة على غرار اتهام السودان بصناعة أسلحة الدمار الشامل، وقصف أمريكا لمصنع أدوية الشفاء بالخرطوم لهذا الغرض، فيما روجت حكومة السودان للنقد العنيف الذي وجهه رئيس صندوق حماية الطفولة العالمي «يونسيف» كارول بيلامي إلى نشاط منظمة التضامن المسيحي في السودان عبر مقولته الشهيرة «عندما تدفع ٥٠ دولارًا على الرأس في بلد يعيش غالبية الناس فيه على أقل من دولار في اليوم، فإن هذا يشجع على تفاقم هذا النشاط الإجرامي، بينما قال جيمس جاكوسن الذي عمل فترة في مهام خاصة بمنظمة التضامن المسيحي في السودان، إنه وجد خلال رحلة قام بها في السودان عام ١٩٩٩ أن أطفالاً وفتية جنوبيين كانوا يدعون خضوعهم للاسترقاق حتى يجتذبوا الدولارات الغربية حسبما نشرته صحيفة «الحياة» اللندنية يوم ٩ سبتمبر ١٩٩٩!!

وقد طعنت حكومة الجبهة الإسلامية في صحة ومصداقية الصور الفوتوغرافية والأفلام التسجيلية حول عمليات أسر الرهائن ومشاهد تسليم الفدية للمختطفين، بدعوى التزوير والتلفيق، استخفافًا بالرأي العام العالمي أو لتحقيق انتصارات صحفية مزيفة.

والحقيقة التي لا خلاف حولها أن أبناء الجنوب عانوا ومازالوا يعانون وطأة المظالم التاريخية والحرب الأهلية وفداحاتها غير الجوع والمرض والقسمة غير العادلة للثروة والسلطة.. ما في ذلك شك، لكن النظام الحاكم في الخرطوم رغم كل سوءاته وكم وألوان المصائب التي يعاني السودان من ويلاتها، ليس المسئول الأول عما يثار حول قضية الرق، فهو قد ورث تلك المتناقضات عن الأوضاع السابقة.. وصحيح أن نحو ثلاثة ملايين فروا من الجنوب، لكن معظمهم لم يلجأ إلى أي من دول الجوار وفضلوا النزوح إلى الشمال والعيش في أمان ووفاق مع إخوانهم الشماليين من العرب والمسلمين.

استكمالاً لبانوراما المأساة، يبدو قصور حكومة الجبهة الإسلامية إما عن عمد أو جهل بمخاطر اختيار موقع الدفاع عن نفسها عبر أفكار مسئوليتها حول ما يثار عن الرق، بينما المطلوب دون تراخٍ أن تبادر إلى التعامل مع المشكلة بجدية ومسئولية، عن طريق سد المنافذ والثغرات الخاصة باستغلال ظروف الحرب الأهلية في تسخير الأطفال والنساء للعمل قسرًا، وتشديد العقوبات حول شبهات الاسترقاق إلى الإعدام شنقًا وعلنًا في مواقع الجريمة على حد دعوة البعض من القانونيين في السودان. وكذلك فإن المطلوب من «التجمع الوطني الديمقراطي» الذي يضم فصائل المعارضة في شمال وجنوب السودان الامتناع فورًا عن استغلال قضية الرق في الهجوم على الجبهة الإسلامية. إذ أنه برغم أن زعامات التجمع تمثل قمة الثقافة والاستنارة في السودان وهم على علم تام بأبعاد وتعقيدات القضية، إلا أنهم على ما يبدو يقللون من شأن استغلالها من قبل أمريكا والغرب وإسرائيل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الزراية بالعرب وبالإسلام والمسلمين وتوسيع شقة الخلاف بين الشمال والجنوب! ■





سقوط الخرطوم

وفي الليلة المشئومة ليلة ٢٥ يناير علم جوردون بأن المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر. ولعله كان يشك في صدق نيتهم في الهجوم في بكور اليوم التالي، وفي الوقت الذي عبر فيه المهدي إلى الضفة الشرقية. كان جوردون قد أمر بإطلاق بعض الأسهم النارية في الفضاء وكانت ألوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف في الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع.

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الأبيض تصايحوا وهم يعدون في المدينة «للسراية. للكنيسة» لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيجدون هناك الأموال المدخرة، ولما دخلوا السراي وجدوا الخدم في قبو السراي فقتلوهم في الحال، وكان جوردون واقفًا على السلم المؤدي إلى غرفة الجلوس فقال لهم عندما رآهم: «أين مولاكم المهدي؟». ولكنهم لم يكترثوا لهذا السؤال وتقدم أولهم وطعن جوردون بحربته فوقع على وجهه دون أن ينطق بكلمة. فأخذ القتلة يجرونه على السلالم إلى باب السراي، وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي في أم درمان. أما الجسم فقد تُرك لرحمة المتعصبين.

ولما أحضر رأس جوردون للمهدي قال أنه كان يود أن يحضر إليه جوردون حيًا لأنه كان ينوي أن يُدخله في الإسلام ثم يقايض به الحكومة الإنجليزية على عرابي باشا لأنه كان يأمل أن يساعده عرابي في فتح مصر. واعتقادي أن المهدي كان ينافق في تأسفه هذا على قتل جوردون لأنه لو كان يرغب حقيقة في الإبقاء على حياته لما خالف أمره أحد.

القاهرة.. نداهة اليتيم

وحفيف العذارى الخالدات



خيـــري منصـــور

كانوا في قريتي (دير الغصون) يسألونني كل صيف في أية جامعة أدرس، فأجيب إنني أدرس في جامعة اسمها مصر، أتعلم من سائق السيارة وجرسون المقهى، وسمسار البيوت، والجارة العجوز الطيبة كما أتعلم من أساتذتي وهم من أبرز الأكاديميين في الستينيات



■ ■ هكذا تولد الحكاية، سواء تخثّرت عند فاصل زمني وانكفأت على أرجاع وتداعيات تغذّيها نوستالجيا مزمنة، أو اندفعت إلى الأقاصي لتستكمل أقانيم الرواية.

على الرصيف المقابل لسينما ريفولي، قرب دار القضاء العالي، حيث يرشح زمن ولّى تاركا الظلال والأصداء من المباني التي علت التجاعيد واجهاتها وبدت درداء لكنها لم تفقد سحرها، أغمضت عيني في مساء يوم الجمعة من أكتوبر ٢٠٠٢ لأستذكر الغارة الوهمية التجريبية التي حوّلت القاهرة إلى ظلام مفعم بالصخب عام ١٩٦٧، قبيل حرب حزيران، لم يكن تيار الكهرباء قد انقطع في هذا المساء التجريبي الذي أجريته لحساب أنانية خاصة بل الذي انقطع هو تيار آخر، أسمعه أحيانًا وأوشك أن أستدل عليه، لكن يدًا مجهولة الكتف الذي تنبع منه تعيدني إلى حيث أقف، وأراوح، وأتهجى بين المارة ذلك الرفيق الذي كان توأمي.

والكتابة عن القاهرة، كي لا تتورط بمزالق استشراقية، يجب أن تكون منها لا عنها، وفيها لا حولها، قد لا أضطر لبذل جهد كبير كي أفي بهذا الشرط، الذي قد يكون باهظًا على من كان عصيًا على الهضم، وأصاب مدينة عملاقة بالغثيان، ولفرط تعلّقي بالقاهرة التي تفتّحت فيها على الأسئلة كلها، وفي مقدّمتها سؤال الحرية والكتابة، قرأت عشرات الكتب عنها فلم أجد ضالتي، وأذكر أن واحدًا من أبرز المعاصرين الذين كتبوا عن مصر والمصريين هو (فاسلييف) الروسي، الذي كان سفيرا في مصر أيام الراحل عبد الناصر، التقيت الرجل في معهد أفريقيا الذي كان يرأسه في موسكو عام ١٩٨٩ وتحدّثنا طويلا عن مصر السياسة والسياحة، أو مصر القديمة والحديثة، كانت لهجته مصرية ككل الأجانب الذين عاشوا في مصر، وقال لي أن ما كتبه في مجلّده عن مصر والمصريين يحتاج إلى إعادة نظر، فمصر كلما ابتعد المرء عنها ازداد شوقًا إليها وبالتالي معرفة بها، وهذا ما سمعته من فتاة صينية تعلّمت في مصر وعادت إلى بلادها، التقيتها في بكين عام ١٩٩٥ أثناء انعقاد مؤتمر المرأة العالمي وكانت لهجتها مصرية، لكن مشوبة بلكنة يستطيع المرء من خلالها أن يحزر بأنها آسيوية إن لم يحزر بأنها صينية.

في الستينيات القاهرية، كان الزمن عربيًا بامتياز، على الأقل بالنسبة لجيلنا، الذي كانت جموع غفيرة منه تتجمع في نادي الوافدين ومكتب القبول في الجامعات، ليعاد ضخ هذه الطاقات الشابّة في شرايين تصب في جامعات مصر، بدءًا من العاصمة إلى أقاصي الصعيد، وأسوأ ما تعرّض له هذا العقد الفريد «الستينيات»، من قراءات بأثر رجعي هو تلك القراءة بعين واحدة، التي حاولت إعادة إنتاجه كي يلبي الإسقاطات السياسية التي طرأت بعده.

طلاب فلسطينيون وأردنيون وسوريون وسودانيون ويمنيون وكويتيون، يتحلقون حول موائد في جروبي أو الأمريكين، ويقرأون بصراحة لهيكل، ويناقشون شجون أقطارهم، يعدون أنفسهم بأدوار قادمة.

كان نجيب محفوظ قد طاف بنا أزقة القاهرة، مثلما مضى بنا عبر القطار إلى إسكندريته التي لاذ بها عيسى الدبّاغ في السمّان والخريف فرارًا من السياسة، وتعلمنا منه أن الخير والشّر يمكن لهما أن يتزوّجا في كيان آدمي واحد، لكن لينجبا بشرًا يتمتّعون ببعد ثالث، خارج المدار المكرّس لثنائية الأبيض الذي كله بياض والأسود الذي كله سواد أيضًا.

ركبت القطار مع صابر الرحيمي بحثًا عن أبي في شوارع القاهرة وفي أكواخ الصيادين وقصور الأثرياء، وحين طلب مني الشتاء الماضي ٢٠٠١ أن أكون ضيف برنامج تلفزيوني للحديث عن واحدة من أهم روايات القرن العشرين، اخترت « ميرامار » وتحدّثت كنزيل سابع في البنسيون لاكقاريّ، فهذا المكان ـالزمان، تلخّصت فيه أشجان جيلي، حين كان الصراع على أشدّه بين طهرانية ثورية هي وحدها ما يحقق العودة إلى الفردوس المفقود (بلادى) حتى الغرباء الذين حلّوا في المكان، اندمجوا فيه رغم النبرة الاستشراقية التي صاحبت سردهم للمشاهد المصرية.

أذكر أن لورنس داريل اقتادني عبر الجزء الأول من رباعيته إلى فندق سيسل في الإسكندرية، وشاهدت قامتي في المرآة المغبرّة التي كانت جوستين تصغي عبر انعكاساتها إلى الصمت العميق المنبعث من لعبة شطرنج في صالة الفندق.

ولم أقاوم إغواءات اليوناني« كفافي»، الذي كان يوقد شمعة لضيفه ثم ينفخ عليها ليطفئها عندما تأزف لحظة العزلة، وتنتهي زيارة الضيف، نكهة الكابوتشينو المائلة إلى المرارة اللذيذة في كافتيريا أوستريا بمحطّة الرمل، وانعكاسات الأضواء على الشاطيء، والحفيف الليلي لكائنات عاشت نصف الأسطورة ونصف التاريخ.

بعشرين قرشًا فقط قرأت عام ١٩٦٤ بضعة كتب لسارتر وكامو وبوفوار، حين كان سور الأزبكية يعج بالكتب والمجلات القديمة، وفي تلك الأيام كان السجال في ذروته بين الوجودي والماركسي، وبين القومي والأممي، أذكر مثلا مساجلات محمود أمين العالم والحفني، وما كانت تنشره مجلة الآداب البيروتية من معارك بين الراديكاليين من مختلف الهموم والجنسيات العربية.

ما من مدينة دافعت عن نفسها كالقاهرة، فهي ليست فقط ذات الألف مئذنة، إنها أيضا ذات الألف رأس ورأس، فما من حجر لا يشي بقرون خلت، وبكل ما مهره من أزمنة غربت شموسها، لكن أقمارها تغمر السماء.

في شقة صغيرة بضاحية الجيزة، على بعد ساندويتش فقط من مطعم المانش الصغير وعلى بعد قميص من القطن المصري الخالص في محلات عمر أفندي، كان الطالب ابن الحادية والعشرين يجلس على كرسي مقلوب، ويغسل المارة والأرصفة بعينين مفعمتين بالفضول، وكان أحيانا يستشعر الأسى كما لو أن كل نظرة هي وداع، ما دامت سنوات الدراسة قد أوشكت على النهاية.

كانوا في قريتي (دير الغصون) يسألونني كل صيف في أية جامعة أدرس، فأجيب إنني أدرس في جامعة اسمها مصر، أتعلم من سائق السيارة وجرسون المقهي، وسمسار البيوت، والجارة العجوز الطيبة كما أتعلم من أساتذتي وهم من أبرز الأكاديميين في الستينيات.

هناك، على الشاطئ فيما كنت أصغي إلى حفيف العذارى الخالدات، عمّاتنا ، أشجار النخيل التي لا تنحني حتى للعواصف.

سماء فاض باتجاهها توتر الماء واليابسة ومساءات مضمّخة بصدى «كلثومي» لا يغادر الذاكرة.

ليلة استقال عبد الناصر، في تلك الشقّة بالجيزة. كان الغروب في أوله ، والقاهرة تغرق في غسق حذر، قال لي د.مصطفى ابن خالي أن عبد الناصر قد يستقيل، غضبت، وصرخنا في وجهه، لكن عبد الناصر استقال بالفعل، وشاهدت الجموع الغفيرة وهي تعدو كالملدوغين في شوارع القاهرة، وتحت ظلام أتاح للأشباح في الذاكرة أن تعدو أيضًا نحو مكان ما.

فقدت صوتي في تلك الليلة، وحذائي أيضا، وفي اليوم التالي قالت لي صديقتي الراديكالية اليافعة إنني كنت مجنونًا، فلا يحق لي أن أهتف لمن تخلّى عني بالعودة، لكنها أخبرتني بعد ثلاث سنوات، وفي أواخر أيلول عربي ذيله مبلول بالدم، إنها فقدت صوتها في جنازة عبد الناصر. وكلّما عدت إلى القاهرة، على ندرة ما عدت بعد عام ١٩٦٧، فإنني أتأكّد بأن الراحل فاض عن ساحة قبره، فهو مبثوث في أمكنة وذاكرات لا سبيل إلى حذفها.


في آخر عودة، كي لا أقول آخر زيارة إلى القاهرة، دلّني طلعت حرب كما قلت إلى مقهى ريش، فالحديقة الرصيفية الصغرى اختفت، والواجهة تغيّرت، وكذلك رائحة الشارع العريق الذي لم يسلم من منجزات إمبراطورية الهامبورجر.

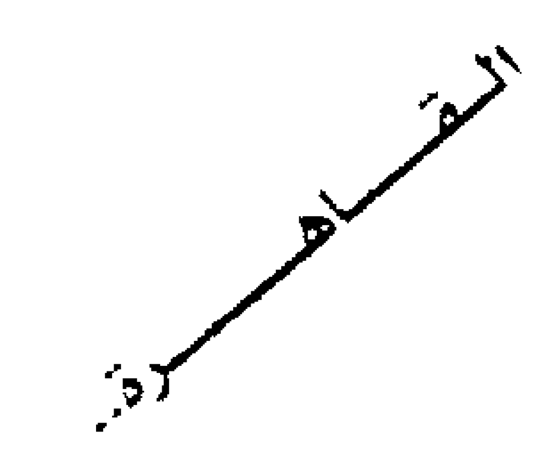
العم فلفل ابن السبعين الذي قدّم لمحفوظ ومئات المبدعين المصريين والعرب القهوة، لم يتغيّر إلا قليلاً طوال خمسة وثلاثين عامًا، والزبائن الذين رحلوا، لم يرحلوا تمامًا، فصورهم على الجدران، وعيونهم بها قليل من العتاب وكثير من الإشفاق.

فنانون وروائيون ورسامون وشعراء وصحفيون طالما اشتبكوا ببراءة وفضّت القهوة نزاعاتهم، ستة من هؤلاء المعلمين الراحلين على الأقل عرفتهم وصاحبتهم، وأكثرهم عتابًا عبد الوهاب البياتي الذي عاش ثلاثة أرباع العمر في المقاهي ريش ولاباس في القاهرة، والفينيق في عمان وهافانا في دمشق والإكسبرس والمودكا في بيروت إضافة إلى مقاهي مدريد وموسكو وباريس، نسيت للحظة أنه ميت، فقلت لمجدى عبد الملك صاحب المقهى إنني سأخبره فور عودتي إلى عمان أن صورته قد علّقت في مقهى ريش، ثم تذكّرت أنه مات، لكن مجدى قال بجدية ساخرة أو سخرية مرّة: حاول!!!

تلك المدينة.... ذلك العقد

إن الكتابة عن القاهرة خصوصًا في ستينياتها البهية والشقية في آن، محفوفة بمخاطر عديدة، فالفلسطيني في مصر ليس مستشرقًا، وليس حتى زائرا أو سائحا، إنه في الصميم من أشواق مبثوثة في أضرحة ومساجد ورؤى ونصوص ودماء وماء وهواء، كانت كل نسمة تهب من النيل الذي يجرى شرقا تعد بنيلوب بعودة عوليس، وكانت أغنية حليمية واحدة تدير المفتاح في باب الدار والقلب معًا، فالطالب الذي كان حائرًا بين الجامعة والشارع وبين كتاب المعلّقات السبع


2003



وكتاب ثورة يوليو١٩٦٨، لم يكن قد انتهى إلى قرار، وجاءت صاعقة حزيران لتودى بكل من لا يملك المصدات التاريخية لمثيلاتها.



عندما غنّى عبد الحليم حافظ: ابنك يقول لك يا بطل هات لى نهار، لم أكن متزوجًا، والآن أسمعها من جهاز التسجيل مع ولدَىّ، وأبحث في عيونهما عن السؤال الدامي: أين هو النهار؟

الأمكنة ذاتها حتى لو نبت العشب في صدوع الجدران، وأصبحت الأبواب طاعنة ولها صرير يشبه السّعال، لكن الزمن ليس مجرّد أوراق منتزعة من تقاويم لاآخر لها، قد يتحوّل إلى نسيج عنكبوتي في سقف قلعة او معبد او حتى عمارة شبه مهجورة، وأحيانًا تتكثف الاعوام الغابرة في غيمة داكنة صغيرة تجوب سماء المدينة، ما من مرة أزور فيها القاهرة بحثًا عن قاهرتي فيها إلا ويشتبك المكان والزمان فاقيس الشوارع بدقّات الساعة لا بالأمتار، وأقيس عمر المقهى الذى تفتّحت فيه على سؤال الحرية والمعنى والزمن بعدد فناجين القهوة التى كسرت طوال ثلاثين عامًا، ما اقسى أن تذهب إلى بيت اقمت فيه وحلمت بين جدرانه، وضربت المواعيد فيه مع ذاتك في اقاصى الشوق، ثم تجده مطعمًا، أو حانوتًا يكتظ بناس ولدوا بعد رحيلك، لكنك تتعرّف عليهم واحدًا واحدًا من خلال الشّبه المزمن بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم الذين قاسموك القشعريرة لحظة الانتشاء بانتصار صغير، ثم قاسموك اصعب وأقسى أسبوع في التاريخ، أسبوع حزيران الذى مضى ولم يمض، وكان ما تبقّى من العمر اليوم السابع فى حرب سداسية.

هناك، قبالة الباب الخلفى للجامعة الأمريكية في ساحة التحرير، كان مقهى أسترا مغناطيس الغرباء والعشّاق والصحفيين الذين يلتقطون أنفاسهم ساعة أو بعض ساعة بالقرب من جريدة أخبار اليوم.

فجأة، توقّف الزمن عند تلك اللحظة، مشهد من فيلم الطريق رواية نجيب محفوظ عن سعيد مهران أو سفّاح القاهرة، رشدى اباظة وسعاد حسني يقتسمان مائدة والناس يحتشدون على المدخل، والكاميرا تشق الطريق بصعوبة، فيما المخرج يرجو الناس أن يتراجعوا قليلا.

مات بطل الفيلم، وانتحرت أو قتلت البطلة، أما أسترا فقد تحوّل إلى« هارديز» ونجيب محفوظ حىّ وشاهد بعد أن أوشك أن يكون الشهيد فى صومعة لايؤمها غير الحواريين؟

كنّا عند مدخل أسترا أو « هارديز » اثنين، أنا والطالب الذى كنته ذات زمن معشب شديد الاخضرار، يكاد السّواد أن ينبثق من اخضراره.

أينا سيكون دليل الآخر فى مدينة تضاعف عدد سكانها خلال ثلاثين عاما؟ وأينا سيقود الآخر إلى أطلال الصّبا؟ للحظة كنت الكسيح الذى يبحث عن أعمى يقايضه كي يصل الاثنان إلى المنابع.

للسمّان ربيعه أيضا

خريف قاهرى دافىء، ومؤتمرات تعقدها العصافير على اشجار باسقة على الشاطئ، ومصاطب أسمنتية يتقاسمها فتيان وفتيات، يتأبّطون كتبًا وأحلامًا وقلّما ينظرون إلى الأسفل لأن السّماء شديدة الجاذبية، حتى عندما تكون مغطاة بالشبّورة التى تحجب الرؤية.

لا شيء يتحدّى الوقت كالتماثيل ، ليس لأنها من حجر أو فولاذ، بل لأن الذين يقيمون في المعدن أناس خالدون في الذاكرة الوطنية لا السياحية.

طلعت حرب، هو الذى دلّنى إلى مقهى ريش، مصطفى كامل هو الذى أمسك بيدى ودلّنى على ميدان الأوبرا، والأسدان الصامتان على الكوبرى القديم ، كدت أسمع زئيرهما وأنا أبطىء السير على الكورنيش.

منازل الذاكرة هى منازل الأسى بلا منازع سواء كانت تطل بما تبقى من رؤوسها على شرفة عباس العقّاد في شارع سليم الأول، أو في حديقة كرمة بن هانىء منزل أحمد شوقى الذى أورث القاهرة بيتا هو أمير البيوت أيضًا.

أتحسس كالأعمى بصمات أصابعى على مقعد هرم فى مقهى اكسيلسيور، وأحدّق إلى الشارع من النافذة، سينما ميامى، ومخزن البن البرازيلي، وشيكوريل العريق ذو الواجهة الزجاجية العملاقة،

وعندما دخل إلى محل لبيع الأحذية اسمه «زلط » يحفظه عن ظهر قدم كل من عاشوا فى تلك القاهرة، حاولت أن أشترى منه حذاء لكننى لم أجد قدمىّ، ولم يكن يخطر ببالى أننى فقدتهما فى مكان ما، فلم أعد حتى بخفىّ حنين.

فى مقهى الفيشاوى، فى حى الحسين، روائح قادمة من جنة نائية، زحام غير عسير على المارّة، وضجيج غير مبهم على الإطلاق، كان رسّام الكاريكاتير عصام حنفى يقف بجوارى عندما أمسكت المرآة القديمة العملاقة على باب المقهى، تحسست نقوش الخشب وقلت: لم يتغيّر شيء إلا أنا، أى صورتى فى تلك المرآة، وأعادت رائحة النعناع إلى ذاكرتى كل صورة محفورة بعمق من رواية الصديق الراحل غالب هلسا ، كان عنوانها هو « الضحك » لكنها وليمة من البكاء.

مساءات مطرّزة بحرير أبدى

رائحة النعناع والقرفة، والزيت الذى تفرقع فقاقيعه الذهبية حول الحمام المذبوح وما يرشح من جدران البيوت والمسجد والمقهى وأجساد الناس، كل هذه عوامل تشبه كعكة مارسيل بروست التى فجّرت فى ذاكرة الروائى الفرنسي زمنًا ضائعًا، فعادت الجدّة الميتة منذ عشرين عامًا تسرّح شعرها الفضى فى المدخل أمام المرآة وعادت الصبايا كحديقة من ضوء فى النهّار. ولا أدرى من أين تسرّبت إلىّ تلك العادة التى لم أفلح فى الإقلاع عنها رغم أنها أكثر ضررًا من التدخين، وهى إدمان البحث عن اليافطات وأسماء المحلات القديمة التى علاها وتراكم عليها الصدأ، إنها تخفف من وحشتى، بل تؤنسني، وأحس بأننى لم أتغيّر وأن الزمن لم يتبدّل رغم كل ما يعجّ به المشهد من قرائن التغيير، لم أشأ أن أطرق تلك الأبواب لأسأل عن أصدقاء الصبا وزملاء الجامعة، كى أحافظ على اخضرارهم فى الذاكرة.

بيوت تحوّلت إلى أطلال، وأبراج نهضت قربها أو على أنقاضها، وثمة جدران تقاوم، سواء كانت لمساجد أو لكنائس أو للمقاهى التى يجرى تجديد شبابها عبر جراحات عمرانية لا تخفى التجاعيد.

وثمة مدن لا يمكن لمن تفتح له أحضانها أن يكون مجرّد سائح فيها، إنه جزء من صميم النسيج البشرى والارضى فى أزقّتها، وجامعاتها وفنادقها ومقاهيها.

شكرا للأمير الذى ترك للمدينة أمير البيوت فدلّنى على صباى، شكرًا لأحمد شوقى وشكرًا لأسدين لم تنل عوامل التعرية التاريخية منهما، وشكرا لطلعت حرب الذى أمسك بيدى عندما أصابنى الدوار ودلّنى على مقهى ريش ، وشكرًا لمدينة ، لولاها لما كنت قادرًا على صياغة ذكرياتى عنها، لأنها باختصار علّمتنى، وأنا الفتى الذى قدم إليها فى ستينيات القرن الغابر من قرية لا كهرباء فيها ولا جريدة، ولا تمثال يدل الغريب على داره.

مفاتيح سحرية لليل

المقاهى هى بوابات المدن، بل المفاتيح السحرية، خصوصًا عندما تكون عريقة، وتنعقد فى فضاءاتها سحابات شجيّة من زفير من رحلوا ولم يرحلوا.

باليما فى الرباط المغربية قبالة البرلمان، الاكسبرس والكافى دى بارى والدولتشى فيتا فى بيروت، وريش واكسيلسيوروالأمريكين فى القاهرة، والكافيه دى فلور فى باريس، والمرابط فى تونس، والبرازيلية فى بغداد، كانت رائحة التبغ الذى دخّنه سارتر لعقود لم تزل فى المكان، وكذلك السلّم المستدير الصاعد إلى الطابق الثاني، هناك تلقّى سارتر نبأ فوزه بجائزة نوبل، وهناك أيضا اعتذر عنها بعد أن اشعل سيجارة جيتان وطلب ساندويتش جبنة.

فى مقهى المرابط فى تونس، تساقط الياسمين فى أكواب الشاى، حيث يتنقّع اللوز والنعناع، ويتضمّخ المكان بشذى قادم من الأندلس، عندما اقتسمنا ادونيس وعبد اللطيف اللعبى وأنا مائدة فى المقهى تحت مظلّة من الياسمين، لم يكن شاتوبريان الفرنسى بعيدًا وهو يتفحّص إناء مرمريًا على الضريح.

وفى باليما الذى تغمر باحته الواسعة أوراق الكالبتوس، ويعج بالزّبائن طلابًا وعمالاً وعلى سفر، حيث لا تبعد عنه محطة القطار سوى مسافة قصيرة، كان يمكن للغريب أن يجد ضالّته فى عينين سوداوين، أو وشم أخضر على ذراع فتًى.

وفى الإكسبريس الذى لحق بستراند وضاع فى حمّى الهامبورجر والشاورما، كانت تحاك مؤامرات وتصاغ المسوّدات الأولى لانقلابات عسكرية فى عواصم عربية، أما الهورس شو فلم يعد له معنى بعد انفجار غسّان كنفانى، إذ تحوّل هو الآخر إلى ساندويتش بسعة مقهى.

لكن الأمريكين واكسيلسيور وريش وجروبى، علامات فارقة فى سرّة القاهرة، شممت رائحة النفتالين فى حمامات جروبى، وشاهدت المارة من زجاج الامريكين وكأنهم مكثوا خمسة وثلاثين عامًا بانتظار مساء واحد يخص الجميع.

حضن بسعة مدينة

القاهرة ، كبسولة الزمان وكيمياء العناصر التى ذوّبها عشق آسر فى إناء فخارى، ترشح مساماته روائح قادمة من بعيد، فهى من الأهرامات إلى قصر البارون مرورًا بالبوابات التى تفضى إلى جنة مفقودة، ومن عربة فرعونى مطعّمة إلى عربة مترو ، انتهاء بآخر موديل للسيارات الحديثة، بوتقة سحرية لصهر ما لا يصهر، فما أن يدلف الغريب إليها حتى يذوب، ويعاد إنتاجه، لأنها دينامية ماصّة لا طاردة حتى فى زمن بدت فيه وقد أصاب معدتها الإعياء.

قال لى صديقى الراحل غالب هلسا الذى عاش ربع قرن ، إنها النداهة الابدية لمن فتحت له الباب، كان لعدة سنوات فى بغداد وبيروت ودمشق يصحو على فجر قاهرى يفتش عنه خارج السرير فلا يلقاه،

ومرّة قال لى: عثرت على تعريف دقيق للمنفى، إنه الإقامة خارج مصر.

وعندما زرت مقهى ريش ورأيت الزبائن من ابرز الفنانين والمبدعين والراحلين يقتسمون الجدران لم أجد غالب بينهم، وطلبت من صاحب المقهى ان يباعد قليلاً بين عباس الأسوانى ويحيى الطاهر عبد الله، ليستضيف غالب الذى فاضت مصر من قلبه على لسانه وبقى يتحدّث باللهجة المصرية حتى الموت. ووعدنى صاحب المقهى بذلك.

لكل مدينة فى العالم رحيق خاص بها، يهتدى إليه النحل المغامر، ليظفر بمؤونة الشتاء



عندما غنى عبد الحليم حافظ:
ابنك يقول لك يا بطل هات لى نهار،
لم أكن متزوجًا، والآن أسمعها من جهاز
التسجيل مع ولدىّ، وأبحث فى عيونهما
عن السؤال الدامى:
أين هو النهار؟





من الشهد، ولكل مدينة « صبي » ليلي يتشكّل من خلاصة أنفاسها وروحها، كانت كاتبة سويدية قد اعتصرت مدينة «فير» وأصغت إلى صبي أسرارها يعزف عند مدخلها بعد أن ينام الجميع، فمن هو صبي القاهرة وعازفها الليلي؟

هي مدينة بخلاف فير الأسطورية، قلّما تغفو، وقلّما تهجع، فالليل موصول بالنهار، ولليل ظهيرته أيضًا فيها، عليك أن تبتعد عنها كي تراها، كاللوحة على جدار، ما أن يتفلطح أنفك على بقعة لونية منها حتى تختفي.

محظوظ من ولد فيها، وقد يكون أيضا محظوظًا من نام فيها إلى الأبد، لأن ثمة من يسامره ويخفف من وحشته، فالمدن العريقة يتحوّل الموت فيها إلى وعكة، لأن الكائن جزء حميم من دورتها الأبدية.

هل يمكن لقارئ هذه الأرجاع أن يختزلها في عبارة واحدة؟ كأن يسميها مديح مدينة، أو نوستالجيا شخصية أعادت إنتاج المكان وفق الرغائب والإسقاطات؟

من يشاء ذلك، فله الحق، لكن النازع الفعلي لهذه الكتابة كما أستشعر الآن في الأقل هو إعادة اكتشاف القاهرة بعد تجريب عشرات العواصم، فهي تزدهر في المفاضلة، ولمائها إصابة في صميم الروح وسويداء الحلق الناشف، فالظمأ قدر من غادرها ولم يجد غير السراب....

القاهرة - القدس
أقصر الطرق وأطولها

طوال السنوات الخمس التي عشتها في القاهرة، كان الطريق الجوى بين مطار القاهرة ومطار قلنديا قرب القدس هو المشوار الفضّي الذي جعلني أتعلّق زمنا بالطائرة، فالورق الملوّن الذي أطلقته في الطفولة شأن أبناء جيلي في سماء صيفية صافية، لم أكن أحلم بأن يتحوّل وأنا في السابعة عشرة من العمر إلى طائرة دي.سي.سكس، ذات المراوح الأربع، الأثاث المتقشف قياسا إلى أثاث طائرات اليوم.

المرّة الوحيدة التي هبطت فيها الطائرة خارج مدرج قلنديا ومدارج فلسكين كلّها كانت في الثاني من آب ١٩٦٧، هبطت في مطار عمان.

أكثر ما أخشاه عندما أنقطع لسبب طارئ عن الكتابة في سياق واحد، وتحت مظلّة واحدة، هو فقدان الإيقاع والبحث العسير عن طرف الخيط الحريري في الكبّة التي عبثت بها قطّة الزمن.

أما المفارقة، فهي في هذا الإيقاع المحموم الذي تزامن مع طائرة دي.سي.سكس في الستينيات من القرن الماضي، وهذا الإيقاع التاملي البطيء فور الهبوط من طائرة بوينج، لكأن الفتى هو ما يمهر المسافات بإيقاع خطاه، لا الطائرة ولا البعير ولا حتى الصاروخ إذا ما تحوّل في الخيال السياسي إلى وسيلة ركوب لا وسيلة إبادة.

عندما ينفتح باب الطائرة في أي مطار في العالم، يلتقط الأنف رائحة المدينة، قد تكون تبغًا مبثوثًا في الهواء كما يحدث للهابط في مطار مدريد، أو زهورا محترقة السيقان كما يحدث في باريس، أو رائحة بيضاء معقّمة كما يحدث في موسكو.

كانت الرائحة الأولى في مطار القاهرة، بعد ثلاث ساعات من التشبّث الطفولي بالمقعد، وقراءة آية الكرسي كما أوصتنا أمي في الرحلة الأولى، مزيجًا من النعناع والليمون والثوم، ولا أدري لماذا تفتّحت مسامات جلدي وأنا أتنشّق ذلك الهواء المشبع بالرطوبة.

فطفولتي بحرية بامتياز، رغم أن البحر الذي كانت أمواجه تلامس ظلّي كان ولا يزال محتلاً، كالهواء والتراب حيث لم يبق من شبه الجزيرة الأسطورية هذه غير النار، وهي حتما ليست بيد المحتل، لأن بروميثيوس لم يكن على الإطلاق مستوطنا في أثينا، كما أن سرقة النار لم تكن لتعذيب الأحرار.

في المرحلة الابتدائية كان درس الجغرافيا أثيرًا لمن لم يسافروا إلا على الورق، وكان معلّم الجغرافيا يأمرنا أن نسافر من يافا إلى الإسكندرية ونذكر أسماء المحطات والأمكنة التي نمر بها......



سافرنا في سفن الورق، وطائرات الورق، وقطارات ملفّقة من نشارة الخشب وبرادة الحديد، وكنّا نصفر نيابة عنها، كما كنا نصهل ونحن نمتطي أعواد القصب نيابة عن الخيول، في الطائرة، وعلى ارتفاع يثير الهلع، تذكّرت درس الجغرافيا والمعلّم وسفن الورق، وشدّني إلى الإسكندرية شيء آخر غير صيفها، وشواطئها وفيروز التي صدحت بها.

لم أكن قد اغتسلت بماء البحر المتوسط الذي تطرّف حتى حذفني إلى اليابسة، وفي الإسكندرية فعلتها، لكأن الموجة قادمة من هناك.

نوستالجيا الجبنة البيضاء

صديقي اللبناني زهير ماجد، زار القاهرة لأول مرة وهو تلميذ ضمن وفد طلابي استقبله الراحل جمال عبد الناصر، وأهدى الوفد صفائح من الجبنة المصرية، قال لي زهير إنه يحتفظ بها مغلقة حتى الآن، لفرط تعلّقه بتلك الأيام، وذلك الرجل وتلك المدينة..

أية نوستالجيا تلك التي تملّكت العربي كما لو أن اللحظة الطللية تهجع منذ ستة عشر قرنا في باطن القلب والذاكرة؟

ما فعله زهير، فعله صديقي العراقي « أبو نافع » الذي يحتفظ بحفنة تراب من قبر أخيه الشهيد في مقبرة جنين عام ١٩٤٨ في صرّة حريرية، مثلما احتفظ صائغ الفضة الصابئي أبو عارف بقميص الحرير الذي أهدته إياه وهو طفل نور الهدى عندما مرّت بحيفا مع محمد عبد الوهاب إلى لبنان، كان أبوه يعمل صائغ فضة هناك، وقدّم لعبدالوهاب ونور الهدى هدايا فضية نقش اسميهما عليها، ولدى العودة مرورًا بحيفا قدّما له تلك الهديّة التي بقيت في الصندوق حتى بلغ أبو عارف الخامسة والثمانين.

تماما كما أن الفلسطيني العجوز الطاعن في المنفى يحمل مفتاح بيته الأول وينتظر، وكما احتفظت أنا أيضا بخاتم أبي وحزامه الجلدي لعلّي أضمن الحظ لأبنائي.

نوستالجيا، أقسى من نعيق غراب ادجار آلن بو، الذي كان يردد في وحشة الليل على باب الشاعر (ما مضى لن يعود)...

وعندما دخل د. محمد شاهين الكاتب والأكاديمي الذي ناب عن إدوارد سعيد في استلام جائزة التكريم التي قدّمتها مؤسسة الفكر العربي لسعيد في القاهرة إلى مقهى ريش ووجدني مستغرقًا في استدراج الصّبي الذي كنته إلى المائدة، قال:

- سأدعك مع نوستالجياك، ولن أفسدها.....

هل كان هذا التعلّق الطللي بالماضي مرضًا تفاقم في حاضر بارد، مفرغ من دفء الصداقة والحياة برمّتها.. ربما.



ففي كل مدينة عدت إليها بعد زمن، كنت أشبه بالآركيولوجست الذي يتفحّص حجارة الرصيف، وخشب الزوايا، والصور الشاحبة المعلّقة على الجدران، لكن القاهرة، قاهرة بالفعل، لأنها عصية على التحوّل إلى أطلال، آخر وجبة لمن ناموا في الأهرام، لم تفسد بعد، وكأن القمح والشّهد من محاصيل الأبدية، وحتى لو باضت الحمائم والسمّان في أذن رمسيس الثاني أو طلعت حرب، فإن العافية تندلع في التماثيل قبيل الفجر، وقد يمشيان معا بضع دقائق على الكورنيش، ثم يعود كل منهما إلى قاعدته الخالدة..

أذكر أنني كنت أشم رائحة جواز سفري القديم والأول، مثلما أشم رائحة حزام أبي وصفحات ديوان شعر وجدته ملقى كطائر ميت على سطح بيت الجيران...

أين ذهب هؤلاء؟ شوقي ومحمد وأشجان ومهجة ومديحة.....؟ وعم أمين ماسح الأحذية والهموم في كافتيريا كليّة دار العلوم؟

لم أطرق باب أحد منهم، كي لا يقال لي أنه مات أو هاجر، أردت الاحتفاظ بهم بكامل الصّبا والعافية في الذاكرة، ولم يسعفني أحد مثل فرجينيا وولف، المرأة الملدوغة حتى القتل بالزمن، والنوستالجيا، فقد شاهدت وهي طفلة من نافذة قطار امرأة تنشر الغسيل على شرفة، وبقيت تلك المرأة إلى الأبد تنشر الغسيل، وقد بقي مبلولا أيضا لأن اللحظة تخثّرت، والزمن توقّف عن الجريان.

في ظهيرة ربيعية مضاءة بشذى الليمون، وفي شارع فوزي المطيعي بمصر الجديدة، كانت نبيهة عبد الغفار(طنط) في تلك الأيام تروى لي حكايات لم أعثر عليها في كتاب عن مصر الأربعينيات وعن عباس العقاد، ومديحة يسري، ولعام كامل كانت طنط نبيهة الجبرتي المؤنث الذي يضيء لي أزقة تاريخ غمرها النسيان..كانت تطلب مني أن أعد القهوة بطريقة كانت تسميها شاميّة، وذات مرّة كان يزورها الأميرالاي المتقاعد أحمد الشاهد شقيق صلاح الشاهد الذي كان كبير الأمناء في رئاسة الجمهورية، وأعددت القهوة لكنني نسيتها قليلاً حتى غلت، واختفت الرغوة، ضحك الضيف ذو الشعر الأبيض والعينين الحادّتين، وقال لي:

- هل شربت (وجه القهوة)؟

كان أول عهد لي بما يسمى «الروب دي شامبر» مع طنط نبيهة، اشترته لي من محلات شيكوريل، وطلبت مني مرافقتها إلى سيدنا الحسين لأنها تشتهي « لحم الرأس»، وكنّا، هي ابنة السبعين وأنا ابن العشرين في مشهد عاشقين لفرط ما تشبّثت بيدها كي لا أضيع، ولفرط ما أحسّت بأني حفيدها الضال في بلاد غريبة....

هكذا يقطع النهر مرتين

في سمرقند، تحت سماء أوزبيكية يرشح منها زفير صحابي مهاجر، وفارس يتردد صدى صهيل جواده في أرجاء آسيا أو قارة الأسى، أضعت ساعتي، وتولى القمر هدايتي بين المآذن التي ختنها ستالين، وفي صنعاء عثرت عليها وقد تراكم الصدأ على عقربيها، فيما كانت الصبية آمنة، تفرط عنقود أمهات بدءًا من أم النبي... إلى أم الصبي. وفي القاهرة، على الرّصيف المغنط الذي تتسمّر عليه الأصابع بين المتحف والجامعة العربية تحوّلت ساقاي إلى عقربين لساعة تدفق رنينها في قيلولة الناس؛ ومشى الجميز والنخيل في جنازة نهار فاض عن البحار كلها.

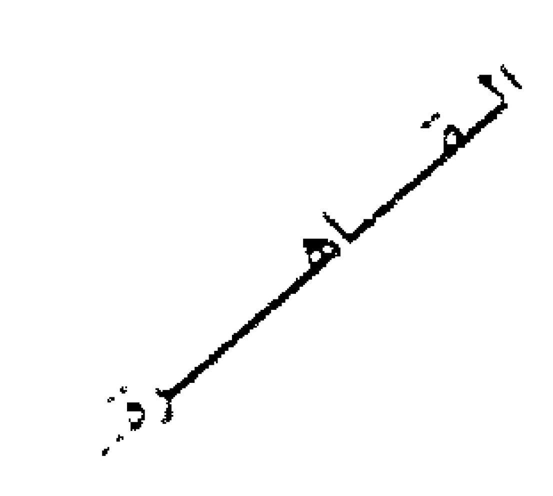
أتشبّث بما تبقّى من غسقه قبل حلول الظلام الذي تضاعفه الكهرباء، ويعد العشق بأبدية من الحنين، والأقمار التي تتأرجح كالأقراط على عنق مدينة بنت سماؤها حتى تدلّت عناقيد نجومها، وشملت اليتيم! فيما الحفيف الخالد، تواصله العذارى، سواء كنّ من نخيل باسق، أو عرائس ملفوفات بأكفان زرقاء في النيل الذي تعددت منابعه، لكنه ذو مصب واحد.

بقي أن أضيف وأنا ما زلت في طور الدوزنة أو طور العذراء من رحلة دودة القزّ، وقبل أن أدلف إلى قاهرتي من بابها غير المخصص للمستشرقين أو السّائح، أن أعترف بأنني في مساء اليوم السابع من



هي مدينة بخلاف فير الأسطورية، قلما تغفو، وقلما تهجع، فالليل موصول بالنهار، ولليل ظهيرته أيضًا فيها، عليك أن تبتعد عنها كي تراها، كاللوحة على جدار، ما أن يتفلطح أنفك على بقعة لونية منها حتى تختفي







حرب الأيام الستّة، وهو أطول مساءات التاريخ على الإطلاق، وجدت الساعاتي العجوز قبل الأوان الذى كنت أصلح عنده ساعتي يطرق الباب ويقول لي:

- هل تريد أن تبيع ساعتك وتتخلص من أعبائها؟ ودفع لي ثمنا يعادل ما تستحقه عشرين مرة على الأقل، فهمت منه أنه يريد مساعدتي دون أن يحرجني أو يجرحني، عانقته وبكيت. ومنذ تلك اللحظة، لم تدر عقارب الساعة التي اقتسمناها، وعندما سألت عنه بعد خمسة وثلاثين عامًا قيل لي أنه مات منذ ربع قرن، ولو عثرت على قبره لقلت له........ إن قيامتك أيها الطيب وشيكة، السّاعة التي أعدتها إليّ تجاوزت الرابعة والعشرين، وهي الآن تتهيأ لرنين قد يوقظ الموتى، سواء كانوا في باطن الأرض أو على سطحها!

المسافة بين بولاق والزمالك، يمكن قطعها في بضع دقائق على الأقدام، يفصل أكثر الأحياء شعبية في القاهرة وأرقاها في الستينيات من القرن الماضي جسر، لكن النّهر يوحّد بينهما وهو الذى لا يقطع مرتين حسب ما قال هيراقليطس، والذى يقطع مرّات عديدة حسب ما قال عاشق مجهول.

ذات ظهيرة، شربت الكركديه السّاخن بقرش واحد في مقهى شعبى في حي الجدعان والمعلمين، وبعدها بنصف ساعة شربت القهوة في الهيلتون مع صديق يزور مصر، وفي المساء دعاني إلى كافتيريا النايت اند دى في سميراميس ذى المصاعد السوداء العارية والمدخل الأرستقراطي، وحين صعدنا إلى الروف لم يتح لي الدخول لأنني أرتدى الجينز، وكان ذلك المساء لسبب لا أعرفه مكرسًا للسموكن وربطة العنق.

سكنت في شقة مفروشة في جاردن سيتي، وفي غرفة على السطح في حي عليش بالجيزة، شربت عصير القصب في شبرا الخيمة، وعصير الأناناس في خارينوس بمصر الجديدة، وكنت أقتسم قطعة جاتوه في الأنتريون في روكسي مع لاجئ سياسي وأقتسم كوب شاى كشرى أو طبق أرز بالحليب في الموسكي مع شوقي عسكر أو محمد درّة. تعلّمت الرقص الغربي في سرّة العاصمة، وعند مدام نسيت اسمها، ورقصت بالعصا في ساحة أقيم فيها عرس لشقيق أحد زملائي في الجمالية، وقد أكون دفنت في الدراسة، ونسيت لأن ما عشته في القاهرة، كان يتطلّب عدة ميتات كي أنهض معافى، وقد أكون أول ذكر في التاريخ حبل بنفسه وأنجبها فكان أب ذاته وابنها.

ليلة الخامس من حزيران، وفي هزيعها الأخير، أيقظتنا والدة شوقي عسكر من النوم، ابنها وأنا كي نهيئ أنفسنا للامتحان، لكن الامتحان تأجل وحلّ مكانه امتحان قومي عسير لأمة بدت كالطاووس الذى فقد ريشه، أو السلحفاة التي قلبت على ظهرها.

كانت فايدة كامل تصدح في ساحات القاهرة واللّيل نيل آخر يجرى في الفضاء، غزير السّواد، والنجوم فيه تومض وتختفي وراء غيوم صيفية.

أعود بعد خمسة وثلاثين عامًا إلى الرصيف المقابل لسينما ريفولي، وقرب دار القضاء العالي، وبالتحديد تحت فندق أميّة، فاغمض عيني، وأسمع صفارة الإنذار، ويعم الظلام فاسمع أصوات المتطوعين في الدفاع المدني يطالبون الناس بإطفاء النور، وأفتح عينيّ، فارى المارة أمام الأمريكين والضوء يغمر وسط المدينة، أتوقف قليلا عند تمثال طلعت حرب، وقد أصابني الدوار فيدلني مرة أخرى على مقهى ريش، وما إن أدلف إليه حتى أجلس متهالكا على ساقيّ قبالة مجدى، وأروى له ما حدث.



عندما حزمت حقائبي - استعدادا لمغادرة القاهرة، لم تكن العمارات والأشجار تتراجع من نافذة السيارة، أنا الذى كنت أمشي إلى الوراء، كي أبحث عن أصابع قدميّ المبعثرة بين روكسي والجيزة وبولاق وجاردن سيتي والقصر العيني، في المطار، وددت لأول مرة أن يعلن عن عطل مفاجئ في الطائرة لأظفر بساعات أخرى قرب نفسي، رغم أن الطائرة هذه المرة لم تكن منطلقة كالسّهم ذى العينين الذى يعرف وجهته إلى القدس.

إذا كان للمكان عبقريته، فإن الزمن ليس خلوا منها، لكن قطيعة ما قد تحوّل مدينة بكل ما تعج به من كائنات إلى غزلان تعدو واقفة على جدار مزهرية، كتلك التي وصفها الشاعر كيتس، فالمدن تشبه النساء إلى حد بعيد رغم ظاهرها الذكورى، منها من قد تبادلك الحب، ومنها من تغلق كل شيء في وجهك غير باب الفندق.

أما القاهرة، فإن لشوارعها ذاكرات، تتهجى موسيقى اليتيم، وتستدرجه إلى دفئها، فالنيل له لدغة طيبة، وساحرة، وقد لا يبرأ منها من شرب منه وتوضأ منه، وأصغي إلى حفيف عذاراه الزرقاوات!

ليلة حزيرانية بلا نجوم

على سطح بيت قديم قبالة المسجد في قريتي، دير الغصون التي احتلت عام ١٩٦٧، كان التجوّل ممنوعًا، والناس مشتبكون مع كابوس الاحتلال، وتحت سماء صيفية صافية، فيما كان النّدى يبلل أهداب اللحاف سمعت من الراديو نعي رئاسة الجمهورية العربية المتحدة للمشير عبد الحكيم عامر، خفق قلبي حتي بلغ الحنجرة وأنا أحدّق إلى تلك الجهة من السّماء، كانت الريح جنوبية، وكذلك جهة الوجع، وكان الغموض يلفّ ليلنا الطويل، فيما كانت الدبابات الإسرائيلية تسير ببطء كالسلاحف المعدنية العملاقة.

لم يكن معنا في تلك الأيام غير ما يردنا عبر الأثير من القاهرة، وعد بتطهير آثار العدوان، ومشروع حذر في تعبئة تحوّلت إلى حرب استنزاف، حلفنا مع حليم بسماها وترابها، وعلى بعد صرخة أو استغاثة من بيتنا الجبلي، كان يسوع يصغي مثلنا إلى أغنية شجية يتردد صداها في لندن، ولا يجد النظّارة ما يعضونه لحظة العودة إلى بيوتهم غير حديد السرير.

في مركز الشرطة القديم بمدينة طولكرم، هناك عند تخوم المخيم، رفع المحتلون راية لم نشاهدها من قبل في الفضاء، هي نجمة داود السداسية، والخطان الأزرقان، وسواء كانا النيل والفرات أو خطوط الطول والعرض لأسبارطة القرن العشرين فإن ما بقي في الذاكرة طيلة تلك الأعوام، سؤال محتقن بالسّم وجهه لي ضابط يهودى يرطن بعربية مشوبة بخاءات العبرية: هل عرف المصريون أن سيناء قد احتلت؟؟ وماذا قال لهم عبد الناصر؟؟ وكانت الإجابة عن سؤال كهذا تكلّف التلميذ العائد مع الرّيح بلا تصريح حياته، وليس اصطناعا لشجاعة أو أى شيء كهذا وجدتني أجيبه بما لم يرضه، فضربني على وجهي، بلكمة، ضاعف من قوتها وتدفّق الدم في فمي من خاتم غليظ كان يلمع في أصبعه، ثم قال: انتظر ناصر ثلاثمائة عام.



وأعترف بأنني احتملت الألم، ولم أبد أية إيماءة تدل عليه، وصرت أضحك من فرط الحزن وأقول له إن ثلاثمائة عام ليست كثيرة وها أنت تعترف بعمر الاحتلال على الأقل!

في عمّان، كان الشتاء غزيرا ونديف الثلج يغمر ممرات الحديقة الواسعة أمام فندق الفورت جراند، عندما ذهبت لمقابلة جوليوس نيريرى، الرجل الأخضر الذى عاد إلى بلاده على متن حمامة لا دبابة، وعمل في الشأن الدولي حتى الموت، بعد سؤالين أو ثلاثة عن سبب حضوره إلى عمان، حدّقت إلى عينيه، وقلت له إن صبانا مضمّخ باسمه، وباسماء آخرين من صانعي ذلك الزمن، نكروما، أحمد بن بيلا، جميلة بوحيرد، شوين لاى، تيتو، ونهرو، ولومومبا، أسماء مهرت عقدين من الزمن، واقترنت باحلام الفقراء والمحرومين والمحتلين، وكنا أصغر سنًا من فهم ما جرى في باندونج، لكن الرجال والنساء كبار السن من حولنا، كانوا يرددون كلمات غامضة مثل عدم الانحياز والقوة الثالثة، وبالرغم من المصير الفولكلورى لتلك المحاولات الباسلة في وقتها، ترسب في اللاوعي ما لا يمكن حذفه بجرّة رصاصة أو قلم.

شاهدنا في السنة الأولى من دراستنا الجامعية عبد الناصر يقف إلى جوار شوين لاى في استاد القاهرة ويمنح عباس العقّاد جائزة الدولة، وأصغينا إلى العقّاد وهو يشكر الزعيم دون أن يتخلى عن رواقيته، أو عن «خنزوانيته»، تلك التي وصف بها خالد بن الوليد المخزومي الذى اتّصفت قبيلته «بخنزوانية» هي الكبرياء الفائض.

وفي تلك الأعوام، تحوّلت مقدمة سارتر لكتاب د. فرانز فانون « معذّبو الأرض» إلى نشيد، وأعاد جول جمال الفتى الشامي الذى استشهد في حرب السويس سليمان الحلبي إلى الذاكرة العربية، عندما قتل جنرال كليبر، ولم نكن في ذلك الصبا الراعف بحاجة إلى محرّض قومي، أو جيوبوليتيكي حاذق وعبقرى كالدكتور جمال حمدان كي ندرك أن لا شام بلا مصر، وأن عبقرية الجغرافيا تفيض على التاريخ، لكن هذا العالم الفذّ، الذى تزوّج فكرة وعاش معها حتى الموت الغامض إثر انفجار أنبوبة غاز، تعهّد فينا تلك البذرة وسقاها، حتى تحوّلت إلى غابة.

جوليوس نيريرى، أحد أولئك الذين ضمّخوا صبانا السياسي والثقافي، قلت له في ذلك المساء الممطر، في عمّان:

- كنت طالبًا في جامعة القاهرة، عندما انتظرت على شرفة الشقة ساعتين، كي أرى الرئيس الراحل عبد الناصر وقد أمسك باليد الخضراء لنيريرى، ولوّحا معًا للمستقبل.

تراقصت عينا الرئيس الأفريقي السابق والإنسان اللاحق، وبدا كما لو أنه يقاوم دمعًا يوشك أن يتفجّر من عينيه وقد غطّاهما احمرار مفاجيء.

أعرف أن التسلسل الزمني ليس من شأن هذه التداعيات، التي يصبح فيها اليوم عامًا، والعقد ربع ساعة، بمقاييس أخرى لا تعرفها التقاويم وساعات الجدران الصماء.

فالقاهرة تتسع وتتمدد لتشمل قارّتين على الأقل ثم تبدأ بالانحسار حتى تصبح قطرة دم على جناح فراشة، أو على خد عصفور، فهي الملكوت الأول، لمن كبت أحصنته الصغيرة التي تلثغ بالصهيل في شوارعها الواسعة والمزدحمة، وهي لحظة البدء التي لا تفضي إلى خاتمة.

أخيرًا، هل كتبت القاهرة أم كتبتني؟
أينا مهر الآخر بموسيقاه الشجية؟

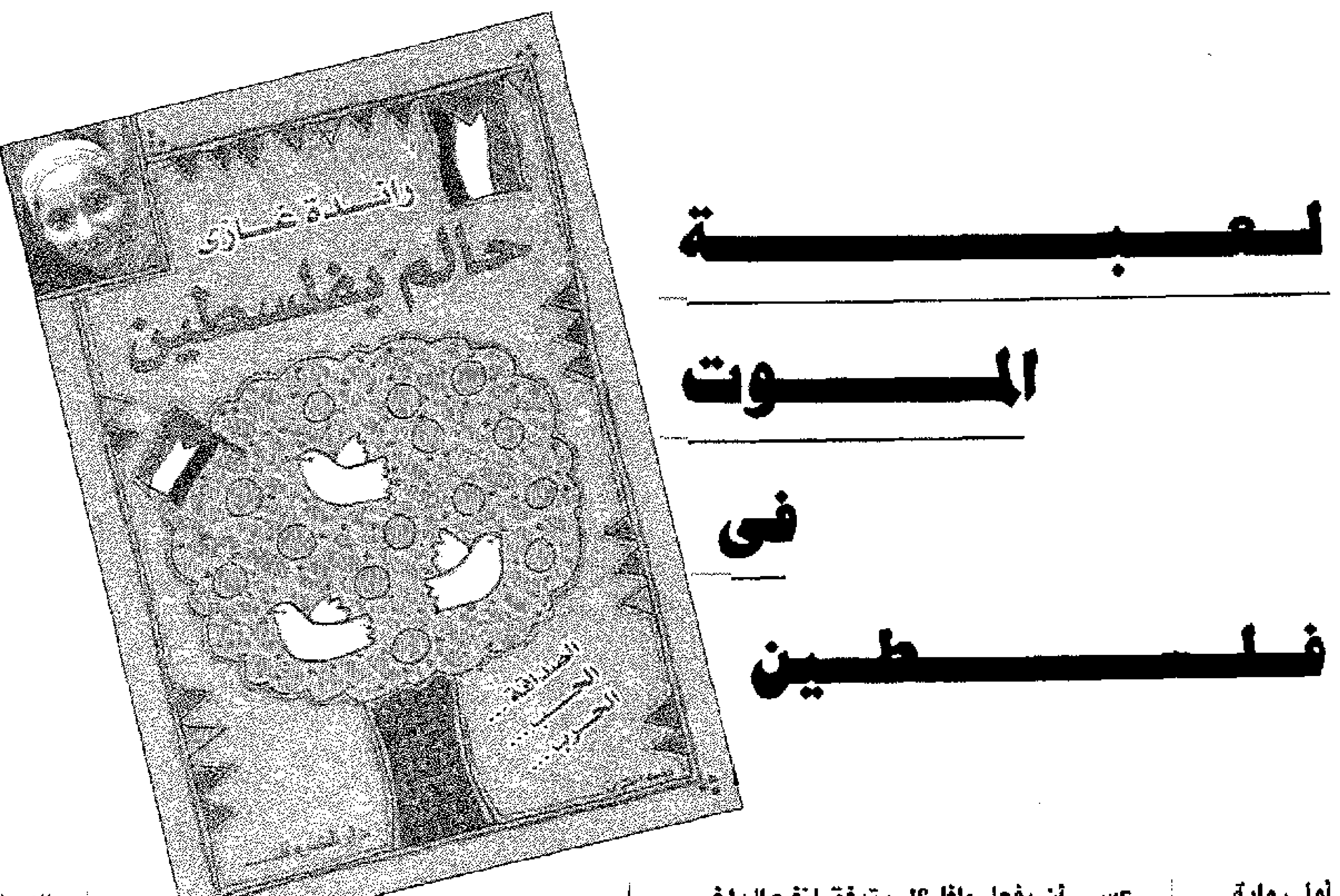
الأرجح أنني ما زلت في المقدمة، وبداية البداية، فالزمن في صباى الذى استعدته مؤخرا في القاهرة كان قاهريًا بامتياز، وكانت أفعال الماضي رغم نقصانها لا تليق بأبدية شاهدتها بعينيّ تتثاءب على الشاطئ تحت شبّورة من زفير الزمن. ■



عندما حزمت حقائبي
- استعدادا لمغادرة القاهرة.
لم تكن العمارات والأشجار تتراجع من نافذة السيارة، أنا الذى كنت أمشي إلى الوراء، كي أبحث عن أصابع قدميّ المبعثرة بين روكسي والجيزة وبولاق وجاردن سيتي والقصر العيني



لعبة الموت في فلسطين



■ «حالم بفلسطين» هي أول رواية لمؤلفتها راندة غازي ذات الخمسة عشر عاما. يتناول الكتاب موضوع الصراع القائم بالشرق الأوسط والذي يغلب على الأجيال الحالية وخاصة الغربية منها، عدم الإلمام به أو الإدراك لأبعاده. تبدأ الأحداث بسرد موجز لحياة بطل الرواية إبراهيم الذي يُقتل أبوه المؤذن على أيدى الجنود الإسرائيليين. يغرق إبراهيم في حالة من الحزن الشديد ولا يخرجه منها إلا صديقه نضال الذي يكون له الفضل في إدخال بعض السعادة إلى قلبه والتي سرعان ما تنتهي بوصول دبابات الاحتلال الإسرائيلية إلى بلدته. الرواية تعرض القضية بقوة، إلا أنها في الوقت الذي تستفيض فيه في تحليل هذا الصراع الأزلي لا تعطي أية حلول شافية؛ فالحاضر والمستقبل يصبغهما السواد، وتهيمن عليهما مصالح القوى الكبرى في العالم.

وراندة هي فتاة مصرية الجذور.. إيطالية الجنسية.. عربية الانتماء.. ولدت في إيطاليا وتلقت تعليمها هناك، وتأثر فكرها إلى حد كبير بالإعلام والثقافة الغربيين. إلا أنها حافظت - والفضل في ذلك يرجع لوالديها - على التواصل مع وطنها العربي، فلم يكن أمامها من وسيلة أفضل من القنوات الفضائية العربية. وأزعجها ما رأت كثيرا بل أذهلها، وفجر في رأسها الصغير طوفانًا من الأسئلة وعلامات التعجب. فماذا رأت؟..



كان ذلك في يوم ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠١.. «لما قُتل ذاك الصبي.. محمد الدرة.. ولما أُجرى حديث صحفي معه.. ذاك الجندي الذي قتل الصغير.. قال إنه أبقى على الأب حيًا حتى يعذبه.. هذا ما قاله.. قَتلتُ الابن وتركت الأب حيًا حتى يتعذب..».

انفعلت راندة بموت الصغير محمد الذي كان في الثانية عشرة فقط من عمره. لم تفهم سببًا لقتله، لأنه لم يفعل شيئًا، فما عسى أن يفعل طفل؟!. وتدفق انفعالها في صورة نهر من الكلمات وضعتها على لسان إبراهيم الذي قال بمرارة:

«حسنا.. يبدو أن حقيقة أن الجندي قال شيئا كهذا لا تزعج أحدًا سواي.. باقي العالم لا يبالي.. رأى الناس هو أن الأمر لا يتعدى ضحية صغيرة وسط ضحايا أخرى كثيرة.. هكذا.. وأقول لنفسي.. أيبقى للرأي العام وزنه بعد ذلك؟ حسنا.. أعتقد أنه في الحقيقة: لا..».

كتبت راندة غازي روايتها أولا في صورة قصة قصيرة، وتقدمت بها لمسابقة أدبية تقام للأطفال في إيطاليا، وفازت قصتها. فتحمست لها دار نشر ريتزولي - ليبري الإيطالية RCS Libri، وطلبت منها إعادة كتابة القصة في شكل رواية طويلة لنشرها بالدار. ونُشرت الطبعة الإيطالية الأولى من الكتاب في أبريل ٢٠٠٢ تحمل عنوان Sognando Palestina .



ويتناول الكتاب الصراع الفلسطيني مع الصهيونية الإسرائيلية من خلال المعاناة التي تختبرها مجموعة شباب فلسطينيين تجمعهم ظروف الحرب بعد فقدانهم لآبائهم وأحبائهم، وتدفعهم ظروف الاحتلال إلى الإقدام على محاولة يائسة للانتفاضة تنتهي بموت عدد منهم وتشتت المجموعة. والكتاب يدين الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية كما يدين الدول الأوروبية التي تأخذ موقف المراقب الصامت للأحداث؛ والكتاب يتمتع بإيقاع جذاب، وبه كثير من قصص الحياة اليومية التي تسهم في مجملها في رسم صورة واقعية ودقيقة للواقع الفلسطيني. فالأحداث تبدأ من انتفاضة ٢٠٠١، وتتخللها بعض الاستدعاءات من أحداث تاريخية سابقة لها. وقد اتبعت راندة أسلوبا شعريا سرديا في الكتابة، وعمدت إلى إعادة جمل وكلمات بعينها تأكيداً وتثبيتاً للحقائق والأفكار في ذهن القارئ.

تعرضت راندة غازي لهجوم قوى فور صدور الطبعة الفرنسية من كتابها في نوفمبر الماضي عن دار نشر فلاماريون Flammarion، والذي أفردت له مجلة «الكتب.. وجهات نظر» تحقيقا كاملا في عدد يناير ٢٠٠٣. يتناول الادعاءات التي روجتها الجماعات اليهودية في فرنسا بأن الكتاب معاد للسامية ويحرض على العنف والإرهاب. ولعل أبرز ما ساعدهم على الإيحاء بصحة أقوالهم هو الصورة الموجودة على غلاف الطبعة الإيطالية، والتي يظهر فيها طفل فلسطيني يحمل رشاشا، وهي الصورة التي تبدو للوهلة الأولى مفتعلة ومبالغًا فيها حتى أن حجم الرشاش لا يتناسب بالمرة مع جسم الطفل النحيل، ولا مع ابتسامته الحائرة التي تتنافى مع قوة وهيمنة سلاحه. إلا أن هذه الصورة جاءت تجسيدا للُعبة الوحيدة التي تركتها الحرب لأطفال فلسطين.. لُعبة الموت التي رآها إبراهيم، وهو يراقب - بحسرة - الأطفال يلعبون في معسكر اللاجئين..

«كان هناك ما يشبه ميدان المعركة.. مُشَيَّد بألواح خشبية.. إطارات مطاطية.. حبال.. أدوات بالية.. وأطفال في الزى العسكرى.. برشاشات ومسدسات مزيفة.. يرددون آيات القرآن الكريم التي تحتفي بالجهاد.(...) والغريب أن أصواتهم كانت تخيف قليلا.. بل كانت تكاد تكون متوعدة.. متوعدة..».

باتت القضية أن راندة غازي تُحرض على العنف، موجهة رسالتها المشبعة بالافتراءات على الإسرائيليين إلى الأطفال والشباب.. إلا أن هذا الادعاء يَبعد كل البعد عن الحقيقة.. فراندة نفسها أكدت في عدة مناسبات أنها ضد العنف.. ضده تماما.. إلا إن ذلك لا ينفي حقيقة أن العنف موجود.. وملموس.. ليس في فلسطين فحسب بل إن أمثلته ظاهرة وكثيرة في العالم كله.. فماذا يجدي النكران إذن؟!.. هل هناك أبلغ من الصور التي نراها كل يوم، بل كل ساعة على شاشات التليفزيون.. هل هناك أبلغ من صور القتلى.. وأشلاء الجثث.. التي نراها مخضبة بلون الدم؟! أليست تلك هي الحقيقة؟! أتقول راندة أن أحداث القصة وأبطالها من صنع خيالها، لكنها لم تَبْنِ هذا الخيال من فراغ بل أسسته على أحداث وحقائق فعلية جمعتها من الصحف والكتب ووسائل الإعلام. بحثت عن الحقيقة وعزمت على إعلانها. عجبت من صمت الكبار ولا مبالاتهم. وقررت ألا تسكت مثلهم.. أن تتكلم.. وتشرح.. وتحلل.. قررت أن تكتب فلمست كلماتها الوتر.. وأصابت - لا شك أنها أصابت - وإلا لم يكن شيء مما كان ضد الكتاب. قالت ما لم يفلح الكبار في قوله - ليس ذلك فحسب - بل قالته بكل الصدق والنضج والبلاغة!

ورغم كل ما سبق، قد يوحي عنوان «حالم بفلسطين» أن الحرب هي موضوع الكتاب الرئيسي، إلا أن راندة تناولتها كضلع من أضلاع مثلث الحب والحرب والصداقة. تناولت تأثير الحرب في حياة مجموعة من الشباب تتراوح أعمارهم ما بين سن العشرين والثلاثين.. تأثيرها على مشاعرهم.. أحلامهم.. علاقاتهم.. ومصائرهم. ومن خلال عدة نماذج من العلاقات التي تربط أبطال القصة: أب وابن.. أخت وأخ.. صديق وصديق.. حبيبة وحبيب.. ترسم راندة ملامح كل شخصية مشيرة إلى الصراع الذي تعيشه ما بين الرغبة في السلام وبين الاضطرار إلى اللجوء للعنف.



تشرح راندة كيف أن الأبطال يحاولون التمسك بحقهم في الحياة.. في الاستمتاع بشبابهم.. في الفرح بالحب.. وكيف أن الحرب تخطف في جولة أولى أعز أحبابهم.. وتتركهم بعدها في حالة من الضياع والجمود والهروب.. الهروب من كل شيء.. بيوتهم وأحبائهم وآلامهم وأنفسهم.. وكيف أنهم يجاهدون للخروج من تلك الحالة.. وينجحون بالفعل.. يعودون من جديد.. يلملمون أجزاء وأشلاء ما بقي لهم من حياة طبيعية كانت لهم في الماضي.. ويسعون لإعادة بناء وجود لهم من جديد.. وينجحون.. ينجحون بمساعدة بعضهم البعض وبحبهم لبعضهم البعض.. ويعيشون فترة من السعادة معا.. لكن عمر السعادة قصير.. تَشن الحرب جولتها الثانية عليهم.. وكأنها قد اغتاظت من قدرتهم على الوقوف على أقدامهم والصمود من جديد.. وتدوسهم - هم - هذه المرة.. تدوسهم بكل قوتها.. وتسحقهم تماما!!!

تنتهي القصة نهاية مأساوية، يتمنى المرء لو لم تكن بتلك القسوة.. يتمنى لو أن أحدا منهم تمكن من النجاة.. لكن تلك هي الحقيقة المُرَّة.. ليست هناك نهاية سعيدة للحلم.. فالحقيقة لا تزال كابوسا!.. ■

ميريام رزق الله

حالم بفلسطين
راندة غازى
ترجمة: ميريام رزق الله
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣

التفسير «القهوجى»

■■ فنجان القهوة، مثله مثل أشياء كثيرة معتادة فى حياتنا اليومية، نأخذه كأمر مسلم به، وتنحصر أهميته لدى الملايين من المتعاطين له حول العالم في مذاقه أومفعوله المنبه وأحياناً آثاره الصحية. فهل نتصور أن أحد المؤرخين يعتقد بجدية أن فى هذا الفنجان تكمن القوة المحركة للتاريخ؟ فهو فى كتابه ينسب النهضة الأوروبية وميلاد عصر التنوير إلى بداية إقبال الأوروبيين على شرب القهوة في أواسط القرن السادس عشر. وقد وجد مؤلف آخر خلف كل فنجان من القهوة تجسيداً للظلم الاقتصادى والقهر السياسى الذى وقع على شعوب استعبدت فى الماضى وما زالت تستعبد فى ظل العولمة بسبب تجارة البن. بل إن القهوة التي نعدها الآن أكثر المشروبات وقاراً كانت موضوعاً لقضية شرعية وسياسية ساخنة فى العالم الإسلامى حسب ما جاء فى كتاب ثالث، إذ تم تحريمها أكثر من مرة فى القرن السادس عشر. من خلال هذه الكتب، ومن خلال تاريخ القهوة، وجدت من المشوق رؤية تاريخ الإنسان من منظور الفنجان.



ذات يوم عثر صحفى أمريكي شاب يدعى «ستيوارت لى آلن»على كتاب للمؤرخ الفرنسى «جول ميشليه»الذى عاش وكتب فى القرن التاسع عشر، بعنوان Mon Journal يتناول فيه تاريخ أوروبا وأحوالها فى العصور الوسطى والعوامل التى أدت إلى نهضة الحضارة الأوروبية وميلاد عصر التنوير. وقد اندهش ستيوارت عندما وجد أن القهوة لها مكان بين تلك العوامل، يقول ميشليه:

« إن التفجر الباهر للإبداع الفكرى يعود الفضل فيه جزئياً إلى ذلك الحدث الكبير الذى خلق عادات جديدة، وغيّر من المزاج الإنسانى- كان هذا الحدث هو مجىء القهوة».

فى البداية اعتبرها ستيوارت فكرة رومانسية تليق بالفرنسيين أن يتم إرجاع ميلاد حضارة إلى فنجان من «الاسبرسو». ولكنه عاد وبحث ليجد حقلاً بحثياً كاملاً ينتمى

---

١. **The Devil's Cup, Coffee :The Driving Force in History**
(القهوة: القوة المحركة في التاريخ)
Stewart Lee Allen
New York: Soho Press,2000, 231p.

٢- **Coffee and Coffeehouses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East**
(جذور مشروب اجتماعي في الشرق الأدنى في العصور الوسطى)
Ralph S. Hattox
Washington U.P ,1985,178p.

٣- **Uncommon Grounds: The History of Coffee and How it Transformed Our World**
(تاريخ القهوة وكيف غيّرت عالمنا)
Mark Pendergrast
Basic Books,2000,552p.

إلى علم الأنثروبولوجيا يسمى «الإثنو بوتاني»أو علم الأجناس النباتي توصل الباحثون فيه إلى نتائج على شاكلة نظرية ميشليه، إذ يجدون علاقة بين السمات النفسية والعقلية والمزاجية التي تميز الشعوب وما تتناوله من أنواع الغذاء والعقاقير. فقرر ستيوارت أن يختبر صحة هذا التفسير «القهوجي»للتاريخ بان يقوم برحلة حول العالم متتبعاً المسيرة التاريخية والجغرافية التي اتخذتها القهوة منذ أن اكتشفت لأول مرة في إثيوبيا من عدة قرون.

وكانت النتيجة كتاب «القهوة: القوة المحركة للتاريخ»، وهو كتاب مشوق مكتوب بأسلوب عصري يجمع بين التسلية التي نجدها في كتب أدب الرحلات، والمعرفة التاريخية المبحوثة بعناية التي نجدها في كتب التاريخ المملة في كثير من الأحيان. وأقصد بالأسلوب العصري ذلك الأسلوب في الكتابة الذي ينتهجه كتّاب -كثيرون في الغرب وقليلون عندنا- أدركوا أنهم يخاطبون جمهوراً تتجاذبه وسائل الإعلام الحديثة بالصوت والصورة لتزوده بالمعلومات وتسليه دون عناء القراءة، فأصبح عليهم أن ينافسوا كل هذا بتقديم مادة علمية مشبعة لعقلية إنسان هذا العصر، ولكن في قالب جذاب يتناسب مع صبره المحدود ومله السريع.



يرتبط اكتشاف نبات البن بحكاية شبه أسطورية ولكنها شائعة في معظم الروايات التاريخية، مضمونها أنه منذ حوالي ألف عام تقريباً لاحظ راعي ماعز إثيوبي أن معزة من قطيعه أخذت ترقص وتقفز وتمامئ بطريقة محمومة، ولاحظ الراعي أن هذه الحالة تنتابها كلما تناولت ثمار نبات معين، فقرر أن يجرب هذه الثمار بنفسه فإذا بنشاط غريب يدب فيه بعد أن أكل من تلك الثمار. وكان عم هذا الراعي متصوفاً يقيم الليل صلاة ودعاء، فاكتشف أن تلك الثمار تبقيه يقظاً وتمنع عنه النعاس، فراح يقدمها لتابعيه ودراويشه، فذاعت سمعة هذا الشيخ الحكيم الذي توقظ حكمته المصلين حتى الفجر.

وبصرف النظر عن مدى صدق الأسطورة، فالثابت لدى ستيوارت أن أول من تناول حبوب البن هم قبائل الأورومو التي عاشت في مملكة «كيفا»بشرق إثيوبيا، ويقول البعض أن كلمة «كوفي» coffee اشتقت من اسم تلك المملكة. ولكن الأورومو لم يشربوا القهوة قط - إنما أكلوها! فقد كانوا يسحقونها ويمزجونها بالدهن ويشكلونها على هيئة أقراص. ومن إثيوبيا أخذنا كلمة «بن»في العربية، حيث يطلقون هم على القهوة «بونا». وقد ظهر الصنفان الرئيسيان من البن منذ البداية في إثيوبيا أيضاً، فالمناطق السهلية التي تشبه أراضي كيفا فتنمو فيها شجيرات تثمر حبوب البن المعروف الآن باسم «روبستا»، وهو النوع الرديء الرخيص الثمن. أما في مناطق المرتفعات تنمو الحبوب الطويلة الأجود والتي تسمى «أرابيكا»، وتلك هي التي تم جلبها إلى اليمن.

صحيح أن مدارس الشريعة الرئيسية تبيح الآن شرب القهوة إلا أنها اعتبرت «بدعة» وحرمت في وقت من الأوقات



اليمن: من القهوة إلى القات

بعد أن انتهى ستيوارت من جولته في إثيوبيا وتذوق قهوتها المأكولة والمشروبة، وتذوق القهوة المصنوعة من أوراق نبات القهوة وليس ثمارها، توجه شرقاً إلى اليمن وبالتحديد مدينة «مخا»فقد كان هذا هو الطريق الذي سلكته القهوة في التاريخ.

ظل ميناء مخا مرادفاً للقهوة لمدة ألف عام، ومن اسمه جاءت تسمية «موكا»التي تطلق في الغرب على أحد أصناف القهوة. وإذا كان الإثيوبيون هم أول من عرف القهوة، فإن العرب هم أول من صنعوا منها مشروباً. حيث يتفق معظم الرواة أنه في مخا في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي قام أحد أئمة الطريقة الشاذلية وهو الشيخ علي بن عمر الشاذلي بإعداد أول كوب من القهوة في التاريخ. فالعالم كله يدين للمتصوفة من أتباع الطريقة الشاذلية بالتعرف على مشروب القهوة، فقد تجولوا في أنحاء الجزيرة العربية عاقدين حلقات الذكر، يتعبدون ليلاً بعد تناول القهوة التي حملوها معهم أينما ذهبوا. وتوجد روايات أخرى تنسب هذا الاكتشاف إلى شيخ يمني آخر أيضاً من المتصوفة يدعى جمال الدين ابن سعيد الذهباني توفى عام ١٤٧٠ ميلادية.

والعرب لم يقوموا بتحميص حبوب القهوة أو طحنها، وإنما أعدوها نيئة، وفي هذه الحالة يكون لون شراب القهوة ذهبياً صافياً. وهذه الطريقة لا تزال معروفة الآن في بعض البلدان العربية ويطلق عليها « القهوة العربية». ومن اليمن ثم الحجاز انتشرت القهوة وجاءت إلى مصر عبر رواق اليمنيين في الأزهر الشريف في أوائل القرن السادس عشر ومن بعدها إلى سوريا ووصلت إلى اسطنبول في منتصف القرن نفسه تقريباً.

وارتبط انتشار القهوة بانتشار الإسلام، فأينما حل الإسلام حلت القهوة، ومع توسع الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، أصبحت مخا هي مركز البن في العالم الإسلامي كله. وعندما زارها تاجر إنجليزي اسمه «جون جوردون»عام ١٦٠٦ كتب عن مشاهدته لأكثر من ٣٥ سفينة تجارية يزدحم بها هذا الميناء الكبير تنتظر شحنها بالبن. ويتضح مما كتبه التاجر الإنجليزي كيف كانت أوضاع التجارة الدولية في ذلك الوقت في صالح كفة العرب، حيث تصف عبارته الآتية صورة أسعار الصرف التي كانت على العكس تماماً من صورتها المعاصرة. كتب جوردون شاكياً: « مخا بها كل أصناف السلع الفاخرة والغالية الثمن إلى درجة لا تسمح لنا بالدخول في معاملات تجارية، خاصة في ظل الأسعار المرتفعة التي يتم البيع بها لتجار القاهرة الكبار».



ولكن مخا التي شاهدها ستيوارت على مشارف القرن الواحد والعشرين شيء آخر غير الذي شاهده جوردون. فقد راح البن وحل القات، حل في الأراضي والمدرجات والجبال التي كانت تعطي أفضل أنواع البن للعالم، وحل في العقول التي كان البن يشحذها، متخذاً له مكاناً ومستقراً في كل بقعة صالحة للزرع وكل فم قادر على المضغ و«التخزين». وقد تحدث شاب يمني إلى ستيوارت عن القات فقال له:

«إنه أسوأ شيء حدث لبلادنا... لقد انتشر انتشاراً رهيباً، أصبح غالبية الرجال يدمنونه وكثير من النساء أيضاً، حتى أنه أفسد الاقتصاد وهدد البن بالاختفاء من البلد الذي كان أول من زرعه. لقد بدأ الأمر حين كانوا يمضغون القات لمدة ساعة بعد الغداء، ثم امتد لثلاث ساعات... والآن يمضي اليوم في التخزين ولا ينجز أي عمل».

هذا النبات المدمر يعتبر الأخت الشريرة لنبات القهوة، فكلاهما من المنبهات ولكن القات أيضاً مخدر، ويحتل موقعاً من بين فئات المخدرات السبعة التي حددتها منظمة الصحة العالمية. بل إن بعض الحكومات تعتبره خطراً يوازي خطر الهيروين. فإذا كان تعاطي القات بالفعل على هذا القدر من الشيوع الذي يصفه المؤلف فليس من قبيل المصادفة أن تخرج الجماعات المتطرفة بأفكارها الشاطحة من تلك البقعة التي كانت في القدم منبع الحضارة في الجزيرة العربية يخرج منها كذلك كبار الشعراء والعلماء والمتصوفة.

القهوة وذهنية التحريم

أما قضية تحريم القهوة في البلاد الإسلامية فقد ذكرها ستيوارت في كتابه باختصار، ونظراً لأهميتها وقلة ما هو معروف عنها بحثت عن كتاب آخر يتناول هذه القضية بالتفصيل. فوجدت كتاب «القهوة والمقاهي في الشرق الأدنى»وقد بنى على دراسة علمية قام بها المؤلف رالف هاتوكس أثناء دراسته للشريعة الإسلامية في جامعة برنستون الأمريكية.

صحيح أن مدارس الشريعة الرئيسية تبيح الآن شرب القهوة ولا تعارضها، ولكن قليلاً منا يعرف أنها اعتبرت «بدعة»في وقت من الأوقات. حدث هذا عندما أخذت في الانتشار بعيداً عن حلقات الذكر الصوفية وأصبح يتم تناولها في تجمعات يغلب عليها الترفيه والتسلية أحياناً والمناقشات السياسية أحياناً أخرى، فتم تحريمها بالفعل أكثر من مرة في القرن السادس عشر قبل ترسخها كعادة أصيلة بين العرب. وقد وجد هاتوكس أنه من الواجب فحص ذلك المنطق التشريعي الذي حرمها في وقت من الأوقات ثم المنطق الذي أحلها مرة أخرى. فكتابه يلقي الضوء على منطق مجتمع بأكمله حيال كل ما هو «جديد»، سواء كان هذا الجديد منتجاً أو فكرة أو عادة.

وبالرغم من أن فصول هذه القضية وقعت في القرن السادس عشر الميلادي، إلا أنها ذكرتني بالقضايا التي تنفجر من حين لآخر في مجتمعاتنا العربية المعاصرة على أشياء مثل مشروعية تأليف وقراءة رواية ما، أو حق المرأة في قيادة السيارات، أو مشاهدة مصارعة الثيران. فقد تحولت مسألة القهوة إلى قضية فقهية وشرعية وثقافية ثار حولها جدل عنيف في عدد من العواصم الإسلامية، وألقيت خطب وصدرت فرمانات وحدث شقاق بين المعارضين والمؤيدين للقهوة من العلماء والقضاة والمثقفين. وأقيمت محاكمات في اسطنبول، ووقعت جزاءات، وقامت مظاهرات وأحداث شغب في القاهرة، وشنت الشرطة غارات على المقاهي دفاعاً عن الأخلاق. فلماذا رأى بعض المسلمين في القرن السادس عشر في القهوة ما يشكل تهديداً للمجتمع والأخلاق؟

اعتمد هاتوكس في جمع وقائع إحدى هذه القضايا على مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٥٨ المؤرخ عربي يدعى عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري بعنوان «عمدة الصفوة في حل القهوة»وهي محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس. القصة باختصار هي كالتالي:



في يوم الجمعة، ٢٠ يونيو ١٥١١ (٣ ربيع الأول ٩١٧ هجرياً) فرغ خيري بك المعمار- باشا المماليك في مكة ومحتسب المدينة- من صلاة العشاء في المسجد النبوي الشريف، وفي طريق عودته وجد تجمعاً من الرجال معهم مصابيح في أحد الجوانب الخارجية من المسجد، وعندما اقترب منهم سارعوا إلى إطفاء مصابيحهم، مما جعله يشك في طبيعة النشاط الذي يقومون به، وعندما تحرى أمرهم وجدهم يبتلعون شراباً ما بنفس الطريقة التي يبتلع بها الشاربون الخمرة المسكرة. وهنا وجد المحتسب أن من واجبه قمع مثل هذه الممارسات، فهذه المقاهي شديدة الشبه بالحانات وما يجري بها من منكرات، وعليه، قام بفض المجلس وفي اليوم التالي قرر أن يجتمع مع علماء مكة لبحث مسألة القهوة.

وفي اليوم التالي اجتمع العلماء من مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية لبحث المسألة، ويقول الجزيري أن القضاة فضلوا التعامل مع





هديل غنيم

مسألة مشروعية التجمع، ولم يتناولوا مشروعية القهوة ذاتها، وتركوا للأطباء مسئولية تحديد هذا الأمر. ولكن يروى الجزيرى أن المحتسب أتى من عنده بطبيبين شهدا بأن القهوة ضارة بالعقل والبدن، وقدم شهودًا مؤيدين لهذا الحكم، ولأن المحتسب كان صاحب نفوذ وبطش فقد خاف القضاة منه وقبلوا شهادة الأطباء والشهود رغبة في إرضائه، وقرروا أن القهوة محرمة في ذاتها. وفي الحال أعلن خيرى بك في جميع أنحاء مكة أن بيع واستهلاك القهوة ممنوع منعاً باتاً، وأن من يتجاهل هذا الحظر سوف يتعرض للعقاب.

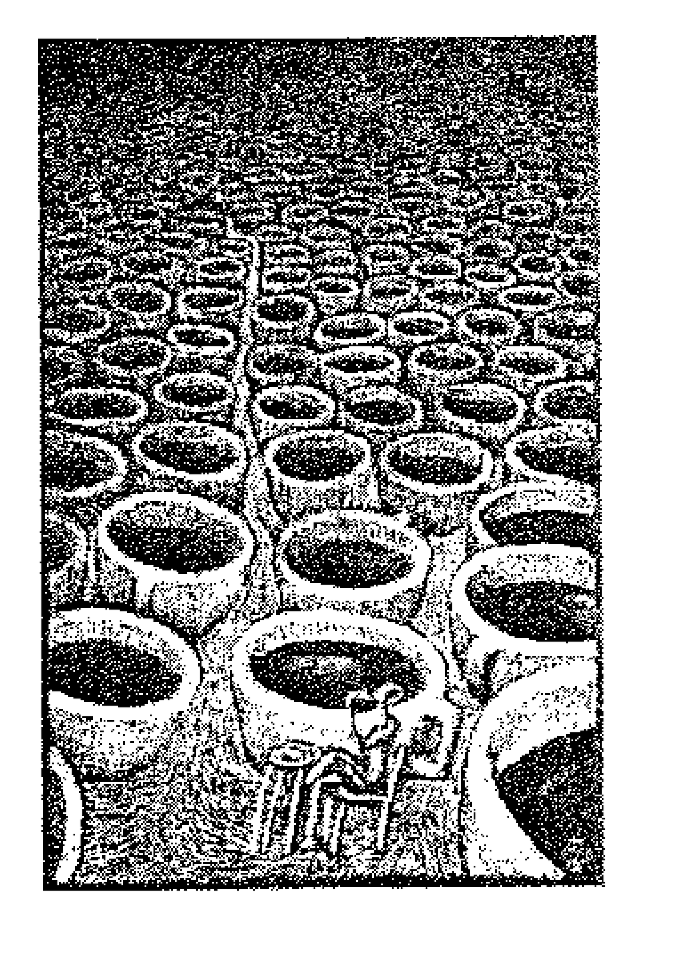
استمر الحظر لمدة عام في مكة ثم تكرر مرة أخرى عام ١٥٢٥ ميلادية، ولم تتردد فتاوى مكة في باقى أنحاء الدولة الإسلامية إلا بدرجات خافتة. وفي القاهرة ثارت قضيتان حول تحريم القهوة، الأولى -وهى الأعنف- دارت عام ١٥٣٢ أما الثانية فحدثت عام ١٥٣٩، وقد انطلقت الحملة المعادية للقهوة في القاهرة من الأزهر الشريف - نفس المكان الذى شهد أول فنجان قهوة في مصر ومنه شاع المشروب في أنحاء البلاد. كان قائد الحملة شيخاً من أنصار المذهب الشافعى اسمه الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطى، وقد اتبع فتواه بتحريم القهوة كثير من الشيوخ. ولكن بينما كان إسهام الشيخ السنباطى فى الحملة نظرياً، أشعلت خطبه الساخنة حماسة آخرين أكثر حركية. وفى إحدى المرات اندفعت جماعة لا تحمل أى صفة رسمية إلى الشوارع تهاجم المقاهى وتكسر محتوياتها وتضرب الجالسين عليها. ثم وصل الأمر إلى قاض في القاهرة من أتباع المذهب الحنفى اسمه محيى الدين محمد بن إلياس الذى جمع العلماء وانحاز لرأى المؤيدين لحلّية القهوة.

الغريب أن المعارضين للقهوة أسسوا تحريمهم لها على أساس أنها شراب «مسكر»، وأحدهم ساوى بين القهوة والحشيش، وكان أكثرهم اعتدالاً يرى أنه يكفى لحرمانيتها أنها تحدث تغييراً فى العقل والبدن. وقد اعتمد المؤيدون للقهوة على مبدأ «الإباحة الأصلية» الذى أنقذ القهوة من التحريم، وأشار أحدهم معلقاً على نظرية التغيير أن الثوم والبصل وغيرها من أنواع الطعام والبهارات تحدث تغييرات قوية فى الجسم والمخ ومع ذلك لم يدع أحد إلى تحريمها.



وبينما يرى الجزيرى وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن المعارضين للقهوة كانت دوافعهم تنحصر فى التعصب الأحمق، يرى رالف هاتوكس أن الأمر لا يخلو من الدوافع السياسية والاجتماعية، وخاصة أن ظاهرة التجمع أو التجمهر هى التى راعت المحتسب وغيره وليس مشروعية مكونات المشروب فى ذاته.

تجب الإشارة إلى أن ذهنية التحريم هذه لا تتصل فقط بالعرب أو المسلمين دون غيرهم، والدليل على ذلك موجود أيضاً فى تاريخ القهوة. ففى عام ١٧٧٧ شن فريدريك الأكبر حملة كبيرة لحظر القهوة فى بروسيا دفاعاً عن صناعة البيرة التى رأى فيها رمزاً للهوية الألمانية، وكان ذلك فى وقت سادت فيه ثقافة لا تثق فى أى شىء غير ألمانى. وقد انعكست هذه القضية فى عمل فنى ظهر عام ١٧٣٢ للموسيقار الألمانى الشهير يوهان سيباستيان





بفنجان القهوة وفطيرة الكرواسان يحتفل الأوروبيون يومياً بذكرى الهزيمة العثمانية وضياع مجد العرب والمسلمين



باخ، حيث ألف كانتاتا (مقطوعة موسيقية تحتوى على قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل، مثل أوبرا مصغرة) للدفاع عن القهوة اسمها «كانتاتا القهوة». وهى تحكى قصة عن أب صارم يهدد ابنته التى تعشق شرب القهوة بأن تختار بين خطيبها أو الاستمرار فى عادتها، ولكنها تصر على مشروبها المفضل، بل وتشترط فى النهاية أن ينص عقد الزواج على حقها فى صنع وشرب القهوة فى أى وقت تشاء!

وفى إثيوبيا وهى بلد مسيحى، تم حظر القهوة عدة مرات على أسس دينية وذلك منذ أن ارتبط شراب القهوة بالمسلمين، وقد قابل ستيوارت أحد القساوسة الإثيوبيين يعتقد أن المسلمين يستخدمون القهوة لصنع اللعنات وأعمال السحر للناس. ولكن المطمئن فى الأمر أن دعاوى الحظر والتحريم هذه لم تنجح أبداً فى الاستمرار، وإنما يبدو أنها كانت تظهر أو تفتعل فى فترات الضعف الحضارى والسياسى، وهى تدل على أن استراتيجية توظيف الدين فى خدمة الأغراض السياسية استراتيجية تكاد تكون أزلية.

حصار فيينا ودخول أول حبة قهوة إلى أوروبا

عودة إلى رحلة ستيوارت فى تاريخ القهوة ومحاولته إثبات نظرية ميشليه فى الأثر الحضارى للقهوة. فحسب ما يرويه، يبدو أن الشراب العربى الأصل اتخذ منعطفاً تاريخياً وحضارياً مهماً فى مدينة فيينا حيث عبر فيها من العالم الإسلامى إلى عمق القارة الأوروبية والتقاليد الغربية. يذكر ستيوارت فى كتابه أنه فى عام ١٦٨٣ ومع امتداد طموحات الدولة العثمانية فى التوسع داخل القارة الأوروبية، زحفت الجيوش العثمانية إلى عاصمة امبراطورية الهابسبورج التى كانت تمثل أكبر كيان سياسى فى الغرب، وطلبوا من أهلها إعلان الاستسلام. وعندما رفض أهالى فيينا قام الجنود الأتراك وعددهم ٣٠٠ ألف بإقامة الخيام حول الأسوار وظلوا محاصرين للمدينة حتى انتشر الوباء ونفد الطعام وفر الكثير من السكان بمن فيهم الملك ليوبولد. وأثناء ذلك كله كان الأتراك يحفرون الأنفاق فى سرية من تحت أسوار المدينة.



لكن ما لم يكن يدركه الأتراك أن جيشاً بولندياً مكوناً من ٥٠ ألف جندى كان يقترب من المدينة من خلفهم. وظهر جاسوس اسمه فرانز كولشتسكى كان قد عاش فى اسطنبول ويتحدث التركية بطلاقة قام بإبلاغ أهل فيينا بأمر الأنفاق السرية، كما أبلغهم بموعد تفجير الأسوار.. ثم فاجأ البولنديون الأتراك من الخلف فاضطروا إلى الفرار حيث كانوا قد أهملوا ظهر الجيش. وقد مثلت هذه الموقعة نهاية التوسع العثمانى الإسلامى بعد ثلاثمائة عام من السيادة.

كما شهدت هذه الموقعة تحولاً تاريخياً آخر..فبعد أن فر الأتراك اكتشف النمساويون أنهم تركوا وراءهم آلاف الزكائب من الحبوب الخضراء التى ظنوها علفاً للجمال والجياد. ولكن الجاسوس كولشتسكى كان يعلم أنها حبوب القهوة، لذلك عندما طلبوا منه أن يحدد لهم مكافأته على خدماته ودوره فى إنقاذ المدينة طلب منهم زكائب القهوة، ثم أهدوه المبنى الذى افتتح فيه أول مقهى فى فيينا «الزجاجة الزرقاء».

يقول ستيوارت أنه قبل حصار فيينا بعشر سنوات كانت كل مكونات فنجان القهوة تأتى من داخل الامبراطورية العثمانية: حبوب البن من اليمن والسكر من أفريقيا، ولكن فى غضون خمسين عاماً أصبح الأتراك يشربون قهوتهم بمكونات مزروعة ومصنعة فى مناطق مسيحية.

من هنا يتضح أن وجبة الإفطار الكونتيننتال تعد أكثر وجبة فى العالم محملة بالرمز السياسى والتاريخى. فهى بفضل القهوة التى سرقت من العثمانيين وفطيرة الكرواسون المصنوعة على شكل هلال، والتى صنعها خباز نمساوى أثناء حصار فيينا استهزاءً بشعارهم، تعد احتفالاً يومياً بذكرى الهزيمة العثمانية، وتذكرة للعرب والمسلمين بالمجد الضائع.



وفى فيينا حدث لشراب القهوة تطور مهم، حيث توقفت فى مقاهى تلك المدينة العادة التركية فى ترك البن المطحون فى قاعدة الفنجان، كذلك وهذا هو الأهم، قام أهل فيينا بإضافة اللبن أو الكريمة إلى القهوة. وهذا اختراع أوروبى خالص لأن الأتراك اعتقدوا أن إضافة القهوة إلى اللبن تؤدى للإصابة بمرض الجذام. كما أن المجتمع اللندنى الذى كان قد سبق أوروبا إلى القهوة لم يكن يستخدم اللبن، وهكذا كان النمساويون والإيطاليون هم مبتكرو هذه العادة، وتعد النمسا وإيطاليا تقليدياً بلاد القهوة فى القارة الأوروبية.

وبمناسبة القهوة بالحليب، اكتشف ستيوارت وهو فى إيطاليا أن العجائز يطلبون أن تكون قهوتهم فى لون «رداء الراهب». وهم بذلك يشيرون إلى الرهبان الكبوشيين الذين كتب عنهم الشيخ محمد عبده بعدما زار ديرهم أثناء وجوده فى صقلية. وكلمة Capuchin تعنى غطاء الرأس المدبب، وهى تطلق على أتباع إحدى الطرق التى استقلت عن طريقة الفرانسيسكان التابعة للكنيسة الكاثوليكية. فقد تأسست طائفة الفرانسيسكان نسبة إلى القديس سانت فرانسيس دى أسيسى الذى كان معروفاً بتواضعه وبساطته وحبه للطبيعة، ولكن بعد مرور السنين أصبحت تحتوى على فرق متناحرة كل منها يهاجم الآخر، مما أحزن راهباً فرانسيسكانياً طيباً يدعى ماثيو دا باسكيو عاش فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر. وذات يوم، رأى الراهب ماثيو فى المنام القديس فرانسيس يحدثه عن تدهور سلوكيات أتباعه، وابتعادهم عن صحيح الدين. وقد استرعى انتباه الراهب أن القديس كان يرتدى غطاءً للرأس مدبباً وليس ذا الشكل المربع المعروف. وفى اليوم التالى قدم الراهب ماثيو طلباً لبابا الفاتيكان للسماح له بتأسيس طريقة مستقلة عن الفرانسيسكان ويكون رداء الرأس لرهبانها على شكل مدبب. ومن هنا ولدت طريقة الكبوشيين، واتخذت القهوة الممزوجة باللبن لقب الكابوتشينو cappuccino لتماثل لونها مع اللون البنى الفاتح لرداء الرهبان الكابوشيين. ترى، كيف كان العرب يسمون اللون البنى قبل أن يعرفوا البن؟

القهوة وميلاد عصر التنوير

إن الأثر الثورى الذى أحدثه قدوم القهوة إلى أوروبا فى منتصف القرن السابع عشر لا يمكن إدراكه حقيقة إلا إذا عرفنا كيف كان الأوروبيون يعيشون قبل ذلك الحين، أى قبل ٤٠٠ عام. فى هذا الشأن يتفق ما جاء فى كتاب مارك بندرجراست « تاريخ القهوة وكيف بدلت عالمنا» مع ما كتبه ستيوارت فى توصيف الحالة الغذائية والمزاجية فى أوروبا القرون الوسطى قبيل مجىء القهوة. حيث يتضح من خلال الكتابين أن البيرة كانت أهم مصدر للغذاء بعد الخبز، وكان ينتظر من كل زوجة أو ربة منزل أن تصنع بيرتها منزلياً كما تخبز خبزها. وكانت وجبة الإفطار الشعبية فى ألمانيا فى ذلك الوقت وحتى منتصف القرن الثامن عشر عبارة عن بيرة مخلوطة بالبيض ومصبوبة على قطع الخبز. وفى إنجلترا كانت ثلث المساحات المزروعة مخصصة لزراعة الشعير بينما كانت الحانة تمثل واحدة من سبع بنايات فى كل حى. ولأن المشروبات الساخنة كانت نادرة ومياه الشرب غير آمنة كانت البيرة هى الشراب الأساسى حتى أن العمال كانوا يتناولونها أثناء العمل.. فى استراحة بيرة بدلاً من استراحة قهوة!

لقد كان الشخص المتوسط فى أوروبا يشرب ما يعادل ثلاثة لترات من البيرة يومياً

بما في ذلك النساء والأطفال. وكان الناس الذين يشغلون مراكز عليا مثل رجال البوليس يشربون أكثر بكثير، مثل الضباط الفنلنديين الذين كان يتم إعطاؤهم حصة يومية من الجعة تصل إلى خمسة لترات. حتى أنه كان يعتقد ان كثرة الشرب ترفع من المكانة الاجتماعية (drunk like a lord). وحسب ما نقل ستيوارت عن المؤرخ الفرنسي ميشليه كانت الحياة اليومية للأوروبيين في العصور الوسطى تعتمد على شيئين أساسيين، الكنيسة والبيرة. وكانوا كثيراً ما يجمعون بين الاثنين، ففي باريس عام ١٦٦٠ كان هناك أكثر من مائة عيد ديني، ويتم الاحتفال بكل منها بعقد مسابقات في شرب البيرة.

هكذا كان المجتمع الأوروبي في تلك العصور، شعب مخمور وعسكريون وسياسيون في حالة دائمة من الثمالة. أضف إلى ذلك المجاعات والأوبئة والحروب ومسيحية القرون الوسطى والخرافات التي احتلت أذهان الناس. لذلك ليس من المستغرب الآن أن نعرف أن أحد أهداف مارتن لوثر عندما بدأ حملته من أجل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في منتصف القرن السادس عشر كان التقليل من عادة الإكثار من شرب الخمر. ولكن محاولات مارتن لوثر باءت بالفشل كما يقول ستيوارت لأنه لم يأت ببديل. هذا البديل ظهر بعد وفاته بمائة عام تقريباً، في عام ١٦٥٠ عندما افتتح أول مقهى في أوكسفورد بانجلترا في نفس الوقت الذي سيطر فيه المتطهرون أو البيوريتانيون على البرلمان، وقد رحب البيوريتانيون في بريطانيا بالقهوة ولقبوها بالنبيذ الأسود.

هكذا سبقت انجلترا باقي أمم القارة الأوروبية كلها في شرب القهوة بحوالى مائة عام، وحسب نظرية ميشليه فإن عادة شرب القهوة ربما تدخل ضمن الأسباب التي جعلت بريطانيا تسبق أوروبا في النهضة والثورة الصناعية. ففي حوالى عام ١٦٨٠ كانت لندن عاصمة المقاهي في العالم الغربي وقد افتتح المقهى الأوكسفوردي الأول على يد يهودي من الشرق الأوسط تزامناً مع الحظر الذي فرضه السلطان مراد الرابع على تناول القهوة في الدولة العثمانية.



ثم بدأت الأفكار التي غيرت العالم ودفعته إلى التقدم تخرج من تلك الأماكن التي كانت تقدم القهوة. ويمتلئ كتاب ستيوارت لي آلين بالأمثلة التاريخية التي تدلل على هذا الرأي، فيروي عن مقهى كان يسمى «لويدز كوفيهاوس» أنه كان ملتقى للبحارة وملاك سفن الشحن والتجار حيث يجتمعون لمعرفة آخر أخبار الشحن. وفي إحدى المرات راهن واحد من الزبائن العاديين على أي سفينة سوف تصل الميناء وأيها سوف تغرق. فإذا عادت السفينة لمالكها يخسر رهانه ويحتفظ مقهى «لويدز» بالمال، وأما إذا غرقت فيدفع العاملون في لويدز الخسارة. وتحول مقهى لويدز إلى أول مؤسسة للتأمين. وحوّل الزبائن التجار موائدهم إلى مكاتب صغيرة، ثم تخلى أصحاب المقهى عن تقديم القهوة وأصبح مقهى لويدز كوفيهاوس هو شركة تأمين لويدز أوف لندن Lcyds of London،. . Ltd.

ويبدو أن قدرة القهوة على تعظيم الثراء كانت واضحة في بريطانيا، حيث تحولت العديد من المقاهي إلى مكاتب رئيسية لأكبر الشركات والتجارات العالمية ليس فقط لويدز ولكن أيضاً شركة الهند الشرقية التي كان مكتبها الرئيسي في الجيروزالم كافيه وشركة شيبنج اكستشاينج التي كانت في الأصل مقهى بالتك كوفيهاوس. بل إن التصميم الداخلي للمقهى البريطاني كان له أكبر الأثر في شكل المكتب الحديث، وفي البورصة البريطانية ما زال يطلق على ساعي المكتب كلمة نادل أو waiter.

وهناك قصة أخرى عن ميلاد الصحافة الحديثة في المقاهي البريطانية، حيث يقول ستيوارت أن شخصاً يدعى رتشارد ستيل قرر أن ينشر أسبوعياً أهم نمائم المجتمع التي يتم تداولها في المقاهي. فكانت تأتي قصائد الشعر من مقهى ويلز، والأخبار الخارجية من مقهى سانت جيمس وهكذا.. وكان الكتاب يكتبون بطريقة جديدة في ذلك الوقت، وكأنهم يتلصصون على أحاديث حية من المقاهي، ومن هنا تولد الأسلوب الصحفي في الكتابة كما يقرر المؤرخ الأدبي الإنجليزي هارولد راوث حيث أصبح أكثر قرباً لبساطة الأحاديث العادية وليس الخطب الأدبية الرصينة. وسرعان ما أصبحت صحيفة تاتلر التي أنشأها رتشارد ستيل أول مجلة حديثة، وقامت الصحف الحديثة على فكرة المراسلين والأقسام التي ابتدعها لمتابعة نمائم رواد المقاهي. أما ثاني أقدم صحيفة في لندن فكانت «لويدز نيوز» والتي نشأت كصحيفة حائط في مقهى لويدز.

كذلك ظهرت الميول الديموقراطية الأولى هي الأخرى في المقاهي التي كانت قد بدأت تنتشر حديثاً. فالقهوة بطبيعتها تحفز الذهن على الإفاقة والتركيز، لذلك عندما أصبحت المقاهي توفر بديلاً للحانات كمكان للتجمع والحديث والالتقاء، اختلفت موضوعات النقاش ودرجة جديته. فالحانات لم تكن أبداً أماكن صالحة أو آمنة لمناقشة أمور في الدين أو في السياسة، حيث كان الرواد في الغالب مخمورين ومسلحين، وهي توليفة خطرة، لذلك حرص أصحاب الحانات على تجنب المناقشات الساخنة. أما المقاهي فكانت على الجانب الآخر ساحات للحوارات السياسية، وهو السبب الذي جعل الملك تشارلز الثاني يغلق جميع المقاهي عام ١٦٧٥ ثم اضطر للعدول عن قراره بعد أحد عشر يوماً.

وربما تكون الديموقراطية الحديثة مدينة للمقهى اللندني الشهير Turks Head Coffee-house حيث ظهر فيه لأول مرة صندوق الاقتراع حسب ما يروي ستيوارت. فقد تم ابتكار هذا الصندوق في عهد أوليفر العظيم لكي يعبر زبائن المقهى عن آرائهم بشكل آمن في المسائل السياسية المثيرة للجدل، في ظل وجود جواسيس الحكومة الذين كانوا يدخلون المقاهي للتعرف على الخونة.

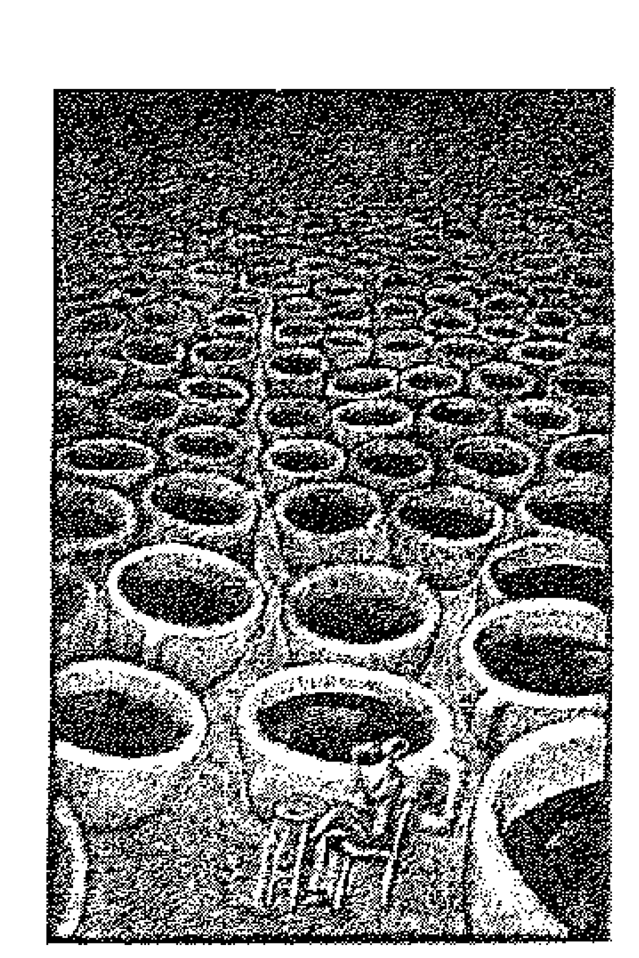
قد يكون من الصعب أو من المستحيل قياس تأثير عقار أو مكيف ما على حال مجتمع بأسره، ولكن من السهل معرفة هذا الأثر إذا نقلنا مستوى التحليل إلى الفرد. فإذا كان هناك فرد يتناول ٣ لترات من الجعة يومياً، فإن قدرته على تذكر أي شيء تعلمه تقل بنحو ٨٠٪، وعلى العكس من ذلك يزيد تناول القهوة من هذه القدرة. كذلك يسهل على السكران اللجوء إلى العنف، والأهم من ذلك أن المرأة الحامل إذا تناولت ثلث هذه الكمية من الجعة فإن مستوى ذكاء مولودها يقل بنسبة ٧ درجات على مقياس IQ . فالعقاقير إذن تغير من سلوك الإنسان ومستوى إنتاجيته وحالته العقلية، وقد أكدت التجارب أن كوبين من القهوة القوية تقويان من الأداء الرياضي في ٧٠٪ من المختبرين، حتى أن اللجنة الأوليمبية تعتبر أن تناول كمية معينة من الكافيين يدخل ضمن المنشطات غير القانونية.



إن تحول أوروبا من ثقافة مدمنة للعقاقير الخافضة المتمثلة في الخمر إلى ثقافة مدمنة للعقاقير المنبهة ساعدها على التخلص من المجاعات والأوبئة في أقل من ٢٠٠ سنة، وأصبحت حكوماتها أكثر ديموقراطية وارتفع فيها مستوى المعيشة ومستوى التعليم. ربما يكون هذا أكثر مما تحتمله القهوة لأننا نعرف أن الأحداث التاريخية تصنعها مجموعة من الظروف، ولكن المصادفة تجعلنا على الأقل نصدق أن القهوة كانت واحدة من هذه الظروف.



عندما كان تناول القهوة مقصوراً على العرب ازدهرت حضارتهم أكثر من أي أمة أخرى وعندما عثر العثمانيون على الحبة السحرية أصبحوا أكبر قوة على الأرض



فالمصادفة غريبة وكبيرة، فعندما كان تناول القهوة مقصوراً على العرب ازدهرت حضارتهم أكثر من أي أمة أخرى في ذلك الوقت، وعندما عثر العثمانيون على الحبة السحرية أصبحوا أكبر قوة على الأرض. كذلك فإن ظهورها المبكر في بريطانيا ساعدها في ريادة سباق السيطرة على العالم. وفي مقاهي باريس ارتبطت أسماء المفكرين والفنانين من أعلام التنوير بالمقاهي التي كانوا يجلسون فيها، واشتهر عن فولتير انه لا يشرب أقل من أربعين فنجاناً من القهوة في اليوم، وقد كتب بالزاك عن مفعولها في توثب الأفكار في الدماغ. ومن مقهى الباليه روايال انطلقت شرارة الثورة الفرنسية عندما صعد كاميل دسمولين فوق الطاولة وحث الجماهير على حمل السلاح في مواجهة الأرستقراطية. كما أن نابوليون كان شديد الإعجاب بالقهوة وقال عنها: «القهوة القوية توقظني، وتمنحني دفئاً وقوة غير عادية، وألماً ممتعاً. فأنا أفضل المعاناة عن فقدان الوعي».

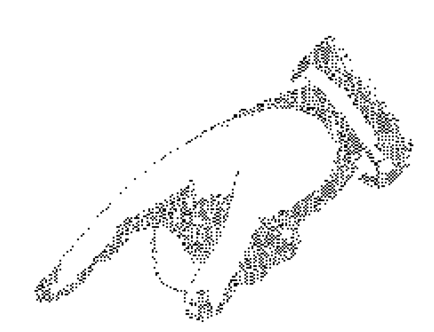
بل إن القهوة ارتبطت بانتقال ميزان القوة والسيطرة العالمية من الإمبراطورية البريطانية إلى الإمبراطورية الأمريكية. وقد بدأ هذا التحول التاريخي في القرن الثامن عشر عندما تحولت بريطانيا من مجتمع محبي القهوة إلى مجتمع يدير حياته الاجتماعية حول تناول الشاي. فبالرغم من مستعمراتها الكبيرة فشلت بريطانيا في امتلاك مزارع القهوة، حيث سيطرت غريمتها فرنسا على مزارع الكاريبي بينما سيطرت البرتغال على مزارع البرازيل، وسيطر الهولنديون على مزارع إندونيسيا. معنى هذا أن كل فنجان قهوة يدفع ثمنه مواطن بريطاني يساوي مكسباً يحصل عليه المنافسون الأوروبيون. وقد تزامن ذلك مع الاستعمار البريطاني لأمريكا، فأصبح شرب القهوة ومقاطعة الشاي عملاً من أعمال الوطنية ومقاومة المستعمر. وعندما قام الملك جورج بفرض ضريبة على الشاي، تنكر مجموعة من الوطنيين في زي هنود حمر وقاموا بإغراق شحنات الشاي في ميناء بوسطون. هذا الحدث هو المعروف «بحفلة شاي بوسطون» والذي يعد الشرارة الأولى التي فجرت الثورة الأمريكية من أجل الاستقلال.

ويعد الأمريكيون الآن أكثر الشعوب استهلاكاً وإدماناً للقهوة، فهي مرادف للطموح والإنجاز والسرعة التي يعشقها الأمريكيون، بل إن البنتاجون اكتشف مبكراً فوائد الكافيين في زيادة درجة العدوانية والشجاعة لدى الجنود فأصبح منذ الحرب العالمية الأولى يخصص لهم حصصاً يومية كبيرة من القهوة أو الكافيين المركز أثناء المعارك الحربية.

القهوة بين عبودية الأمس وعولمة اليوم

لم يقنع الأوروبيون باستهلاك المنتج النهائي للقهوة دون تدخل في عملية الإنتاج من بدايتها. وقد وصل ستيوارت لي آلين إلى أمريكا اللاتينية بعد أن زار إندونيسيا، حيث كانت أراضي تلك البلاد هي التي استغلها المستعمرون الأوروبيون في استزراع قهوتهم. وحسب ما ذكره كل من ستيوارت وبندرجراست كان الهولنديون هم

كتاب الزاوية



موت المهدى

فى يوم ما مرض المهدى ولم يذهب إلى المسجد للصلاة. ولم يأبه أحد لمرضه أولاً لأنه كان قد أعاد على أسماع الناس عدة مرات أنه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل فى الكوفة. وأن النبى قد أظهره على هذه الرؤيا. ولكن مرض المهدى لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه.

وكان المهدى يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بأن آخرته قد قربت قال للذين حوله: «إن الخليفة عبدالله هو الخليفة الصادق، وقد عيَّنه النبى للخلافة بعدى. فهو منى وأنا منه. وكما أطعتمونى وأنفذتم أوامرى كذلك افعلوا معه.. الله يرحمنا».

ثم جمع ما فيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه.

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصار المهدى يمين الولاء للخليفة عبدالله. وكان أول من بايعه سيد المكى ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاة المهدى سرًا لا يذاع بين الجمهور ولكن أمر الجميع بألا يبكوا أو ينوحوا وطولبوا بمبايعة الخليفة. وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبري زوجات المهدي في غرفة وفاته قاعدة متلففة في إحدي الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكي تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها، وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب.



يعد الأمريكيون الآن أكثر شعوب العالم استهلاكًا وإدمانًا للقهوة، بل إن البنتاجون يخصص للجنود حصصًا يومية كبيرة من الكافيين المركز لزيادة درجة العدوانية لديهم



اول من قاموا بجلب (أو سرقة) شتلات نبات القهوة من «مخا» في اليمن عام ١٦١٦ وبدءوا في استزراعها في جزيرة جاوه Java بإندونيسيا التى كانوا يحتلونها. وسرعان ما ازدهرت تجارتهم وتوسعوا فى زراعة البن فى باقى الجزر الإندونيسية.

ويقص ستيوارت فى كتابه كيف أخذ الهولنديون يهادون الأرستقراطية الأوروبية بشجيرات القهوة، إلي أن تسببت واقعة شهيرة في فقدانهم هذا الاحتكار الأوروبى. ففى عام ١٧١٤ تلقي لويس الرابع عشر شجيرة قهوة هدية فوضعها في الحديقة البوتانية الملكية بباريس. وبعد سنوات قليلة أتي إلي باريس ضابط فرنسي في أجازة من عمله فى مستعمرة فرنسية في منطقة الكاريبي بأمريكا الوسطى اسمها جزر المارتنيك. هذا الضابط الذى يدعى جابرييل دو كليو كان يحلم بمزارع قهوة فرنسية فى المارتنيك على شاكلة مزارع الهولنديين في جاوه، فتقدم بطلب إلي الملك لأخذ فرع من الشتلة الموضوعة بالحديقة الملكية ولكنه قوبل بالرفض. فما كان من كليو إلا أن تسلل إلي الحديقة ليلاً وقام بسرقة النبتة ثم فر هارباً. ثم قام بعبور الأطلنطى عائداً إلي المارتنيك فى رحلة بحرية عنيفة كادت أن تقضي على حياته، وهناك نمت النبتة الصغيرة إلي شجرة قوية وأثمرت عنها ١٨ مليون شجرة في خلال خمسين سنة.

ومن هنا بدات العلاقة بين القهوة والعبودية، حيث تلازما منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا كما يقول ستيوارت. فقد تجسدت العلاقة المريرة عندما وصل الأفارقة إلى أمريكا الجنوبية (أو العالم الجديد) ليجدوا أنفسهم مستعبدين لزراعة نبات سرق من موطنه الأصلى تماماً كما سرقوا هم أنفسهم. حيث احتاجت مزارع القهوة الشاسعة هناك إلى طلب متزايد من عبيد الأرض، وفي غضون عشر سنوات من جلب دو كليو للشجرة الأولى كانت الحكومة الفرنسية تستورد ٣٠ ألف عبد سنوياً، نصفهم يتعرض للموت أثناء عملية الاختطاف والنقل. واستمرت فرنسا وغيرها من القوى الأوروبية فى حكم هذه البلاد حتى عام ١٧٩١، عندما نجح عبيد هاييتى فى خلع الطغاة المحتلين وأصبحت أول أمة سوداء تحصل على حريتها فى نصف الكرة الغربى.



وقد وصل إلي البرازيل أكبر عدد من العبيد إذ وصل إليها خلال ٢٠٠ عام أكثر من ٣ ملايين أفريقى لكى يعملوا فى ممالك البن الخاصة، وتم جلب ٥ ملايين آخرين من أجل العمل فى زراعة السكر، بينما لم يصل إلى أمريكا الشمالية سوى نصف مليون أفريقي. وقد وجد ستيوارت وهو فى البرازيل أن هذا النموذج الاجتماعي ما زال يشكل أساساً للمجتمع البرازيلى الحديث، حيث يمتلك ١٠٪ من سكانه نحو ٥٥٪ من الثروة. ومن بين المشردين والأميين فى البرازيل، يمثل الذين ينحدرون مباشرة من أصول العبيد نسبة تفوق المنحدرين من أى أصل آخر بنحو عشرة أمثال.

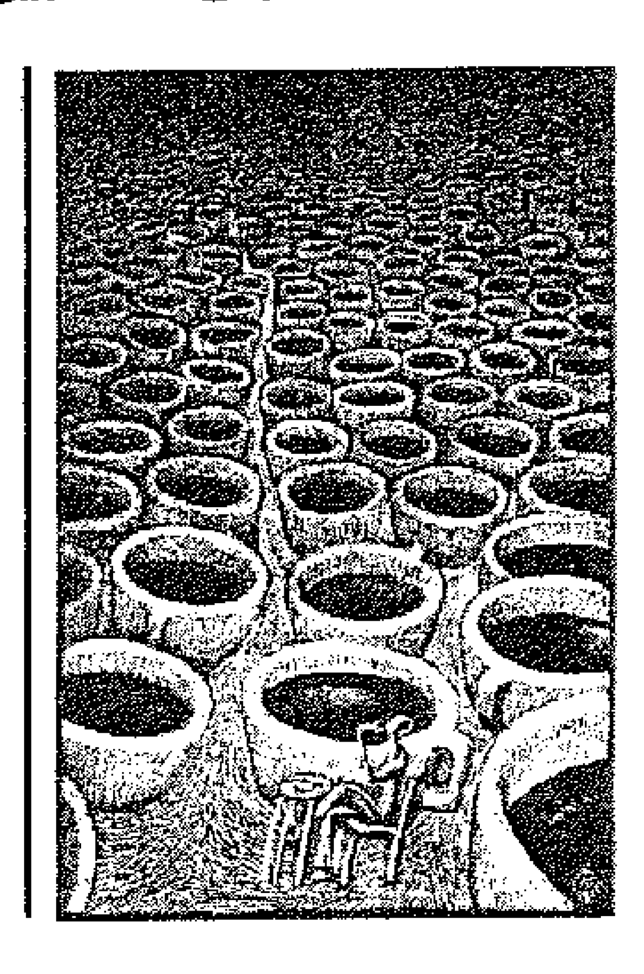
واليوم تستمر العبودية فى بعض المناطق فيما يشبه ميلاد جديد للعبودية البرازيلية كما يؤكد ستيوارت. فالفلاحون يتم إغراؤهم بالعمل مقابل أجور مرتفعة ثم سرعان ما يجدون أنفسهم يسكنون في أشباه سجون، مجبرين علي العمل بأجور زهيدة تضمن مديونيتهم إلي الأبد. ومن يحاول منهم الهرب يتم ضربه حتي الموت. لقد قفزت العبودية الجديدة في البرازيل من ٦٠٠ حالة عام ١٩٨٩ إلي ٢٥٠٠٠ حالة في عام ١٩٩٦.

اليوم تعد القهوة ثاني أثمن سلعة في العالم بعد البترول. وقد تسببت في إثراء القليلين، وإفقار الكثيرين. وفي كتاب «تاريخ القهوة وكيف بدلت عالمنا» يقوم مارك بندرجراست باستعراض الجوانب الاقتصادية في تاريخ صناعة القهوة في الولايات المتحدة، والآثار الاقتصادية والسياسية والبيئية التى لحقت ببلاد كثيرة في العالم كله نتيجة لهذه التجارة. فمنذ بداية عهد السيطرة الأوروبية على تجارة القهوة، ارتبطت المصائر الاقتصادية والسياسية للشعوب الاستوائية بأسواق بعيدة عن بلادها تتسم بالتقلب والتذبذب الشديد. وبالتالي لم تعرف بلاد مثل البرازيل وكولومبيا وكوستاريكا الاستقرار السياسى والاقتصادي بسبب ما يمكن أن يطرأ على محصول البن بفعل الأحوال المناخية أو الاحتكارية على السواء.



يبين بندر جراست فى كتابه كيف أن شعوب هذه الدول تعيش فى ظل حكومات أوليجاركية (حكم الأقلية المحتكرة) تستغل الفلاحين، ولكنها مدعومة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية التى تساند تلك الحكومات خوفاً من أى تمرد ذى طابع يسارى، وحرصاً على ضمان رخص أسعار البن. وهو يقول إن العاملين فى حقول القهوة أكثرهم يعيش فى فقر مدقع بدون كهرباء أو مياه نظيفة أو رعاية صحية أو حتى طعام مغذٍ. وهم يحصلون على أجر يومي يعادل ثلاثة دولارات، بينما على الطرف الآخر يدفع المستهلك فى المدينة بعد عمليات الشحن والتصنيع ما يعادل نصف هذه القيمة على الأقل مقابل فنجان واحد من القهوة.

وتعد الأضرار البيئية التى تصيب العالم بسبب أساليب زراعة البن من أهم الآثار الكونية لهذه السلعة. فالزراعة في بلد مثل البرازيل تعني حرق الغابات في سبيل زرع المحاصيل النقدية مثل البن، خاصة مع التحول الذى تم في السبعينيات من زراعة الظل التى تتعايش



مع أشجار أخرى إلى الزراعة الشمسية التى تتطلب حرق الغابات. ومن هنا تتصحر الأراضى الخضراء شيئاً فشيئاً ويكثر الاعتماد على الأسمدة والمبيدات الحشرية بسبب نقص التنوع البيولوجى الطبيعى، وتهاجر الطيور التى كانت تسكن الأشجار المحروقة ثم ينتهى الأمر باندثار الكثير من أنواعها.

وخلال تتبعه لأشهر العلامات التجارية والشركات الأمريكية التى تنافست على السوق الأمريكية والعالمية فى مجال القهوة، يرصد بندرجراست تطور دور حملات الدعاية والإعلان واستراتيجيات التسويق المختلفة. كما توقف عند المنعطفات المهمة فى التاريخ التسويقى للقهوة مثل اختراع القهوة الفورية، وعصر الإنتاج الكبير الذى ضحى بالجودة والنكهة فى مقابل تخفيض الأسعار والانتشار. ومن ضمن الحقائق المثيرة التى يكشف عنها كتابه قضية توظيف الطب والعلم من أجل الترويج والمنافسة، فقد دفعت إحدى شركات المياه الغازية الأموال لأحد المعامل الطبية الشهيرة لكى تنشر تقارير عن أضرار القهوة، وبالعكس تقف الاتحادات التجارية والصناعية للشركات العاملة فى القهوة وراء الأبحاث التى تدعم فوائد القهوة الصحية.

ستارباكس: ماكدونالدز القهوة الصهيونى

ستارباكس، سلسلة مقاه أمريكية شهيرة نمت وتعولمت فى سنوات قليلة حتى أصبحت رمزاً يعادل مطاعم ماكدونالدز فى تجسيد العولمة والغزو الثقافى الأمريكى للعالم. الآن لا يمر أسبوع دون أن يتم افتتاح فرع جديد لستارباكس فى مكان ما فى العالم، وفى آخر تعداد وصل المجموع إلى ٥٤٠٥ فروع فى العالم يقع معظمها فى الولايات المتحدة. ويعتبر ستارباكس مقهى ومتجرًا أيضاً، فهو يقدم القهوة ويبيع أخلاطًا متنوعة من البن، وصاحب براءة اختراع «الفرابوتشينو»، وهى قهوة بالكريمة المثلجة تباع فى زجاجات مغلقة. كما أن لستارباكس بطاقة خاصة، وموقعًا على شبكة الإنترنت لمن يرغب فى شراء البن عبر الشبكة.

ويثار فى أوروبا جدل عنيف بشأن تلك السلسلة التى بدأت تتوسع فى أرجاء القارة، وبلغ الصدام قمته فى نهاية العام الماضى عندما افتتح أول فرع لستارباكس فى فيينا. فتلك المدينة العريقة التى أرست التقاليد الأوروبية فى شرب القهوة وفى شكل المقهى الكلاسيكى أصابها الذعر عندما جاءتها محلات ستارباكس لتبيع القهوة تيك اواى (take away أو to go وهو المصطلح الأحدث) فى أكواب من البلاستيك، وتمنع رواد المقهى من التدخين بالداخل، وتطلب منهم أن يخدموا أنفسهم help yourself، ثم تضيف إلى القهوة نكهات غريبة. وفى تحقيق نشرته صحيفة الهيرالد تريبيون فى شهر أبريل الماضى عبّر المواطنون النمساويون عن قلقهم على ثقافتهم وأسلوبهم فى الحياة، فقد اعتادوا على الذهاب إلى المقهى أكثر من مرة فى اليوم لمقابلة الأصدقاء أو للعمل، ويأتى لهم نادل فى سترة سوداء غالباً ليقدم القهوة فى فناجين من الصينى، ثم يمضى الوقت فى شرب القهوة والتدخين أثناء الحديث أو القراءة.

أما فى العالم العربى حيث تقع محلات ستارباكس فى كل من السعودية والكويت والبحرين وعمان وقطر والإمارات ولبنان، تثور حركة مقاومة من نوع آخر. ليست مقاومة للغزو الثقافى الأمريكى أو العولمة المتمثلة فى سلسلة المقاهى الشهيرة، وإنما حملة لمقاطعة ستارباكس بسبب الميول الصهيونية والإسرائيلية لرئيس مجلس إدارتها «هوارد شولتز». وقد كتب روبرت فيسك من بيروت فى شهر يونيو الماضى إبان مظاهرة مجموعة من الشباب أمام فروع ستاربكس الأربعة فى العاصمة اللبنانية، يوضح كيف انتقد شولتز الفلسطينيين فى خطابه إلى الأمريكيين اليهود فى مدينة سياتل حيث دافع عن احتلال شارون لمدن الضفة وقال إن الفلسطينيين لا يقومون بواجبهم فى وقف الإرهاب. وقد أكد فيسك أن شولتز يستقبل باستمرار فى إسرائيل بوصفه من «أصدقاء صهيون»الذين يلعبون أدواراً مهمة فى تقوية التحالف الأمريكى الإسرائيلى، كما حصل عام ١٩٩٨ على جائزة تقديرية بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على قيام دولة إسرائيل قدمها له صندوق «ايش ها توراه»للقدس، وهى مؤسسة معادية للرئيس عرفات وتصر على تسمية الأراضى المحتلة فى فلسطين بالأراضى «المتنازع عليها».



إن الناظر إلى تاريخ القهوة بهذه الطريقة، يرى فيها تجسيداً للدراما العربية الإسلامية عبر خمسة قرون، تحول فيها العرب والمسلمون من دور البطولة إلى دور الضحية أو على الأقل دور المتفرج. فقد تحولوا من الأمة التى ابتكرت شراباً اتخذه العالم من بعدها، تزرعه وتصدر أجود أنواعه، وتتاجر فيه وتسيطر بحضارتها وثقافتها على البلاد شرقها وغربها، إلى الأمة التى تدفع العملة الصعبة لكى تستهلك النسكافيه والبن المزروع فى آسيا وأمريكا اللاتينية عبر وسطاء غربيين، بل إن بن «أرابيكا»الفاخر الذى يطلق عليه اسم العرب يستورده العرب، الآن من بلاد غير عربية!

.. ليتهم فكروا فى عقد اتفاقية دولية لحماية الملكية الفكرية فى القرن الخامس عشر.■

كتاب الزاوية

تجارة الرقيق فى السودان

لئن أصيبت التجارة بكساد عظيم فى السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدى والخليفة عبدالله، وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد إلى مصر لبيعهم أصبح أمرًا محظورًا ومعاقبًا عليه، فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسع تلك التجارة فى جميع المديريات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه.

فى كثير من الأحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات من أولئك التعساء من الرقيق حدًا يفضلون معه إلقاء أجسامهم فى ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية وبطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه، فكانوا يموتون هناك، وبما أنه لم يوجد من يعنى بإخراج جثثهم فإن النتيجة المنطقية هى اكتساح الجثث بقوة التيار إلى الشاطئ. فإذا ما ظهرت جثة ألقيت خارج الشاطئ مما يدعو إلى نشر رائحة كريهة فى الجهات المجاورة.

هذا فيما يختص بالقريبين من شاطئ النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الأكبر فكانوا يدفعون فى الصحراء. حيث لا ماء ولا زرع. على طول الطريق بين دارفور وأم درمان، وقد كان أولئك البائسون تحت إمرة رجال غلاظ القلوب. وكان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الأولاد أو الرجال أو النساء عن السير إلى أم درمان. بمناسبة ما نزل بهم من الكلال. ليقدموا الآذان المقطوعة للخليفة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق. وقد أخبرنى أحد أصدقائى أنه شاهد فى مرة من المرات إحدى النساء مقطوعة الأذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد. فدب دبيب الشفقة فى قلبه فأحضرها إلى القاشر، وبعد أيام مَنَّ الله عليها بالشفاء فى حين أن أذنيها قدمتا للخليفة دليلاً على موتها.

العلم والدين...

إن طه عندما عدَّد أوجه النزاع بين العلم والدين على تفسير بعض الظواهر الطبيعية لم يكن محايدا بين الطرفين كما يبدو؛ بل كان يؤمن ضمنًا بأن النزاع ينبغي أن يفض لصالح العلم، وبأن للعلم وحده حق القول الفصل في مسائل الجيولوجيا والكوزمولوجيا وعلم الأجنة

■■ شهدت الثلاثينيات من القرن الماضي ظهور حركة أدبية بارزة في الثقافة المصرية، وهي تحول عدد من أعلام الأدب إلى تناول الموضوعات الدينية. ومن ثم كانت العبقريات (للعقاد) وعلى هامش السيرة (لطه حسين) وحياة محمد (لهيكل) ومحمد (لتوفيق الحكيم). وقد استوقفت الظاهرة أنظار الباحثين في الشرق والغرب ووصفت بالأزمة، لأن ممثليها ـ مناصري الحداثة والانفتاح على الثقافة الغربية الليبرالية ـ قد تحولوا فيما قيل إلى موقف محافظ يتجه إلى الماضي. وتعددت الآراء في تفسير هذه «الأزمة»، ولكنها تندرج بصفة عامة في إطار التفسير السياسي الاجتماعي. ولا شك أن لهذا النوع من التفسير مشروعيته وجدواه، ولكن يعيبه التسرع في التعميم والاقتناع بما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى. ومثال ذلك أن أحدًا من الأدباء الذين ذكرناهم لم يتنازل قط عن الإيمان بالليبرالية وضرورة الانفتاح على الثقافة الغربية.

ثم يعيب هذه التفسيرات أنها تغفل بطبيعتها ما وراء التحول إلى الموضوعات الدينية من تجارب الأفراد الفكرية والروحية. وتستدعي معالجة هذه التجارب دراسة متعمقة لكل حالة على حدة مع وضعها في فضائها الإسلامي الفسيح؛ وذلك أن موقف كل كاتب عن الإسلام ينطوي بالضرورة على تواصل مع تراث الفكر الإسلامي. وأنا أود في المقالة التالية أن أتناول حالة طه حسين فادرس تحوله إلى الموضوعات الدينية بوصفه جزءا من تجربة فكرية وروحية لها سياق واسع في حياته وصلات وثيقة مع علم الكلام والفلسفة الإسلاميين.

وقد كان طه حسين من بين الكتاب الذين تناولوا ظاهرة التحول إلى الكتابات الدينية ورأى أنها كانت أمرا طبيعيا تماما. فلم يكن بين أنصار الحداثة وبين الإسلام فيما قال قطيعة أصلا؛ وكل ما هنالك أنهم بعد أن تمكنوا في مرحلة أولى من الانتصار على التيار التقليدي السلفي وعلى العقائدية الجامدة وحصلوا على حقهم في التعبير عن آرائهم بحرية توقفوا قليلا ثم أخذوا يعيدون النظر في التاريخ القديم للإسلام(١).



غير أن هذا الوصف لا يمس من الظاهرة إلا سطحها الظاهر فضلا عن أنه يوحي بأن الانتقال من حال إلى حال مر بهدوء وسلام، كأن لم يكن في الأمر قلاقل فكرية وأزمات. والواقع أن دراسة حالة طه حسين بصفة خاصة من شأنها أن تبدد هذا الانطباع. فهو من بين الكتاب المعنيين صاحب الانقلابات الكبرى وفارسها الأول.

وقد سبق لي أن أعربت عن رأي من هذا المنطلق، فذهبت إلى أن فترة الثلاثينيات شهدت تحولا جذريا في موقف طه حسين من الدين. وكان أن لقي هذا الرأي استنكارا شديدا من بعض النقاد(٢) الذين يفضلون أن يروا طه ثابتا على مواقفه المبكرة، وذهب أحدهم إلى أنني أسأت قراءة على هامش السيرة. وهو نقد يسعدني بقدر ما يتيح لي الفرصة لكي أستوفي بحث الموضوع وأقرأ مرة أخرى بعض أجزاء هذا الكتاب الجميل الذي لم يحظ حتى الآن بالاهتمام اللائق، وقنع النقاد منه بالقشور، ولم يستطع أي منهم سبر أغواره الروحية والفلسفية.

لقد شغل موضوع العلم والدين طه حسين منذ الفترة المبكرة من حياته الأدبية (كتاباته الأولى التي سبقت «ذكرى أبي العلاء» (١٩١٥) حتى كتاب «مرآة الإسلام» (١٩٥٩). وخلال هذا التاريخ الطويل عالج طه الموضوع بأساليب مختلفة فيما بين البحث المنهجي والمقالة والقصة والكتابة التاريخية. وإذا استطعنا أن نتبين متى وكيف ظهرت المشكلة في حياته الأدبية أدركنا أنها نشأت في إطار تجربة فكرية صادقة وبدأنا نفهم طول اهتمامه بها.

وينبغي إذن أن نأخذ أقوال طه بكثير من الجد، وأن نرفض منذ البداية أي رأي يرمي إلى تفسير آرائه بوصفها استجابة لضغوط سياسية أو نوعا من المناورة أو التمويه اتقاء للخطر أو من «السفسطة». فقد كان يعي بوضوح أنه يتناول موضوعا شائكا من شأنه أن يعرّضه للخطر، وكان يعمد أحيانا إلى المناورة والتمويه. وهو ما سنبينه في مواضعه. ولكن هذا الجانب من تفكير طه حسين ينبغي أن يشغل حيزا محدودا من الاهتمام حتى يتيسر الانصراف إلى ما هو أهم وأخطر، وهو أنه كان يعالج مشكلة تعنيه حقا ويقدم لها حلولا ترضيه شخصيا قبل أن ترضي أو تخدع غيره. وينبغي ألا يصرفنا شيء عن دراسة طريقته في إدارة الأزمة من وراء الأقنعة إذا كان حديثه مقنعا ولا عن ذلك الحديث الجاد الذي أداره مع نفسه قرابة نصف قرن بغية تحقيق التوازن والرضى في حياته.

الإصلاح والتوفيق:

بدأ انشغال طه حسين بالمسائل الدينية على نحو يتعارض مع آراء الجمهور ـ أو رأي «السواد» كما يقول ـ عندما كان صبيا في السنوات الأولى من دراسته في الأزهر. ففي تلك السنوات تأثر بأفكار الشيخ محمد عبده في الإصلاح الإسلامي وأصبح من «أتباعه» حتى قبل أن يستمع إلى أي من دروسه. فنحن نقرأ في الفصل ١٦ من الجزء الثاني من الأيام أن الصبي كان يحلو له في فترة العطلة الدراسية أن ينتقد معتقدات ذويه وأهل قريته. ومن ذلك مثلا أنه كان يرى أنه لا ينبغي التوسل بالأنبياء والأولياء وأنه لا ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة؛ فذلك ضرب من الوثنية. وقد جرّت عليه آراء أخرى مشابهة كثيرا من المتاعب في الأزهر حتى لقد اتهم بالمروق.



ولكن لعل وعي طه بأن ثمة مشكلة بين العلم والدين لم يتضح إلا عندما اطلع واستوعب ـ في تاريخ لا نعرفه بدقة ـ آراء محمد عبده في التوفيق بين الإسلام من ناحية وبين المدنية والعقل والعلم الحديث من الناحية الأخرى. ولعله قد تابع الشيخ في آرائه التوفيقية كما تابعه في مذهبه الإصلاحي، ورأى أن الإسلام في صفائه ـ أي إذا فهمت نصوصه الأساسية وفسرت بمعزل عن الأوشاب والخرافات التي لحقت بها في العصور المتأخرة ـ يتفق مع العقل والعلم.

ويمكننا أن نستخلص إذن أن طه حسين أنفق جزءا من فترة الدراسة في الأزهر دون أن يدرك أن ثمة مشكلة أصلا بين العلم والدين. صحيح أن بعض آرائه في تلك الفترة كانت تتميز بالجسارة وتخرج عن التقاليد، ولكنها لم تخرج عن مبادئ الإصلاح كما وضعها محمد عبده. وإذا صح أن طه لم يدرك أن ثمة مشكلة إلا من خلال توفيقية محمد عبده، فإن هذا يعني أنه أدرك في نفس الوقت أن المشكلة سهلة الحل لأنه ليس بين العلم والدين خلافات أساسية. ويبدو أن هذا الوئام قد استمر طيلة فترة الدراسة في الأزهر وجزءًا من فترة الدراسة في الجامعة المصرية.

منشأ الأزمة:

نشأت المشكلة في سياق بحث أجراه طه في كتاباته المبكرة عن المبادئ والقواعد المنهجية اللازمة لدراسة تاريخ الأدب العربي دراسة علمية حديثة. وقد انتهى به البحث في رسالة الدكتوراه التي أعدها عن أبي العلاء إلى شكل صارم من أشكال الوضعية أسماه «الجبر في التاريخ». فدراسة تاريخ الأدب العربي دراسة علمية تقتضي فيما رأى ألا تعزى الأعمال الأدبية إلى مؤلفيها، بل ينبغي تعليلها بالرجوع إلى أسباب عميقة في نفس كل مؤلف، ومن ثم إلى عوامل خارجية تتصل بحياة المجتمع المعنوية وبيئته المادية، ومن ثم إلى نظام كوني شامل موصول الحلقات وخاضع للضرورة المطلقة.

أما أن ذلك الموقف يعد شكلا من الوضعية فهو واضح إذا تذكرنا أن الوضعية هي المذهب الذي يدعو إلى توسيع نطاق المنهج التجريبي المتبع في العلوم الطبيعية بحيث يشمل العلوم الإنسانية. ويتميز هذا المنهج وفقا للوضعية بأنه ينصب على الحوادث ويبحث عن أسبابها كما تتعاقب في حيز المشاهدة أو الخبرة الحسية بدلا من الرجوع إلى علل لاهوتية (غيبية) أو ميتافيزيقية (على شكل ماهيات أو طبائع مزعومة كامنة في الأشياء).

ومن الممكن توضيح جبرية طه حسين في تلك الفترة بما قاله صديقه الدكتور «محمد حسين هيكل» في شرح مذهب هيبوليت تين صاحب المذهب الوضعي في تاريخ الأدب والذي تأثر به طه حسين فيما يتعلق بالجبر في التاريخ. يعرّف هيكل هذا المذهب فيقول إن الفنون بعض ثمرات الإنسان، والإنسان ثمرة وسطه، والوسط الذي يعيش فيه الإنسان خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له ولا سلطان له عليها («هيبوليت أدولف تين»، تراجم مصرية وغربية).

ومن المستحسن أن نطلق على هذا المذهب صفة «الحتمية» بدلا من «الجبرية» التي يستخدمها طه متأثرا في ذلك بعلم الكلام. فالجبرية في علم الكلام تنكر حرية الإنسان في الاختيار لأنها تعزو كل أعماله إلى قوة عليا هي الله بينما تقتضي الحتمية الوضعية تفسير جميع الحوادث بالرجوع إلى أسباب طبيعية في نطاق نظام مكتفٍ بذاته مغلق دون العلل الغيبية.

وبذلك يصبح من السهل أن نرى كيف أدى اعتناق الوضعية بالمعنى السالف إلى نهاية الوئام بين العلم والدين. وذلك أن الحتمية تستبعد بالضرورة إمكان التدخل الغيبي في المجرى العادي للأحداث. وقد ظهرت بوادر النزاع في إحدى المقالات المبكرة التي ألفها طه حسين وتعرّض فيها لتفسير بعض أحداث التاريخ الإسلامي عن طريق المعجزة. فقال: «لا تحدثني بالمعجزات وخوارق العادات، فتلك أمور لا يعرفها المنطق ولا التاريخ. وإنما هي خليقة أن توضع موضعها من علوم الدين»(٣). فماذا تعني هذه العبارة؟ لاحظ أن نصها يدل على استبعاد المعجزات من علم التاريخ أو دراسته ولا يستبعدها من حيز الأحداث التي قد تقع في التاريخ. ومعنى ذلك أن هذا القول في حد ذاته لا يدل بالضرورة على إنكار المعجزات أو احتمال حدوثها. فابن رشد على سبيل المثال كان يرى رأيا مشابها وإن كان يسلم بالمعجزات التي ورد ذكرها في القرآن. فالمعجزات في نظره مبدأ من مبادئ الشرائع ولا يجوز للفلاسفة أن يتعرضوا لها بنفي ولا إبطال، بل يجب عليهم وعلى كل إنسان أن يسلم بها ويقلد فيها، على أن يئول البحث فيها إلى «الصناعة الشرعية» (تهافت التهافت، تحرير محمد عابد الجابري، بيروت، ١٩٩٨، ص ٥١٠).



ومعنى ذلك أن ابن رشد ـ وهو الذي كان يؤمن بترابط الأشياء ترابطا ضروريا بحكم طبائعها ـ كان يفسح مجالا لاستثناء الخوارق المنصوص عليها شرعا. وكان ابن خلدون بدوره يسلم بأن للضرورة الطبيعية استثناءات خارقة لها. ولقد كان هذا الحل ماثلا أمام طه حسين. فهل كان ذلك هو الرأي الذي ارتآه عندما أحال المعجزات إلى علوم الدين؟

إذا افترضنا جدلا أنه أخذ بهذا الرأي، فإن من المؤكد أنه لم يثبت عليه طويلا. وذلك أنه سرعان ما أوصد الباب دون فكرة الخوارق الاستثنائية عندما استبعد الدين نفسه من مجال الطبيعة. وقد بدأ هذا الاستبعاد في حاشية ترد في ذكرى أبي العلاء وألحق فيها الدين بما أسماه «العاطفة والوجدان» (تجديد ذكرى أبي العلاء، في المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد العاشر، بيروت، ١٩٧٤، الحاشية ١، ص ٨٧). وكانت تلك

فى أدب طـــــه حســين

عبدالرشيد الصادق محمودى



الخطوة التى اتخذت على استحياء بداية للفصل بين مجالين: مجال للعلم (هو أمور الواقع أو الطبيعة) ومجال للدين هو العاطفة والوجدان. وباستبعاد الدين من مجال الواقع تلقى المعجزات بدورها نفس المصير. وذلك أن الفصل يفترض ضمنا أن ثمة نزاعا بين العلم والدين فى ظل الحتمية وأن حل النزاع غير ممكن إلا بانسحاب الدين وملحقاته من مجال الطبيعة والتسليم للعلم بسلطة مطلقة فيه.

كما يعد هذا الفصل خروجا ضمنيا على توفيقية الأستاذ الإمام. وذلك أن التوفيق يفترض أن العلم والدين يتعلقان بنفس المجال (تقرير حقائق الواقع)، وأنهما منسجمان أساسا فى نطاق هذا المجال، وإن كان لكل منهما لغته الخاصة فى التعبير؛ ومن ثم كانت الحاجة إلى التأويل أو تفسير النصوص لإثبات الانسجام الأساسى.

وقد أقام طه الفصل فى هذه المرحلة دون أن يعلن ما يفترضه وما يترتب عليه من نتائج. لكننا سنرى فى المراحل التالية ظهور ما كان كامنا.

كيف يمكن الجمع بين طرفين متناقضين؟

لم يواجه طه مشكلة العلم والدين كموضوع قائم بذاته إلا فى العشرينيات من القرن الماضى عندما خصص لها عدة مقالات كانت أولاها «فى السفينة» (١٩٢٣). وقد جمعت هذه المقالات فى كتاب «من بعيد» (١٩٣٥).

وأول ما يلفت النظر فى هذه المقالات أن مؤلفها يستأنف الحديث فيها عن أمور تركها كامنة فى كتاباته الفترة المبكرة أو مسها مسا خفيفا عابرا. فهو هنا يواجه بمزيد من الصراحة موضوع الفصل بين العلم والدين بما فى ذلك فكرة «العاطفة» التى ربط الدين بها، وأوجه النزاع بين الطرفين. وصحيح أن البحث المفصل لا ينتهى دائما إلى نتائج حاسمة ولا يخلو من التباس، ولكنه ينم بصفة عامة عن ميل طه إلى مناصرة جانب العلم من الخصومة.

وهو يتوسع إذن فى الحديث عن الفصل الذى أقامه ضمنا بين الطرفين. فهناك الآن ملكتان أوشخصيتان إحداهما خاصة بالعلم وثانيتهما خاصة بالدين: أولاهما تنقد وتحلل والأخرى «شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب فى غير نقد ولا بحث ولا تحليل.» والشخصية الخاصة بالدين شخصية «ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل العليا»، «العلم والدين».

كما أنه يشرح الآن بإسهاب ما كان يفترضه ضمنا عن النزاع بين العلم والدين. وهو يقدم إذن بيانا مفصلا للعوامل التى تؤدى إلى إثارة النزاع بينهما. فهناك فى واقع الأمر أوجه خلاف أساسية بين العلم

والدين. أولا، أن الدين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء ويأخذ الناس بالإيمان بهما فى حين أن العلم لم يستطع إلى الآن أن يثبتهما أو أن ينصرف عنهما انصرافا تاما. ثانيا، أن هناك تناقضا لاسبيل إلى فضه بين نتائج العلم ونصوص الدين فيما يتعلق بمسائل تتعلق بنشأة الكون والجيولوجيا ونشأة الإنسان وتكون الجنين. وثالثا، أن العلم يطمع إلى إخضاع الدين لبحثه ونقده وتحليله شأنه فى ذلك شأن اللغة والفقه واللباس، فكلها فى نظر العلم ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها.



وبناء على ذلك يقرر طه أن العلم والدين لابد منفصلان؛ ويؤكد أن النزاع بين الطرفين قائم لا محالة؛ ويرفض من ثم كل محاولات التوفيق بداية من ابن رشد والغزالى إلى محمد عبده وتلاميذه، بما فيهم صديقه هيكل.

وكل ذلك مفهوم لأنه ليس إلا تصريحا بما كان مضمرا. ولكن الأمر الجديد والغريب هو أن طه يرى مع ذلك أن من الممكن بل ومن الضرورى الجمع بين الطرفين المتناقضين. فهو يتمنى أن يتاح للإنسان أن يكون مؤمنا وعالما فى نفس الوقت وأن يجمع بين هاتين القوتين وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئنانا بريئا من التناقض والاضطراب «فى السفينة». بل إنه يجزم أن عددا من كبار العلماء، ومنهم باستور، استطاع أن يحقق هذا الجمع فى «حياته النفسية»، «العلم والدين».

فكيف نفسر هذا الموقف؟ الواقع أن هذا الجانب من تفكير طه ينطوى على التباس. ومرد الالتباس أن طه بحكم التزاماته الوضعية قد أزال التناقض بين الجانبين وتمكن من الجمع بينهما وإن كان يصر على ضرورة الاستمرار فى البحث عن صيغة لهذه المصالحة. فهو بناء على هذه الإلتزامات مضطر إلى رفض محاولات التوفيق لأنها ترمى إلى فض النزاع بين العلم والدين مع إبقائهما فى نفس المجال الواحد، مجال تقرير أمور الواقع. وهذا أمر غير ممكن لأن أوجه الخلاف عندئذ أساسية ولاسبيل إلى فضها. وهو بناء على نفس الالتزامات مضطر إلى فض النزاع بطريقة أخرى، وهى الفصل بين الطرفين بحيث يستقل العلم بأمور الواقع بينما يقتصر جانب الإيمان على إشباع احتياجات الإنسان النفسية ومطامحه الأخلاقية. فإذا تم الفصل بين الطرفين على هذا النحو زالت الخلافات وأمكن الجمع بينهما دون تناقض. وبعبارة أخرى يتحقق الجمع بين الطرفين عندما يزول التناقض بينهما بانفصالهما كل فى مجاله.

وإذا صح هذا التفسير فإن طه يكون قد حل المشكلة خفية على نحو يرضى الوضعية. وهناك من الشواهد ما يشير إلى أنه كان يتحرك فى ذلك الاتجاه. يبدو هذا فى محاولات بذلها فى مناسبات مختلفة بهدف تجريد الدين من حقه فى تقرير أمور الواقع وجعل هذا المجال وقفا على العلم. ومن ذلك مثلا أنه يقرر فى كتاب فى الشعر الجاهلى أن ورود اسمى إبراهيم وإسماعيل فى التوراة والقرآن لايكفى لإثبات وجودهما التاريخى. وهو يرى أن القصة التى تروى هجرة إسماعيل إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ليست إلا «حيلة» أو «أسطورة» تهدف إلى إيجاد صلة مادية بين العرب وأهل الكتاب (فى الشعر الجاهلى، ص ٢٦ ـ٢٧). ومعنى ذلك أن طه عندما عدد أوجه النزاع بين العلم والدين على تفسير بعض الظواهر الطبيعية لم يكن محايدا بين الطرفين كما يبدو؛ بل كان يؤمن ضمنا بأن النزاع ينبغى أن يفض لصالح العلم، وبأن للعلم وحده حق القول الفصل فى مسائل الجيولوجيا والكوزمولوجيا وعلم الأجنة.





طه حسين أنفق جزءا من فترة الدراسة فى الأزهر دون أن يدرك أن ثمة مشكلة أصلا بين العلم والدين. صحيح أن بعض آرائه فى تلك الفترة كانت تتميز بالجسارة وتخرج عن التقاليد ولكنها لم تخرج عن مبادئ الإصلاح كما وضعها محمد عبده



ولكن لماذا لم يحسم طه الأمر صراحة إذا كان قد حسمه منطقيا؟ ولماذا حاول أن يعطى الانطباع بأن الجمع بين العلم والدين ما زال هدفا منشودا؟ هناك احتمالان. أولهما أن طه حسين يمارس التمويه لصرف الأنظار عن الصيغة الوضعية للتسوية بما تعنيه من تسليم بهيمنة العلم على أمور الواقع وتنازل الدين عن حقوقه. وهو احتمال لا يمكن استبعاده. ولكن هناك احتمالا آخر لا يمكن استبعاده بدوره ولا يتنافى مع الاحتمال الأول، وهو أن طه حسين لم يكن راضيا تماما عن الحل الذى كان مساقا إليه بحكم الوضعية. كانت تتجاذبه قوتان: قوة تدفعه إلى الاتساق مع منطق الوضعية وقوة أخرى تدفعه إلى تمنى الفكاك. ولعل طه حينما تمنى لو أمكن الجمع بين العلم والإيمان كان يرجو حقيقة أن يجد طريقة لعقد الصلح بينهما على نحو أفضل من الطريقة التى تمليها الضرورات المنطقية. وهو أمر غريب وينطوى على مفارقة، ولكن من قال إن هذا الميدان ـ ميدان الإيمان ـ يخلو من المفارقات؟.

ولعل أقوى شاهد على هذا التفسير هو أن البحث المفصل للقضية فى العشرينيات لم يغلق باب النقاش. وذلك أن طه يعود فى الثلاثينيات إلى استئناف البحث بعقل ـ أو لنقل بقلب ـ أكثر تفتحا لمطالب الإيمان. فهو لا يستأنف الحديث إلا ليواجه الوضعية بمنطق مضاد، هو منطق القلب. وسوف نرى أنه سيجد عندئذ وسيلة للفكاك.

قصة الفيلسوف الحائر:

فترة الثلاثينيات هى الفترة التى شهدت التحول إلى الموضوعات الدينية. وقد تمخض هذا التحول فى حالة طه عن كتاب على هامش السيرة؛ وهو كتاب ضخم يتألف من ثلاثة مجلدات نشرت فيما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٨. وقد صدّر طه الجزء الأول بمقدمة أعلن فيها بوضوح أنه لم يكتب كتابه للعلماء ولا للمؤرخين ولم يرد به إلى العلم ولا إلى التاريخ. وهو يقول فى مكان آخر إنه إنما أراد بكتابه أن يروى بعض «الأساطير» التى تتصل بالعلامات المبشرة بمقدم النبى (من الشاطئ الآخر، ص ٨٤). ومؤلف الكتاب يقرر أن الأخبار التى يتناولها لا يطمئن إليها العقل ولا يرضاها المنطق ولا تستقيم لها أساليب التفكير العلمى، ولكنه يلتمس فيها ما يلتمسه الناس من ترفيه عن النفس حينما تشق عليهم الحياة.

وإنه لمن المؤسف أن النقاد لم يعلق فى ذهنهم إلا تلك العبارات المضللة ووجدوا من المريح أن يلتزموا بالقيود التى فرضها طه حسين أو خيل إليهم أنه فرضها. ولقد كانوا فى ذلك مخطئين بقدر ما كان طه حسين مضللا.

صحيح أن مادة الكتاب تتألف من مجموعة من «الأساطير». ولسنا مطالبين إذن بأن نؤمن بأنها تروى أحداثا وقعت بالفعل لأشخاص حقيقيين كما عرفهم التاريخ، إذا كان قد عرفهم على الإطلاق. ومن حقنا أن نستمتع بتلك الأساطير إذا كانت ممتعة. ولكن الفلاسفة وعلى رأسهم أفلاطون يلجأون أحيانا إلى الأسطورة لبث آرائهم. ولحديث الفلاسفة جمال فنى فى بعض الأحيان. فهل ينبغى أن ننصرف عن هذه الآراء لنفنى فى المتعة الفنية الخالصة أو لنرفه عن أنفسنا دون تفكير؟

وأنا أود أن أصدم النقاد الذين اغتروا بالعبارات الافتتاحية لطه، فأخبرهم أنه عندما ألف الجزء الثانى من على هامش السيرة كان أقرب ما يكون إلى الفيلسوف. فقد استخدم أسطورة يناقش من خلالها مشكلة العلم والدين، وهى المشكلة التى ما زالت تشغله منذ كتاباته المبكرة. وقد اختار للقصة عنوانا صارخا هو «الفيلسوف الحائر». والفيلسوف الحائر هو الذى يشك بعقله ولكنه يصغى لقلبه ولحديث الإيمان. وهى بناء على ذلك قصة فى صميم الموضوع. وإذا شئنا أن نحدد بدقة النوع الأدبى الذى تنتمى إليه قلنا إنها قصة رمزية (allegory كما يقول الإنجليز). فهل يجوز لنا أن نتجاهل الآراء التى يريد المؤلف بثها من خلالها؟

وليس من قبيل المصادفة أنه يشير إلى محاورة فيدون لأفلاطون. وذلك أن طه يعالج القصة بلغة السرد تارة وبلغة الحوار تارة أخرى. وهو من هذه الناحية يحاكى ـ عن عمد ـ نموذجا فى التفلسف هو فن المحاورة، وهو نموذج عريق يرجع أصلا إلى الفيلسوف اليونانى العظيم. وإذا كانت محاورة فيدون عملا فلسفيا فى المقام الأول فعلينا عندما نقرأ كتاب طه حسين ألا ننسى أن هذا الكتاب الأدبى عمل فكرى أيضا.

تروى القصة رحلة فيلسوف حائر نحو الإيمان. وهو فيلسوف يونانى رواقى يهجر بلاده بحثا عن الإيمان فى بلاد العرب فيأسره بعض سكانها ويسترقونه ويسمونه «صبيحا» حتى ينقذه من الرق زيد بن عمرو الذى كان حنيفا. وينطلق الرجلان معا إلى مكة ولكنهما يقتلان فى الطريق.

والقصة مفعمة بالإشارات إلى التراث الرواقى. فحادثة استرقاق الفيلسوف تذكر بالفيلسوف الرواقى إبيكتيتوس، فقد كان لفترة عبدا. ومن ذلك أيضا استشهاد طه بسقراط ـ بطل الرواقيين الأكبر ونموذجهم الأعلى للحكمة ـ والتوقف عند أحاديثه عن خلود الروح وقصة مصرعه كما تروى فى فيدون؛ وتمجيد طه لحرية الضمير واكتفاء الرجل الفاضل بذاته والطمأنينة الداخلية التى ينعم بها مهما ساءت الظروف من حوله؛ والرأى الذى سيرد فيما يلى عن أن نفس الإنسان مفطورة على الإيمان. فكل تلك أفكار ومثل رواقية.



أما الحوار فهو يدور بين أربعة أشخاص يتهددهم اضطهاد قيصر الروم الذى يحارب الوثنية دينا وفلسفة ويحاول فرض دين المسيح على رعاياه بالقوة والقهر: حاكم المدينة أو رجل السياسة الذى يريد أن يتقى شر سيده فينفذ تعليماته أو يتظاهر بتنفيذها فى فرض الدين الجديد؛ وأندرونيكوس الذى ينزع نزعة أبيقورية فجة ويرى ضرورة التظاهر بطاعة قيصر طالما استطاع أن ينعم بامتيازاته ويمارس لذاته؛ وكلكراتيس الفيلسوف الرواقى الحائر الذى يرى بحكم رواقيته أن فى دين المسيح شيئا جديرا بتعاطفه وحقيقة ما تشده إليه، كما يتشوق إلى الدين الجديد الذى تبشر الأنباء بقرب ظهوره فى بلاد العرب، ولكن عقله لايستطيع أن «يسيغ» دين المسيح فضلا عن أنه لا يتقبل إصرار قيصر على التدخل بين الإنسان وضميره؛ وهناك أخيرا الراهب المسيحى كلينيكوس الذى يطالب بتقييد سلطة العقل ويدعو إلى الإيمان ويحمل الأنباء السارة والبشارات.

فمن من هذه الشخصيات يمثل طه حسين؟ وما هى وجهة النظر التى يخصها بالتأييد من بين وجهات النظر المتعارضة فى هذا الحوار؟ ذلك سؤال مشروع لأن موضوع القصة يمس المشكلة التى ما زالت تشغل طه حسين منذ كتاباته المبكرة. من السهل علينا أن نستبعد رجل السياسة وصاحب مذهب اللذة؛ فكلاهما بعيد كل البعد عن موقف طه. وبذلك تنحصر دائرة الاختيار بين الراهب الشيخ والفيلسوف الحائر أو الفيلسوف الفتى كما يسميه طه أحيانا. يقول الراهب الشيخ لصديقه الفتى: «...فإنى أرى يا بنىّ أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا

تنشأ عنه، وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج وحاجة النفس يا بنى إلى الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب، تألم إن فقدت الإيمان، وتستريح إن ظفرت به، ليس للعقل فى ذلك أثر. فكن أعقل الناس، وكن أحزمهم وأصرمهم وأمضاهم عزماً، فلن يغير ذلك من نفسك شيئاً إن كانت طبيعتها طبيعة النفس الإنسانية التى فطرت كما فطرت نفوس الناس على الإيمان.» (على هامش السيرة، المجموعة الكاملة، المجلد الثالث، ١٩٨١، ص ٢١٢). فمن من طرفى الحوار يمثل طه حسين أو ينطق باسمه؟



يرى الأستاذ بيير كاكيا أن الراهب الشيخ هو الناطق باسم طه حسين. وحجته فى ذلك أن ما يقوله الراهب من ضرورة الجمع بين العقل والإيمان لا يختلف فى شىء عن أقوال طه فى العشرينيات، فالأهمية المعلقة على الإيمان بوصفه إشباعاً لحاجة عاطفية لا تنال فى شىء من سلطة العقل المطلقة. وهو رأى يبدو مغرياً حتى نتبين أنه يعتمد على قراءة جزئية للقصة. وسوف أوضح بعد قليل أن للراهب أقوالاً أخرى تتجاوز آراء طه فى العشرينيات وتنطوى على عناصر جديدة. والأرجح عندى أن يكون الفيلسوف الرواقى الحائر هو ممثل طه حسين من بعض الجوانب. ومن الضرورى أن نراعى هذا التحفظ الأخير توخياً للحذر؛ فأقصى ما يمكن أن يقال هو أن كلكراتيس أقرب الشخصيات إلى حالة طه حسين وأفضلهم تمثيلاً لها.

وليس من باب المصادفة أن يكون كلكراتيس رواقياً، فالرواقية تؤمن بالقدر أو بحتمية النظام الطبيعى مع إيمانها بالعقل وحرية الإنسان الفاضل واكتفائه الذاتى وتطلعه إلى المثل الأخلاقى الأعلى. وكلكراتيس صاحب نفس مركبة مضطربة فيها عقل يشك ويحلل وينقد وفيها شعور يتعطش إلى طمأنينة الإيمان. أما الراهب الشيخ فهو صوت الدين وممثله وصاحب الإيمان المستقر والنفس المطمئنة، والداعى إلى إلجام العقل وكبح جماحه والإصغاء لصوت القلب. ومن المحال أن نعد الداعية المطمئن ناطقاً باسم طه حسين أو ممثلاً لشخصيته القلقة. ولا شك أن الفيلسوف الحائر أقرب إلى طه وأفضل تصويراً لحالته.

فما هى العناصر الجديدة التى تحملها القصة؟ أول هذه العناصر هو الشكل الدرامى. كان طه حسين فى العشرينيات يتمنى لو أمكن الجمع بين مقتضيات العقل الصارمة وبين حاجة القلب إلى الدين. بل كان يعتقد أن ذلك الجمع ممكن على صعيد الحياة النفسية وأنه تحقق فى بعض الحالات. ولكن تلك الطمأنينة الوضعية الناجمة عن تنازل الدين وانتصار العلم تزول فى قصة الفيلسوف الحائر وتحل محلها الأزمة المتفجرة. ومن ثم كان عنصر الدراما.

ومن شأن هذا الشكل الدرامى أن يفسح المجال لتضارب الآراء. وطه حسين يستغل هذا الشكل لكى يتيح للراهب الشيخ (صوت الإيمان) أن يعارض الفيلسوف الفتى (صاحب العقل المتشكك). غير أن العنصر الدرامى لا يقتصر على الحوار وتضارب الآراء، فهو يتجلى أيضاً فى الصراع الذى يمتد إلى نفس الفيلسوف المضطربة. يقول طه حسين عن الفيلسوف الحائر: «كانت نفسه تحدثه بأن وراء هذه المعجزات التى تمتلئ بها التوراة والإنجيل وقلوب الناس وأحاديثهم، حقاً لا ينبغى أن يكون فيه شك. ولكن عقله كان عاجزاً عن أن يسيغ هذه المعجزات، أو يحسن الإذعان لها والرضى عنها. فكان الفتى مقسماً، إذا نظر فى الكتب المقدسة، بين إيمان يشيع فى قلبه





كان طه حسين فى العشرينيات يتمنى لو أمكن الجمع بين مقتضيات العقل الصارمة وبين حاجة القلب إلى الدين. بل كان يعتقد أن ذلك الجمع ممكن على صعيد الحياة النفسية وأنه تحقق فى بعض الحالات



ويدعوه إلى الرضى والاطمئنان، وشك يشيع فى عقله ويدعوه إلى التمرد والجموح». (نفس المصدر، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

وطرح المشكلة على هذا النحو يصورها كتجربة مريرة يحياها صاحب العقل المفتقر إلى الإيمان فيشعر بالتمزق ويشتهى الموت. لقد زعم طه فى العشرينيات أن العالم الحكيم يستطيع أن يحسم النزاع بين العلم والدين ويجمع بينهما فى نفسه على نحو مستقر متزن. ولكنه يصور النزاع الآن وقد عاد إلى الاحتدام فى نفس حكيم رواقى.

وقد يقتضى توخى الحذر ألا نفترض أن طه طرف فى هذا النزاع؛ ولكن يحق لنا على الأقل أن نقول إنه أصبح يرى أن فض النزاع على الطريقة الوضعية لا يحسم الموضوع تماماً وأن الأمر يقتضى إيلاء مزيد من الانتباه إلى مطالب القلب. وإيلاء مزيد من الانتباه إلى مطالب القلب عنصر جديد آخر تتكشف عنه مرحلة الثلاثينيات. فالكتاب الذى نحن بصدده يستأنف حديث العلم والدين مع الحرص على استجلاء جانب الإيمان.

وقد آن الأوان الآن لكى نتفحص أقوال الراهب الشيخ الذى يمثل صوت الإيمان المطمئن لنرى ما إذا كانت تنطوى على جديد. يقول الراهب للفتى الحائر: «فإنى أرى يا بنى أن فى العقل تمرداً وغروراً. قد خضعت له طائفة من الأشياء، وذلت له بعض صور الطبيعة، فظن أن كل شىء يجب أن يخضع له، وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تذعن لسلطانه...وإن غرور العقل يا بنى قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين، ويفرض عليها قيوداً وأغلالاً... ولكن قوانينه لم تحط بكل شىء، ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شىء. وما زالت الطبيعة حرة طلقة، وما زالت أكبر وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه. وما زالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها، ولا يستطيع تفسيرها، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله». (نفس المصدر، ص ٢١٣).

هنا نجد حجة جديدة يطرحها طه على لسان الراهب الشيخ. وهى حجة تقوم على بيان حدود العقل وتناهيه فى مقابل اتساع الطبيعة إلى ما لا نهاية. والأحداث التى يشير إليها الراهب والتى تخرج عن سلطة العقل هى كما يوضح بعد ذلك المعجزات التى تروى عن المسيح: «إنك يا بنى لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يحيا الميت بعد أن مات وشبع موتاً. ومع ذلك فقد نهض الميت من قبره، وقد قرأت عليك ذلك فى الإنجيل، وما أنكرت منه شيئاً! لأن الناس جميعاً قد عرفوه واطمأنوا إليه...» (نفس المصدر، ص، ٢١٣ ـ ٢١٤).

والجديد هنا أن أقوال الشيخ الراهب تهاجم وضعية طه حسين فى معقلها، فهى ترمى إلى كسر احتكار العلم للطبيعة والتسليم بأن للإيمان دوراً فيها. فالأحداث التى يشير إليها الشيخ أحداث طبيعية معروفة للناس ظاهرة للعيان وإن كانت تخرق قوانين الطبيعة كما حددها العقل.



وها هو الإيمان الذى استبعده طه فى سالف الأيام من مجال الأمور الطبيعية قد عاد فى الثلاثينيات لينازع العلم فى هيمنته على الطبيعة ويطالب بحقه فى نصيب منها. وما دام النزاع سيدور فى نطاق هذا المجال الواحد، فقد يبدو لأول وهلة أن لا سبيل إلى فضه. ولكن حقيقة الأمر تدل على عكس ذلك. فالإيمان لا يطالب الآن بفرض سلطانه على الطبيعة بأكملها، بل يطالب باقتسامها مع العلم؛ أو أنه يطالب بأن يستقل ببعض الاستثناءات من قوانين الطبيعة. ومن الواضح أن هذا المطلب يتعارض مع الوضعية الصارمة. ولكن طه لا يبدى فى أى موضع من الكتاب أى اعتراض أو تحفظ على نقد الراهب للوضعية ولا يحاول سد الثغرة التى أحدثها فى جدار الحتمية المحكم. وصحيح أن عدم الاعتراض لا يدل بالضرورة على الموافقة، ولكنه يترك الباب مفتوحاً أمام هجمة الخصم. فهل معنى ذلك أن طه تنازل عن وضعيته فى الثلاثينيات؟

أنا أعتقد أن الإجابة ينبغى أن تكون بالإيجاب. فهو لا يكتفى بالسكوت أمام حجج الراهب، بل يدع القصة تجرى فى اتجاه محاب للإيمان. فالفيلسوف الفتى إن لم يستطع حسم الأمر على الصعيد النظرى فقد اتخذ مبادرة إيجابية على صعيد العمل. وذلك أنه يخرج من دياره مقتفياً خطى الراهب ساعياً نحو «الحق» الذى لا يستبينه أو ما يسميه الشيخ بالمعجزة الكبرى. والمعجزة الكبرى هى الرسالة التى بشرت النبوءات والعلامات بنزولها فى أرض الحجاز.



ومؤدى كل ذلك أن التسوية التى يطالب بها الراهب لا يكتمل إبرامها على صعيد النظر المحض وأن الجدل بين طرفى النزاع لا تحسمه الحجة القائلة بتقييد العقل. والأمر يقتضى بالإضافة إلى ذلك اتخاذ عمل من أعمال الإرادة. وذلك ما فعله الفيلسوف الحائر.

ونحن إن لم نستطع أن نقول إن سعى الفيلسوف إلى اليقين مطابق لحالة طه بوصفه مؤلفاً، فإن بإمكاننا على الأقل أن نقول إنه يرى أن للخطة نوعاً من الوجاهة ويبدى شيئاً من التعاطف معها. وهى خطة لا تدل على أنه (أى كلكراتيس) آمن بالمعجزات أو بالمسيحية أو بالإسلام المبشر به، ولكن سفره سعياً إلى «الحقيقة» وخروجه لمشاهدة «المعجزة الكبرى» يدل على أن الجمع بين العلم والدين لم يعد أمراً يتمناه المرء أو يحققه على صعيد النظر، وإنما هو أمر يريده ويغامر من أجله ويتحرك نحو تحقيقه على أرض الواقع. وكل ذلك يختلف عن موقف طه من الموضوع فى العشرينيات.

إلا أن أقوى دليل على أن الآراء التى وضعها طه على لسان الراهب كان لها فى نفسه وقع كبير، وقع يفوق من حيث إيجابيته السكوت عن التصدى لها، هو أنه سلم بها تماماً فى تاريخ لاحق.

الانصياع لمنطق القلب:

لم يحل الفاصل الزمنى الطويل بين الجزء الثانى من على هامش السيرة (١٩٣٧) وبين مرآة الإسلام (١٩٥٩) دون استئناف حديث العلم والدين فى هذا الكتاب الأخير. صحيح أن طه لم يتخذ من القضية موضوعاً رئيسياً لكتابه وإنما تطرق إليها فى سياق عرض لتاريخ الإسلام، ولكنه حرص على أن يسترجع بعض الآراء المطروحة فى الكتاب المتقدم ويعبر بها عن نفسه. وبعبارة أخرى نقول إن مؤلف مرآة الإسلام يتبنى صراحة ما وضعه على لسان الراهب الشيخ من آراء فى حدود العقل والعلم وفى المعجزات وفى حق الدين فى احتلال مكان فى عالم الوقائع، وكذلك فى «المعجزة الكبرى». ومن حسن الحظ أن طه حسين لا يكتب هذه المرة بلغة القص والحوار ولا يلجأ إلى الرمز، بل يعبر عن نفسه مباشرة ودون قناع.

وطه حسين يقدم مرآة الإسلام دون تحفظات علمية كما فعل فى «على هامش السيرة». ولكنه يحدد الغرض من الكتاب بعد أن قطع فيه شوطاً طويلاً فيقول بإيجاز: «إننا لا نكتب السيرة فى هذا الحديث، وإنما نصور فى إيجاز شديد ما ليس بد من تصويره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين





هاهو الإيمان الذي استبعده طه في سالف الأيام من مجال الأمور الطبيعية قد عاد في الثلاثينيات لينازع العلم في هيمنته على الطبيعة ويطالب بحقه في نصيب منها. وما دام النزاع سيدور في نطاق هذا المجال الواحد، فقد يبدو لأول وهلة أن لا سبيل إلى فضه. ولكن حقيقة الأمر تدل على عكس ذلك



عاش فيهما النبي وأصحابه، ونشأة الإسلام وانتشاره قليلاً قليلاً حتى شمل جزيرة العرب كلها، قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره.» (مرآة الإسلام، المجموعة الكاملة، المجلد السابع، ١٩٧٥، ص ٢٢٠).

هو إذن كتاب في التاريخ، ولكنه أبعد ما يكون عن التاريخ «العلمي» أو «الوضعي». بل إن الكتاب يختلف عما وضعه طه حسين من مؤلفات في تاريخ الإسلام مثل الفتنة الكبرى والشيخان وعلي وبنوه. فطه حسين في مرآة الإسلام لا يحقق ولا يمحص ولا ينقد الروايات. وهو لا يسرد الحوادث ويعللها وفقا لمقتضيات المنهج العلمي، وإنما يقرر الوقائع تقريرا، إما لأنها ثابتة أو تكاد من الناحية التاريخية (كما هو الحال فيما يتعلق بوصف وثنية العرب قبل الإسلام أو وضع قريش فيها) أو لأنها الوقائع كما يقررها الإسلام ويقتضيها الإيمان. ومثال ذلك قول طه أن «...قد ولد له [أي لعبدالله أبي النبي] بعد موته صبي هو الذي اختاره الله ليأتي العرب بدينهم الجديد»، أو روايته في مواضع عدة لواقعة الوحي أو تنزيل القرآن، أو عرضه للمعجزات التي تتصل بمولد المسيح أو تنسب إليه إبان حياته؛ فهو يثبتها كما ورد ذكرها في القرآن.



ونحن إذن بصدد تاريخ من نوع خاص؛ فهو تاريخ للإسلام من وجهة نظر دينية ووفقا لما تمليه العقيدة الإسلامية. وهو يفترض أساسا رأيا منافيا تماما للوضعية مؤداه أن الأحداث الخاصة بظهور الإسلام وانتشاره تجري وفقا لخطة إلهية. يقول طه حسين: «وكذلك عظم أمر الإسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها. ونظرة سريعة إلى ما بدأ الإسلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير، تبين في جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشر...» (نفس المصدر، ص ٢٢٤).

ومن الملاحظ أيضا أن طه حسين يقطع الرواية التاريخية أحيانا ليتوقف طويلا عند أمور يرى أنه كان لها تأثير ضخم على تاريخ الإسلام. وهو يخصص من ثم مساحة كبيرة للقرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه. وطه بصفة عامة يتقبل القرآن على ظاهره ويرفض تأويل ما تشابه من آياته. وهو من ثم يحمل على جدل الأحزاب الإسلامية وفرق المتكلمين وإغراق المعتزلة في تحكيم العقل وثقتهم في قدرته. بل إنه ينقد أبا العلاء لاتخاذه من العقل إماما لا إمام سواه. وهو يؤثر على كل ذلك موقف أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن وتقبلوا ما جاء فيه عن صفات الله دون أن يخطر لأحد منهم أن ينكر تلك الصفات أو أن يسرف في السؤال عنها.

ونحن إذن بإزاء انقلاب ضخم في تفكير طه حسين. فها هو يسلم بأن للدين أن يصف أمور الواقع ويفسرها بطريقته. وفي هذا السياق - سياق نقد التأويل الذي يحتكم إلى العقل - تظهر قضية العلم والدين. وعندئذ يستعيد طه أقوال الراهب الشيخ في حدود العقل ويتبناها. فالعقل - فيما يقول مؤلف مرآة الإسلام - ملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها (نفس المصدر، ص ٣٤٠). ويزداد الأمر وضوحا عندما يقول: «وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه، فالدين من علم الله الذي لا حد له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني وبهذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان.» (نفس المصدر، ص ٣٤٤).

وقد يوحي قول طه إن العلم محدود بالعالم الذي يعيش فيه الإنسان بأنه ما زال يعتقد أن للعلم سلطة مطلقة على أمور هذا العالم. ولكن هذا الانطباع يتبدد تماما إذا تريثنا قليلا. وذلك أن طه أصبح يعتقد مثله مثل الراهب الشيخ أن قدرة العلم الحديث محدودة حتى في نطاق هذا العالم. فهو كما رأينا يعتقد أن القرآن في حد ذاته معجزة. كما أنه يسلم بالمعجزات التي ورد ذكرها في القرآن، وخاصة المعجزات التي تتصل بالمسيح (نفس المصدر، ص ٢١٤-٢١٥).



ومؤدى هذا أن مؤلف مرآة الإسلام لم يعد يرى أن للعلم سلطة مطلقة في تقرير أمور الواقع وأنه (أي العلم) يتقاسم هذه المهمة مع الدين. وإذا صح هذا الوصف لموقف طه في أواخر الخمسينيات، كان معناه أن وضعيته انهارت انهيارا كاملا. فقد كان يعتقد في العشرينيات أن الدين قاصر على إشباع الاحتياجات النفسية والمطامح الأخلاقية، ولكنه أصبح يرى أن الدين يشارك العلم في المجال الطبيعي.

ولكن ألا يؤدي تقاسم الطبيعة على النحو المذكور إلى نشوء نزاع بين الطرفين؟ ألم ير طه حسين نفسه وهو ما زال في مقتبل العمر أن لا وسيلة إلى منع هذا النزاع إلا بالفصل بين الطرفين كل في مجال؟ ولن نجد في أقوال طه حسين إجابة عن هذا السؤال. ولكن كان بمستطاعه أن يقول إن تقاسم الطبيعة ليس من شأنه أن يثير النزاع، فالتسليم بالمعجزات لا يكون إلا على سبيل الاستثناء. كما كان بإمكانه أن يشير إلى أن هذا الحل الاستثنائي ليس غريبا على التراث العقلاني في الفكر الإسلامي. وسوف أقول المزيد عن هذا بعد قليل.

ولكن يتضح مما قيل حتى الآن أنه كانت لدى مؤلف مرآة الإسلام حجتان رئيسيتان في التدليل على رأيه في إعطاء الدين موطئ قدم في مجال الوقائع الطبيعية. أول هاتين الحجتين هي التي تتعلق بحدود العقل والعلم، وهي حجة يسهل التسليم بها حتى بين أنصار العقل والعلم. غير أن هذه حجة سالبة تقيد سلطة العقل والعلم ولكن لا يترتب عليها بالضرورة التسليم بسلطة الدين في المجال المذكور. أو لنقل بعبارة أخرى إن القول بأن الطبيعة حرة لا متناهية تتجاوز دائما قدرة العلم لا يعني بالضرورة إفساح المجال للخوارق. وهنا يأتي دور الحجة الثانية التي تبرر إفساح هذا المجال، وهي حجة تستند إلى سلطة القرآن.

وهنا قد يقول قائل: ولكن هذه الحجة الثانية لا تلزم إلا المسلمين؛ وأنها لا تحسم الأمر بالنسبة لغير المسلمين والجاحدين. وهذا صحيح، ولكن المهم هو أن ندرك أن الحجتين مجتمعتين كانتا كافيتين لإقناع طه حسين، وأن الرجوع إلى القرآن كان حاسما في حالته. ويبقى أن نعرف لماذا كان الأمر كذلك.

لقد كانت لدى طه أسبابه الخاصة للإيمان بسلطة القرآن. من ذلك ما يقوله بالتفصيل عن أوجه إعجاز القرآن. وهي أقوال جديرة بالنظر، ولكني سأكتفي منها الآن بما يقول طه عن أخص مزايا القرآن: وهي نقطة مهمة لأنه حرص على تأكيدها، وهي تتعلق بتأثير القرآن في نفس الجاحد أو المعاند. يقول في هذا الصدد: «وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم، فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية، وعقولهم هي المعارضة المكذبة، فهم حين يقرأونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم: يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة، فقد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم. فقلوبهم تذعن، وألسنتهم تنكر، ووجوههم تعرض...» (نفس المصدر، ص ٢٤٤).

وهي عبارات تذكرنا مرة أخرى بما جاء في «على هامش السيرة» من تصوير للفيلسوف الحائر إذ يقرأ أخبار المعجزات أو تتلى عليه كما وردت في الإنجيل فيستجيب لها قلبه وينكرها عقله. ولكن طه يضيف إلى الصورة لمسة أو لمسات أخرى تتعلق بتأثير القرآن. فالقرآن فيما يرى يكشف التناقض الذي يقع في نفس الجاحد بين عقله وقلبه ويفضح كذبه على نفسه. ويبدو أن عبارات طه حسين توحي أيضا بأن القلب المذعن أصدق وأحرى أن يتبع.

وربما اعتقد مؤلف مرآة الإسلام أن انفضاح أمر الجاحد على هذا النحو يدفعه خطوة نحو الإيمان وإن لم يجعله مؤمنا كامل الإيمان. ويخيل إلي أن طه حسين كان يفترض أن عقل الجاحد من حيث هو عقل يظل على عناده ويستعصي إقناعه رغم اكتشاف كذبه. ولا بد لحدوث الإيمان إذن من خطوة أخرى ليست في مقدور العقل ولا تقع في دائرة نفوذه. وهي خطوة تتوقف فيما يبدو على عمل من أعمال الإرادة، عمل يراهن على حديث القلب وينصاع له. وأنا أبني هذا الافتراض على ما يقوله مؤلف مرآة الإسلام عن تسليمه بظاهر القرآن، وعلى ما قال من قبل عن قرار الفيلسوف الحائر أن يخرج من دياره سعيا إلى معاينة المعجزة الكبرى في أرض الحجاز.



وينبغي لكي نتوصل إلى نظرة متوازنة عن آراء طه حسين أن نورد في ختام هذه المقالة عددا من الملاحظات المهمة. أولا، أن الدور الهام الذي يسنده طه إلى القلب فيما يتعلق بالإيمان لا يعني أنه يعتقد أن العقل ليس له دور في هذا المجال. ويخيل إلي بناء على ما يقوله في أوجه إعجاز القرآن المتعددة أنه كان يفترض بالأحرى أن للعقل شوطا يقطعه في هذا المضمار، ولكن القلب هو الذي يحسم الأمر في نهاية المطاف. ثانيا، أن طه وقد سلم بمنطق القلب وبالمعجزات لم يختتم مرآة الإسلام دون أن ينوه بقيمة العقل والعلم. فهو يحث المسلمين على أن يستيقظوا حقا ليصبحوا أكفاء لقدمائهم وأندادا لمن يريدون إذلالهم، ويرى أن من مظاهر هذه اليقظة أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكا لهم (نفس المصدر، ص ٣٦١). ومعنى ذلك أن التسليم بالمعجزات لا يعني في نظره فتح الباب لكل أشكال الخرافة والدجل.

ثالثا، أن الموقف الأخير لطه ليس غريبا على تراث الفكر العقلاني في الإسلام، ولم يكن غريبا على طه نفسه. وذلك أن ابن رشد وابن خلدون كانا كما أشرت من قبل يعتقدان أن نظام الطبيعة الذي يخضع للضرورة لن يضار في شيء إذا كانت له بعض الاستثناءات الخارقة. وقد كان هذا الحل ماثلا أمام طه في شبابه، فلم يأخذ به. ولكنه عاد إلى ما يشبهه في مرآة الإسلام.

رابعا وأخيرا أن طه لم يكن في يوم من الأيام مطمئنا تماما لوضعيته الصارمة. وذلك أنه ظل يصطرع معها طيلة حياته. وليس أدل على ذلك من علامات التصدع التي بدأت تظهر في بنائها حتى في فترة ازدهارها. ولكن هذا حديث يطول وليس مكانه هنا. ■

الهوامش:

(١) انظر طه حسين، «الاتجاهات الدينية في الأدب المصري المعاصر»، في «من الشاطئ الآخر». كتابات طه حسين الفرنسية، ترجمة عبدالرشيد الصادق محمودي (القاهرة ١٩٩٧)، ص ٨١ و٨٢.

(٢) انظر مراجعة رشيد العناني (Rasheed El-Enany) لكتاب Taha Husain's Education from the Azhar to the Sorbonne by Abdelrashid Mahmoudi, Middle Eastern Studies, vol. 36, April 2000, pp. 199-203
وانظر أيضا مراجعة بيير كاكيا (Pierre Cachia) لنفس الكتاب في: Journal Of Semitic Studies, XLV/2 (2000) pp.397-398

(٣) طه حسين، «حياة الأدب» ٨، الكتابات الأولى، تحقيق وتقديم عبدالرشيد الصادق محمودي (القاهرة ٢٠٠٢)، ص ٢٤٠.

حكاية «أراجوز»

«فن الاثنين في واحد»

■■ كما يجذبنا طرطور الأراجوز الأحمر من بين زحام المولد لمتابعة عرض مسرحه الصغير، يشدنا كتاب حكاية أراجوز إلى عالم القراءة ببرواز أحمر لكتاب مربع القطع تماما كتلك النافذة التي يطل منها الأراجوز الشاب، وأمه الجميلة صاحبة المنديل «أبو أوية»، وأبوه والشحاذ الرذل واللص، والشاويش ومساعده، وأخوه الأراجوز الصغير، وكل أفراد الفرقة فى عرضهم الجوال.

في هذا الكتاب يتجلى مفهوم لا يتحقق إلا فى القليل المتميز من الكتب الموجهة للأطفال، حيث تصير القراءة متعة مشاهدة لتفاصيل حية، تملأها الحركة رغم سكونها بين دفتي كتاب. والحقيقة أن اقتناص فكرة بسيطة وعميقة في الوقت ذاته، وعرضها بلغة بسيطة ومدهشة في الوقت نفسه، واحدة من أهم معادلات كيمياء الكتابة للأطفال حيث تمتزج البساطة والعمق والدهشة - تلك النابعة من طرافة وجدة التناول - بكميات قد تختلف من حيث المقدار عن بعضها البعض من ناحية، ولكنها لا تقل من حيث القيمة أو الأهمية في الجانب الآخر. حيث تتحول كل كتابة عبقرية للأطفال لكتابة موجهة في حقيقة الأمر للطفولة بمفهومها الأعمق، لا بوصفها مرحلة عمرية، ولكن باعتبارها طريقة لرؤية العالم، رؤية من زاوية الدهشة والتأمل والاهتمام بالتفاصيل. فيعبر الكتاب من سجن المرحلة السنية إلى مطلق القيمة التى تتوجه إلى كل الأعمار.

وحكاية أراجوز هي حكاية المولد - الدنيا - ذلك الذى يضم كمًا غير منته من التفاصيل، زحامًا من الناس كبارًا وصغارًا يتنقلون بين عناصر دنيا المولد، عربات حب العزيز، والبطاطا، وبائعى الحلبسة- حمص الشام المغلى - وألعاب النيشان والمراجيح.

بين كل هذا ينصب عم سعفان مسرحه المتنقل أمام شادر عم رضوان بائع الحلوى، بعد أن يكون قد ركب الأمانة لصوته - تلك الصفارة التى يعلقها محرك الأراجوز في سقف حلقه، فتعطى للأراجوز صوته المميز من بين العرائس.

ترى هل جاء إطلاق اسم الأمانة على تلك الصفارة اعتباطا أم لمعنى مقصود، حيث أداء الأراجوز نفسه وقدرته على صوغ الحقائق بلا خوف وبمنتهى الأمانة، محتميا بمظلة السخرية.

ينصب عم سعفان مسرحه فيقف الأراجوز الخشب الفنان أمام فارس الحلاوة الراكب على الحصان، ومن بين كل هذا الزحام يختار قلب الأراجوز عروس الحلاوة الجميلة الأميرة، تلك التى تتوسط صفوف العرائس وتقف بينهن وكأنها أميرة، بينما تكون الأخريات بمثابة الوصيفات، يدق قلب الأراجوز لها، وبعد محاولات منه لكتم مشاعره لا يطيق إلا التصريح، فيتقدم لخطبتها، واعدا إياها أنه سيسعى لرضاها وسيحكى لها الحكايات والطرف والنكات يضحكها ويسليها. لكن الفارس راكب الحصان يعترض الأراجوز طالبا من العروس الأميرة الجميلة ألا تلتفت إلى طلب أراجوز غلبان، بل ترتبط به هو فارس الفرسان الذى سيسعدها ويحميها، وتقترح العروسة التى تحتار بينهما أن تقام مباراة بين الفرسان والأراجوزات الحلاوة، والمنتصر منهما فى الصراع سيكون هو الأكثر شجاعة والمناسب لها وسيكسب قلبها وينعم بحبها.

وتنتظم مجموعة الأراجوزات بعصيها الغليظة وطراطيرها الحمراء، لمواجهة فرسان الحلاوة راكبى الأحصنة، حاملى السيوف، ببدلهم المزينة بالشرائط الحمراء أيضا.



وتماما كالأراجوز ذلك الواحد الذى هو فى حقيقته اثنان، دمية خشبية وإنسان محرك، تصوغ الكاتبة الفنانة سميرة شفيق حول هذا العالم (عالم المولد) منظومة من الثنائيات التى تجتمع فى كل واحد.

أولى هذه الثنائيات هى ثنائية الكتابة الفصيحة التى لا تخلو من روح العامية، لغة عربية سليمة تتمتع بخصوصية مصرية، قاموس بسيط لا يخلو من تفاصيل حميمة لواقع المجتمع المصرى (كان العم سعفان يحمل مسرحه الخشبى الصغير، ومعه كل عرائسه، يلصق صفارته في سقف حلقه حتى يخرج صوت الأراجوز المميز الذى يحكى به حكاياته وينطلق فى طريقه وسط الزحام بين عربات حب العزيز، والبطاطا، والفاكهة، والحلبسة «حمص الشام المغلى»).



ثم تأتى ثنائية الإنشاء الذى يخلو من روح الإنشاد، فالنص يكتسب روح الحكاية المروية اعتمادا على الحوار الدائم بين الشخصيات واعتبار السرد فرصة لوصف المشاهد من عين راوى محايد تماما كالراوى الشعبى عازف الربابة الذى يبدو وكأنه لا يتبنى وجهة نظر فى القص، بل يعرض القصة كما هى معتنيا بتقديم تفاصيل الحدث ووصف المشاعر بدقة وحياد، تاركا للمتلقى حرية الانتماء لأى من فريقى الصراع. لكن نقله لمشاعر وأحاسيس الشخصيات يكون قويا وذكيا ودقيقًا فى التعبير « هذا ما كان يشغل بال أراجوزنا الفنان، فلم يعد يضحك أو يتشاجر، أو حتى يداعب أمه الأراجوزة ويشد منديلها المشغول بالأوية، لم يعد يتكلم مع الشاويش أو حتى مع أبيه الأراجوز، وكلما سألته الأراجوزة: ماذا غير حالك يا بنى؟! سكت وقال أنا تعبان».

إن محور الصراع فى القصة بين الفنان والفارس الذى ينتهى إلى أن الفنان لا يخلو من شجاعة الفرسان، والفارس لا يخلو من رقة الفنان، ثنائية جديدة يجمعها مفهوم واحد هو مفهوم القيم.

وبنفس منطق الثنائيات التى تجتمع فى كل واحد يشكل الفنان الكبير إيهاب شاكر دنيا القص، مازجا بين البساطة والعمق.

يبدأ من اختيار قطع الكتاب الذى هو أقرب من منطق مسرح الأراجوز، ثم اختيار منظور اللوحات الداخلية - فضلا عن لوحة الغلاف أيضا - وكأنها تطل علينا هى من خلال نافذة مسرح الأراجوز، أو نراها نحن عبر كاميرا ترى مسرح القصة، وليس بوصفها لوحات ثابتة تعبر عن نص.

كذلك يقدم الفنان ثنائية الشعبى العام التراثى (الأراجوز، عروس المولد، فارس الحلاوة) بشكل خاص معاصر.

ويقدم الخامة السهلة الميسرة (الألوان الخشب والباستيل) يشكل بها تفاصيل وأحاسيس غاية فى التعقيد.

ثنائية أخرى ينجح إيهاب شاكر فى دمجها فى واحد إنها ثنائية السكون والحركة، حيث لا تخلو لوحة فى هذا الكتاب القيم من حركة رغم يقين ثبوت اللوحة، بل حتى على مستوى تشكيل الشخصيات أيضا فإن ثبات ملامح عرائس مسرح الأراجوز - بعيونها المكحلة السوداء الواسعة وحواجبها المدهشة - لم يمنع أن تتمتع كل هذه الوجوه بخصوصية وتميز بما تشتمل عليه كل شخصية من انطباعات ومشاعر.

عالم ساحر وقصة جميلة وقيمة متميزة فى مطبوعة يتوازى فيها الرقى الفنى برقى المستوى الطباعى.

إن المستوى الطباعى المتميز الذى خرج فيه ذلك الكتاب يثبت أن الخدمة الطباعية ليست طرفا زائدا عن الحاجة، بل يؤكد أن من أكبر مهام كتاب الأطفال خلق حاسة التذوق الجميل عند الطفل والرغبة فى كمال رقى الإنجاز.■

أمل فرح

حكاية أراجوز
سميرة شفيق
رسوم: إيهاب شاكر
القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠١

قراءات جديدة

** آثـــار **

الدمى الطينية

غادة القدومي

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٢

تعرف مدينة إيكاروس القديمة في الكويت باسم ميلكا، وهي تضم مجموعة كبيرة من الآثار والأواني والأدوات التي كانت مستخدمة في تلك الفترة.

الكتاب يتناول تاريخ هذه المدينة وآثارها والشواهد التاريخية التي تضمها.

■■■

Angkor: Celestial Temples of the Khmer

(أنكور: المعابد السماوية للخمير)

Jon Ortnor, Eleanor Mannikka

Abeville Press, 2002, 288PP, $ 95.00

خلفت حضارة الخمير الذين ازدهرت امبراطوريتهم في جنوب شرق آسيا أحد أهم الكنوز الأثرية في العالم، وهي مجموعة المعابد التي بنيت في الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادي على امتداد مساحة تزيد على ١٢٠ مترًا مربعًا.

آثار هذه المعابد موزعة اليوم بين كل من أحراش كامبوديا وشرق تايلاند، وقد زارها جون أوتنر والتقط ما يزيد على ٢٥٠ صورة منشورة في هذا الكتاب الذي اشترك في كتابته فريق من الخبراء ليقدموا التحليل التاريخي والفني والديني لحضارة أنكور القديمة.

** أدب ونقـد **

عصر الشك

ناتالي ساروت

ترجمة: فتحي العشري

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن التطورات التي لحقت بمفهوم الرواية والإضافات التي قدمها كل من ديستوفيسكي وكافكا وفرجينيا وولف وصمويل بيكيت وغيرهم، ولماذا استمرت هذه الأعمال دون غيرها وبقيت خالدة حتى اليوم.

■■■

موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث

نصوص مختارة ودراسات

السعودية: دار المفردات، ٢٠٠٢

عشرة مجلدات تقوم على تقسيم الأعمال الأدبية في السعودية في المائة عام الأخيرة إلى أربع مراحل: مرحلة البدايات ١٩٠٢-١٩٢٣، ومرحلة التأسيس ١٩٢٤-١٩٥٣، ثم مرحلة التجديد ١٩٥٤-١٩٧٠، وأخيرًا مرحلة التحديث ١٩٧١-١٩٩٨.

■■■

لمحات من الأدب المجري

ترجمة: ثائر صالح

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يسعى الكتاب إلى تعريف قراء العربية ببعض ملامح الأدب المجري باختياره نصوصًا لمجموعة من أهم الكتّاب المجريين خلال القرنين الأخيرين، خصوصًا أن الأدب المجري ليس معروفًا على نطاق واسع في المنطقة العربية.

** اقتصـــاد **

Imagine There's No Country: Poverty, Inequality, and Growth in the Era of Globalization

(الفقر وعدم المساواة والنمو في زمن العولمة)

Surjit S.Bhalla

Institute for International Economics, 2002, 248PP, $ 28.00

يتحدى هذا الكتاب المقولات السائدة بأن العالم في السنوات الأخيرة أصبح يواجه ارتفاعًا في معدلات الفقر وعدم المساواة الاقتصادية وأن ذلك سببه انخراط كثير من الأمم في الاقتصاد العالمي.

فعلى العكس تمامًا، يبرهن هذا الكتاب على أن الفقر يتناقص من العالم عقدًا بعد عقد، من ٥٦٪ من شعوب الدول النامية في عام ١٩٥٠ إلى ٩٪ عام ٢٠٠٠، وكذلك بالنسبة لمعدلات عدم المساواة. هذه النتائج الصادمة تدافع عنها الدراسة بمناقشة تفصيلية حول التقنيات الخاصة بالمصادر والبيانات وأساليب التحليل.

■■■

No Collar: The Human Workplace and its Hidden Costs

(بلا ياقات: أماكن العمل الإنسانية وثمنها الكامن)

Andrew Ross

Basic Books, 2003, 304PP, $ 27.00

جاءت مع موجة الاقتصاد الجديد القائم على تكنولوجيا الإنترنت والإبداعات الحديثة المرتبطة به، حركة «اللا ياقات»، والتي تضمنت قيم الانفتاحية والتعاون والإدارة الذاتية وتقدير الإبداعات الفردية بدلاً من قمعها. ولكن بعد الخسائر المفاجئة التي تعرضت لها هذه الشركات عادت الأولوية للإدارة وليس للعمل الفني والإبداعي، وتم الاستغناء عن مبدعين كثيرين. يهتم هذا الكتاب بالتجارب الحقيقية لقطاع عريض من هؤلاء الشباب الذين تحمسوا لأعمالهم لدرجة العمل تسعين ساعة أسبوعيًا، والحياة بالكامل داخل أماكن العمل، ثم الصدمات التي عانوها بعد الاستغناء عنهم بسبب هبوط أسهم شبكات الإنترنت في الآونة الأخيرة.

■■■

Globalizing Intellectual Property: The Trips Agreement

(عولمة الملكية الفكرية: اتفاقية تريبس)

Duncan Mathews

Routledge, 2002, 202PP, $ 80.00

تعد قضية حقوق الملكية الفكرية، وما تتضمنه من براءات الاختراع والعلامات التجارية وحقوق النشر، إحدى أهم القضايا الخلافية على أجندة الاقتصاد الدولي في الوقت الراهن. هذا الكتاب يتناول اتفاقية تريبس التي أفرزتها دورة أوروجواي عام ١٩٩٤ والمعنية بالجوانب التجارية للملكية الفكرية، فيقوم بمناقشة جذور هذه الاتفاقية ومضمونها ومعناها، والجوانب الخلافية والغامضة فيها، بالإضافة إلى عيوب الاتفاقية خاصة فيما يتعلق بآليات تطبيقها العملي.

** تاريـــخ **

الحضارة العربية الإسلامية

وحيد كاظم - عواطف محمد شنفارو

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

لم تكن الحضارة الإسلامية روحانية فقط كما يشيع خصومها، بل هي حضارة عمران وتعليم وبناء، وعطاؤها الفكري لم يتوقف عند الجوانب المعيشية فحسب، وإنما شمل البنى السياسية والأنظمة الاقتصادية والإدارية، إذ كان هدفها بناء الإنسان كاملاً متكاملاً في شقيه المادي والروحي، وهو ما يؤكده المؤلفان بدراستهما عن عطاء هذه الحضارة ومنجزها.

■■■

العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة

أحمد زكريا الشلق

القاهرة: دار مصر العربية للنشر، ٢٠٠٢

أربعة قرون حكمت فيها الدولة العثمانية المنطقة العربية أو يزيد، منذ القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن العشرين، كيف أثر الحكم العثماني طيلة هذه القرون على المنطقة، كيف أثر عليها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا، وكيف كانت علاقة العرب بالغرب في هذه الفترة، وكيف كان مصير حركات الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني التي ناهضت الدولة العثمانية.

■■■

رجال ريا وسكينة

صلاح عيسى

القاهرة: دار الأحمدي، ٢٠٠٢

تحليل سياسي واجتماعي للقضية رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان بالإسكندرية وهي القضية الأشهر بين قضايا الجريمة في مصر والمعروفة باسم قضية ريا وسكينة، وهما المرأتان اللتان نظر إليهما بوصفهما قاتلتين، لكن المؤلف يقترب أكثر من الظروف التي أحاطت بحياتهما وأودت بهما إلى هذا المصير.

■■■

Paris 1919: Six Months that Changed the World

(باريس ١٩١٩: الشهور الستة التي غيّرت العالم)

Margaret MacMillan

Random House, 2002, 570PP, $ 35

اجتمع قادة كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة في باريس في الفترة من يناير إلى يونيو من عام ١٩١٩ لكي يقرروا نتائج الحرب الكبرى التي فازوا فيها على دول المحور، وهي سلسلة الاجتماعات والمحادثات التي أفرزت صلح فرساي الشهير.

يبين هذا الكتاب الظروف التي أحاطت بهذه المحادثات والأدوار المختلفة التي لعبها الساسة الذين شاركوا فيها. وتبرهن المؤلفة على أن معظم مناطق الصراع الساخنة في عالم اليوم، إنما تعود جذورها إلى ما تم تخطيطه في هذه الشهور الحاسمة، التي شهدت انهيار أربع امبراطوريات كبرى وإنشاء العديد من الكيانات السياسية المفتعلة.

** تكنولوجيا **

علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية

فريال مهنا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

يرصد الكتاب التحولات العميقة التي طرأت على شروط الوجود الإنساني وعلى طرائق إنتاج الفكر والمعرفة الإنسانية والتي سببتها الثورة المعلوماتية وتقنياتها وعلوم الاتصال التي زادت استخداماتها بوتيرة متسارعة.

■■■

Build your Own PC

(اصنع كمبيوتر شخصي لنفسك!)

Morris Rosenthal

Mc Graw Hill Co, 2002, 214PP, $ 24.99

دليل عملي يشرح كيفية تجميع أجزاء الكمبيوتر المختلفة وتركيبها وتشغيلها. الكتاب يحتوي على ١٥٠ صورة توضيحية مصاحبة للخطوات المشروحة.

■■■

Digital Photography Click - by- Click: The Step- by- step Guide to Creating Perfect Digital Photographs

(الفوتوغرافيا الرقمية خطوة بخطوة: المرشد لصناعة صور فوتوغرافية مثالية)

Jerry Glenwright

Friedman, Michael, 2003, 304PP, $ 27.00

أحدثت ثورة التكنولوجيا الرقمية ثورة مماثلة في عالم التصوير، حيث انتشرت الكاميرات الرقمية التي تسمح بمعالجة وحفظ الصور وتداولها على الكمبيوتر الشخصي. هذا الدليل يقدم الخطوات العملية للشخص المبتدئ من أول اختياره لنوع الكاميرا التي تناسب نظام التشغيل الخاص بجهازه، إلى كيفية معالجة الصورة وإجراء التحسينات عليها وعلى ألوانها بعد التقاطها باستخدام البرامج الحديثة المتوفرة للكمبيوتر.

** ثقافة شعبية **

الخبز في المأثورات الشعبية

سميح عبدالغفار شعلان

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

رصد علمي من خلال الأطالس الفلكلورية للعلاقة الحميمة بين المصريين

قـــراءات جـــديـدة

والخبز والتي جعلت الخبز مرادفًا للعيش عندهم، والتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي أثرت على هذه العلاقة، كما يرصد المؤلف خطوات «الخبيز» في الريف المصري، وما يرتبط به من طقوس وتقاليد.

■■■

Nelson Mandela's Favorite Folktales
(الحكايات الشعبية الأفريقية المفضلة عند نلسون مانديلا)
Nelson Mandela
Norton w.w.&Co., 2002, 144PP, $ 24.95

يقدم الزعيم الأفريقي المناضل نلسون مانديلا ٣٢ حكاية شعبية من اختياره تحتوى على أقدم المأثورات الأفريقية والتي يأتي معظمها من جنوب أفريقيا وأجزاء أخرى من القارة. الكتاب صالح للأطفال والكبار على السواء.

■■■

Irish Fairy and Folk Tales
(حكايات شعبية وخيالية من أيرلندم)
William Butler Yeats (editor)
Friedman, Michael PG, 2002, 416PP, $ 16.95

تم تجميع هذه المجموعة من الحكايات والحواديت والأغاني أول مرة عام ١٨٩٢ على يد الشاعر ويليام بيتس الحاصل على جائزة نوبل، والذي كان مسحورًا بالخرافات الشعبية الأيرلندية. وقد كان بيتس أحد الشعراء والكتّاب الذين شاركوا في الحركة الأدبية المسماة بـ«البعث الأدبي الأيرلندي». تمتلئ هذه الحكايات بالأشباح والشياطين والأقزام والجنيات والعمالقة والسحرة والملوك في دوائر متداخلة من الحب والألم والموت..

** دوريـــات **

آفاق بيئية
مشرف على التحرير هويدا مصطفى
القاهرة: معهد الأهرام الإقليمي للصحافة، ٢٠٠٢

في هذا العدد من هذه الدورية التي تعنى بالشئون البيئية، موضوعات عن أنواع الملابس والسيارات ذات التأثير الضار على البيئة، وحوار حول مواصفات الغذاء الجيد العالمية، وتقرير عن نتائج قمة الأرض، وكذلك عن السحابة السوداء التي يتكرر ظهورها في سماء مصر منذ سنوات، دون أن يجزم أحد بأسبابها.

■■■

المحيط الثقافي
رئيس التحرير: فتحي عبد الفتاح
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

ملف العدد عن الاستشراق والاستغراب ويشارك فيه عاطف العراقي وأحمد مرسي ورمضان بسطاويسي وعبد المنعم تليمة وأنور مغيث وملكة يوسف وهاني نسيرة، كما يتضمن العدد حوارًا مع المفكر والناقد السوري جورج طرابيشي، وتغطية لندوة الإبداع عند المرأة التي عقدت أخيرًا بالقاهرة، ومقالاً عن التشكيلي الرائد الذي رحل مؤخرًا حسين بيكار، وموضوعات أخرى عديدة.

■■■

فصول
رئيس التحرير: هدى وصفي
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد إشكالية التفاعل بين الثقافة الشعبية والحداثة، وتأثير الحداثة على المشهد الثقافي العام في ملف كامل، إضافة إلى الأبواب الثابتة من دراسات أدبية ونقدية وترجمات.

** ديـــن **

الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، أمريكا اللاتينية ـ جنوب أفريقيا ـ فلسطين
الأب مايكل برير
ترجمة: أحمد الجمل وزياد منى
دمشق: قدمس، ٢٠٠٢، ٤٠٠ ص، ٤٠٠ ليرة سورية.

يتعامل هذا الكتاب، الذي لايزال يثير زوبعة علمية لا تهدأ، مع موضوع تجاهله الباحثون الغربيون، هو توظيف الدول الاستعمارية الغربية للكتاب المقدس عمومًا، وسفرى الخروج ويشوع بخاصة، لتسويغ الاستيلاء على بلاد «الكفار» ونهب ثرواتها واستعباد سكانها، موظفًا أمثلة أمريكا اللاتينية وجنوبي أفريقيا، مع تركيز خاص على فلسطين «أرض الميعاد».

■■■

اللآلئ الحسان في علوم القرآن
موسى شاهين لاشين
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تناول الكتاب علوم القرآن الكريم ومعارفه وأسراره، ويشتمل على مباحث تتعلق بالقرآن، بعضها مرتبط بالعلوم الدينية وبعضها الآخر مرتبط بعلوم اللغة العربية.. فهو يدرس جمع القرآن وكتابته والقراءات وأنواعها وأسباب نزول الآيات والمحكم والمتشابه في القرآن والنسخ والقصص القرآني وغيرها من الموضوعات.

■■■

An Interpretation of the Qura'n: English Translation of the Meanings
(ترجمة إنجليزية لمعاني القرآن)
Trans. by: Masjid Fakhry
NYU, 2002, 648PP, $ 25.95

طبعة ثنائية اللغة للقرآن الكريم، تحتوى على النصوص القرآنية العربية إلى جانب ترجمة لمعنى الآيات بالإنجليزية. المترجم هو الدكتور مسجد فخري، أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية ببيروت، وهو يهدف كما يقول في المقدمة إلى التعبير عن معنى الآيات القرآنية بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة. تضم مقدمة المترجم أيضًا شرحًا للفرق بين السور المكية والسور المدنية، وتاريخ نزول وحفظ ونسخ القرآن، بالإضافة إلى ملاحظات عن مكانة «أهل الكتاب» في القرآن.

** رحـــلات **

رحلات إلى الشرق والغرب
صلاح منتصر
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

يطوّف بنا المؤلف في عديد من مدن العالم التي زارها من كوريا شرقًا وحتى سان فرانسيسكو غربًا، مرورًا بالهند وماليزيا وبكين وقبرص وتركيا، متناولاً أهم العادات والتقاليد لشعوب هذه البلدان، فضلاً عن الأزمات السياسية التي عصفت بها وأحدثت تحولات في أنظمتها السياسية والاقتصادية.

** روايات وقصص **

الجميلات
محمد عبد السلام العمري
القاهرة: دار عمرو للنشر، ٢٠٠٢

رواية خيالية محورها المرأة وكل ما يتعلق بها، تدور أحداثها في مدينة متخيلة، مدينة للمطلقات والأرامل، تحتوى على عشرات النماذج لكل منها همومه وأحلامه.

■■■

خلوة الغلبان
إبراهيم أصلان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

نصوص جديدة لصاحب «مالك الحزين» و«وردية ليل» و«عصافير النيل»، عن الحياة ومنها، يحضر فيها المؤلف بشخصه، فهو طرف مشارك أو مراقب للوقائع كلها، ولذا فهو يظهر جليًا دون حيل فنية من أي نوع، وبرغم هذا الطابع للنصوص، فهي ليست تقارير صحفية أو يوميات سريعة، لكنها نثر بديع يحاكي الشعر في اختزاليته وعمقه ورهافته، ويكشف عن جانب «الحكّاء» اللاقط لأدق التفاصيل في شخصية المؤلف.

■■■

سهرة تنكرية للموتى
غادة السمان
بيروت: منشورات غادة السمان، ٢٠٠٢

شخصيات الرواية تعاني الاغتراب الداخلي في أوطانها، تتشابك الأحداث والشخوص، لكن اللوحة في مجملها ترسم صورة للواقع العربي المفكك من المحيط إلى الخليج، لكن بالأخص في لبنان الذي تهاجر منه شخصيات الرواية وتعيش في باريس حاملة همومها وطموحاتها في آن، المعالجة تحتفي بالغرائبية والحلم كعادة المؤلفة في نثرها.

■■■

فردوس
محمد البساطي
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية شائكة عن امرأة مشتهاة من ابن زوجها الذي يطاردها كالفريسة وتفر منه حاملة معها رغباتها المكبوتة، وفقدانها مشاعر الأنثى التي تنتهك مع زوج عاجز يكبرها كثيرًا، وعبر هذه المطاردة التي تخفي رغبة مستحيلة تتبدى حياة الريف بما فيه من فقر وعوز وحرمان، وهو العالم الأثير للبساطي في كل رواياته تقريبًا.

■■■

صوت من العالم الآخر
نجيب محفوظ
القاهرة: قسم النشر بالجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية كتبها نجيب محفوظ في ثلاثينيات القرن الماضي، صوّر فيها الحياة الفرعونية: تتضمن مجموعته «همس الجنون» ثم قصة «صوت من العالم الآخر» و«يقظة المومياء» إضافة إلى قصص أخرى نشرها الأديب الكبير لكنها لم تجمع بعد في كتاب مثل «عودة سنوح» و«الشر المعبود» و«عفو الملك كاف».

■■■

The Lovely Bones: A Novel
(العظام الجميلة: رواية)
Alice Sebold
Little Brown & Co, 2002, $ 21.95

الرواية الأمريكية التي أجمع معظم النقاد على أنها أفضل رواية لعام ٢٠٠٢، بالإضافة إلى النجاح الجماهيري الذي حققته باحتلالها المركز الأول في قائمة الروايات الأفضل مبيعًا.

تدور الرواية على لسان بطلتها سوزي سالمون التي اغتصبت وقتلت وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وهي تحكي ما حدث لها من موقعها في الجنة المؤقتة التي تمكنها من متابعة ما يحدث لأسرتها وسكان حيّها، والمجرم المخادع الذي يحاولون اكتشافه. وجنة سوزي المؤقتة تظل مؤقتة حتى تتنازل عن اهتمامها بما يجري على الأرض وبعدها تنتقل للجنة الأبدية التي لا تعرف شكلها. ومن خلال ما تشاهده سوزي نتعرف على الأزمات النفسية التي تواجه كل فرد من أفراد أسرتها نتيجة للحادث الذي أودى بحياتها، بالإضافة إلى أفكارها عن الحياة والموت والسعادة الأبدية.

** رياضـــة **

الرياضة والمجتمع
أمين الخولي
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

عن أهمية الرياضة في حياتنا، وفاعليتها في تنمية المجتمع وتهذيب سلوك أبنائه، كذلك تأثيرها الفاعل في تحقيق التناسق والتناغم بين النواحي النفسية والعقلية لدى الأفراد، بما يعني أن تحقيق البطولات ليس هو الهدف الوحيد من الرياضة، وإنما ثمة أسباب أخرى يشير المؤلف إليها.

■■■

Judo Techniques and Tactics
(تقنيات وتكتيكات الجودو)
Didier Janicot, Gilbert Pouillart
Sterlin Pub Co. 2002, 104PP, $ 12.95

قراءات جديدة

مرشد عملي للرياضيين المبتدئين في رياضة الجودو، يحتوي على شرح لأهم الخطوات والحركات أثناء الاشتباك والحيل الدفاعية المختلفة.. يهتم الكتاب أيضًا بتقديم الجودو باعتباره رياضة وفنًا وأسلوبًا في الحياة يؤثر في كل من العقل والبدن

■■■

Swimming Fastest

(السباحة أسرع!)

Ernest Maglischo

Human Kinetics Pub, 2003, 6884PP, $ 44.95

طبعة محدثة ومراجعة من الكتاب الذي يعتبره المدربون والسباحون من أفضل الكتب على الإطلاق في مجال السباحة التنافسية. المؤلف يكشف عن الحقائق العلمية الصغيرة خلف أساليب التدريب التي تحقق أعلى السرعات، خاصة وهو قد عمل مدربًا للسباحة في الولايات المتحدة لمدة ٣٨ سنة وفاز بـ١٣ بطولة محلية و١٩ بطولة دولية، وعدد من الجوائز الرفيعة في هذا المجال إلى جانب شهادة دكتوراة في فسيولوجيا التمرين. الكتاب يتضمن أكثر من خمسمائة صورة وعدد كبير من البرامج التدريبية التفصيلية.

"سياسة"

الإرهاب الصهيوني والسلام العربي بين الشهادة والإبادة

رنا أبوظهر الرفاعي- محمد قبيس

بيروت: دار الرحاب، ٢٠٠٢

يومًا بعد يوم تتصاعد حدة المواجهات الفلسطينية الإسرائيلية حتى تحولت إلى حرب منظمة تقودها قوات الاحتلال الصهيوني مخلفة وراءها مئات القتلى وآلاف الجرحى في صفوف الفلسطينيين، وبسبب الموقف الدولي المتواطئ، والموقف العربي المتخاذل، فإن الشعب الفلسطيني يواجه منفردًا آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية بشجاعة وبسالة نادرة، خصوصًا أن العرب رفعوا شعار السلام هو خيارنا الاستراتيجي، معطلين بذلك أية خيارات أخرى، فهل من مَخْرَج؟

■■■

عرب وسط آسيا في أفغانستان

توماس بارفيلد

الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

تحليل تاريخي ونفسي لعرب وسط آسيا الذين يقطنون الشمال الشرقي لأفغانستان، كيف كانوا في الماضي وما حقيقة وضعهم الآن وتأثير الأحداث الراهنة عليهم سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

■■■

من ميشال عفلق إلى ميشال عون. تجارب في علاقة مستحيلة

فايز قزي

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

من خلال ثلاثة أقسام (مواسم الهجرة والتبدل) و(مواسم البحث والعبث) و(المستحيلات إلى متى) يرصد الباحث التحولات السياسية في لبنان من القومية العربية التي مثلها ميشال عفلق إلى الشوفينية المغرقة التي مثلها ميشال عون.

■■■

مواقف وتحديات في العالم العربي

عصمت عبدالمجيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

لفترة عشر سنوات واجه الدكتور عصمت عبدالمجيد عديدًا من المشكلات والتحديات بوصفه أمينًا عامًا لجامعة الدول العربية، واتخذت الجامعة قرارات كان لبعضها تأثير إيجابي ولبعضها الآخر تأثير سلبي، منها الموقف من أزمة الخليج العربية الثانية وأزمة لوكيربي وأزمة لبنان وأزمة احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث.

المؤلف يحكي من واقع منصبه وخبرته السياسية الطويلة عن هذه الأحداث وتلك القرارات الصعبة.

■■■

Passion for Islam: Shaping the Modern Middle East: The Egyptian Experience

(العاطفة الإسلامية وتشكيل الشرق الأوسط الحديث، الخبرة المصرية)

Cary Caryl Murphy

Scribner, 2002, 359PP, $ 27.00

يضع الكتاب مصر في قلب الصحوة الإسلامية التي تنتشر في منطقة الشرق الأوسط والتي ترى المؤلفة أنها ستكون من أهم العوامل التي ستعيد تشكيل الشرق الأوسط من جديد. وقد عملت المؤلفة كاريل مورفي رئيسة لمكتب صحيفة الواشنطن بوست بالقاهرة لعدة سنوات، شهدت خلالها العديد من الأحداث وتعرفت على شخصيات مصرية كثيرة تذكرها في كتابها. تنظر كاريل مورفي إلى الصحوة الإسلامية في مصر باعتبارها ظاهرة تنقسم إلى أربعة مستويات، المستوى الأول هو مستوى التقوى الإسلامية التي تضم القاعدة العريضة من المصريين الذين يلتمسون في الدين عزاءً روحيًا وشخصيًا، أما المستوى الثاني فهو الإسلام السياسي الذي يستخدم الطرق السلمية إلى جانب العنف أحيانًا لمحاولة الإفلات من الحكم التسلطي، ثم مستوى الإسلام الثقافي الذي يجسد محاولة مقاومة الغزو الثقافي الغربي وتثبيت الهوية المستقلة، وأخيرًا مستوى الإسلام الفكري الذي يكشف عن محاولة المثقفين الإسلاميين إعادة النظر في تراثهم التشريعي بهدف إيجاد صيغة حديثة للإسلام المعاصر.

■■■

Made in Texas: George W.Bush and the Southern Takeover of American Politics

(صنع في تكساس: جورج بوش والاكتساح الجنوبي للسياسة الأمريكية)

Michael Lind

Basic Books, 2003, 201PP, $ 29

يفسر بعض المحللين توجهات بوش السياسية بالتركيز أحيانًا على انتماءاته الحزبية أو الدينية أو المالية، أما هذا المؤلف الذي له عدة كتب في التاريخ الأمريكي فيقوم بتفسير سياسات بوش بالعودة إلى ولاية تكساس التي ينتمي إليها، والتي لها تاريخ خاص وثقافة طبقية فريدة مما يجعلها مصدرًا مهمًا لفهم بواعث العنف واليمينية المتعجرفة لدى بوش.

"شعر"

الأعمال الكاملة للشاعر حسين عفيفي

عبدالعزيز موافي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يعد حسين عفيفي (١٩٢٠-١٩٧٩) أحد أبرز شعراء الحركة الرومانسية، وأول من كتب الشعر المنثور، وفي أعماله الكاملة تلك يقدم المؤلف تحليلاً نقديًا لشعره وما يميزه عن نظرائه من شعراء الرومانسية، وتجربته في الشعر الحديث.

■■■

البحث عن دمشق

شوقي بغدادي

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

يستعيد الشاعر في ديوانه العلاقة مع المكان الذي كلما غاب في الواقع، كلما كان حضوره طاغياً في الشعر، والمكان يحضر لا عبر حارات أو قاعات ونواصي وأسماء شوارع فحسب، وإنما عبر أشخاص بأعينهم يأتلفون مع المكان ويرتبطون في مخيلة الشاعر بالمكان ذاته.

■■■

الإشراقات.. رامبو، دراسة أدبية

سوزان برنار

ترجمة: لميس خضور

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٢

مازال رامبو رغم مرور عقود على وفاته مثيرًا للجدل ومادة خصبة للدارسين في حقل النقد الأدبي ودراسات الشعر على وجه الخصوص، والجدل لا يتوقف عند شعر رامبو، إنما يتجاوزه إلى شخصية الشاعر الذي جمع متنافرات مدهشة، فهو عند البعض جاسوس، وعند آخرين «مثلي قذر» ولدى طرف ثالث صوفي حالم، لكن الجميع لا يتفق على شيء قدر شاعريته.

■■■

شعر السبعينيات في إسبانيا

حامد أبو أحمد

القاهرة: آفاق عالمية، ٢٠٠٢

دراسة عن الشعر الإسباني في حقبة السبعينيات واتجاهاته وأهم شعرائه من أمثال بوستافو أدولفوبيكر والشاعرة روساليا دي كاسترو وآخرين.

"علوم"

طبيعة العلم غير الطبيعية

لويس وولبرت

ترجمة: سمير حنا صادق

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يتناول المؤلف الخلط الشائع بين العلم والمعرفة، والعلم والعقلانية، والعلم والبديهيات، ويوضح أن للعلم منهجًا خاصًا في التعامل مع الظواهر المحيطة بما يساعد على تفهمها.

يعالج الكتاب أيضًا الخلط بين العلم والتكنولوجيا، كما يرسم خريطة لتاريخ العلم ويناقش الأخطاء الشائعة عن نسبويته، تسعة فصول تتناول هذه القضايا جميعها، بينما فصل يخصصه للأخلاقيات والعلم.

■■■

Lost Discoveries: The Ancient Roots of Modern Science- From the Babylonians to the Maya

(اكتشافات ضائعة: الجذور القديمة للعلم الحديث من البابليين إلى المايا)

Dick Teresi

Simon & Schuster, 2002, 453PP, $ 27

جمع المؤلف رصيدًا ضخمًا من المعلومات عن الاكتشافات العلمية التي توصل إليها أصحاب الحضارات غير الغربية من قبل أن يعرفها الغرب بقرون وأحيانًا بآلاف السنين. يضم الكتاب أمثلة عديدة من الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية والهندية والعراقية والأفريقية وحضارات المايا والأزتيك في أمريكا الوسطى، متحديًا التاريخ النمطي للعلم الحديث الذي يتم تداوله في الغرب والذي يبدأ دائمًا من اليونان ويتجاهل على سبيل المثال أن البابليين طوروا نظرية فيثاغورس قبل أن يولد بما لا يقل عن ألف وخمسمائة سنة!

"عمارة"

Islamic Art and Architecture: From Isfahan to the TaJ Mahal

(العمارة والفن الإسلامي من أصفهان إلى تاج محل)

Henri Stierlin

Thames & Hudson, 2002, 320PP, $ 50.00

يركز الكتاب على «الطراز الفارسي» في الفن المعماري الإسلامي، وهو الذي يمتاز بالزخارف المزهرة والقباب الفيروزية والمنارات الرفيعة، وغيرها من السمات الخاصة التي تجعل منه طرازًا فريدًا، وقد ساد الطراز الفارسي في العمارة في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثامن عشر وامتد تأثيره خلالها خارج إيران إلى الهند وأوزبكستان.

يستعرض الكتاب المساجد والقصور والحدائق التي تنتمي إلى هذا الفن والموجودة في مدن عديدة مثل أصفهان وبخارى وسمرقند ولاهور ودلهي، وهو يحتوي على ما يزيد على خمسمائة صورة ملونة مصاحبة للنص الذي يعمد كذلك إلى مناقشة المفاهيم الصوفية والرمزية خلف التصميمات التي يحللها.

■■■

Warped Space: Art, Architecture, and Anxiety in Modern Culture

(المساحة الملتوية: الفن والعمارة والقلق في الثقافة الحديثة)

Anthony Vidler

MIT Press, 2002, 300PP, $ 19.95

طبعة جديدة من كتاب أنتوني فيدلر الذي يفسر الأثر السيكولوجي أو النفسي للعمارة الحديثة على الإنسان، سواء تجلى ذلك في الخوف المرضي من الأماكن المرتفعة أو الأماكن المغلقة، وغيرها من الآثار العقلية المزعجة لعمارة المدينة. وإلى جانب هذه الأمراض التي عرفت في القرن التاسع عشر، عرف القرن العشرون حالات أخرى من الاغتراب المكاني والشعور بالتشرد وعدم الانتماء، وهي تعود أيضًا حسب ما يبين المؤلف إلى سمات العمارة الحديثة التي تسود المدن الكبيرة.

■■■

The Perfect House: A Journey with the Renaissance Master Andrea Palladio

(المنزل المثالي: رحلة مع آندريا بالاديو، سيد عصر النهضة)

Witold Rybczyhski

Scribner, 2002, 266PP, £ 16.99

يعد المعماري البندقي أندريا بالاديو الذي عاش في القرن السادس عشر صاحب أكبر أثر على الفن المعماري في الغرب. فهو صاحب الفضل في ترجمة المعمار الكلاسيكي الذي نشأ في الحضارات القديمة إلى أشكال وطرازات حديثة مازالت تحمل اسمه، كما أنه مؤلف «الكتب الأربعة للعمارة».

قام المؤلف هنا بسلسلة من الرحلات لمشاهدة المنازل والقصور التي قام بالاديو بتصميمها وبنائها بنفسه، تلك التي اتخذها الإنجليز في القرن الثامن عشر نموذجًا «للمنزل المثالي». فهو معمار الثراء والقوة، فعلى سبيل المثال يعد البيت الأبيض في العاصمة الأمريكية مصممًا على الطراز «البالادي».

فكـــر

الطريق إلى نهضة مصر ج ١

محمد حسن رسمي

القاهرة: دار البيان، ٢٠٠٢

كيف يمكن لمصر أن تعبر عنق الزجاجة على المستوى الاقتصادي وتحقق معدلات تنمية تليق بقدراتها البشرية والطبيعية، وكيف يمكنها أن تواجه التحديات على المستوى السياسي والاجتماعي وتعبرها إلى آفاق أرحب، في ظل شروط العولمة المهيمنة على العالم كله. هذه بعض أسئلة يتصدى المؤلف للإجابة عنها.

■■■

العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. مجلدان

عبد الوهاب المسيري

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

في مجلدين كاملين يشرح المؤلف معنى العلمانية الجزئية التي تكفلت بفصل الدين عن الدولة، لكنها تلتزم الصمت فيما يتصل بالقضايا النهائية ذات الصلة بالغايات النهائية من الحياة والوجود، وتعوّل أكثر على علاقات العلة والمعلول، ولا تأبه بالمرجعيات القيمة والأخلاقية المستمدة من الدين أساسًا والتي تنظم السلوك الإنساني. وأما العلمانية الشاملة فهي تفصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها الخاص والعام، وتنزع القداسة عن الإنسان والطبيعة، بحيث يتحول العالم بأسره إلى مادة يوظفها الأقوى ويغيب عنه الإحساس بالغائية أو نبل الهدف، فباستثناء إرضاء الذات وإشباع الرغبات، لا شيء بعد في الحياة.

المؤلف يحاول باستخدام منهج تحليلي يتسم بمقدرة تفسيرية عالية، التمييز بين نوعي العلمانية مستعينًا بالفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم التي تفسر الظاهرة في بعديها النظري والتطبيقي.

لغـــة

أساسيات اللغة

ر.ل. تراسك

ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

تلقي المؤلفة ضوءًا حول النواة الأساسية للغة والمراحل المختلفة لتعلمها، ولماذا تختلف اللغة بين الرجال والنساء، وما تأثير المخ والجهاز العصبي في تعلم اللغة في المراحل السنية المختلفة منذ الطفولة وحتى الكبر.

مذكرات وسير

In Search of Fatima: A Palestinian Story

(بحثًا عن فاطمة: قصة فلسطينية)

Ghada Karmi

Verso, 2002, 451PP, $ 26

مذكرات غادة الكرمي بدءًا من خروجها القسري مع أسرتها من فلسطين عام ١٩٤٨ وهي مازالت في التاسعة من عمرها مرورًا بحياتهم اللاحقة في لندن، في قلب «جولدرز جرين» هذا الحي اليهودي الشهير في العاصمة البريطانية. تنقل مذكرات غادة كرمي كيف انعكس المنفى على حياة كل فرد من أفراد أسرتها، إذ عمل والدها في محطة الـ«بي.بي.سي» في محاولة لمد الجسور بينه وبين الوطن، كما نقلت والدتها كل العادات الفلسطينية إلى بيتها بلندن قدر استطاعتها، أما غادة فبالرغم من زواجها بإنجليزي إلا أن أزمة السويس وما تبعها من حرب ١٩٦٧ أرغماها على إعادة تقييم هويتها الفلسطينية، وأصبحت منذ السبعينيات من أبرز النشطاء السياسيين المدافعين عن القضية الفلسطينية في الغرب.

■■■

Thomas Mann: Life as a Work of Art: A Biography

(توماس مان: الحياة كعمل فني: سيرة حياة)

by Hermann Kurzke

Translated by: Leslie Willson

Allen Lane, 2002, 581PP, £ 30

عندما توفي الكاتب الألماني المعادي للنازية توماس مان عام ١٩٥٥ عن عمر يناهز الثمانين عامًا، كانت مذكراته الشخصية مازالت محظورة ولم يتم رفع هذا الحظر إلا في منتصف السبعينيات، وقد تم الانتهاء من تحقيق الجزء العاشر والأخير من مذكراته في عام ١٩٩٥.

وقد اختلفت صورة توماس مان قبل الحرب عن صورته بعد الحرب في مناح كثيرة، وفي هذه السيرة التي كتبها أستاذ الأدب في جامعة ماينز الألمانية نظرية عن رغبات توماس مان المثلية التي تطورت في سنواته الأخيرة، والتي يرى المؤلف أنها تتضح في كل من مذكراته ورواياته الأخيرة. الكتاب يعتبر من أكثر الكتب مبيعًا في ألمانيا الآن.

■■■

Victoria College

(مدرسة فيكتوريا)

Sahar Hammouda

AUC, 2002

من هذه المدرسة العريقة بالإسكندرية تخرجت نخبة متميزة من السياسيين والكتاب والفنانين منهم العاهل الأردني السابق الملك حسين والفنان المصري العالمي عمر الشريف والمخرج الكبير يوسف شاهين وغيرهم، وفي مناسبة احتفال المدرسة بمئويتها، يأتي هذا الكتاب الذي يتناول طريقة التدريس في هذه المسألة والفن المعماري الذي يميزها.

مســـرح

أنتولوجيا المسرح الفرنسي الحديث

ماري إلياس

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يتضمن هذا الكتاب أهم نصوص المسرح الفرنسي خلال العقود الأخيرة، وهي تقدم لها بتحليل ومقدمة نقدية تعرّف بالتيارات السائدة في هذا المسرح، وأهم رموزه وقضاياه، وهي تعرض لستة مسرحيين معاصرين يمثلون من وجهة نظرها المسرح الفرنسي الحديث.

■■■

فجر المسرح

إدوار الخراط

القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٢

يعود للإغريق الفضل في الصيغة التي عُرف بها المسرح كأحد الفنون التي مارستها الشعوب، لكن بدايات المسرح يمكن تلمسها وإن بأشكال بدائية في الحضارات القديمة، والمصريون القدماء مارسوه - وفق بعض الدراسات - في المعابد وطقوسهم الجنائزية والدينية، المؤلف يعود إلى هذه الجذور لدى الحضارات القديمة والقبائل البدائية في رواندا وفيجي وماليزيا وغيرها.

■■■

نجيب الريحاني.. نجم زمن الفن الجميل

أحمد سخسوخ

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

نجيب الريحاني إحدى العلامات البارزة في تاريخ الفن العربي، والمسرح على وجه الخصوص، المؤلف يتناول سيرة هذا الفنان الفذ وتأثيره ودوره في ازدهار المسرحين المصري والعربي، ويقارن بين هذا التأثير وتأثير شارلي شابلن في الفن الغربي.

مقـــالات

الدنيا والدين

أحمد عبد المعطي حجازي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

مجموعة مقالات كتبها الشاعر في الفترة الأخيرة يجمعها خيط واحد هو العلاقة بين الدنيا والدين، وهي في مجملها أيضًا تعادي الفهم الخاطئ لمقاصد الشريعة وتحذر من محاولة البعض تسييس الدين لخدمة مصالح جماعات بعينها تهدف إلى الوصول للحكم والتضييق على الناس بتحريم الحلال وتعتيم حياة الناس وتنفيرها من الدين ذاته.

■■■

بالفصيح - كتابات معاندة

عبد الله محمد الناصر

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

مقالات صحفية كتبها المؤلف تحتفي بالرفض وعدم الاستسلام للسائد والسعي للتغيير والتطوير، وفي الأساس يوجه المؤلف انتقاداته لإعلام يزور الحقائق ويعتم عليها وينشر الأمية والجهل بين شباب الأمة.

■■■

Intelligence Wars and the American Discovery of the CIA: American Secret History from Hitler to Al-Qaeda

(الحروب المخابراتية والاكتشاف الأمريكي للـCIA: التاريخ السري لأمريكا من هتلر إلى القاعدة)

Thomas Powers

New York Review of Books, 2003, 400PP, $ 27.95

مجموعة من المقالات التي نشرتها مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» على مدى عدة سنوات للصحفي الحائز على جائزة بوليتزر توماس باورز، والمتخصص في مجال المخابرات السرية. تتناول المقالات تاريخ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأهم القضايا التي تورطت فيها منذ الحرب العالمية الثانية ومعارك الحرب الباردة، مرورًا بأزمة خليج الخنازير واغتيال الرئيس كينيدي وفضيحة الدريتش أيمز. ويستعرض توماس باورز الجدل الدائر حول أهمية ودور الـCIA بعد الحرب الباردة، ومدى كفاءتها في التصدي لخطر الإرهاب المعاصر.

■■■

عــــــــروض مــــوجــــزة

كتب عربية

من عرابى إلى عبدالناصر

صلاح منتصر

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ١٦٢صفحة



زيارة جديدة للتاريخ يقوم بها المؤلف بمناسبة مرور ٥٠ عامًا على ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو يرى أن جذور هذه الثورة لم تبدأ مع حركة الضباط الأحرار، وإنما قبل ذلك بعقود، حين بدأت عمليات الحفر في قناة السويس، وبسبب هذه القناة صارت مصر مطمعًا للمستعمرين الأجانب.

بسبب القناة تدخل الأجانب في شئون مصر، واستدان الخديوى سعيد لأول مرة فى تاريخ مصر، إذ اقترض من أحد البنوك الإنجليزية ٣,٤ مليون جنيه، كان ذلك في عام ١٨٥٩.. وقد حصل السماسرة على ٢٠٠ ألف جنيه عمولة عن هذا القرض مما جعلهم يسهلون حصول إسماعيل على القروض فيما بعد ليبلغ حجم ما اقترضت مصر في عهده ٩١ مليون جنيه، وهو ما يوازى أكثر من ٢٠ ضعف ميزانية البلاد فى ذلك الوقت، وحينما تأزمت الأمور بين إسماعيل والأجانب تسببوا في عزله ليتولى ابنه توفيق، وفي عهد توفيق استمرت الأمور في السوء حتى حدثت ثورة عرابى وأعقبها الاحتلال الإنجليزى، ويتوالى كفاح الشعب المصرى من عرابى إلى مصطفى كامل إلى محمد فريد ثم ثورة المصريين الكبرى التى قادها سعد زغلول ونشأة الوفد المصرى الذى قاد نضال المصريين حتى جاءت حركة الضباط الأحرار.

المؤلف في خضم ذلك كله يتعرض لحوادث عديدة ذات صلة بما كان يجرى في مصر والعالم في تلك السنوات، منها الحرب العالمية الأولى وتأثيراتها على الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد الواقعة تحت الاحتلال ومنها مصر، كما يتعرض للجهود السلمية التى بُذلت لنيل الاستقلال ومنها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، والمفاوضات التى قادها سعد وزملاؤه مع الإنجليز، ومعاهدة ١٩٣٦ التى وقعها خليفة سعد زغلول في زعامة الوفد مصطفى النحاس باشا ثم ألغاها في وزارته الأخيرة. كما يتعرض لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى حاصرت فيه الدبابات الإنجليزية قصر الملك فاروق وأجبرته على إعادة حكومة الوفد كى تحقق الاستقرار في البلاد، ويصل بنا إلى قرارات تقسيم فلسطين في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وحريق القاهرة في يناير ١٩٥٢. وقد كانت جميعها مقدمات لثورة يوليو ١٩٥٢.

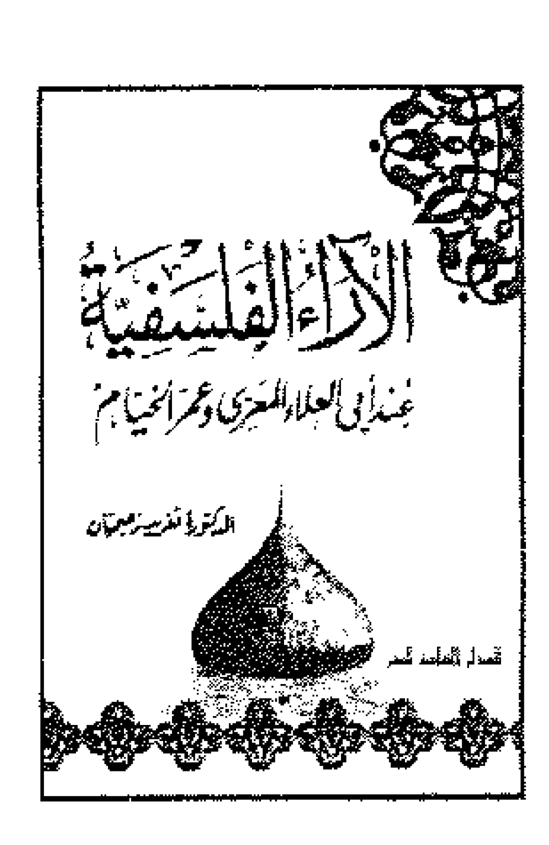
بعد ذلك يواصل المؤلف استعراضه ـ الذى لا يخلو من تقييم ونقد ـ لمجمل الأوضاع التى سادت بعد يوليو ١٩٥٢ وانعطافاتها الكبرى مثل قرارات التأميم والإصلاح الزراعى والعدوان الثلاثى في ١٩٥٦، وقوانين يوليو الاشتراكية في بداية الستينيات، وعزل اللواء محمد نجيب وما أشيع بشأن انتحاره أو قتله، انتهاء بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وإعلان عبدالناصر التنحى ورفض الأمة ذلك، كما يحلل المؤلف بعض العقد التى حكمت عبدالناصر وأوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه.

□ □ □

الآراء الفلسفية عند أبى العلاء المعرى وعمر الخيام

تغريد زعيميان

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٣



يقارن الكتاب بين آراء الشاعرين الفلسفية والفكرية التى انطوت عليها قصائد كل منهما، بما يؤكد التفاعل المثمر بين الحضارتين العربية والفارسية، وأثر اللغة العربية في اللغة الفارسية، ونحن نعرف أن واحدًا من أبرز شعراء الفارسية ونعنى به سعدى الشيرازى، أبدع باللغتين معًا، لكن ذلك لم يمنع آخرين من شعراء الفارسية مثل عمر الخيام من الاستفادة من العربية بوصفها لغة القرآن، وتتبدى آثارها على إنتاجهم بالفارسية.

تؤكد المؤلفة على وجود تشابهات عديدة بين الشاعرين، في الصفات مثلاً كلاهما كان جادًا حازمًا لا يحب المزاح، كلاهما كان ذكيًا عطوفًا ودودًا، كلاهما كان يأبى التكسب بالشعر، برغم أن ذلك كان يمكن أن يحيل حياتهما إلى سعادة ونعيم مقيم، كلاهما أيضًا كان يؤمن بالعقل ويحتكم إليه في كل مسألة، دون أن ينقص ذلك من إيمانه وقدريته.

وعلى مستوى آخر، فالشاعران كلاهما لم يتزوج، وكانا يذمان الدنيا ويحقرانها ويدعوان الناس للتفكير بالموت وعُقبى الإنسان.

أما وجوه الاختلاف، فمنها أن المعرى في قصائده اعتبر الخمر منشأ الشرور والآفات، وكان يذمها ويحذر شربها، أما الخيام فكان يرى فيها راحة وهناءً ونسيانًا للهموم.

والكشف المهم الذى تشير إليه المؤلفة أن كثيرًا من الرباعيات المنسوبة إلى عمر الخيام ليست من نظمه، وإنما من نظم رجل آخر عاش في عصره اسمه على الخيام، وليس عمر الخيامى (وهو الاسم الحقيقى لشاعرنا وليس الخيام كما هو شائع). والباحثة ترجح أن تكون الأشعار التى قيلت في الخمر منحولة على عمر الخيامى ولا صلة له بها، أكثر من هذا فإن المؤلفة تؤكد أن الخيام لم يؤلف في حياته كلها سوى عدد قليل من الأبيات لا يتجاوز عشرين بيتًا، وهذا يعنى أن معظم الرباعيات المنسوبة إليه ـ إن لم تكن كلها ـ لا صلة له بها.

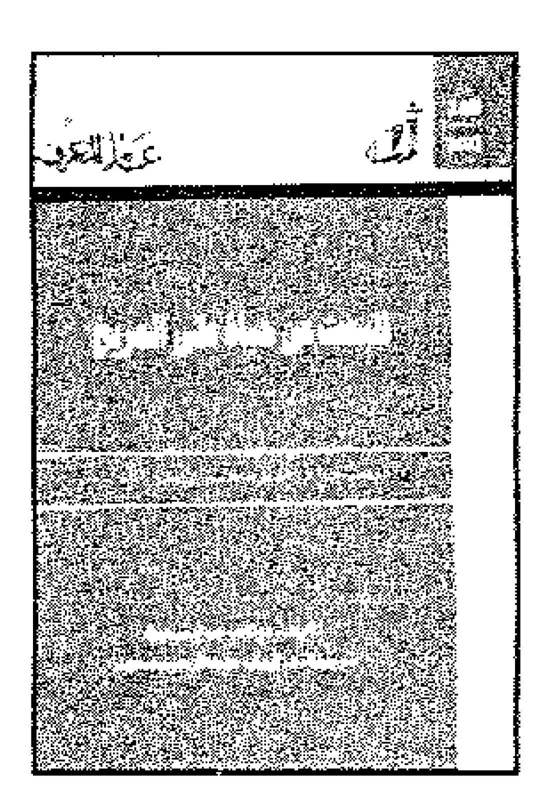
□ □ □

البحث عن حياة على المريخ

دونالد جولد سميث

ترجمة: إيهاب عبدالرحيم محمد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٧٧ صفحة



في أغسطس ١٩٩٦، أعلن علماء وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» أن حجرًا «نيزكيًا» سقط على الأرض من المريخ، وترك آثارًا تدل على وجود نوع بدائى من الحياة هناك، ومثّل هذا الإعلان أول دليل على وجود حياة أخرى خارج كوكبنا الأرضى.

المؤلف يعيدنا إلى هذا الاكتشاف من جديد، ويخبرنا بالقصة الكاملة، ويمحص الأدلة العلمية ووجهات النظر المتباينة في الموضوع.

من بين الحقائق التى ينبه إليها المؤلف أن المريخ البدائى كانت به وفرة من المياه السائلة، وغلاف جوى أكثر سمكًا بمئات الأضعاف مما هو عليه الآن، وقد كان المريخ البدائى أكثر رطوبة وأكثر دفئًا من حالة المريخ الآن، فقد اختفى ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء من الغلاف الجوى للمريخ، مما أحدث تأثيرًا مأساويًا في بيئته، لكن السؤال الذى مازال مطروحًا بين العلماء بقوة هو: هل اختفت الحياة تمامًا على كوكب المريخ أم أن الحياة وجدت أماكن قليلة تلوذ بها فيه، في انتظار اكتشافنا لها؟

للإجابة عن هذا السؤال أرسلت عدة سفن فضائية لتدور حول المريخ أو تلتقط صورًا لسطحه، لكن النتائج جاءت مخيبة للآمال، لكن ذلك لم يمنع ناسا من السعى بقوة لجلب عينات منه لتحليلها برغم أن رحلة جمع صخور وتراب من المريخ تتكلف حوالى ٣٠٠ مليون دولار، ويتوقع المؤلف أن يهبط الإنسان على المريخ إن عاجلاً أو آجلاً.

والمؤلف برغم دعوته لنا أن نفكر بطريقة علمية، يقول أنه لا يوجد دليل قوى على وجود مجتمعات في كواكب أخرى.. «فالأدلة المقدمة لإثبات وجود زائرين لا أرضيين للأرض تتكون إما من ذكريات وملاحظات فردية، أو أدلة غير مقنعة».

ومن وجهة النظر العلمية فإن احتمال وجود حضارات متطورة في أماكن أخرى من الكون ليس مؤكدًا، لكنه مع ذلك يذكرنا باحتمالية وجود مواقع كثيرة يحتمل وجود حياة بها، وهذه الحضارات ستسعى للاتصال بأى جيران لها، وهو ما يشير إلى ضرورة أن تعمل البشرية على زيادة جهودها للاستماع إلى إشارات محتملة من أشكال ذكية من الحياة قد توجد حول النجوم الأخرى.

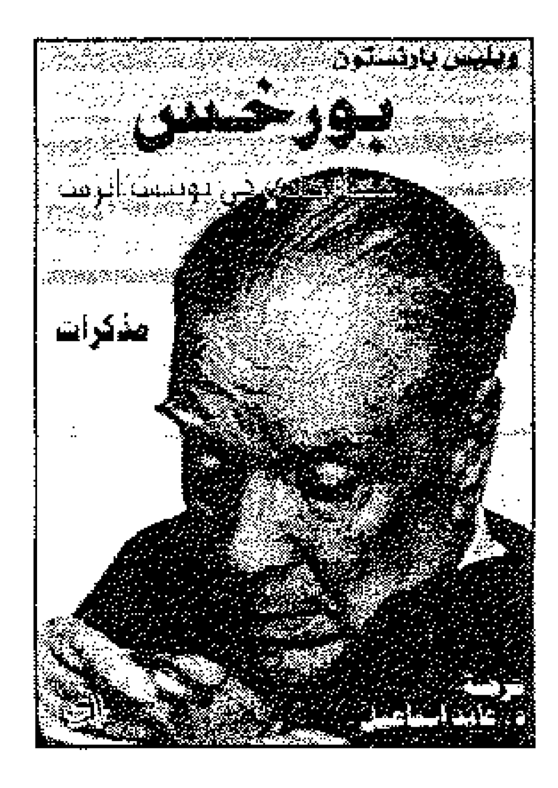
□ □ □

بورخيس
مساء عادى في بيونس آيرس

ويليس بارنستون

ترجمة: عابد إسماعيل

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢، ٣٠٤ صفحات



لأكثر من عشرين عامًا، رافق بارنستون الشاعر الأرجنتينى الشهير خورخى لويس بورخيس، ومكّنه هذا الاقتراب من معرفة الكثير عن حياة بورخيس وعاداته وصداقاته وأسراره، فضلاً عن آرائه في كثير من مجايليه من الشعراء وأيضًا السابقين عليه، وهى ذكريات حميمية، تمثل خلاصة حوارات ومساجلات عميقة وممتدة.

تكشف المذكرات عن رهافة بورخيس، وبصيرته النافذة برغم فقدانه البصر في عام ١٩٦٨، وقد منحه عمى البصر معنى آخر للوقت، ومستويات أبعد للوعى، وتداخلات رائعة بين الحلم والواقع، صبغت الكثير من أشعاره في هذه السنوات.

لسنوات طويلة كان بورخيس مثل كثير من مثقفى بلاده، مؤمنًا بشعارات النظام السياسى السائد في الأرجنتين، وشيئًا فشيئًا تكشفت الخديعة، فغادر هو وسادة النظام، واعتبر ـ من وجهة نظر

عـــــروض مـــوجـــزة

الحكم في بلاده - غير مشمول بالرعاية، لكن الشاعر عرف كيف يستمد قوة إضافية في كل انتكاسة، من بسطاء بلاده وفقرائها الذين يلاقونه في الشوارع بود وحب بالغ، وقد اعتاد هو أن يجوب شوارع «بيونس آيرس» بعصاه مستمتعًا بحديث مع أحد أصدقائه، أو منهمكًا في سجال مع العامة، وقد كانت هذه واحدة من متعه الأثيرة.

حين كان لبورخيس عينان - يقول المؤلف - كان يكتب عن شوارع ضبابية مكفهرة.. «وعندما اكفهرت عيناه، وضع الضبابية جانبًا وأعطانا رؤيته الواضحة للحاضر وبانوراما لماض حقيقي».

سأله المؤلف مرة: كيف تأتيك القصائد؟

فأجاب: أتجول وهي معي حتى تقوى عليّ، بعدئذ أمليها لأنني لا أستطيع أن أحتفظ بها في الظلام.

لا يحتفظ بورخيس - كما يذكر المؤلف - بأي كتاب ألّفه، ولا يقرأ كتبًا كتبت عنه، وهو مولع بانتقاد كتاباته وإبراز مواطن الضعف فيها.. «بما أنني أعرف بعض الأسرار حول العمل وحول خصمي (بورخيس).. فإننا يجب أن نجلس معًا ونصفي حساباتنا».

فيما يتصل بالنساء، فلم تكن لدى بورخيس علاقة عميقة مع أي منهن، باستثناء «ماريا فازكويز».. ومع ذلك كان يحبهن ويحب أن يبقى معهن بشكل دائم وأن يبادلهن الثقة والصداقة، مثلهن مثل الرجال.

□ □ □

كمال ويوسف

أثريان من الزمن الجميل

لؤى محمود سعيد

القاهرة: المجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٢، ١٥٠ صفحة



حين أسس الخديوي إسماعيل مدرسة اللسان المصري القديم، اختير عشرة من طلاب المدارس الثانوية للانضمام إليها كان من بينهم أحمد كمال الذي يعد واحدًا من مؤسسي علم المصريات، وقد شغل كمال مناصب عدة في مصلحة الآثار، وعاني اضطهادًا من الأجانب وسخرية من بعض المصريين الذين لم يكونوا بعد مقدرين لقيمة آثارهم، وقد توطدت الصلة بينه وبين علي مبارك باشا فشاركه في إنشاء روضة المدارس لنشر الوعي الأثري، وحاول في دراساته الربط بين اللغة المصرية القديمة وجذور اللغة العربية، وعمل على بث روح الوطنية المصرية بكتبه ومحاضراته، وحمل الحكومة على إنشاء متاحف إقليمية في أسيوط والمنيا وطنطا، وكان عضوًا بارزًا في المجمع العلمي المصري ومجمع اللغة العربية، وعضو شرف بالمعهد العلمي العربي في الشام، وقام بحفائر مهمة كشفت عن كثير من كنوز الحضارة المصرية استنادًا إلى مقدرته الفذة في الرسم الهندسي، إلى أن رحل في أغسطس ١٩٢٣.

أما أحمد يوسف مصطفى الذي ولد في عام ١٩١٢ بحي الدرب الأحمر بالقاهرة، فقد كان من أوائل وأبرع المرممين المصريين، وقد تفوق بدقته وفنيته على نظرائه من المرممين الأجانب، وإليه يعود الفضل في إعادة تجميع مركب الملك خوفو الذي اكتشف في عام ١٩٥٤ ووُجد مفككًا إلى ١٢٢٤ قطعة ولم يكن معروفًا شكله الأصلي، وأعمال الترميم التي قام بها الحاج يوسف - كما كان يلقب - لا حصر لها، وعشرات منها تشهد على مقدرته الخارقة، ليس في المتحف المصري فقط، وإنما في الإسلامي والقبطي كذلك، وقد رفض كثيرًا من الإغراءات لبيع رسوماته والصور التي التقطها بنفسه في مركب خوفو وغيره، وأصر على أن يهدي كتبه ودراساته وأرشيف صوره إلى هيئة الآثار المصرية.

□ □ □

رجل أبله.. امرأة تافهة

محمد ناجي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢



مطاردة يطلعك المؤلف على نتيجتها منذ البداية، انتصرت المرأة طبعًا، ونجحت في الإيقاع بالرجل الأبله بعدما نصبت شباكها بتؤدة وتدبير محكم.

لم يكن الصيد سهلاً، أبدى مقاومة قدر طاقته وعلى طريقة كهل يضع قدمًا أولى

«ثلاثية غرناطة».. مذاق المقاومة لا مرارة المراثي

لم تواتني الجسارة كي أكتب عن «ثلاثية غرناطة» - رواية رضوى عاشور التي سبق لها أن فازت بجائزة الرواية عام ١٩٩٤ من معرض القاهرة الدولي للكتاب، وفازت كاتبتها هذا العام عن «أطياف» وكامل «الثلاثية»، والتي صدرت طبعتها الثالثة أخيرا عن «دار الشروق».

ماذا أضيف بعد ما كتبه شكري عياد وعلى الراعي ولطيفة الزيات وجابر عصفور وصبري حافظ وفريدة النقاش وغيرهم من نقاد مصريين وعرب.

كان البديل أن أحاورها في أجواء الرواية وبواعثها ورسالتها والتحضير لها وتوثيق مادتها، خصوصاً وهي تتناول حقبة تاريخية مهمة، كان للمسلمين فيها مكان ومكانة.

وفاجأتني الدكتورة رضوى، أن ما أستفسر عنه وأكثر، تضمنته محاضرة ألقتها في أسبانيا في نهاية عام ٢٠٠٠، وتضمنه كتابها «صيادو الذاكرة» الصادر عن المركز الثقافي العربي في بيروت ٢٠٠١.

اختارت هي المقاطع التي ترد على استفساراتنا.. واخترنا نحن أن تكون هذه طريقتنا في الاحتفاء بها وبثلاثيتها.

عماد الغزالي

* «... لم تشغلني الأندلس التي بدت نائية وغائمة. وحين كتبت عنها لم تكن الكتابة اختيارا مسبقا ولا تحقيقا لحلم أو لولع بالموضوع، ولا تحايلا أو تقنُّعا، ولكن حدث ذات مساء أن أتتني صورة المرأة العارية التي بدأت بها بعد ذلك السطور الأولى من الرواية(...)، وأنا أتابع على شاشة التلفزيون قصف الطائرات لبغداد. الأرجح أن المشهد فتح بابا للذاكرة فالتقت بالمشهد مشاهد مثيلة: قصف الطائرات الإسرائيلية لسيناء عام ١٩٥٦ و١٩٦٧، قصف لبنان عام ١٩٧٨ و١٩٨٢، والقصف المتصل للمخيمات الفلسطينية ومدن وقرى الجنوب اللبناني. في ذلك المساء، وأنا أتابع أخبار قصف العراق (عام ١٩٩١)، رأيت المرأة العارية تقترب وكأنني أبو جعفر الورّاق في الرواية يشاهد في عريها موته. استبد بي الخوف وأنا أسأل: هل هو الموت الوشيك؟ وإن كان فأي علاقة أديرها الآن مع موتي؟ ومع السؤال داهمتني غرناطة فبدأت أقرأ».

* «... لم أكن أوثق لبحث في التاريخ الاجتماعي وإن اقتضى التوثيق جهدا قريبا من الباحث في هذا المجال. (...) ساعدني البحث التاريخي ومشاهدة العينين على التعرف على ملامح حياة جماعة بشرية عاشت قبل خمسمائة عام(...). كانت هذه المعرفة ضرورية للمشروع. الإطار العام لثلاثية غرناطة تاريخ موثق، كذلك الأحداث المفصلية الواقعة بين عام ١٤٩١ و١٦٠٩: توقيع معاهدة تسليم مملكة غرناطة، تسليم الحمراء، حرق الكتب، ثورة البيازين الأولى والثانية، التشتيت الجماعي لأهالي غرناطة ثم الترحيل النهائي لعرب الأندلس. كانت الوقائع التاريخية هي العنصر الأول بين عناصر التوثيق التي وظفتها في نصي ولكنها لم تكن العنصر الوحيد إذ أضيف إليها التاريخ الاجتماعي والثقافي: ملامح الملبس والمأكل والمسكن والحمام، الحكايات الشعبية والخرافات الدارجة، الفتوى الشرعية وعقد الزواج ووثيقة الصلح بين أسرتين متنازعتين... إلخ كلها دخلت في نسيج حياة متخيلة لشخصيات تفعل وتنفعل بمنطق نص معلق بين تاريخ مهمّش أعيدُ تشكيله، ورؤية امرأة تنتمي للنصف الثاني من القرن العشرين».

* «... أتساءل الآن إن كان العرب يلجأون إلي غرناطة حين تلح عليهم حاجتهم للمراثي. أذكّركم أن هناك تراثا من المراثي العربية يرتبط بفقد الأندلس وهو تراث يعود بنا إلى القرن الحادي عشر أسهم فيه المجهول من الشعراء والمعلوم منهم،(...). من هذه القصائد المبكرة إلى وقتنا الحالي تتصدر غرناطة / الأندلس كدال على الغربة والفقد. وبدرجات متفاوتة يتصدر أو يتوارى، وإن لا ينفي تواريه وجوده، وعي العبث واللاجدوى. وربما تختلف ثلاثية غرناطة عن ذلك الموروث الأدبي رغم ما فيها من مذاق المراثي لأنها لا تبكي فردوسا مفقودا، فلا حنين فيها ولا تغنّي بل انشغال بتقديم فعل المقاومة لجماعة بشرية، مقاومة جليلة وجميلة تركت علامتها الفارقة في الزمان. فالتاريخ صاحب حيلة ودهاء، له مساربه المراوغة ودياميسه الباطنية ومجاريه الجوفية، لا شيء يضيع، هكذا أعتقد».

عروض موجزة

على درب شيخوخته، هو صحفي اشتراكي يحمل هموما كبرى، دفع سنوات من حريته في السجون عربون صدق لشعارات صدقها، متخصص في شئون العالم الثالث، يسبح في ملكوت حريته دون قيد من أي نوع، أما هي فامرأة عادية الهموم تعمل في دار للمسنين. تعرفت عليه حين كان يزور أحد أصدقائه بالدار، لا تشغلها هموم الكون مثله، حياتها بسيطة، تعني كثيرًا بالتفاصيل التي يراها هو تافهة ومزعجة، ومنذ رأته قدّرت أنه الرجل المطلوب، مركز مرموق وسترة لا تحلم بأكثر منهما، امرأة جاوزت الأربعين دون أن يلفها ظل رجل، وبدأت المطاردة على هذا النحو: يريدها للفراش، وتريده زوجًا، وبعقد عرفي - تشترط - كي لا تفقد معاش أبيها، يعاند ويقاوم إلى حد تجريحها، وإهانة أنوثتها، لكنها لا تيأس وتواصل اللعبة للنهاية، موقنة أنها لن تخسر شيئًا، وتحرز هدفها في ماراثون طويل، وشيئًا فشيئًا ينسحب الرجل الأبله إلى تفاصيلها التي كان يراها تافهة، وحين يقول لها في النهاية: دائمًا تهتمين بالتفاصيل التافهة، ترد عليه: هذه هي الحياة أيها الأبله.

الرجل الأبله واجه انكسارًا ساحقًا قبل ذلك حين تهاوت شعاراته عن تنمية العالم الثالث وتحرير شعوبه بفعل ضربات العولمة «الأمريكاني» المتلاحقة، وحين رُفِضَت مقالاته التي لم ير فيها مدير التحرير الجديد ما يجذب قارئ مجلة تعني بالشئون العامة، ثم حين اكتشف بالتحاليل والأشعة ما صارت إليه حال كبده، سلّم بالهزيمة، للتافهة المنشغلة بالتفاصيل الصغيرة، تمامًا كما خارت قواه عندما اكتشف عدم قدرة شعاراته - التي دفع ثمن إيمانه بها مبكرًا جدًا - على الصمود في وجه التغيرات العاتية لزمن الكوكبة.

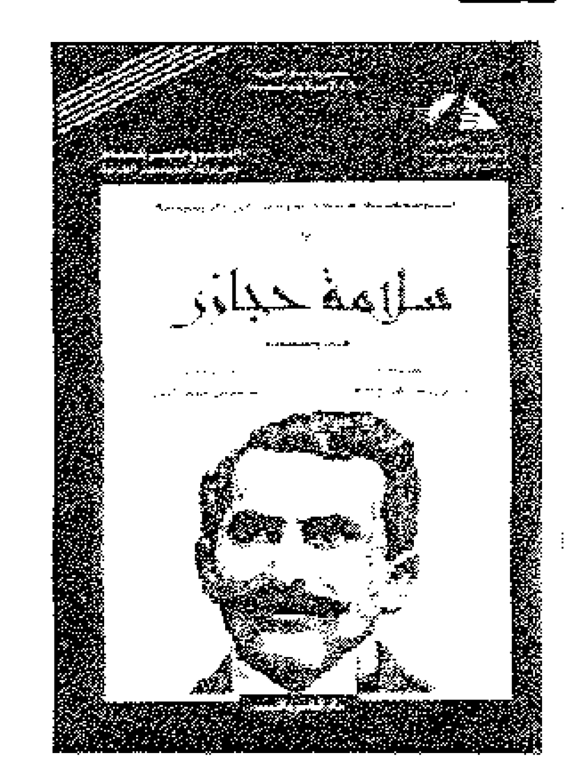
الرواية هي الخامسة للمؤلف بعد «خافية قمر» (١٩٩٤)، «لحن الصباح» (١٩٩٤)، «مقامات عربية» (١٩٩٩)، و«العايقة بنت الزين» (٢٠٠١).

□ □ □

سلامة حجازى

إعداد: إيزيس فتح الله

القاهرة: دار الشروق، المركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي ٢٠٠٢، ٢١٣ صفحة



يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة موسوعة أعلام الموسيقي العربية، وفي إطار مشروع أشمل للحفاظ على تراث الموسيقي العربية، ويشتمل على أبواب أربعة، يتناول الأول سيرة الشيخ سلامة حجازى رائد المسرح العربي، ويتضمن الثاني بيانًا بإنتاج الشيخ سلامة، ويخصص الثالث لأعماله الغنائية والمسرحية، ثم الرابع للأعمال المسرحية الغنائية التي برز فيها.

ولد سلامة حجازى في حي رأس التين بالإسكندرية لأسرة متواضعة في عام ١٨٥٢، وقد توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره فرباه جده لأبيه، وتعلم مبكرًا فنون الإنشاد بعدما حفظ القرآن الكريم وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم تعلم الكثير من النظم ووزن النغم على يد كبير منشدي القاهرة الشيخ خليل محرم، ولما ذاع صيته بدأ يغني على التخت وألّف جوقة من الموسيقيين أخذ يتنقل بها لإحياء الليالي والأفراح مما ساهم في اتساع شهرته.

وحين بدأت النهضة المسرحية المصرية في أواسط القرن التاسع عشر على يد صنوع ومارون نقاش ويوسف الخياط وزملائهم، أدرك الشيخ سلامة أن ثمة تجديدًا يمكنه أن يضيفه في هذا المجال، وبدأ مع زميليه عبده الحامولي ومحمد عثمان في البحث عن شكل هذا التجديد، وكان نجاح هذا اللون الجديد في رواية «مي وهوراس» التي قدمتها جوقة «الحداد والقرداحي» على مسرح دار الأوبرا الخديوية، بداية لانطلاقته في مجال التمثيل وتطوير المسرح الغنائي، كما كان حبه لـ«خديجة»، وهي من أسرة كريمة بالقاهرة، سببًا لخلعه العمامة وارتدائه الزي الأفرنجي، وأثمر هذا الحب عددًا من أعذب ألحانه وأجمل رواياته منها «أنيس الجليس» و«أبي الحسن» و«خليفة الصياد»، وكان تلحينه لـ«مجنون ليلي» ثورة جديدة في عالم الفن، وبعدما بدأ الشيخ العمل مع فرقة إسكندر فرح، وطلب من أنطون فرح ترجمة بعض الروايات التي قام الشيخ سلامة بالبطولة فيها، ثم مالبث أن انفصل عنه ليؤسس دار التمثيل العربي وارتحل بها إلى الشام وحقق هناك نجاحات كبيرة كما حقق نجاحًا مماثلاً في تونس.

وبعد هذا النجاح حدث تآلف بين فرقتي سلامة حجازى وجورج أبيض، وبرغم النجاحات الهائلة التي حققاها معًا، إلا أنهما انفصلا عام ١٩١٥، وبدأ الشيخ سلامة يقدم أعماله بجوقته على مسرح برنتانيا، ومزج في ألحانه بين موسيقات حضارات عديدة غربية وشرقية واستمر في عطائه إلى أن رحل في أكتوبر ١٩١٧.

وللشيخ سلامة حجازى عشرات الأعمال الغنائية الخالدة التي غناها أشهر مطربي عصره، كما كانت له تجديدات رائعة في الموسيقي العربية.

□ □ □

كتب أجنبية

Silent No More, Special needs People in Egypt

(لا صمت بعد الآن، أصحاب الاحتياجات الخاصة في مصر)

Lesley Lababidi in Collaboration

With Nadia El Arabi

Cairo: Auc Press, 168PP., LE. 80



الإعاقة لا تعرف حدودًا بين الدول والأعراق والديانات أو الخلفيات الاجتماعية. وقد ظل المعاقون لقرون طويلة ينظر إليهم بقية أفراد المجتمع على أنهم عالة عليهم، وغالبًا ما كان هؤلاء الأفراد وغير المحظوظين يتم تركهم للإهمال والمرض والموت إلا أن المدنية الحديثة أبدت اهتمامًا وإن كان متأخرًا بهذه الفئة من البشر التي تعرضت للحرمان الطويل. ومن دلائل هذا الاهتمام بين أمور أخرى تعميم اسم أصحاب الاحتياجات الخاصة على هذه الفئة بدلاً من اللفظ السلبي «المعاقون».

وقد اهتمت مصر في السنوات الأخيرة بهذه الفئة وتسارعت الجهود لتقديم الخدمات لتحسين نوعية الحياة التي تعيشها. وقد كرس هذا الكتاب فصوله للحديث عن جذور المشكلة ومحاولات علاجها.

وقد قدمت السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس حسني مبارك لهذا الكتاب.

يبدأ بمسح قصير للجهود الحكومية في توفير الخدمة الصحية للمعاقين وكيف أصبحت مصر من الدول الرائدة في العالم العربي في توفير برامج التعليم التنموي والخدمات ودعم المعاقين جسديًا وذهنيًا. ويشتمل الكتاب على سلسلة من اللقاءات مع مجموعة كبيرة من أصحاب الحاجات الخاصة وأسرهم ومدرسيهم وأطبائهم ومسئولي المدارس التي يتعلم فيها بعضهم. والجميع هنا يتحدث عن المشكلة وتأثيرها ومدى توفير المجتمع لاحتياجات المعاقين. إن هذه القصص مليئة بالغضب والإحباط وأيضًا الشجاعة والإقدام.. والأهم من ذلك أن كل متحدث لديه رسالة يتحدث فيها عن رؤيته لمستقبل مصر والتحديات التي تواجه المصريين.

□ □ □

Empire.. How Britain Made the Modern World

(الإمبراطورية.. كيف صنعت بريطانيا العالم الحديث؟)

Niall Ferguson

Allen lane, 2002, 392PP.

مؤلف هذا الكتاب أستاذ للتاريخ السياسي والمالي في جامعة أكسفورد، وكتابه هذا تجميع لسلسلة من ٦ حلقات وثائقية أعدها للقناة الرابعة في التليفزيون البريطاني ويتحدث فيها عن ٣٠٠ عام تقريبًا من سطوع شمس بريطانيا في العالم والتي وصلت إلى سيطرتها في وقت من الأوقات على ربع المعمورة تقريبًا. وهناك كثير من المؤلفات لمؤرخين عظام تتناول آثار هذه الإمبراطورية والبعض كرس جهوده لذكر وتعديد مساوئ وآثام الإمبراطورية لكن المؤلف فرجسون في كتابه يتحدث عن الجانب المضيء في تركة هذه الإمبراطورية وهو يعتقد أنه كثير.

يتحدث المؤلف عن كيفية بناء الإمبراطورية داخليًا أي في بريطانيا في القرن السابع عشر وكيف استطاعت بريطانيا تطوير نظام للدين الوطني تمكنت من خلاله من بناء أسطول ضخم وكيف أن شركة الهند الشرقية استطاعت من خلال انتشارها التجاري في شتى موانئ العالم استحداث نظام العولمة الذي يطلق عليه المؤلف «الأنجلو عولمة».

لكن المؤلف لا ينسى انتهاكات حقوق الإنسان التي حدثت من أجل بناء الإمبراطورية والحفاظ عليها. وهو تحدث عن تجارة الرق وعن معركة أم درمان الشهيرة عام ١٨٩٨ لاستعادة السودان من المهدية وكيف أن ١٠ آلاف سوداني قتلوا خلال خمس ساعات فقط بمدافع القائد البريطاني لورد كيتشنر. ويقول المؤلف إن السؤال هو: هل كانت الإمبراطورية بلا خطيئة والإجابة لا بالطبع.. كما أن سؤالاً آخر يثور وهو: هل كان من الممكن أن تكون الدماء التي جرى سفكها لبناء الإمبراطورية والحفاظ عليها أقل والجواب في هذه الحالة نعم بدون شك.

لكن رغم ذلك كله يعتقد المؤلف أن الإمبراطورية البريطانية أضافت للعالم كثيرًا، ومن أمثلة ذلك اللغة الإنجليزية.. فكرة الحرية. ويشير المؤلف إلى أن الإمبراطورية البريطانية ضحت بنفسها خلال الحرب العالمية الثانية.. لصد الألمان واليابانيين. ثم يتساءل: هل تكفي

عــــروض مــــوجــــزة

هذه التضحية لتجعل ميزان حسنات تلك الإمبراطورية أكبر من ميزان سيئاتها؟

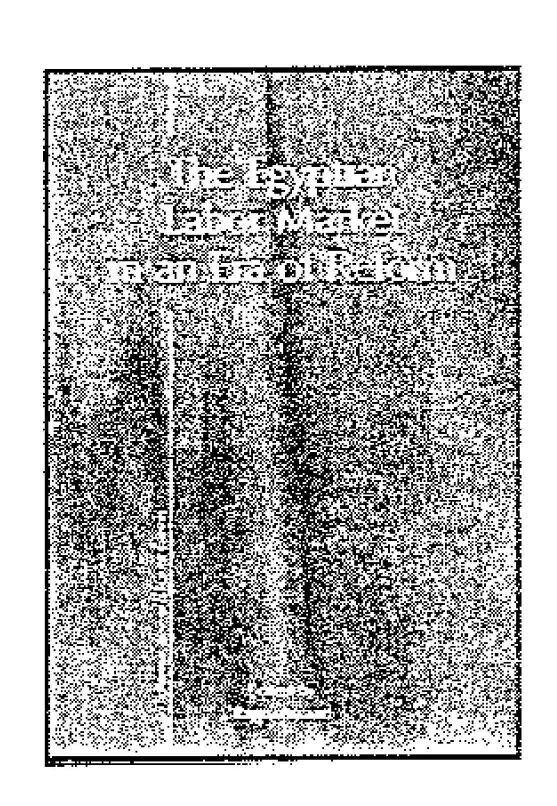
□ □ □

The Egyptian Labor Market in An era of Reform

(سوق العمل المصرية في عصر الإصلاح)

Edited by Ragui Assaad

Cairo-Auc Press, LE. 90



في عام ١٩٩١ أطلقت الحكومة المصرية برنامج الإصلاح الاقتصادى والتكييف الهيكلي وتضمن هذا البرنامج تحقيق الاستقرار المالي وإصلاح القطاعات المالية والتجارية ونظام أسعار النقد وكذلك خطة طموحة للخصخصة.

وقد حقق البرنامج نجاحًا ملحوظًا في بداياته خاصة علي صعيد الإصلاح النقدي، كما تم البدء في خصخصة كثير من الشركات المملوكة للدولة وبيعها للقطاع الخاص إلا أن عديدًا من العوامل بعضها داخلي والآخر خارجي ساهمت في تعرض البرنامج لمشاكل خاصة في السنوات القليلة الماضية.

في هذا الكتاب يتحدث المؤلفون عن تأثير البرنامج الإصلاحي على سوق العمل في مصر، وهناك عديد من المقالات المبنية على أساس مسح واسع النطاق تم إجراؤه عام ١٩٩٨ وكذلك دراسة سابقة تعود لعام ١٩٨٨. وترصد كل هذه المقالات التغيرات التي حدثت لسوق العمل بعد تثبيت برنامج الإصلاح الاقتصادي والهيكلي مقارنة بالوضع السابق اعتمادًا على دراسة ١٩٨٨.

ويتناول المؤلفون التغيرات التي حدثت في العرض والطلب في سوق العمل خاصة الدور الذي قام به القطاع الخاص في خلق فرص عمل وكذلك الجماعات التي استفادت من النمو في سوق العمل. وتدرس المقالات التي يتضمنها الكتاب أيضًا التحولات في الأجور والمرتبات وعمالة الشباب والمرأة وكذلك عمالة الأطفال، كما تحلل دور القطاع غير الرسمي في خلق فرص العمل، والمدى الذي أصبحت بمقتضاه سوق العمل لا تعتمد على الدولة خلال تلك المدة.

وكما يشير الكتاب فإن هذه القضية المهمة لم تحظ بالدراسة المعمقة حيث مازالت المعلومات الموثقة حول تأثير برنامج الإصلاح الاقتصادي على سوق العمل غير معروفة على نطاق واسع.

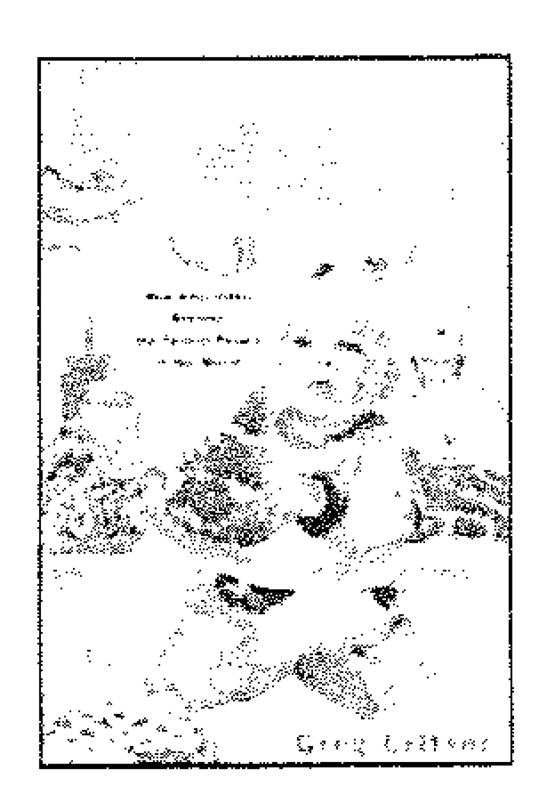
□ □ □

Fat Land.. How American Became the Fattest People in the World

(الأرض البدينة.. كيف أصبح الأمريكيون أكثر شعوب العالم بدانة)

Greg Critser

Houghton Mifflin, 2002, 232PP., $24.00



في الولايات المتحدة يموت أناس بسبب شراهة الأكل أكثر من الذين يموتون بسبب ندرته.. هكذا كتب العالم الاقتصادي جون كينث جالبريث في «مجتمع الوفرة» الذي أصدره عام ١٩٥٨. ومنذ ذلك الوقت فإن الناس يزدادون بدانة إلى درجة أن الخدمات الصحية ذات العلاقة بأمراض البدانة تكلف الأمة الأمريكية حوالي ١٠٠ مليار دولار في العام.

ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى أن ٦١٪ من الأمريكيين يعانون من زيادة في الوزن بدرجة يمكن أن تؤدى إلى تعرضهم لمشاكل صحية.. كما أن ٢٥٪ من كل الأمريكيين تحت ١٩ عامًا وهذا الرقم في زيادة مستمرة. إن ما سبق من أرقام وإحصاءات تمتلئ به الصحف والمجلات الأمريكية لكن المؤلف نجح في تجميع تلك المعلومات وتحليلها والخروج بنتائج حول المشكلة.

ويقول المؤلف إن الموجة الحديثة من البدانة في المجتمع الأمريكي تعود إلى فترة حكم الرئيس الراحل ريتشارد نيكسون في السبعينيات عندما تحقق فائض كبير في إنتاج القمح، الأمر الذي دفع لاستخدامه في إنتاج الحلويات وإضافة إلى تناول الأمريكيين بكثرة للكوكا والبيبسي فإن من السهل توقع نتائج كل ذلك.

إن النغمة السائدة في الولايات المتحدة لدى نسبة كبيرة من الناس هي أنه من الممكن تناول أطعمة كثيرة مادامت منخفضة الدهون، وقد دفع ذلك هؤلاء الأشخاص إلى تناول كميات كبيرة من الأطعمة باعتقاد أنهم لن يعانوا من البدانة.. وهو ما حدث عكسه.. ثم جاءت موضة مراكز الرشاقة والرياضة لتغرى نسبة كبيرة من الأمريكيين بإمكان التخلص من هذه المشكلة التي باتت تشغل بال كثير من الأمريكيين ولا يكاد يخلو مبنى كبير أو عمارة سكنية أمريكية من مركز من هذه المراكز التي تحقق أرباحًا طائلة نظرًا لأنها تعمل على إقناع المواطن الأمريكي العادي بأنه سيحصل على ما يفتقده: الرشاقة، السلامة الجسمانية، طول العمر. لكن ذلك أيضًا لم يحقق النتائج المرجوة والدليل هو زيادة نسبة المصابين بالبدانة في الولايات المتحدة. والظاهرة الأسوأ كما يقول المؤلف هي أن نسبة متزايدة من الأطفال مصابة بالبدانة.

□ □ □

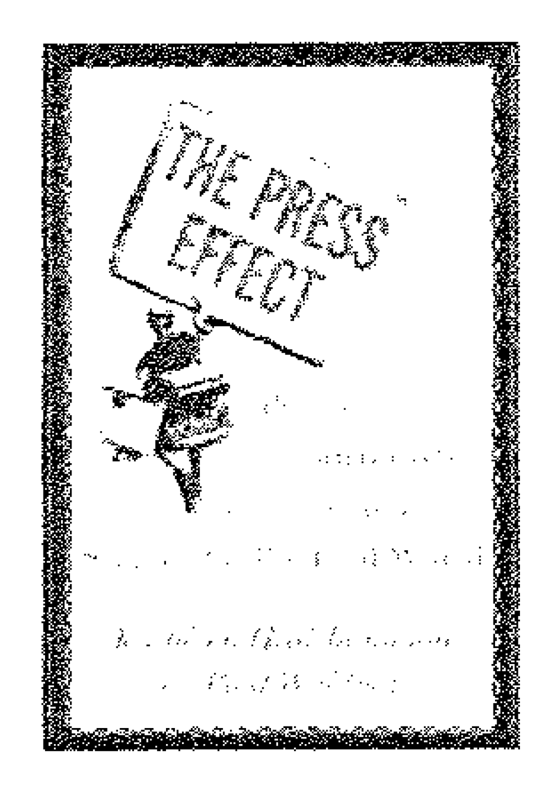
The Press effect.. Politicians Journalists and Stories that Shape the Political world

(تأثير الصحافة.. السياسيون، الصحفيون، والقصص الخبرية التي شكلت العالم سياسيًا)

Kathleen Hall Jamieson

Paul Waldman

Oxford University Press, 2002, 220PP., $26.00



يقول مؤلفا هذا الكتاب إن الصحافة في تغطيتها للأحداث واختيار ما يتم نشره من تقارير تشكل النتائج التي تحدث بعد ذلك، ويحاول المؤلفان وهما مدير مركز آنبرج للسياسة العامة في الولايات المتحدة ومساعد مدير المركز، إثبات هذه الفرضية من خلال تحليل معمم للطريقة التي غطت بها الصحافة الأمريكية الحملة الانتخابية لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٠ ومشكلة التصويت في ولاية فلوريدا ثم الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر.

ويجادل المؤلفان بأن الصحافة تعيد تنظيم الحقائق في أشكال معينة بحيث يكون من الصعب على القراء بعد ذلك أن يتعرفوا على حقيقة الأحداث التي وقعت بشكل دقيق. إن الصحافة الأمريكية، على سبيل المثال، جعلت الصفة الأساسية لنائب الرئيس الأمريكي السابق آل جور، خلال الحملة الانتخابية الرئاسية عام ٢٠٠٠، أنه ضعيف أمام القصص الخبرية التي يمكن أن تجعل صورته أفضل بمعنى أنه مستعد لابتكار أى خبر أو موضوع لإثبات أنه الأفضل، أما انطباع الصحافة عن جورج بوش الابن المرشح الجمهوري في الانتخابات (والرئيس فيما بعد) فهو التشكيك في ذكائه وخبرته لكي يكون رئيسًا.

إن هذا التصور من جانب الصحافة لآل جور جعل الجمهور ينظر إليه على أنه غير أمين وربما كاذب أما بالنسبة لبوش فكان الأمر يتعلق بمدى قدراته واستعداده. ويشير الكتاب إلى أن إعلان آل أنه لعب دورًا مهمًا في التشريع الخاص بالإنترنت تحول بسرعة، في الصحافة، إلى القول بأن آل جور اخترع الإنترنت دون أن يكلف كثير من الصحفيين أنفسهم عناء التأكد من المعلومات الخاصة بعلاقة آل بالإنترنت كما ورد على لسانه هو. ولذلك جرى تثبيت عدم الأمانة بآل جور. والخلاصة أن هذه المعالجة الصحفية في الحملة الانتخابية الرئاسية خدمت بوش وأضرت بآل جور.

ويوضح المؤلفان أن أوضح مثال على دور الصحافة هو الخلاف حول نتائج التصويت في ولاية فلوريدا، ففي البداية أعلنت شبكات التليفزيون أن آل جور فاز ثم عادت لتقول أن بوش هو الذي فاز، ثم عادت لتقول أن آل جور يرفض الاعتراف بهزيمته، الأمر الذي جعل ملايين الناس يعتقدون أن جور يحاول أن يحرم بوش من انتصاره، وهو ما أحسن الجمهوريون استغلاله ورسموا جور على أنه خاسر لا هدف له سوى تقسيم البلاد لكي ينتصر.

ويشير المؤلفان إلى تغطية الصحافة والإعلام لأحداث ١١ سبتمبر وما بعدها، الأمر الذي يجعل القارئ للكتاب يشعر أن العلاقة بين الرأى العام والصحافة معقدة إلى حد كبير. فالصحافة ومنظمات الإعلام بدأت عقب الأحداث أكثر انتقادًا لأسلوب إدارة بوش في الرد على الهجمات الإرهابية وعلى معالجتها بشكل عام للأزمة، إلا أن هذه المؤسسات خففت موقفها بعد ذلك بعد أن فوجئت بسيل من رسائل الفاكس والمكالمات التليفونية تهاجمها على موقفها من إدارة بوش.

لقد كانت الإجراءات الشديدة التي اتخذتها إدارة بوش في نظر الصحافة اعتداء على الحريات الخاصة للمواطنين لكن شعبية بوش التي وصلت إلى رقم قياسي في الفترة التي أعقبت الأحداث جعلته أكبر من أي انتقاد.

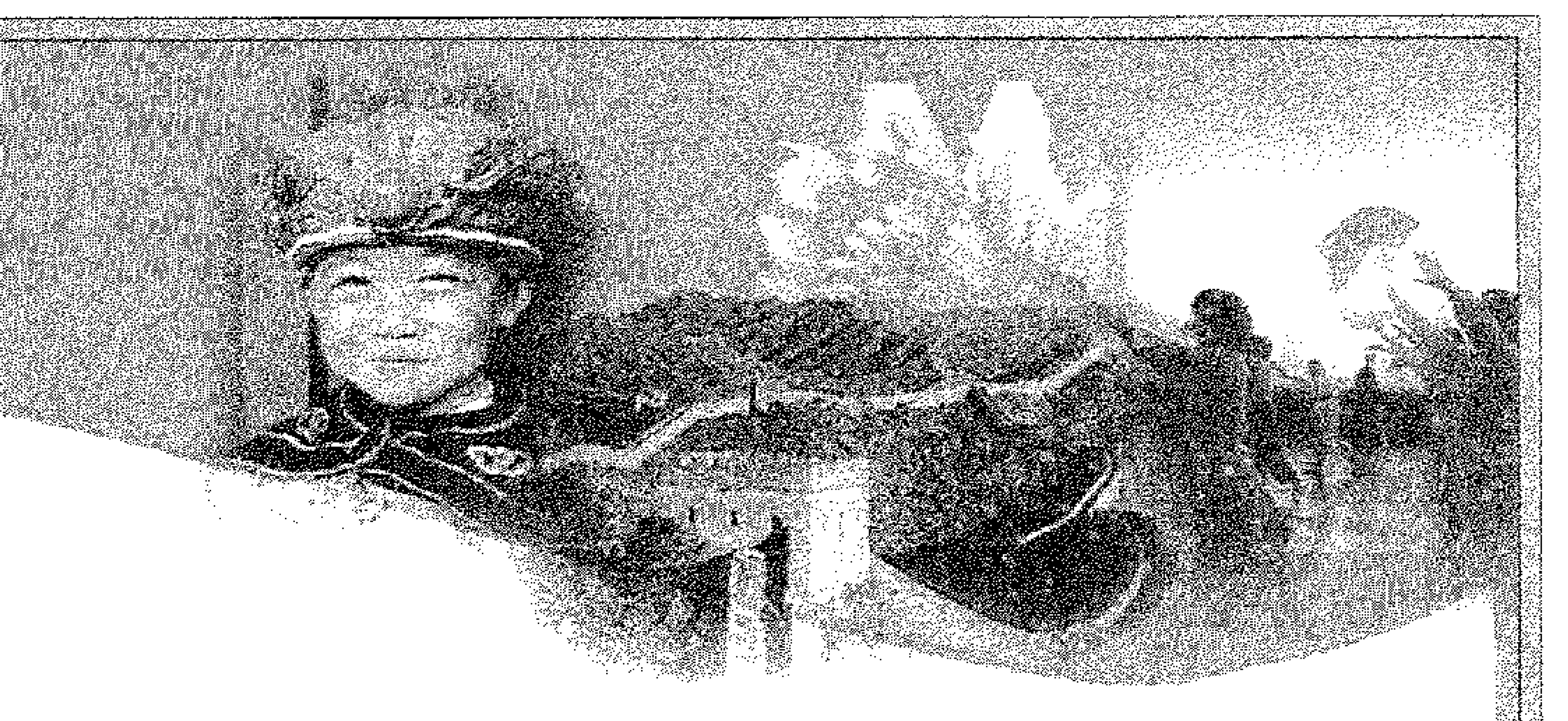
إن القضايا التي اتخذها الكتاب مثارًا للنقاش وهي حملة انتخابات ٢٠٠٠ ونتائج التصويت في فلوريدا وأحداث ١١ سبتمبر قضايا في غاية الأهمية وقد أحدثت استقطابًا شديدًا في المجتمع الأمريكي، ولذلك جاء اختيارها بالغ التوفيق.

لكن مشكلة هذا الكتاب هي أنه يغفل دور شركات الإعلام العملاقة في تشكيل الخبر وتحويره بينما يركز على دور الصحفي أو رجل الإعلام. إن الصحفي قد يكون له دور لكن في عصر مؤسسات الإعلام العملاقة فإن تدخل إدارات هذه المؤسسات يلعب دورًا كبيرًا في الشكل النهائي للمنتج الإعلامي، ثم إن هناك فرقًا بين الإعلام المرئي والصحافة المطبوعة ووضع الكل في «سلة واحدة» دون تمييز ربما يفتقر للموضوعية.

□ □ □

وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية





الصين

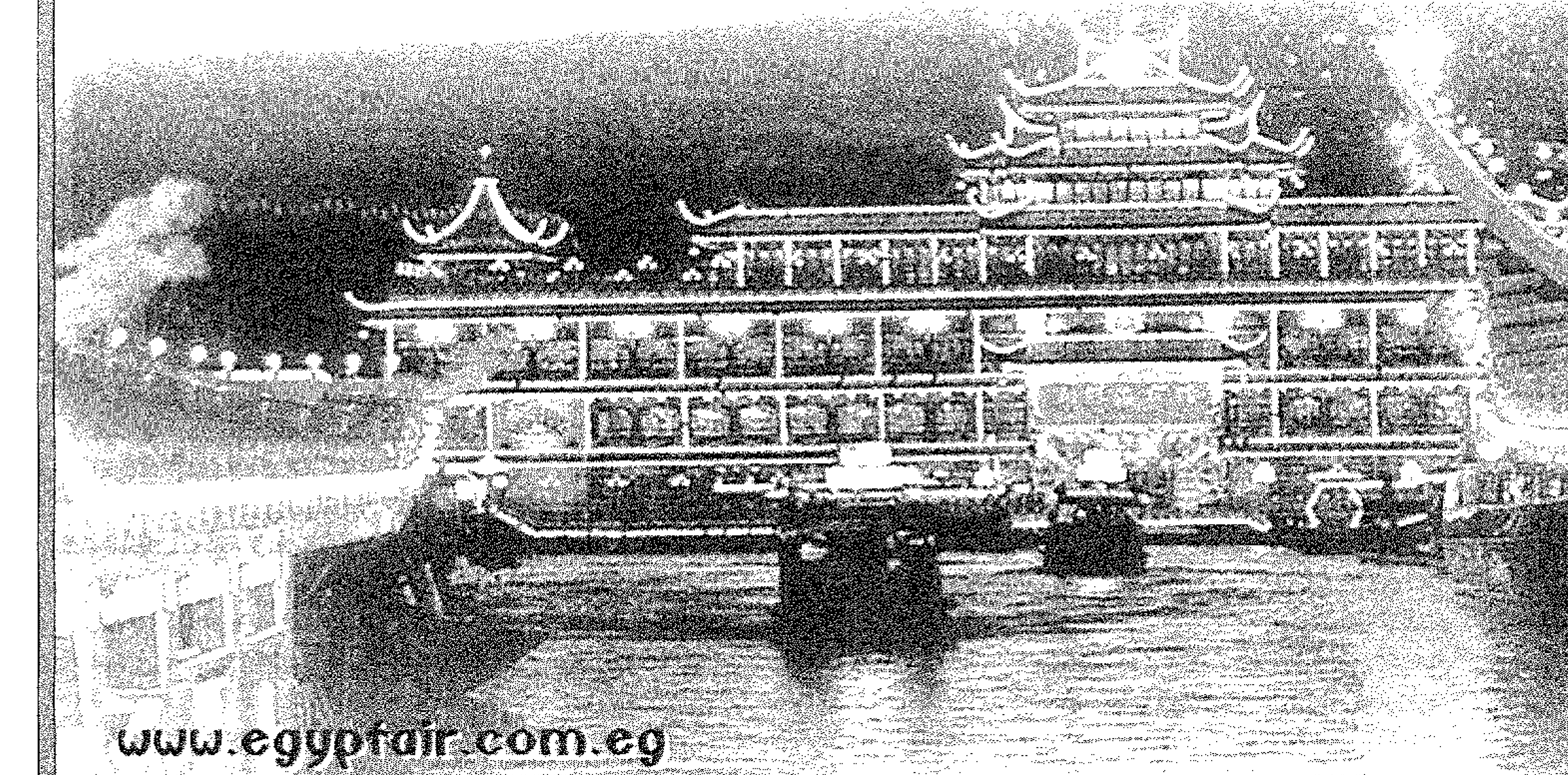
خط جديد .... و رحلة جديدة

مع مصر للطيران

حالياً

القاهرة / بكين / القاهرة

الثلاثاء و الجمعة
بأحدث طرازات الطائرات



www.egyptair.com.eg

دعـــــوة

الأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل..

إن الانتقال من مرحلة كنت ألهث فيها للحصول على ما تكتبون، مع ضعف وضيق في الحالة المعيشية لا يسمح بأكثر من تامين ضرورات الحياة الصعبة، إلى الطموح في مخاطبتكم والكتابة في دورية رائعة تشرفون عليها، يجلب الرهبة، لشعوري أنني لست أمام شخص عادي، إنه أحد أبرز الأساتذة الذين تعلمت منهم، وأحد أبرز رجال الصحافة والفكر، والسياسة أيضًا، ليس في الوطن العربي فقط، بل في العالم.

أستاذي الفاضل، لقد أثبتت مجلة «وجهات نظر» ، حضورًا لافتًا، ودورًا مهمًا في خدمة الثقافة العربية، نرجو أن يمتد وينمو، وهذا ما دفعني إلى إرسال مساهمتي المرفقة للنشر في المجلة، راجيًا أن أكون عند حسن ظنكم وظن القراء. هذا علمًا أنني قد نشرت الكثير من المواد الثقافية الفكرية.. أستاذي الكريم، أرجو إعلامي عن مصير المادة المرسلة فيما إذا كانت ستنشر لديكم أم لا، بالتالي فإنني وأنا أعبر عن سعادتي بالتواصل معكم، أريد القول أنني أولاً وأخيرًا قارئ يجهد للحصول على ما يقرأ، وكتاباتكم من أحب ما أرغب بقراءته.

لكم أصدق تمنياتي بالصحة والسعادة.

حسن إبراهيم أحمد
سورية - جبله - قرية بعبده

* الرسـالة وصلت.. ونشكرك.. ويشكرك الأستاذ هيكل الذي يعتبر نفسه صديقًا للمجلة ويصر على ألا يزيد دوره عن هذا الحد. وفي كل الأحوال ترحب وجهات نظر بجميع ما يرد إليها من مقالات سواء عن طريق البريد العادي أو الإلكتروني أو باليد، وهي دائمًا تلقى الاهتمام الكافي وتأخذ مسارها الطبيعي إلى لجنة قراءة للتحقق من تلبية المادة المرسلة لمعايير النشر في وجهات نظر.



ملاحظـــات

لي ملاحظات على ثلاث مقالات نشرت بالمجلة في الشهور الأخيرة. المقال الأول بعنوان (الشيوعيون المصريون وثورة يوليو) للأستاذ محمد سيد أحمد المنشور في عدد أغسطس٢٠٠٢ حيث ورد في صفحة ٢٥ من المقال إشارة إلى «وصول خروتشوف بالباخرة إلى الإسكندرية لافتتاح السد العالي في أغسطس ١٩٦٤» (على حد قوله). والصحيح هو أن خروتشوف وصل إلى الإسكندرية في مايو - وليس أغسطس ١٩٦٤، وذلك لحضور الاحتفال بانتهاء المرحلة الأولى من السد العالي، وهي تحويل مجرى نهر النيل في أسوان.

المقال الثاني بعنوان (تاريخ الآثار المصرية.. علم.. ونفوذ.. وسرقة.. وصراع!) للدكتور رشدي سعيد، والمقال الثالث بعنوان (كيف تحرر علم الآثار المصرية من السيطرة الأجنبية) للدكتور رءوف عباس، وكلاهما منشور بعدد ديسمبر٢٠٠٢. يقول الدكتور رشدي (صفحة ٤٨) إن المتحف القبطي افتتح رسميًا عام ١٩٤٦ وبحضور الملك فاروق، في حين يذكر دكتور رءوف (صفحة ٥٢) إن المتحف افتتح عام ١٩١٤. فأي التاريخين هو الصحيح..؟

د. شعبان عبد العزيز عفيفي
كلية الدراسات التجارية - الكويت

* تم افتتاح المتحف القبطي في عام ١٩٤٦م. أما التاريخ الذي ورد في مقال الدكتور رءوف عباس فهو خطأ مطبعي تأسف المجلة لحدوثه.

المحــرر



اللواء حسن فريد

الأستاذ هيكل..

بالإشارة إلى فقرة وردت في مقالكم الأخير (عدد يناير٢٠٠٣) كان اللواء حسن فريد هو الذي يتولى رئاسة الأركان وقت قيام ثورة ٢٣ يوليو.

لواء إبراهيم شكيب
دكتور مدحت القرشي

وجهات نظر:

الملاحظة صحيحة.. وكان الأستاذ هيكل قد طلب فعلاً إجراء التعديل اللازم في الفقرة المعنية على الكتاب الذي يصدر هذا الشهر متضمنًا مجموعة مقالاته تلك تحت عنوان «سقوط نظام.. لماذا كانت ثورة يوليو لازمة».




أسطورة حرية الصحافة..
فى أمريكا

■ عندما ظهرت صورة أسامة بن لادن على شاشات الفضائيات لأول مرة، وهو يوجه رسالته إلى العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر بأيام قليلة، سارعت الحكومة الأمريكية فطلبت من مسئولى الشبكات التليفزيونية وكبار محررى الصحف الأمريكية وجميع وسائل الميديا فى الدول الحليفة فى الغرب، أن تمتنع عن إذاعة أو نشر أى شىء على لسان هذا «الشيطان المسلم»، بحجة أن رسائله يمكن أن تحمل تعليمات سرية مشفرة إلى أتباعه من تنظيم القاعدة المنتشرين فى جميع أنحاء العالم للقيام بعمليات إرهابية جديدة.

كانت هذه هى الخطوة الأولى، على طريقة تحول الإعلام الأمريكى من أحد أهم الرموز الرائدة التى حملت شعلة الدعوة إلى حرية التعبير وحرية الصحافة فى العالم، إلى رمز لأحدث الأساليب المعلوماتية وأكثرها دهاء فى كيفية خنق الأنباء وتشويهها وحجبها عن الرأى العام، من أجل تحقيق أهداف سياسية بعيدة المدى لا تقتصر على الرأى العام فى أمريكا وحدها بل تستهدف التأثير على العالم بأسره.. وذلك بحجة تعبئة طاقات الأمة الأمريكية فى الحرب ضد الإرهاب، والقضاء على «محور الشر» الذى يهدد الولايات المتحدة والغرب بالفناء، وتشكيل الرأى العام الأمريكى بما يساعد على تحقيق هذه الأهداف.

ويطلق أصحاب النظريات الأمريكية على أساليب حرب الدعاية التى انحدر إليها الإعلام الأمريكى، مايعرف باللجوء إلى «القوة الناعمة» Soft Power، وهى القدرة على الحصول على ما تريده عن طريق إقناع الآخرين باحتضان أهدافك.. فى مقابل «القوة الصلبة» Hard Power وهى اللجوء إلى استخدام أساليب الضغط الاقتصادى والقوة العسكرية لإجبار الآخرين على الرضوخ والإذعان. وفى رأى العصبة الحاكمة حاليًا فى البيت الأبيض والبنتاجون أن الحرب ضد الإرهاب تقتضى استخدام القوتين معًا، الناعمة والصلبة، بحسب مدى قرب الطرف الآخر أو بعده، وتصنيفه كعدو أو صديق طبقًا للمقولة السائدة بأن كل شىء مباح فى الحب والحرب!! وفى هذه الحالة فإن القوة الناعمة تنبثق من ثورة الإعلام والمعلومات والقدرة على تشكيلها، ومن الثقافة والفنون فى جميع صورها وألوانها. ولا حاجة بنا إلى القول بأن العالم يشهد الآن واحدة من أشرس المعارك التى تستخدم فيها «القوة الناعمة» لخدمة أهداف السياسة الأمريكية، سواء فيما يتعلق بالحرب ضد الإرهاب أو بالحرب ضد العراق، أو بالقضاء على محور الشر.



وفى كتاب صدر أخيرًا بعنوان «أسطورة حرية الصحافة» الذى كتب مقدمته الكاتب والروائى الأمريكى الشهير جور فيدال، يستعرض عدد من ألمع وأبرز الصحفيين الأمريكيين تجاربهم خلف الكواليس فى الصحف وشبكات التليفزيون، وعلى مر سنوات طويلة من العمل الصحفى.. وكلها تجارب قادرة على إثارة الدهشة التى قد تصل إلى حد الصدمة.. تكشف بجلاء عن السياق الذى تحركت الميديا الأمريكية من خلاله فى تغطية الأحداث التى وقعت فى أعقاب ١١ سبتمبر، حيث أغرقت وسائل الإعلام أو بالأحرى غرقت فى مستنقع من الأكاذيب وأنصاف الحقائق التى وظفت فى خدمة السياسة التى رسمها المسئولون فى البيت الأبيض.. أمة خيرة، ديمقراطية، مُحبة للسلام، تتعرض لهجوم مجموعة من الإرهابيين المجانين الأشرار، الذين يكرهون أمريكا لما تتمتع به من حرية ورخاء. وإزاء ذلك فلا بد من أن تستخدم أمريكا قدراتها العسكرية، وأن تتعقب المذنبين وتقضى عليهم.. وتهيئ نفسها لحرب تستأصل سرطان الإرهاب من جذوره وتقضى عليه. أما هؤلاء الذين لا يقفون إلى جانب أمريكا فى حربها العادلة - فى الداخل أو فى الخارج - فلا بد من اعتبارهم متواطئين يسرى عليهم ما يسرى على مرتكبى الجريمة.. واتخذت الصحافة الأمريكية موقفًا غريبًا: فلم تطرح سؤالاً واحدًا عن مدى استفادة أمريكا عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا من عسكرة الحياة الأمريكية وخوض الحرب. ولم تتساءل عن جدوى الحرب فى القضاء على الإرهاب أو إنزال القصاص العادل بالمسئولين عن أحداث سبتمبر. وهى تساؤلات وشكوك كان من الطبيعى أن تثيرها الصحافة الحرة فى مواجهة أى حكومة تقف على أهبة حرب عالمية فى ظل نظام ديمقراطى.

ويعزو الكتاب هذا الموقف المتخاذل للصحافة الأمريكية، وإذعانها الكامل لما تمليه عليها المصادر الرسمية، إلى الأوضاع المهنية التى فرضت على وسائل الإعلام الأمريكية منذ تم الفصل الكامل فى النصف الثانى من القرن العشرين بين السياسة التحريرية للوسيلة الإعلامية وبين النواحى التجارية. ثم غلبت بمرور الوقت الاعتبارات التجارية والرغبة فى الكسب - فى ظل المنافسة الحادة - على استقلالية الصحافة. وطغت هذه النزعة التجارية خلال العقود الأخيرة بدرجة مطّردة، فأصبحت تتحكم فى تحديد أولويات نشر القصة الصحفية وأيها يجب أن يحتل صدر الصفحة الأولى. وأدى تشابك المصالح بين السلطة التنفيذية وكبار رجال الأعمال والشخصيات المتنفذة فى المجتمع من ناحية وبين ما يمكن أن تجنيه الصحيفة أو شبكة التليفزيون من مكاسب من ناحية أخرى، إلى المساومة على أولوية الخبر الصحفى ومدى أهميته بالنسبة للرأى العام ومصالح الأغلبية. وبالتالى فقدت صحافة الخبر وفنون «التحقيق فى العمق» مواقعها المتقدمة التى تميزت بها الصحافة الأمريكية.



فى إطار هذا التطور وُلدت ونمت وترعرعت صناعة العلاقات العامة، التى برعت فى استخدام أساليب البيانات الصحفية المنمقة، والجماعات المدنية المصطنعة، والأخبار الجاهزة المعلبة، والشخصيات الإعلامية التى تقف على تخوم تقارب بين الإعلان والإعلام. وساد شعار قوى بأن «دور العلاقات العامة هو تهيئة الرأى العام لتخفيف آثار الديمقراطية» التى يمكن أن تتعرض للمخاطر بسببها المؤسسات الاقتصادية ورجال الأعمال الأثرياء.. وأصبحت القاعدة المعمول بها فى مهنة الصحافة: «إذا وافقت النخبة، أى الـ ٢ أو ٣ بالمائة من الطبقة العليا فى المجتمع وهى التى تملك رأس المال وتسيطر على المؤسسات الكبرى، على قضية ما، فلا ينبغى للصحافة أن تقترب منها بالنقد والتمحيص والتحقيق».

وبناء على ذلك تغيرت هياكل المؤسسات الإعلامية الأمريكية تغيرًا جذريًا خلال ربع قرن وعلى وجه التحديد فى العقد الأخير. فاندمجت عشرات بل مئات من الصحف وشبكات الإذاعة والتليفزيون الصغيرة فى مؤسسات إعلامية عملاقة من المؤسسات متعددة الجنسية، لا يزيد عددها على تسع أو عشر مؤسسات، تعد من بين أكبر ٢٠٠ مؤسسة فى العالم، وتغيرت تركيبة هذه الشركات الإعلامية الضخمة، فأصبحت تضم شبكات التليفزيون الرئيسية، وأهم المحطات الإذاعية، وقنوات الكوابل التليفزيونية، وستوديوهات الأفلام السينمائية، ومعظم دور نشر الكتب والمجلات.. أصبحت هذه المؤسسات تمثل إمبراطوريات إعلامية ضخمة، تسيطر على صناعة الصحافة والنشر والسينما والفيديو والكاسيت.. وكلها فروع إعلامية تخدِّم على بعضها البعض، وتخضع لقوى رأسمالية عاتية النفوذ والتأثير.



كان يقال عن الشعب الأمريكى قبل ذلك أن معلوماته عن العالم الخارجى مشوهة أو ناقصة، أما الآن فقد حجبت المعلومات عنه تمامًا. وتعتبر هذه المؤسسات الإعلامية الضخمة من أوائل المستفيدين من اتجاهات العولمة وانتشار نفوذ الإعلام الأمريكى خارج الحدود. ومن ثم لم يكن غريبًا أن يكون لشبكة C.N.N نشرة إخبارية للاستهلاك المحلى تخاطب الاهتمامات التى يحددها البنتاجون للرأى العام الأمريكى، وأخرى للأسواق العالمية التى يمكن أن تتابع السياسات الأمريكية بنظرة نقدية متشككة.

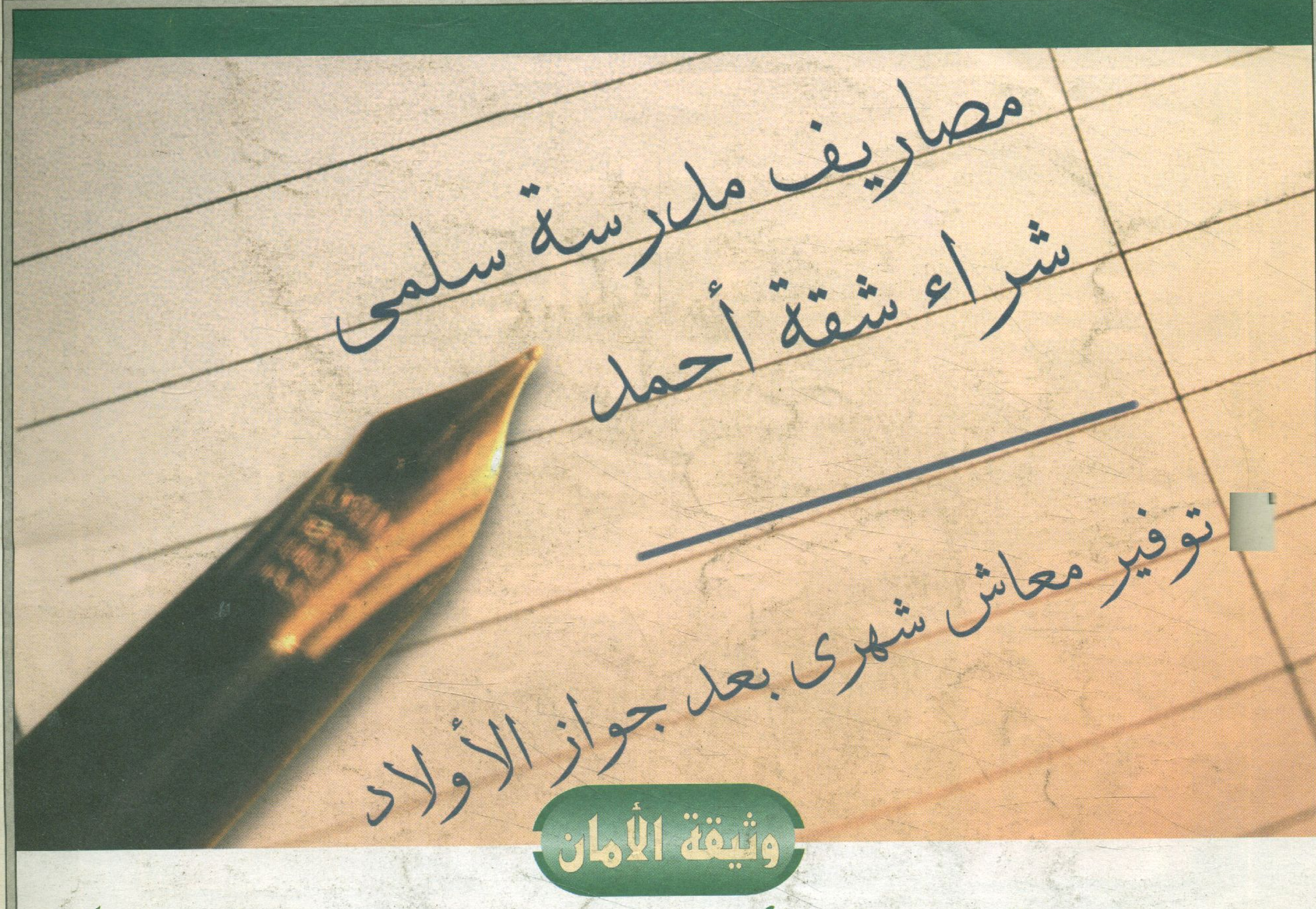
وعندما قام أكثر من مائة من أبرز وألمع نجوم هوليوود يوم ١٠ ديسمبر بمظاهرة احتجاج ضد الحرب على العراق، وعقدوا مؤتمرًا صحفيًا قرروا فيه إرسال خطاب مفتوح إلى الرئيس بوش يطالبون فيه بانتهاج الأساليب الدبلوماسية لحل المشكلة بدلاً من القوة العسكرية، تجاهلت الصحف الأمريكية نشر الخبر تمامًا. وشنت شبكتا C.N.N وفوكس هجومًا من السخرية والاستهزاء عليهم.

غير أن انتكاس الإعلام الأمريكى لم يعد مقصورًا على انحطاط الأداء الإعلامى للصحافة وشبكات التليفزيون الأمريكية، بل أخذت وزارة الدفاع الأمريكية تفكر وتنفذ حاليًا مشروعًا جديدًا للقيام بعمليات إعلامية مخابراتية، بهدف التأثير على الرأى العام وصناع القرار سواء فى البلدان الصديقة أو المعادية للولايات المتحدة.

وتبدو الفكرة تكرارًا لأساليب الدعاية التى استخدمت إبان الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب الباردة.. عن طريق القيام بعمليات سرية وتقديم تمويل سرى للتأثير فى المدارس والمساجد، وإغراء الصحفيين بكتابة مقالات تنسجم مع الأهداف الأمريكية، وتنظيم المظاهرات والتجمعات المؤيدة لأمريكا.

من الممكن أن يقال أننا فى عصر عولمة الديمقراطية. وأن حرية الصحافة والإعلام قد أصبحت نوعًا من العلاقات العامة. ولكن أحدًا لا يستطيع أن يدعى أن الديمقراطية الأمريكية هى النموذج الأفضل فى العالم.

سلامة أحمد سلامة



وثيقة الأمان

الحياة رحلة طويلة.. فأمن مستقبلك وخطط له جيداً.

اشترك الآن فى البرنامج الادخارى الجديد من البنك العربى "وثيقة الأمان"

الذى يساعدك على تلبية احتياجاتك المستقبلية. وتحصل من خلاله على عائد مغرى فى نهاية مدة الوثيقة .

مثال:

إدفع شهرياً مبلغ	وأحصل بعد ١٠ سنوات على مبلغ	أو أحصل بعد ٢٠ سنة على مبلغ
١٠٠ جنيه	١٨.٧٢٨ جنيه	٥٣.٣٤٥ جنيه
٢٠٠ جنيه	٣٧.٤٥٦ جنيه	١٠٦.١٩٤ جنيه
٣٠٠ جنيه	٥٦.١٨٤ جنيه	١٦٠.٠٤٢ جنيه
وفى حالة الوفاة "لا قدر الله" يحصل المستفيدون الشرعيون **فوراً** على كامل قيمة الوثيقة المستثمرة		

بالإضافة إلى المميزات التالية:

- مدة الوثيقة تتراوح من ٥ إلى ٢٠ عاماً بأقساط تبدأ من ١٠٠ جنيه شهرياً.
- إمكانية الحصول على العائد فى نهاية المدة على دفعة واحدة أو على دفعات لمدة تصل إلى ١٥ سنة.
- التأمين•• مجاناً على صاحب الوثيقة بكامل قيمتها.
- إمكانية الإقتراض بضمان الوثيقة.
- إمكانية إسترداد المبالغ المدخرة بعد مرور عام طبقاً لجداول الاسترداد.

لمزيد من المعلومات خصصنا لكم هذا الرقم الجديد

١٩١٠٠

فى خدمتكم ٧ ايام فى الأسبوع من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً

البنك العربى
ARAB BANK
رؤية جديدة

www.arabbank.com

• أحقية الحصول على الوثيقة ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربى.
•• يتم التأمين من خلال إحدى الشركات التابعة للهيئة المصرية للرقابة على التأمين

RESALA